نساء
أضاءن التاريخ



الكاملات الأربعة

وأفضل النساء

أسامة



د. أكرم رضا

موسوعة نساء أضأن التاريخ
المجموعة الأولى

الكاملات الأربعة وأفضل النساء

تأليف

د. أكرم رضا



الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

رضا، أكرم.
الكاملات الأربعة وخير النساء
أكرم رضا -ط١- القاهرة
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠٠٩ (٤٢٤ ص)، ٢٤ سم
تدمك: ٣- ٦١٦ - ٤٤١ - ٩٧٧
١- النساء - تراجم
أ. العنوان ٩٢٠,٧٢

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/٢٤٩١

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقـــرأ
للنشر والتوزيع والترجمة
١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط
القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٠٦٣٤٤٠٤٣ - ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣
Email:iqraakotob@yahoo.com



الكاملات الأربعة

إنهن أربع نساء ذكرهن التاريخ، وخلّد ذكرهن أن النبي ﷺ جمعهن في حديث واحد.

هؤلاء النساء الأربعة هن بالترتيب التاريخي:

آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ.

وقد تعددت الروايات التي ذكرتهن مجتمعات؛ ومنها الصحيح، ومنها الضعيف الذي أهملناه فتجمع لدينا من هذه الروايات بعض صفاتهن:

١ - أنهن «أفضل نساء أهل الجنة»[١].

٢ - «خير نساء العالمين»[٢].

٣ - «حسبك من نساء العالمين»[٣].

أما ما ورد عن رسول الله ﷺ أنهن أكمل النساء فقد اقتصر على مريم وآسية في الرواية الصحيحة والتي قال ﷺ فيها: **«كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»**[٤].

وأضيفت إليهما السيدة خديجة في رواية فيها ضعف[٥].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج١ (٢٥٣٦)، وانفرد به، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة ج (١٥٠٨) وقال: رجاله ثقات وفي صحيح الجامع ح (١١٣٥) وقال صحيح.

(٢) ذكره الألباني في صحيح الجامع ح(٣٣٢٨) وقال: صحيح.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب ج (٣٨١٣) وانفرد به، وذكره الألباني في صحيح الجامع ح (٣١٤٣) وقال: صحيح.

(٤) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء ح (٣١٥٩).

(٥) ذكرها ابن كثير في البداية والنهاية وقال: إسناد صحيح إلا شعبة.

بيوت الدعوة:

والسؤال الذي شغلني كثيرًا هو: لماذا هؤلاء الأربعة؟!

ولا يغيب عن عقل القارئ أنه ليس المقصود أشخاص هؤلاء، ولكن هناك صفة أو صفات تجمعهن جعلتهن خير نساء العالمين، وهذه الصفات متاحة لكل امرأة -لا يحجب الله فضله عن أحد- فمن تحلت بتلك الصفة وصلت إلى هذه الدرجة.

وبالنظر إلى هؤلاء الكاملات الأربعة نجد أن هناك رابطًا يربطهن؛ وهو وجود نبي من أولي العزم من الرسل في حياة كل واحدة منهن.

فآسية امرأة فرعون هي التي آوت موسى في بيتها وربته بين ذراعيها وكانت خير أم له.

ومريم ابنة عمران هي التي اختارها ربنا -سبحانه وتعالى- لينفخ فيها روحه وكلمته عيسى ابن مريم؛ لتحمله في بطنها وتلده وتواجه به بني إسرائيل وتحميه وتهرب به لتتحمل مشقة عبور سيناء خوفًا وفزعًا حتى يصل إلى برّ الأمان ويبلّغ رسالة ربه.

وخديجة بنت خويلد وهي من هي!! زوجة خاتم المرسلين محمد ﷺ التي صدقته عندما أخبرها بنبوته وآمنت بدعوته وواسته بمالها وأحاطته برعايتها حتى كان عام موتها هو عام الحزن بالنسبة للنبي ﷺ.

وفاطمة بنت محمد -«أم أبيها» كما أخبر النبي ﷺ. تلك الفتاة التي وقفت جوار أبيها في كل حياته الدعوية حيث كان لا يجد راحته واستقراره إلا معها.. كاتمة سرّه التي كانت أول أهله لحوقًا به.

كان هذا ما يجمعهن جميعًا.. أنهن (آوين دعوة الله في بيوتهن) وكانت كل واحدة منهن خير امرأة خلف رجل؛ تقويه وتحمي ظهره وتبذل من نفسها وجهدها وجاهها ومالها وحبها ورعايتها لهذا الرجل حتى يبلغ دعوته.

إنها سمة الكاملات خير النساء في الجنة وفي الدنيا أن تكون بيوتهن (بيوت الدعوة).

وأردت أن أذكرهن هنا بترتيب الأفضل منهن فلم أستطع؛ حيث لم تتفق الأحاديث على ترتيبهن فمرة تذكر مريم أولاً ومرة خديجة ومرة فاطمة وهكذا؛ ولذلك فضلت أن يكون ترتيبهن زمنيًا الأسبق في عمق التاريخ فكن: آسية ثم مريم ثم خديجة ثم ابنتها فاطمة..

ولقد ضم ﷺ إلى هؤلاء الأربعة أفضل النساء عائشة بنت أبي بكر حين ذكرهن كخير النساء ثم قال : (**عائشة بين النساء كالثريد بين الطعام**) فالثريد أفضل الطعام وعائشة أفضل النساء فهيا لنتعرف على الكاملات الأربعة وأفضل النساء في هذه المجموعة الأولى من موسوعة تحتوي سيرة

نساء أضأن التاريخ



1

آسية امرأة فرعون

مؤمنة في مواجهة الطاغوت

آسية امرأة فرعون
مؤمنة في مواجهة الطاغوت

هكذا اشتهرت هذه النجمة البراقة في السماء، ولكن للأسف ارتبط اسمها بأعتى جبابرة الأرض، ملك من ملوك مصر.. حيث يطلق عليهم الفراعنة.

فهو أشهر فراعنة مصر وأكثرهم ذكرًا في التاريخ.. فقد أعلن أنه إله فكانت المواجهة بينه وبين نبي من أنبياء الله.. بل من أولى العزم من الرسل هو موسى ﷺ.. بل بين نبيين موسى وأخيه هارون، وفي خضم المواجهة كانت آسية هناك لها دور.. وأي دور! إنه دور أضاء التاريخ.

من هي؟

هي آسية بنت مزاحم...

اختلف العلماء في نسبها فمنهم من قال: إنها من نسل فراعنة مصر.. فجدها الثالث كان فرعون مصر في زمن يوسف ﷺ..

وقيل: إنها من آسيا حيث وقعت أسيرة في حروب الفراعنة المصريين مع الغزاة الآسيويين فتزوجها فرعون.

وقيل: إنها كانت من بني إسرائيل من سبط موسى -عليه الصلاة والسلام-.. بل يقول البعض إنها كانت عمته، وهذا بعيد جدًا بل الأقرب الرأي الأول أنها من نسل الفراعنة والمصريين.

بنو إسرائيل في مصر:

ترجع قصة بطلتنا إلى أعماق التاريخ... فعلاقة فراعنة مصر مع بني إسرائيل لها جذورها؛ لقرب المسافة بين مصر وفلسطين التي هاجر إليها إبراهيم ﷺ من أرض العراق

بعد مواجهته، مع قومه وتحطيم أصنامهم، وفشل محاولة حرقه بعد أن نجاه الله منها.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩].

ثم أنجب إبراهيم إسماعيل الذي أرسله وأمه إلى وادي مكة حيث أعاد بناء البيت الحرام تمهيدًا لمجيء خاتم الأنبياء ﷺ ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وأنجب بعد إسماعيل إسحاق الذي رزقه الله يعقوب وسماه إسرائيل..

ورزق الله يعقوب (إسرائيل) اثني عشر ابنًا كان منهم يوسف عليه السلام الذي حاول إخوته قتله فنجاه الله وباعه مَنْ وجدوه في مصر، فاشتراه عزيز مصر (رئيس وزرائها) الذي آواه في بيته.

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ﴾ [يوسف:٢٣].

ودخل يوسف بسبب هذا التعفف السجن ليخرج منه بفضل الله وزيرًا لاقتصاد مصر.

﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۞ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٥-٥٦].

واستطاع يوسف أن يأتي بأبيه وأمه وإخوته الأحد عشر إلى مصر مهاجرين من فلسطين ليقيموا بها ويتناسلوا لتكون منهم أقلية في مصر أطلق عليها (بنو إسرائيل).

ولأسباب سياسية تتعلق بعلاقة بني إسرائيل بالهكسوس أعداء المصريين اضطهد فراعنة مصر بني إسرائيل واشتد الاضطهاد واشتعلت ناره في عهد الفرعون الذي ولد في زمنه موسى عليه السلام، وأخذ الاضطهاد شكل التسخير الذي تنبأت به التوراة أيضًا، كما وردت نبوءة على لسان إبراهيم عليه السلام في سفر التكوين الذي ورد فيه: [فقال لإبرام: اعلم يقينًا أن

نسلك سيكون غريبًا في أرض ليست لهم يستعبدون لهم فيذلونهم أربع مائة سنة[١].

ويقص علينا القرآن قصتهم بالتفصيل:

﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۞ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٣-٦].

فقد أراد الله –تعالى– أن ينقذ بني إسرائيل من براثن هذا الوحش الكاسر وخاصة أن المعركة تحولت من معركة اضطهاد سياسي إلى علو من فرعون على مقام الربوبية.

وأصبحت معركة بين كفر يمثله فرعون وقومه، وتوحيد يمثله بنو إسرائيل.

وقد تسرب إلى فرعون بشارة، كان بنو إسرائيل يتدارسونها نقلاً عن أبينا إبراهيم أنه سيخرج من ذريته عليه السلام غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه.. فأمر فرعون بقتل أبناء بني إسرائيل الذكور وترك البنات.. وذلك قول الله تعالى: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٢] [القصص:٤].

فرعون موسى

وكان فرعون مصر هذا[٣] مريض بداء العظمة وقد خالف جميع الفَرَاعين قبله بأنه ادعى أنه إلهٌ ﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:٢٣-٢٤].

وإن كان جميع الفراعين كانوا ينسبون أنفسهم للآلهة إلا أن أحدهم لم يدعِ أنه إله أو

(١) التوراة (العهد القديم) سفر التكوين ١٥: ١٣.

(٢) ويستحي: من الحياة أي يتركهم أحياء.

(٣) هناك دراسات متعددة لتحديد ذلك الفرعون؛ منها الدراسة القيمة التي كتبها الدكتور رشدي البدراوي بعنوان: (قصص الأنبياء والتاريخ) الجزء الرابع بعنوان موسى وهارون ومن هو فرعون موسى؟ وفيها ناقش عشرة آراء وخرج في النهاية أن رمسيس الثاني هو فرعون موسى.

رب الأرباب إلا فرعون موسى.

وقد وجد ممن حوله من المستشارين والكهنة التشجيع على ذلك بمدحه وتسميته بالإله وموافقته على أفعاله.

وننقل هنا ما بنى عليه الدكتور رشدي البدراوي نظريته من أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني[١]:

فقد بين أن رمسيس الثاني تزوج في صباه من نفرتاري وهو ولي للعهد وقد ابتلاها الله -تعالى- بمرض يجعلها بعد حملها وولادتها يموت الوليد وهو فيروس معروف باسم Cytomegalo virus (CMV).

وقد عرض الدكتور البدراوي صور الكثير من الآثار التي تبين توسل رمسيس وزوجته نفرتاري بجميع آلهة الخصوبة والأمومة حتى تحفظ له أولاده.

وتزوج الفرعون بعد ثماني سنوات من زوجته الثانية، والتي سجلت الآثار اسمها (آست نفرت)[٢] وكان يرجو منها الولد، ولكن تكررت المأساة معها هي الأخرى حيث يولد الأبناء ويموتون في سن مبكرة، وقد وصل عدد أولاده من زوجتيه الذين ولدوا وماتوا اثنا عشر ذكرًا.

فرعون موسى في القرآن:

وقد أثبت الدكتور البدراوي أن رمسيس الثاني من أكثر فراعنة مصر إقامة للمباني من حيث الفخامة والروعة والتنوع في طول البلاد وعرضها، بل وفي فلسطين وغيرها من البلاد التي فتحها في آسيا، وقد حكم حوالي ٦٧ عامًا، وأشركه والده في شئون البلاد وهو في سن العاشرة.

والعجيب أن كل هذه الآثار لم يبق منها أثر إلا وقد ناله الدمار.. ليس فقط بسبب

---

(١) رغم ما في نظرية الدكتور رشدي من دلائل تؤيدها إلا أننا لا ندخل في جدال حول الشخصية بقدر ما نستفيد مما نستنبطه من الحادثة من عبر ودروس تفيدنا في الحياة.

(٢) لاحظ التشابه بين اسمها الفرعوني (آست) والاسم العربي الذي ذكره النبي ﷺ (آسية).

تقادم الأزمنة ولكن لأسباب غير معروفة بل إن معبده الجنائزي (الرمسيوم) قد لحقه دمار فور الانتهاء من بنائه.. والعجيب أن الكثير من التماثيل والآثار التي دمرت ولم يبق منها إلا بعض قطع من الحجارة وجد عليها اسمه ونسبه.. وبقي قليل من التماثيل في حالة جيدة.. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا في قوله -تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧](١).

ذو الأوتاد:

وقد كان فرعون هذا متميزًا بكثرة عدد الأعمدة في معابده، بجانب أنه كان أكثر الفراعنة إقامة لما يسمى (المسلات) وما هي إلا أعمدة ذات طرف مدبب؛ ولذلك يصفه القرآن بـ﴿فِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾ [ص:١٢].

وقد نقل الدكتور بدراوي إحصاءً حول عدد المسلات التي أقامها ملوك وفراعنة مصر، فكانت تتراوح بين اثنتين أو لا شيء لبعضهم إلى ٩ مسلات لأكثرهم وهو تحتمس الثالث، أما رمسيس الثاني فقد أقام ٣٥ مسلة على الأقل(٢).

ويرى الدكتور أن اللفظ الصحيح أن تطلق كلمة (وتد) على هذه الأعمدة لا كلمة مسلة غير المعبرة عن شكلها.

واشتد أذى فرعون مصر لبني إسرائيل بعد اكتشاف خيانتهم له في معركة قادش واتفاقهم مع أعدائه وبدأ يشغلهم بالسخرة في بناء المعابد ومخازن الغلال بجانب الأمر الرهيب الذي أصدره بقتل الأبناء المواليد الذكور.

التابوت:

وبعد ٦ سنوات من زواجه الثاني من (أست أو آسية) وكان عمره ٣٠ عامًا.. حدث أنها كانت تتنزه على ضفاف النهر في حدائق القصر فوجدت تابوتًا طافيًا على صفحة الماء لم

---

(١) قصص الأنبياء والتاريخ، ج ٤، ص٧١٤ وانظر، ثبت بصور آثار رمسيس الثاني في حوالي خمسة وخمسين صفحة من الكتاب.

(٢) المصدر السابق: ص ٧٨٧ ونقلاً عن لبيب حبشي في كتاب مسلات مصر.

يلبث أن توقف عند حزمة من نبات البردي على الشاطئ، فأمرت إحدى جواريها أن تلتقطه، فلما فتحته وجدته يحوي طفلاً صغيرًا سرعان ما مال قلبها إليه بشدة فتعلقت به ورجت زوجها (رمسيس الثاني) إعفاءه من أمر الذبح الذي كان قد أصدره. ﴿لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص:٩].

وإكرامًا لخاطر زوجته ولشعوره بأنها حرمت الولد لم يمانع الفرعون، وتمر السنون حتى إذا بلغ موسى ٥ سنوات زالت «اللعنة» عن فرعون وزوجاته وجواريه فأنجبن له عشرات الأولاد كما سجلت الآثار أنه كان لديه أكثر من مائة ولد، ولكن ظلت تلك اللعنة ملازمة له في الماضي حتى ينفذ القدر خطته ويعفى موسى من الموت ليربى في بيت فرعون ويكون قارب الهداية لأمه آسية.

هارون أخي

ومن طرائف ما ذكر أن المصريين جاءوا لفرعون يشكون من موت الرجال من بني إسرائيل ولا يوجد من يقوم بما يعملون من أعمال، فأمر أن يقتل الذكور عامًا ويتركوا عامًا فكان عام العفو هو العام الذي ولد فيه هارون وعام القتل ولد فيه موسى فنجاه الله -تعالى- بحكمة من عنده.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص:٧].

فهكذا كانت البداية.. وضعته أم موسى في تابوت ووضعته في النهر وربطت التابوت بحبل في جدار بيتها الذي كان يطل على النهر، فكانت إذا أرادت إرضاعه سحبته وأرضعته فإذا جاء الجنود ألقته في اليم.. حتى كان يوم من شدة فزعها تركت الحبل بغير رباط فانطلق التابوت سابحًا إلى مصيره الذي قدره الله له.

﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ﴾ [طه: ٣٩].

ولكن قدر له الله (آسية).. وقد مرَّ على زواجها سبع سنوات يموت لها كل مولود

يولد.. ويموت لفرعون من زوجتيه كل مولود، ولقد همّ الجند أن يقتلوه فدار حوار عجيب بين آسية والجند ثم فرعون من بعدهم لإنقاذ الطفل.

قالت لهم: لا تقتلوه.

ثم انطلقت إلى فرعون تتوسل إليه: ﴿عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ [القصص:٩]، ولكن فرعون الجبار لم يأبه، فقالت في توسل زائد ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ [القصص:٩]، وهنا سكت فرعون قليلاً وألقى الغلام إلى آسية وهو يقول: أما لك فنعم وأما لي فلا!!

فكان كما سطر التاريخ وأثبت القرآن.

التوراة العجيبة

والعجيب أن التوراة المحرفة تلغي دور آسية تمامًا.. ويدعي كاتبوها أن من التقطته هي ابنة فرعون لا زوجته في مغالطة تاريخية واضحة، حيث إنه بفرض ولادة ابنة لفرعون (الذي كان لا ينجب) فإن عمرها لا يتجاوز الثالثة عشر فهي لا تحتاج طفلاً ولكن تحتاج دمية تلعب بها.

ثم إن فرعون لم يكن ليلغي أوامره الرهيبة بقتل الذكور بسبب رغبة طائشة من طفلة.. وإنما هو إلحاح زوجة محرومة من الولد.

﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:٩].

وقد ادعت التوراة أيضًا أن آل فرعون عرفوا من أول يوم أنه من بني إسرائيل وهذا غير منطقي حيث إن الأكثر تمشيًا مع المنطق أن تخفي أم موسى هويته. ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠].





موسى

وأطلقت آسية عليه اسم (موسى) وهي كلمة مصرية تعني (الطفل)[(١)]، وقيل: إنه لم يطلق عليه اسمًا وإنما اشتهر في القصر بالطفل (موس) ثم مد آخره فأصبح موسى[(٢)].

وكانت رعاية الله لموسى بإلقاء محبته في قلب آسية امرأة فرعون.. ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه:٣٩].

وبتحريم المراضع حتى يعود إلى صدر أمه لترضعه ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص:١١].

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص:١٢].

ورفضت أم موسى طلب آسية أن تبقى في القصر كمرضعة للطفل وعرضت أن تأخذه معها إلى بيتها؛ لترضعه وتعود به بين الحين والآخر إلى القصر لتراه امرأة فرعون... فوافقت آسية الطيبة وبذلك تحقق وعد الله لأم موسى: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص:٧]. ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص:١٣].

واستقر الأمر في يقين آل فرعون أنه طفل مفقود تخلص منه أبواه بإلقائه في اليم، بل ولم يفطن بنو إسرائيل لعلاقة الطفل بأمه التي كانت قد أخفت الأمر تمامًا عن كل من حولها، وإلا كان الجند المكلفون بتتبع حوامل بني إسرائيل سألوا عنه في موعد ولادته وشكوا في أمه أين ذهبت بالوليد سواء ذكر أو أنثى.

---

(١) معنى عبارة (رع موس).. أي الطفل الممنوح من الإله (رع) وكذلك أمون موس..

(٢) اسمه التوراتي موشيه.. وهو قلب للسين شين كعادة اللغة العبرية ولكنهم قد ترجموها إلى (المنتشل) من الماء. أو الذي سينتشل بني إسرائيل من عذابهم (المخَلِّص).. ولكن لو علم فرعون أنه مخلص لقتله وقتل زوجته وقتل بني إسرائيل جميعًا!!!.

العودة إلى آسية

وعاد موسى إلى آسية بعد عامين حيث فطمته أمه، وبدأ انقطاع طبيعي للصلة بينه وبين بيت أهله.. ونما وكبر في بيت فرعون تحيطه آسية بالحب والحنان وخاصة أن فرعون كان يمقته مقتًا شديدًا. ويتحفز له حتى أنه كاد أن يقتله لو لا دفاع آسية عنه[(١)].

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[(٢)]

عاش موسى في قصر فرعون.. ولنا أن نتصور أثر قربه من فرعون وإدراكه من تصرفاته أنه ليس إله يعبد من دون الله، بجانب بغض فرعون له وعدم اعترافه به ابنًا له؛ حيث لم يكن يهتم بإعداده إعداد أبناء الملوك، ثم كان فضل الله عليه أن حلَّ عقدة فرعون في الإنجاب بعد خمس سنوات من عمر موسى، فاهتمَّ بأبنائه من زوجتيه نفرتاري واست نفرت.

وأهمل موسى الذي كان مصدر تربيته الأساسية هو آسية التي رغم إنجابها من فرعون فإنها استشعرت علاقة خاصة تربطها بهذا الابن الذي أرسلته السماء إليها وهي في أشد الحاجة إلى مباشرة الأمومة.

وعندما بلغ موسى السعي بدأ يفكر لماذا يهمله فرعون ويقدم إخوته عليه رغم أنه الابن

---

(١) وردت روايات حول اختبار فرعون لموسى بالجمرة والياقوت عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه:٢٧-٢٨]، حيث إن موسى غاظ فرعون مرة بأن جذبه من لحيته المرصعة بالياقوت، أو أن أحدًا وشى بموسى عند فرعون أنه يزعم أنه سيعلو عليه، فهمَّ فرعون أن يقتله لولا أن آسية أسرعت بالدفاع عنه، وقالت: إنه طفل لا يفرق بين الجمر والياقوت (لونها أحمر) فقام فرعون بإحضار الاثنين، فأخذ موسى الجمر ووضعه في فمه فكان منها تلك العقدة في لسانه. والرد على هذه الروايات التي لم تثبت من حيث الإسناد بأمرين:

أ- أن ذلك لا يعقل فالطفل الذي يمسك جمرة فألهبت كفه هل يلقيها في فمه أم على الأرض؟

ب- أن تلك العقدة هي خلقة من الله تعالى.. وقد ورد أن الحسين كان فيه نفس العقدة [(رتة وحبسة).. فقال ﷺ: إنه ورثها عن عمِّه موسى عليه السلام]. والإصابات لا تورث.

ولكن هذه الروايات وأشباهها ما وردت إلا لبيان شدة حنو آسية على موسى وحمايتها له في مرحلة طفولته الأولى رغم شدة عداء فرعون له.

(٢) سورة طه: ٣٩.

الأكبر كما اشتهر في القصر.. بل ويرى إخوته الصغار يقدمون عليه في حفلات فرعون.

وبدأ يسأل ويلجأ إلى أمه آسية فيجد عندها ما يزيد شكَّه.. حتى استطاعت أمه الحقيقية أن تتصل به وتخبره بالحقيقة.. أنها أمه وأن هارون أخاه ومريم أخته وعمران أبيه.. وقدموا له من الأدلة ما جعله يوقن بذلك.. ويعود إلى آسية فلا تكذبه الخبر.. فيأوى إلى قوم بني إسرائيل ويتلقى منهم التوحيد حيثُ إنه بفطرته كان رافضًا كارهًا للأوثان.. ولم يجد أي ممانعة من آسية أمه التي ربته.. بل كانت تعينه على رفع العناء عن قومه بني إسرائيل.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾

وصل موسى إلى مبلغ الرجال وكان فضل الله عليه عظيمًا ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤] وكانت آسية تراقب نموه واكتمال رجولته وتستشعر أن لابنها هذا شأن عظيم.





المعاهدة الخانقة

كان رمسيس الثاني قد فكر طويلاً في الحرب المستمرة بينه وبين الحيثيين فعمل على عقد صلح مع ملكهم ومعاهدة توجها بالزواج من ابنته كمصاهرة سياسية وكان عمره ٥٧ سنة.

وكانت هذه المعاهدة هي الطوق الخانق الذي التفَّ حول عنق بني إسرائيل؛ ليقتل آخر أمل لهم في النجاة من ظلم فرعون واستبداده بهم، حيث كانوا يستثمرون العداء بين المصريين والحيثيين في الحياة بأمان وتخفيف اضطهاد فرعون وكرهه لهم.

آسية وبداية الصراع

لم يكن ما مر بموسى في المراحل السابقة يسبب قلقًا كبيرًا لآسية ولكن بدأ القلق بحادثة مقتل المصري التي ذكرها القرآن، والتي ملخصها:

أن موسى وجد رجلاً من قومه (بني إسرائيل) يتعارك مع أحد المصريين فاستغاثه الإسرائيلي فوكز موسى المصري بقبضته في رقبته فقتلته الوكزة.

وفي اليوم التالي وجد موسى الرجل نفسه يتشاجر مع مصري آخر فلما اقترب منهما موسى صاح الإسرائيلي خائفًا من موسى أن يعاقبه على كثرة شجاره –أتريد أن تقتلني كما قتلت المصري بالأمس؟ وأفلت المصري إلى فرعون يخبره بأن قاتل الأمس هو موسى.. وقامت الدنيا.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ۞

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۞ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص:١٥-١٩].

وهاج فرعون ووجد فرصته أن يقتل موسى الذي وصلته الكثير من الأخبار عن اقترابه من بني إسرائيل، ولم تستطع آسية أن تقف في طريقه فالتهمة ثابتة على موسى ﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۞ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص:٢٠-٢١].

وأرجح الأقوال أن الرجل مصري من بلاط فرعون حيث أقصى المدينة هي مساكن كبار الدولة وقصر فرعون.. وكان هذا الرجل ضمن فريق بدأ يتكون في بلاط فرعون رافضًا ظلمه..

وهل كان لآسية دور في تحذير موسى.. ولما لا؟

موسى يهرب

واتبع قلب آسية العجوز ابنها وهو يهرب تلقاء مدين[1] واستراح فرعون لهروبه حيث تخلص منه وفي الوقت نفسه لم يضطر أن يقتله فيثير جموع بني إسرائيل على بطلهم الذي شاع أمره.

وتزوج موسى ابنة شيخ مدين وعاش معهم أوفى الأجلين حيث كان مهره لها ثماني سنوات في خدمة أبيها، فإن أتم عشرًا فمن عنده.. وكان رسول الله ﷺ يقول: «قضى موسى أوفى الأجلين».

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ۞ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ

(١) جنوب فلسطين.

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۞ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۞ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ۞ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص:٢٢-٢٨].

الكليم

مكث موسى عشر سنوات في مدين ثم خرج بأهله عائدًا إلى مصر وقد وصل سنه خمسة وخمسون عامًا[1] وفي طريقه جاءه الوحي وكلمه الله تكليمًا.

﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

وانطلق إلى الجبل وعنده كان الله قد أعدَّ له التكليف بإنهاء مهزلة ادعاء أحد عبيده الألوهية وتسخيره خلق من خلقه وظلمه لهم.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ۞ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ۞ إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ۞ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۞ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾[طه:١١-١٤].

---

(١) تقول التوراة: إن سنه كان ٨٠ عامًا وهو أمر غير معقول فلماذا يمكث ٢٥ عامًا بعد الأجل، أما القرآن فيبين أنه مكث مدة الأجل فقط، وادعت التوراة أن فرعون مات قبل وصول موسى إليه والذي حاوره موسى وغرق على يديه فرعون آخر والأدلة التاريخية تثبت غير ذلك. راجع قصص الأنبياء والتاريخ د. رشدي البدراوي.

ومع تردد موسى وعدم تصديقه تكرر تعريف رب العزة له بنفسه.

﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل:٩].

﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص:٣٠].

فبدأ موسى يهدأ ويستمع إلى التكليف الرباني الذي سبقه تدريب على بعض ما يعينه على مواجهة فرعون وكان أكثر ما برع فيه قوم فرعون هو السحر.

فلماذا لا يتسلح موسى ببعض ما سيبهر السحرة أنفسهم؟

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ۞ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ۞ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۞ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ۞ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ۞ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه:١٧-٢٣].

ويبين الله له فائدة هذه المهارات:

﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[القصص: ٣٢].

وهنا تتضح المهمة.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٧-١٩].

ويعود موسى:

وبعد أن يستجيب الله لموسى بأن يشرك معه أخاه هارون في الرسالة والمواجهة مع فرعون.. ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وبعد أن اتضحت المهمة التي كلفه الله بها في عدة تعليمات:

١- دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان بالله الواحد.

﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ

﴿فَتَخْشَى﴾ [النازعا: ١٧-١٩].

٢- تجديد إيمان بني إسرائيل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم:٥].

٣- تحرير بني إسرائيل من الذل الذي يصبه عليهم فرعون.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [طه: ٤٧].

٤- الخروج ببني إسرائيل من مصر إلى أرض فلسطين.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥-٦].

ويلتقي موسى بهارون على مشارف أرض مصر ويرسل زوجته وابنه إلى أبيها في مدين حيث استشعر عظم ما هو قادم عليه.

وكانت آسية هناك قد أجهدها انتظار ابنها الحبيب على تقدم سنها..

وكان فرعون يحتفل بمرور أكثر من ستين عامًا على حكمه لمصر وقد دار في نفسه أنه خالد مما جعله هو ومن حوله يكرسون فكرة أنه إله..

ووصل إلى مسامع آسية العجوز أن ابنها موسى الذي وصل سنه خمسة وخمسين عامًا يريد مقابلة فرعون.





وكان اللقاء

وقد استجمع موسى وهارون كل وصايا الله لهما في التعامل مع الفرعون عند اللقاء.

﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٨-١٩].

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ۝ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٧-٤٨].

ولا شكَّ أن فرعون عرف موسى على تقدم سنه وعرفه أيضًا من حوله في القصر وعلى رأسهم آسية التي بدأ الفرح يختلط لديها بالخوف عندما بدأ الحوار.. بدأ موسى يناقشه بهدوء حيث إن دعوة موسى كانت لا تحتمل أن يكون عنيفًا معه وهو الذي أمره ربه بكل هذا اللين:

- ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ [طه: ٤٩].
- ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].
- ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى﴾ [طه: ٥١].

أي التي ضلت من قبل ولم تعرف ربها فكيف لم يعذبها الله وذلك ردًّا على قول موسى ﴿أَنَّ العَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨] فتجاوز موسى بذكائه هذه النقطة وبدأ يعرفهم بالله ليؤمنوا به.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۝

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى ۞ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٢-٥٥].

واشتدَّ الحوار بين موسى وفرعون خاصة عندما قدم له طلبه الثاني والثالث ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ﴾.

إذًا فغرض موسى (سياسي) أن يخرج مع بني إسرائيل ليستوطنوا فلسطين وتصبح لهم دولة تخرج عن النفوذ المصري وعن العرش الفرعوني، هذا ما دار في بلاط فرعون..

ويبدأ فرعون يسخر من موسى ويذكره بموضوع جريمة القتل.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۞ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨، ١٩].

أي أن هناك تهمتين تواجهان موسى بجانب ما يمن به فرعون عليه أنه رباه ورعاه ثم ها هو قد كفر بألوهيته وقتل رجلاً من قومه متعمدًا.

فأجاب موسى بأن القتل كان خطأ.. وأنه لم يكن كافرًا ولكنه كان ضالًّا عن تلك الحقيقة الجديدة (الإيمان بالله الواحد).. وأنه فر لشعوره بظلم قضاته وأنهم سيحكمون عليه بالموت في القتل الخطأ...

ثم يرد على امتنانه عليه بالتربية بما فعله في قومه من العبودية وأن الله أبدله خيرًا من عطائه.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۞ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۞ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٠- ٢٢].

ويعود فرعون يتهكم من موسى:

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

ثم تشتد نبرته ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].، ثم

يخرج عن شعوره ويهدده تهديدًا صريحًا ﴿قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

وأظن أن آسية كانت هناك تستمع أو تصلها كل هذه الحوارات وقلبها يتسارع بالنبض مع تسارع إيقاعها، وتتمنى داخل نفسها أن ينتصر ابنها موسى على فرعون أما لماذا؟ فلا تجد آسية إجابة مقنعة لهذا حتى الآن؟

ويعرض موسى على فرعون أن يأتيه بالدليل على صدقه.. فيعرض عليه ما أكسبه الله من مهارة تحويل العصا إلى ثعبان واليد إلى نور أبيض يشع(١).

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ۞ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢، ٣٣].

وكان ردّ فرعون مضحكًا حيث ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الشعراء: ٣٤]. ويردد الببغاوات حوله نفس كلامه.

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩].

بل يتوجه فرعون إلى بني إسرائيل يريد أن يستميلهم إليه فأرسل من يقنعهم بذلك ويطلب مشورتهم (هؤلاء الذين كانوا مستعبدين له بالأمس) ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ۞ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٤، ٣٥].

وواضح أثر دعوة موسى ونصرة الله له حيث اهتزَّ القصر الفرعوني وبدأ يلجأ إلى المناورات؛ لاستجلاب رضا الغاضبين من بني إسرائيل حتى أنه يؤجل اتخاذ القرار بنصيحة أعوانه. ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ۞ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٦-٣٧].

يوم الزينة:

وينتصر موسى على سحرة فرعون يوم الزينة حيث حشر فرعون له الناس.. وألقى

---

(١) من عجائب التوراة أنها تلغي دور موسى تمامًا وتجعل هارون هو الذي يقدم الآيات، ويسجل د. البدراوي على هذه المغالطات ردًا جميلاً مقنعًا. انظره في موسوعته ج٤ ص٨٥٤.

السحرة ما لديهم من سحر:

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۝ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ۝ قُلْنَا لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى﴾ [طه: ٦٦-٦٨].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ۝ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٩].

بل حدثت المعجزة الأكبر حيث آمن السحرة برسالة موسى ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ۝ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٠-١٢٢].

بل وصمدوا أمام تهديد فرعون لهم بالقتل حيث استشاط غضبًا وبدأ يوزِّع الاتهامات جزافًا ﴿قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١].

آسية «ونور الإيمان»

لقد وصل آسية كل ما حدث بل جاءها رد السحرة على زوجها المدعي الألوهية وأثر دعوة ابنها موسى عليهم:

﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيى ۝ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۝ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى﴾ [طه:٧٢-٧٦].

وهنا يشع الإيمان في صدر آسية وهنا تستشعر إجابة عن سؤالها الذي كان يحيرها: لماذا تميل إلى نصرة موسى ابنها المتبنى على زوجها؟ أنها لم تستشعر يومًا أن فرعون ذلك القريب منها إله أو حتى يستحق أن يكون إلهًا.. إن الفطرة داخلها تنادي دائمًا أن للكون

إلهًا غير هذا المخلوق...

إنها أعجب أنواع التربية تربية الابن لأمه ومربيته، إن فطرة موسى الذي صنعه الله على عينه قد تسربت إلى نفس آسية فكستها برداء النقاء والطهارة فلم تقبل يومًا فرعون إلهًا كما لم يقبله موسى، ولم يتسرب التردد إلى نفس آسية وهي تطالع المواقف الإيمانية وموقف ابنها الصامد القوي وموقف السحرة أثناء تنفيذ حكم الإعدام المصحوب بالتعذيب الرهيب.

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۞ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٥، ١٢٦].

الماشطة

وحادثة أخرى كانت هي الطَّرقة التي أرسلت شرارة الإيمان في قلب آسية...

لقد كان موقف فرعون من المؤمنين به بطشًا لا هوادة فيه..

وكان في قصر فرعون امرأة تقوم بتمشيط شعر ابنته وتجميلها، وكانت من الذين آمنوا بموسى، وكتموا الإيمان في قلوبهم، وذات مرة كانت المرأة تمشط ابنة فرعون كعادتها كل يوم، فسقط المشط من يدها على الأرض، ولما همَّت بأخذه من الأرض، قالت: بسم الله. فقالت لها ابنة فرعون: أتقصدين أبي؟ قالت: لا. ولكن ربي ورب أبيك الله، فغضبَتْ ابنة فرعون من الماشطة وهددتها بإخبار أبيها بذلك، ولكن الماشطة لم تخف.

فأسرعت البنت لتخبر أباها بأن هناك في القصر من يَكْفُر به، فلما سمع فرعون ذلك؛ اشتعل غضبه، وأعلن أنه سينتقم منها ومن أولادها، فدعاها، وقال لها: أَوَلكِ ربٌّ غيري؟! قالت: نعم، ربي وربك الله.

وهنا جُنَّ جنونه، فأمر بإحضار وعاء ضخم من نحاس ممتلئ ماءً وأوقدت النار تحته، وأمر بإلقائها هي وأولادها فيه، فما كان من المرأة إلاَّ أن قالت لفرعون: إن لي إليك حاجة، فقال لها: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام أولادي في ثوب واحد وتدفننا، فقال: ذلك علينا. ثم أمر بإلقاء أولادها واحدًا تِلْوَ الآخر، والأم ترى ما

يحدث لفلذات كبدها، وهي صابرة محتسبة، فالأولاد يصرخون أمامها، ثم يموتون حرقًا، وهي لا تستطيع أن تفعل لهم شيئًا، وأوشك الوهن أن يدب في قلبها لما تراه وتسمعه، حتى أنطق الله -عزَّ وجلَّ- آخر أولادها- وهو طفل رضيع- حيث قال لها: يا أماه، اصبري، إنك على الحق.

فاقتحمتْ المرأة مع أولادها النار، وهي تدعو الله أن يتقبل منها إسلامها، وماتت ماشطة ابنة فرعون وأبناؤها شهداء في سبيل الله.

يقول ابن كثير بعد أن ذكر هذه القصة (وسمعت آسية صوت ابنة الماشطة فآمنت برسالة موسى[(١)] ولما قبض الله روحها وفَّى فرعون بوعده لها وجمع عظامها وعظام أبنائها ودفنها في قبر واحد..

ولما أُسري بالنبي شمَّ ريحًا طيبة، فقال: «**يا جبريل ما هذه الريح الطيبة؟**» قال: «**هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها**»[(٢)] .

آسية القلب المؤمن:

كانت آسية تنظر إلى موسى بعين المربية الأم تخاف عليه وتؤازره بروحها.. أما اليوم فقد ازدوج الإحساس عندها فبجانب أنها الأم الحانية فهي مؤمنة برسالة موسى تخاف على الرسالة كما تخاف على الرسول، فكانت تتابع كل ما يحدث؛ تابعت استمرار إيذاء فرعون لقوم موسى بل واشتداده بعد يوم الزينة.. وهالها ما سمعت من اعتزام فرعون قتله.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ۞ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [غافر:٢٦-٢٧].

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص٩١.
(٢) أخرجه ابن ماجة في سننه كتاب الفتن ج (٤٠٢٠) وانفرد به.

مؤمن آل فرعون

وكانت على مقربة من ذلك الاجتماع الرهيب لآل فرعون حين صرح بنية قتله موسى ورأت بنفسها دفاع مؤمن آل فرعون عنه ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾. ويبدو أن المؤمنين من آل فرعون لم يكونوا واحدًا.

فقد انتشر أمر موسى عليه السلام وكثر أتباعه، وأصبح المؤمنون برسالته خطرًا مستمرًّا، يهدد فرعون ومُلكه، وألا يمكن أن تكون آسية الملكة المؤمنة ذات النفوذ وراء الدفاع عن موسى..؟! ولما لا..!

وانهار الفرعون

وتابعت آسية تفاهة زوجها وضعفه ووهن حجته أمام موسى ودعوته التي تمثلت في:

١- الإقلال من شأن موسى

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۞ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١-٥٢].

وتزداد تفاهة دعوته حين ينظر إلى الرسالة نظرة مادية ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۞ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣، ٥٤].

٢- بناء صرح لمواجهة إله موسى

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۞ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٨، ٣٩].

وورد أنه صعد فعلاً فوق بناء مرتفع بناه له هامان وعاد يقول: لم أجد إله موسى.

٣- الإصرار على ادعاء الألوهية[(١)]

وذلك بعد أن هزت رسالة موسى وحواراته مع فرعون هذه الدعوة... لكن يعود فرعون مرة أخرى متمسكًا بها.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَى ۞ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وتدل هذه الدعوة كذلك على انفراده دون جميع فراعنة مصر بادعائه هذه الصفة.. فقد يدعي غيره أنه من نسل الآلهة أو أنه يجري في عروقه دماء آلهة أما إنه إله! فلم يدعها إلا فرعون موسى (رمسيس الثاني) كما رجح الدكتور بدراوي.

المؤمن الأول

ومع إعلان مؤمن آل فرعون إيمانه بموسى بدأ صرح الخوف يتهدم وخاصة أن هذا الرجل قريب لفرعون؛ على رأيين أنه عمه والرأي الآخر وهو المفاجأة التي رجحها الدكتور البدراوي : أنه أخو زوجته آسية [(٢)].

ثم إن الله -سبحانه وتعالى- قد أنقذه من بين أيديهم فقد انطلق هاربًا بعد أن ختم دعوته لهم ردًّا على ادعاء فرعون.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۞ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۞ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٨- ٤٠].

---

(١) وقد أورد الدكتور البدراوي الأمثلة المتعددة من آثار رمسيس الثاني والتي تدل على تأليهه لنفسه.

(٢) قصص الأنبياء والتاريخ ٤/ ٨٩٦.

وانطلق هاربًا وهو يقول لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ﴾ [غافر: ٤٤].

يقول ابن عباس: [إن فرعون قصد قتله فهرب إلى جبل فبعث في طلبه فأدركوه وهو يصلي والسباع حوله.. فلما هموا ليأخذوه هاجمتهم الذئاب وأكلتهم][(١)].

﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥].

آسية تعلن إيمانها

وهنا تفجر آسية القنبلة الثانية شديدة الانفجار في بيت فرعون حيث تعلن إيمانها برسالة موسى.

﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

ويعقد الدكتور رشدي البدراوي فصلاً ممتعًا حول آسية بعنوان: (زوجة فرعون المؤمنة) يحدد فيه من هي هذه الزوجة ضمن الزوجات الثلاث لرمسيس الثاني ثم يناقش قضية هل عذب فرعون زوجته المؤمنة! ويؤكد فكرة أنها لم تعذب ثم يبين إهماله لها حتى أنها لا تكاد تذكر ضمن الآثار المكتشفة لعصر رمسيس الثاني فيبين أن:

في هذه الآية قرر القرآن الكريم أن إحدى زوجات الفرعون قد آمنت. ولما كانت القرائن تشير إلى أن رمسيس الثاني هو ذلك الفرعون. لذلك نستعرض زوجاته حتى يمكن تحديد من منهن المشار إليها في الآية السابقة. لقد كان لرمسيس الثاني ثلاث زوجات رئيسيات:

١- نفرتاري:

التي تزوجها لما بلغ السادسة عشرة من عمره وكانت تشارك في الاحتفالات الدينية

---

(١) تفسير ابن كثير.

بوصفها «زوج الإله». وأُلهت مثله[1]، وعلى ذلك فليست هي «الزوجة المؤمنة».

٢- مات نفرو رع:

وهذه هي الزوجة الثالثة وهي بالقطع ليست التي آمنت، فهي ابنة ملك «خيتا» وكان زواجها زواجًا سياسيًّا يدعم المعاهدة التي وقعت بين الدولتين.

٣- آست نفرت:

لما بلغ رمسيس الثاني سن ٢٣ أو ٢٤ سنة ولم يعش له ولد من زوجته الأولى نفرتاري وهي ثاني زوجاته التي تزوجها ومرت ٦ سنوات عليها هي أيضا، ولم تنجب هي الأخرى أو كان أبناؤها يموتون بعد الولادة مباشرة بسبب ذلك الفيروس العجيب الذي كان يصيب نساء فرعون.

وكان ما كان من التقاط الطفل «موسى» من النهر، وألقى الله محبة هذا الطفل في قلب إيست نفرت ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ وقالت عنه ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾. وبعد أن كبر موسى بعض الشيء ولدت لرمسيس الثاني «رعمسيس الابن» و«خعمواست» ثم «مرنبتاح». إلاّ أن «موسى» كان هو الأثير لديها.

كانت الملكة نفرتاري هي الزوجة الرئيسية الأولى. وهي التي كانت تحضر الاحتفالات الدينية. وكانت هي التي تراسل ملكة «خيتا» وكتبت إليها كتابًا تسألها فيه عن أحوالها مما يعني أنها كانت تعاون زوجها في علاقاته السياسية.

أما إست نفرت فكانت غير ذلك قانعة من الدنيا بحب زوجها. وحبها لموسى طفلها. ومن بعده بأولادها. ومن المؤكد أن المحبة التي ألقاها الله في قلبها لموسى وهو طفل كانت سببًا في إيمانها به حينما كبر وعاد رسولاً نبيًّا، ولم تظهر إيست نفرت مع رمسيس الثاني في أي رسم من آلاف الرسوم على آثاره العديدة إلا مرتين إلا أن تاريخها

(١) ذكر سليم حسن (موسوعة مصر القديمة ح ٦ ص ٤٣١). ما يؤكد أن نفرتاري لم تعش حتى آخر سنين حكمه.

يرجع إلى ما قبل ذهاب موسى إلى مدين أو إتيانه النبوة فلا يتعارض مع كونها قد آمنت بعد ذلك بموسى حينما أوتي النبوة.

ومن الطرائف ما ذكره سليم حسن في موسوعة مصر القديمة من النصوص التي كتبت على تمثال لنفرتاري والأخرى التي كتبت على تمثال لإست نفرت (آسية) وأرجو المقارنة بينهما لنرى بأي خطاب كانت تخاطب كل منهما.

أما ما كتب على تمثال نفرتاري الأميرة الإلهة فكان:

(الأميرة الممدوحة كثيرًا –سيدة الرشاقة وواحة الحب– وارثة الوجه القبلي والبحري– ماهرة اليدين في الضرب بالصاجات والحلوة الحديث والغناء –زوجة الملك العظيمة ومحبوبته –زوجة الثور القوي– العائشة مثل الشمس أبديًا «نفرتاري مرنموت»).

أما ما كتب على تمثال إست نفرت (آسية) فيقول سليم حسن:

ويوجد في متحف «بروكسل» جزء من تمثال صغير لهذه الملكة عليه بعض نعوت تكاد تكون فريدة في بابها إذ تقول عنها:

(عندما تدخل في المقر المزدوج فإن قاعة الاستقبال في القصر تمتلئ بشذى عبيرها. وإنها الحلوة الرائحة بجانب والدها الذي يبتهج عند رؤيتها (لعل المقصود بجانب زوجها). هي الزوجة الملكية لسيد القصر، التي تملأ قاعة الجلسة بعبيرها، وهي المنقطعة النظير بعطورها إذ تعادل بلاد «بونت» بشذى أعضائها، الزوجة الملكية).

والواقع أن هذه النعوت النسوية الدالة على طيب العبير وما يضوع منها من شذى العطور لم توصف به ملكة من قبل[١].

آسية أم إيست؟

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «كمل من الرجال كثير

---

(١) (سليم حسن. مصر القديمة جـ٦ ص ٤٣٧).

ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران».

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «خير نساء العالمين أربع: مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد رسول الله»[1].

ولا يخفي أن اسم «آسية» قريب جدًا أو هو تعريب لاسم «إيست» أو «إيسة» كما يكتب أحيانًا.

ومن هذا يتضح أن امرأة فرعون المقصودة في القرآن هي الزوجة الثانية لرمسيس الثاني (آست نفرت) إذا صح أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني كما رجح الكثير من علماء التاريخ المصري القديم.

هل عذب الفرعون آسية؟[2]

تقول كتب التفسير: إن فرعون لما علم بإيمانها بموسى بدأ في تعذيبها. قال ابن جرير: إنها كانت تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها وكانت ترى بيتها في الجنة. وفي رواية أن فرعون وتد لامرأته أربعة أوتاد في يديها ورجليها فكانت إذا تفرقوا عنها أظلتها الملائكة.

ولم يثبت أن الفراعين كانوا يعذبون أحدًا بهذه الطريقة.

كذلك ما قالته الكتب من أنه كان يضع الرحى على صدرها في الشمس، تشبيه بما كانت تفعله قريش ببلال عندما علمت بإسلامه.

كذلك فإن إيست نفرت كانت والدة خعمواست ولي العهد، وبعد أن توفي أصبح مرنبتاح هو ولي العهد وهي والدته أيضًا.

كما أن تعذيب الملكة هكذا على مرأى من الشعب -فضلا عن أنه إهانة للعرش وللفرعون نفسه- فإنه يدعو الناس للتساؤل عن سبب هذا التعذيب ويكون الجواب لأنها آمنت بموسى،

---

(١) صحيح مسلم جـ ٢ ص ٢٤٣ - مسند الإمام أحمد جـ٣ ص ١٣٦.

(٢) (ابن كثير جـ٤ ص ٣٩٤- وتفسير الألوسي جـ ٢ ص ١٦٣).

فيكون التساؤل إذا كانت إحدى زوجاته -وهي ألصق الناس به- قد آمنت بموسى فهي تعرف أن فرعون ليس حقًّا إله وأن ربَّ موسى هو الإله الحقيقي الذي يجب التعبد له، ويبدأ الناس في الإيمان بموسى اقتداء بها، لذلك لا نشك في أن هذه الروايات عن تعذيبها وضعت لتفسير قولها الذي أورده القرآن ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾ [التحريم: ١١].

وإن كان قولها ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ﴾. لا تعني بالضرورة نجني من تعذيب فرعون فقد تكون آمنت وتكتمت إيمانها وتطلب من الله أن يثبتها على هذا الإيمان.

كما تطلب من الله أن لا يشركها في عذاب يحل بفرعون بسبب سوء عمله من تكذيبه لموسى وتأليهه لنفسه فكلمة نجني لا تعني من تعذيب فرعون فقد تكررت في نفس الآية حيث قالت: ﴿وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ طلبت النجاة أيضًا مما قد يحيق بقومها ووصفتهم بـ«الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» إذ ظلموا أنفسهم باتباعهم فرعون في الكفر والضلال.

وقد سبق أن قلنا: إن امرأة فرعون لما قالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ قال: يكون لك. وأما أنا فلا حاجة لي فيه. وجاء في تاريخ الطبري أن رسول الله ﷺ قال: «**والذي يحلف به، لو أقرَّ فرعون أن يكون له قرة عين كما أقرَّت به لهداه الله به كما هدى به امرأته. ولكن الله حرمه ذلك**»[(١)].

وبلا شك أن فرعون تغاضى عن أمر إيمان زوجته وتكتمه؛ إذ هي زوجته وهي أم ولي العهد.. إلا أنها لم تكن لتطمئن إلى تصرفاته. فخشيت انتقامه بنفسه أو بالتحريض على إيذائها. لذلك فقد دعت الله -سبحانه وتعالى- أن ينجيها من فرعون وعمله وأن ينجيها أيضًا من قوم فرعون وقومها الظالمين. ودعت الله أن يجعل ثوابها في الآخرة بيتًا في الجنة.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم:١١].

ولعل فرعون لغضبه عليها وانتقامًا منها أوحى إلى الكهنة أن يتهاونوا في تحنيطها

---

(١) تاريخ الطبري جـ١ ص ٣٩٣.

حتى يبلى جسدها وتحرم من البعث في الآخرة كما في تصوره، ولم يبنِ لها مقبرة مثل ما فعل لنفرتاري، بل ولم يدفنها في مقابر الملكات فلم يعثر بين مومياوات الملكات على واحدة عليها اسمها، ولعل هذا من إكرام الله لها بسبب إيمانها وحتى لا يوضع جثمانها في صندوق زجاجي يعرض للرائحين والغادين.

وماتت آسية:

وبحساب بسيط يمكن أن نتوقع عمر آسية عند وفاتها قبل خروج موسى من مصر.

فقد تزوجها فرعون وعمره ٢٤ عامًا ووجدت موسى بعد ٦ سنوات من الزواج وعمر فرعون ٣٠ عامًا.

والتقى فرعون بموسى وعمره ٨٥ عامًا؛ وكان عمر موسى حوالي ٥٥ سنة أي بين زواجها والتقاء فرعون بموسى حوالي خمسين عامًا.. فإذا كان فرعون تزوجها بين الخامسة عشر والعشرين فإن عمرها حين لقاء موسى بفرعون كان حوالي سبعين إلى خمسة وسبعين عامًا والأرجح أنها ماتت قبل خروج موسى ببني إسرائيل بل وقبل الآيات التي أنزلها الله على آل فرعون والتي يقول -تعالى- عنها: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

الآيات

ولقد جاءت الآيات من الله لهم على شكل عذاب يعم آل فرعون يقول -تعالى-: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨].

كانت آيات عجيبة بعد معجزتي العصا واليد البيضاء.. وذكر القرآن منها ﴿الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] وذكرت التوراة (البعوض والدمامل ووباء المواشي والظلام وموت الأبقار) فهذه التسع آيات التي ذكرها الله في القرآن باعتبار البعوض والدمامل آية واحد؛ لارتباطها ببعض فالثاني ناتج من الأول.

وهكذا ماتت آسية قبل هذا البلاء الذي أصاب آل فرعون وهو استجابة لدعائها لله -تعالى: ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

لقد طلبت القرب من رحمة الله والبعد عن عذاب أعدائه ثم بينت مكان القرب: الجنة، فنجاها الله من اتباع فرعون ومن نتائج عمله ومن أن تكون ضمن القوم الظالمين.

ماتت آسية بعد أن أصبح لا فائدة في قومها (آل فرعون) فلم يشأ الله أن يريها عذابه لهم ولم يشأ أن يفطر قلبها بدعاء ابنها عليهم ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ۞ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

ومات فرعون:

ماتت آسية.. وانتصر موسى وهلك فرعون وقومه.

ماتت آسية على إيمان حقّ فاستحقت وعد الله باستجابة دعوتها ببيت في الجنة قبل أن ترى قومها وهم يؤمنون إيمانًا كاذبًا لا يقبله الله منهم.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۞ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾

[غافر: ٨٤، ٨٥].

ماتت آسية فكانت إحدى الكاملات.. بل ومن خير نساء العالمين وغرق فرعون.. ولم يقبله الله- تعالى ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۞ آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾

[يونس: ٩٠، ٩١].

ماتت آسية وكرمها الله بأن أخفى جثتها وسترها حتى بعد موتها.. وغرق فرعون فجعله الله أعجوبة يعرض جسده إلى يوم القيامة ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢].

ماتت آسية فكانت نموذجًا لمن أراد أن يقتدي ومات فرعون بعد أن ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]. فأصبح لا قيمة له هو وجنوده.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ ۞ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۞ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ العَذَابِ المُهِينِ ۞ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ المُسْرِفِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٣١].

ماتت آسية فكان لها قصر في الجنة كما سألت ربها ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] وكما قال العلماء اختارت الجار (عندك) قبل الدار (بيت في الجنة).

ومات فرعون فكان مصيره هو وقومه الذين اتبعوه عذاب البرزخ وعذاب يوم القيامة ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

ماتت آسية وتركت فرعون فعوضها الله عنه خير الرجال زوجًا في الجنة.. يقول ﷺ: «إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى»[1].



(١) ضعف الألباني هذا الحديث في السلسلة الضعيفة برقم (٢/ ٢٢٠)، وفي ضعيف الجامع، برقم (١٦١١).

2

مريم ابنة عمران



بنو إسرائيل اليهود

معضلة التاريخ التي تبحث عن حلٍّ إلى اليوم!!

هم أبناء يعقوب بن إسحق بن إبراهيم- عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام...

اثنا عشر سبطًا تفرع منهم اثنا عشر قبيلة هم قبائل بني إسرائيل.

جاء أبوهم وأبونا إبراهيم عليه الصلاة والسلام مهاجرًا إلى أرض فلسطين.. فأنجب إسماعيل الذي ارتضى له بلده الحرام (مكة) سكنًا، ثم أنجب من بعده إسحاق الذي أنجب يعقوب والذي كرمه الله بتسميته (إسرائيل)، ورزقه اثنا عشر ابنًا ذكرًا... وذكر القرآن تآمر بعضهم على أخيهم يوسف الذي -بسببهم- دخل اختبارًا طويلاً بين ظلام البئر وذل الاسترقاق بعد الحرية والبيع في بلاد بعيدة والإغواءمن امرأة العزيز والسجن..

حتى مكَّن له الله في الأرض فأحضر أباه وأمه وإخوته الإحدى عشر؛ لتتحقق ملامح رؤيته ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وعلى معابر الرؤى النبوية يتحقق الحلم ويحدث التمكين لبني إسرائيل..

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

.. وبهذا دخل بنو إسرائيل مصر بعد أن تركوا أرض فلسطين التي استضافتهم حينًا من الدهر بإذن الله على لسان نبيه يوسف.

﴿وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللهُ آمِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٩].

وكانت المهمة الأساسية التي أوكلها الله لبني إسرائيل أولاد نبيه يعقوب هي الحفاظ

وعلى توحيد الله في الأرض الذي أحياه دعوة إبراهيم من بعد نوح وتوارثها بنو إبراهيم نبي عن نبي..

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

حتى كانت آخر وصية من يعقوب لأبنائه الأسباط الاثنى عشر ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وكانت مراكز عبادة الأصنام منتشرة حول بني إسرائيل في بابل ونينوى ودمشق، ومصر، واتخاذ آلهة من دون الله من شمس وقمر وكواكب وملوك، فكانت وصية يعقوب لبنيه للتأكيد على أنهم حماة الاعتقاد الصحيح في الله لا بد أن يتمسكوا به ولا يفتنهم ما في مصر من حضارة قائمة على الوثنية وتعدد الآلهة والشرك.

انحراف الفطرة

ورغم ذلك فقد مالوا إلى عبادة عجل أبيس أحد آلهة الفراعنة حتى أصبح الاعتقاد فيه مخلوط بدمائهم.. ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣].

وسلط الله عليهم آل فرعون كما حكي القرآن على لسان موسي عليه السلام: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٦]، ثم جاء موسى النبي البطل الذي خلصهم الله على يديه من ظلم فرعون وعبر بهم البحر خارجًا من مصر في أكبر نصر مؤيد من الله في التاريخ بعد طوفان نوح حيث غرق فرعون وجنوده.

والعجيب أن بني إسرائيل وهم يقودهم نبيان موسى وهارون- وقد حدثت المعجزة وأيدهم الله بنصره.. ولا يزال الفرح يحيط مسيرتهم داخل سيناء فإذا بهم يجدون جماعة من

عمال المناجم المصريين يتعبدون للآلهة حاتحور (العجل) فيظهر ما أشربته قلوبهم من هذه العقيدة وما ترسخ في عقلهم الباطن فأسرعوا إلى نبيهم موسى يلحون عليه ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فرد عليهم موسى غاضبًا ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]

ولكنهم وفي أول فرصة غياب لموسى عنهم عادوا لعبادة العجل الذي صنعه لهم أحدهم من الذهب ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ۞ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَراًّ وَلاَ نَفْعاً﴾ طه: ٨٨، ٨٩]. وعاد موسى ونسف العجل ولكنه نبأهم بغضب الله عليهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾[الأعراف: ١٥٢] فكان أن غضب الله عليهم وأمرهم بقتل أنفسهم توبة إلى الله.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

وتقبل الله منهم توبتهم بعد أن قتلوا عبدة العجل منهم ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٥٣].

ويحكم الله عليهم بالتيه في دروب سيناء لا يجدون طريقًا للعودة إلى بيت المقدس التي أمرهم الله أن يدخلوها كنوع من التربية والابتلاء وحتى ينتهي ذلك الجيل الذي أشرب عبادة العجل وتعود على الذُّلِّ والسخرة وينشأ جيل جديد يقوى على حمل أمانة التوحيد.﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

ويموت نبي الله هارون وبعده موسى وهو على الحدود الشرقية للأرض المقدسة حيث أخذ طريق الالتفاف لدخول أرض فلسطين عن طريق عبور نهر الأردن وبعد أن وصاهم بعبادة الرب وحده لا شريك له.. وتحطيم الأصنام في الأرض وطاعة الله والتوبة إليه.. ثم حثهم على دخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم ليعيشوا فيها واستخلف بعده يشوع.

الأرض المقدسة والانهزام الداخلي

وهكذا فإن بني إسرائيل كانوا لا وطن لهم، فأنعم الله عليهم أن يعودوا إلى فلسطين ولكن بشرط التمسك بعقيدة التوحيد الخالص وعدم الارتداد عنها.. ورغم ذلك فإنهم نكصوا على أعقابهم وجبنوا أن يواجهوا أصحاب أرض كنعان (فلسطين) لولا إلحاح نبيهم موسى عليهم ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

وكان الذل قد عجن بلحومهم وسار مع دمائهم فتخاذلوا ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]. ويشتد الموقف ويتمايز المؤمنون وتعلن القلة المؤمنة موقفها..

﴿قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وهنا يظهر معدنهم العجيب.. وتبدو قلوبهم الدنسة.. ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

ورحل موسى إلى ربه بعد أن أخذ بيد بني إسرائيل وأخرجهم من الذل.. وأعطاهم الشريعة.. ووضع أقدامهم على أعتاب الأرض التي وعدهم الله بأنها لهم.

مات موسى في سنة ١١٦٠ قبل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم تقريبًا ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ۞ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۞ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ۞ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ۞ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ ۞ سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ۞ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۞ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١٤-١٢٢].

في فلسطين

كانت أرض فلسطين أو أرض كنعان يسكنها العشرات من الأجناس والشعوب في دويلات وإمارات وعشائر متفرقة وكانوا وثنيين، حيث كان لا يقوم على التوحيد في

الأرض إلا بنو إسرائيل، وتعددت آلهة كل شعب وقبيلة ودولة وتنوعت بين أحجار وحيوانات إلى نجوم وكواكب.

وكان النفوذ المصري قد انحسر عن حكم فلسطين.. ولم تكن هناك دولة قوية تنافس بني إسرائيل وتمنعهم من دخول فلسطين، بجانب طغيان الولاة والأمراء وسخط الشعوب والقبائل عليهم حتى أصبحوا غير متحمسين للدفاع عن الأرض.

وبذلك كانت الظروف مهيأة لبني إسرائيل لدخول الأرض بقيادة يوشع بن نون فتى موسى وتلميذه اللصيق [١].

ودخل بنو إسرائيل أرض فلسطين بأمر الله -تعالى- ليعلوا جناب التوحيد فيها.. إلا أنهم وللأسف أشاعوا في الأرض فسادًا.. وعملوا بالإبادة للقرى والشعوب فيها فلم تقبل الشعوب عقيدتهم ولا دينهم ولم يقبلوا منهم نصيحة، واستمروا رغم حكمهم للبلاد غرباء يستشعر الشعب بغضًا دفينًا لهم.. ويتمنى يوم الخلاص من حكمهم.

وكان الله يرسل إليهم النبي تلو الآخر بل كان يرسل إليهم مجموعة الأنبياء في الزمن الواحد. فإذا بهم يقتلون الأنبياء وينحرفون عن الشريعة وتنتشر فيهم المعاصي والأوزار..

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

وكان أزهى عصورهم عصر داود وسليمان إلا أنهم لاقوا من بني إسرائيل ما لاقاه كل الأنبياء قبلهم من الفتن الداخلية والانحراف.

الانهيار والشتات

ثم انهارت دولة بني إسرائيل تدريجيًا بعد أن انقسمت مملكة سليمان إلى شمالية وجنوبية.. وسقوط المملكة الشمالية في يد الآشوريين بعد أن حذرهم أنبياؤهم من

---

(١) كان يوشع رفيق موسى في رحلته للبحث عن العبد الصالح ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾. [الكهف: ٦٢].

الخراب الواقع بإسرائيل بسبب البعد عن الله ودعوهم إلى العودة إلى تعاليم موسى.

ولكن أبوا الانصياع إلى أنبيائهم وسقطت عاصمتهم السامرة في أيدي الآشوريين وسبي الشعب اليهودي إلى شمال العراق، ولم يستطيعوا العودة إلى أرض فلسطين مرة أخرى بل تكاثروا هناك وانتشروا في الأرض.. وكانوا عشرة أسباط من الاثنا عشر.

واستمرت مملكة الجنوب (يهوذا) حتى سقطت أورشليم (القدس) عاصمتهم في أيدي البابليين ليحدث السبي البابلي عقابًا من الله على فسادهم أيضًا—ولكن الله عفا عنهم ووعدهم بالعودة بعد نهاية بابل على يدي الفرس.. وبناء البيت من جديد ذلك قبل قرون من ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عام ٥٣٨ قبل الميلاد.

الأنبياء

ويعود بنو إسرائيل إلى الأرض المقدسة وكلما ابتلاهم الله بفتنة واعدوا نبيه فيهم بالاستقامة ثم تغلب عليهم طباعهم لينحرفوا من جديد فيرسل الله إليهم الأنبياء لتجديد العهد وإعلاء التوراة بين أيديهم ولكنهم يقابلونهم بالتكذيب أو القتل..

وامتدَّ نفوذ بني إسرائيل بعد أن تغلغلوا في دولة الفرس العظيمة في ذلك الوقت متجاهلين عبادتهم للنار ناسيين واجبهم في دعوتهم لتوحيد الله.. وذلك حتى نهاية الإمبراطورية الفارسية على يد الإسكندر الأكبر عام ٣٣١ قبل الميلاد ليبدأ عصر الإمبراطورية اليونانية في الشام وفلسطين ومصر.

اليهود في ظل الإغريق

وعاش اليهود في ظل الإغريق والذين استطاعوا فرض الأغرقة على نسبة كبيرة منهم؛ ليفقدوا ولاءهم لإسرائيل ومبادئ التوراة إلا أن فئة كبيرة أخرى تمسكت بدينها في ظل الحكم الإغريقي..

وأراد الإغريق فرض الثقافة اليونانية على الشعوب فنصبوا تماثيل لآلهتهم الوثنية في المعابد اليهودية، وفرضوا على اليهود المشاركة في الطقوس الدينية وعاقبوا المخالفين بشدة

حتى ارتضى اليهود هذا الأمر كما تقول التوراة.. (وارتضوا دينه وذبحوا للأصنام ودنسوا السبت) [مكابين أول ١: ٤٥]

ولكن فريقًا من بني إسرائيل بقيادة أنبيائهم في ذلك الوقت رفضوا هذا الوضع، وثاروا على الإغريق ولاقوا في سبيل ذلك أشد العذاب والذل حتى قامت ثورة عظيمة بين الشعوب الإسرائيلية في فلسطين تسمى (الثورة المكابية) عام ١٦٨ قبل الميلاد والتي حققت انتصارات عظيمة للشعب اليهودي، وعاد جيش بني إسرائيل إلى الجهاد من جديد وأصبح الطريق إلى أورشليم مفتوحًا من جديد.. إلا أن جزءًا كبيرًا من اليهود كان قد أصبح إغريقيًّا فكانت الخيانة وكانت الهزيمة.

الرومان واحتلال القدس

وجاء دور الدولة الرومانية التي ورثت أملاك الدولة الإغريقية (اليونانية) بعد هزيمتها؛ ومنها فلسطين.. وتقرب كهنة اليهود من المحتلين الجدد قبل قرن من ميلاد المسيح.. ولكن اشتد الصراع بين الطوائف اليهودية حتى مزق بني إسرائيل أحزابًا وشيعًا وقامت الحروب الأهلية.. حتى دخل الرومان القدس عام ٦٣ قبل الميلاد وأعدموا آلاف اليهود وأصبح كاهن اليهود لا سلطة له.. وإن كان الرومان قد أبقوا حاكمًا من اليهود يحكمهم ويدير شئونهم الدينية والمدنية..

وتحت الذل الروماني عادت ذكريات أليمة إلى نفوس اليهود من استعباد المصريين إلى الآشوريين، إلى البابليين، إلى الفارسيين، إلى الإغريق، وهاهم تحت أقدام الرومان.. هم أصحاب رسالة التوحيد في الأرض ودائمًا يركبهم الوثنيون أعداء الله.. إنها معادلة عجيبة كلما ابتعدوا عن الله أذلهم في الأرض.. حتى يأتيهم النبي المخلص ليأخذ بأيديهم فيكون هو أول من يكوى بنارهم ليعود الذل من جديد.

المُخَلِّص

ولا زال اليهود في انتظار المخلص الذي وعدهم الله به ليعيد لهم استقلالهم ومجدهم ودولتهم حتى جاءهم ثلاثة أنبياء مرة واحدة.. ولكنهم رفضوهم.. واشتدوا في رفض

آخرهم عيسى ابن مريم عليه السلام.

فلماذا؟

ذلك أن مملكة عيسى كانت روحية أخلاقية متعالية على ملك الدنيا فلم يعط لليهود ملكًا دنيويًّا أو وعدًا بأن يبيدوا غيرهم من الأمم أو يسيطروا عليهم كما كانوا يحلمون.. بل جاء لينزع منهم ذلك الملك؛ لأن **(الشجرة التي نمت في الظل آن لها أن تخرج ثمارها)**[(١)].

ولذلك رفضه اليهود وأسلموه إلى أعدائهم..

ومن هنا نبدأ قصة نجمتنا البراقة مريم ابنة عمران..أم المسيح عيسى عليه السلام.



(١) نص التوراة يتنبأ بقيام أمة محمد ﷺ، والشجرة التي نمت في الظل هو إسماعيل الذي حفظت القدرة الإلهية نسله في جزيرة العرب عند بيته المحرم حوالي ثلاثين قرنًا من الزمان.

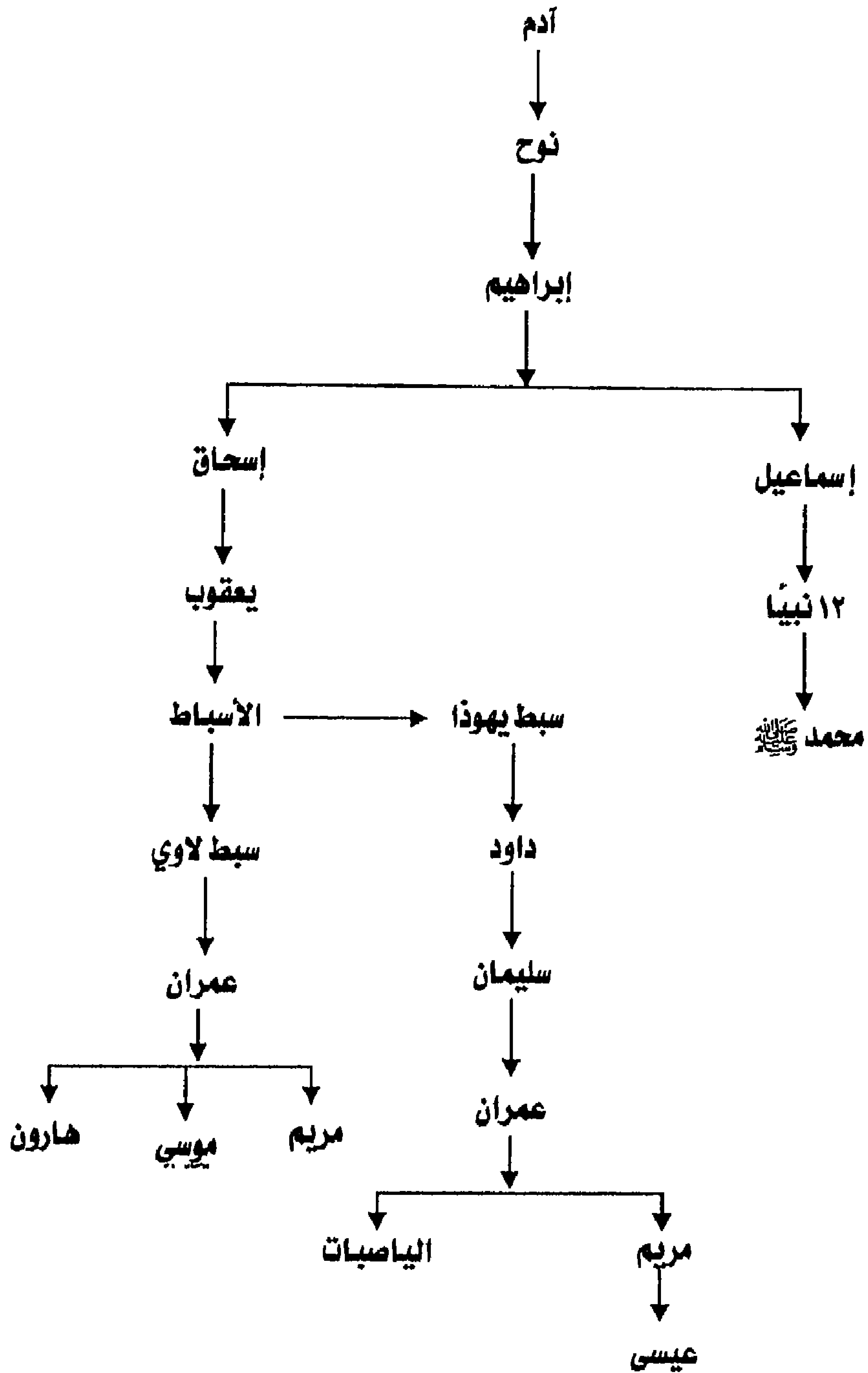


آل عمـــــران

﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

بهذه الافتتاحية بدأ القرآن قصة مريم في سورة آل عمران والآية تذكر الاصطفاء الإلهي لحمل الرسالة الواحدة بالدين الواحد منذ بدء الخليقة، والأربعة المذكورون هم طلائع المواكب الإيمانية على مدى التاريخ وهم ذرية بعضها من بعض..

وتذكر الآية آدم ونوحًا فردين ثم تذكر آل إبراهيم وآل عمران كأسرتين حيث كان الاصطفاء لآدم ونوح بشخصيهما ولإبراهيم وعمران بشخصيهما وذريتهما.


آدم
نوح
إبراهيم
إسماعيل
إسحاق
١٢ نبيًا
محمد ﷺ
يعقوب
الأسباط
سبط يهوذا
سبط لاوي
داود
عمران
سليمان
مريم
موسى
هارون
عمران
مريم
الياصبات
عيسى

مريم في القرآن:

ولقد ذكر القرآن الكريم قصة مريم العذراء وابنها عيسى أكثر من مرة ولكن تفاصيل القصة مستوفاة في موضعين أساسيين الأول في سورة مريم والثاني في سورة آل عمران حسب ترتيب النزول، ونلاحظ في الموضعين ارتباط قصة ميلاد عيسى ابن مريم بميلاد يحيى بن زكريا.

ولنبدأ من المكان والزمان.

المكان:

أرض فلسطين.. وقد احتلها الرومان وكان آخر ملوك بني إسرائيل يسمى هيرودس.. والذي أعاد بناء هيكل سليمان وسمّاه (معبد هيرودس).. ولكن في عام ٧٠ قبل الميلاد ثار اليهود على الرومان الذين حاولوا فرض وثنيتهم عليهم.. واشتدَّ الرومان في إخماد تلك الثورات حتى هدموا ذلك المعبد ودمروه تدميرًا كاملاً فلم يبق له أثر حتى اليوم[١].

وبعد موت هيرودس توزع ملك فلسطين على أولاده الثلاثة تحت الاحتلال الروماني (فيلبس وارخيلاوس وانتيباس).

واشتد الصراع بينهم حتى أصبحت الأراضي كلها تحت الإدارة الرومانية، وكان الرومان حذرين جدًّا في التعامل مع اليهود، فلم يتدخلوا في عقيدتهم الدينية ما داموا خاضعين لهم سياسيًّا واقتصاديًّا.

وسنرى ذلك عند تعاملهم مع المسيح.. فقد نظر إليه الرومان على أنه منشق عن الديانة اليهودية ولم يلقوا له بالاً إلا عندما دخل القدس (أورشليم) في مظاهرة عظيمة من أتباعه الذين كانوا ينظرون إليه على أنه (ملك اليهود) المخلص.. فأحس الرومان خطره.. واشتعلت غيرة كهنة اليهود محرضين السلطات عليه وحدث ما سوف نقصُّه عليكم:

(١) يحاول اليهود بناء هذا المعبد في القدس (أورشليم) اليوم ويسمونه المعبد الثالث، الأول معبد سليمان والثاني معبد هيرودس ولن يتم لهم ذلك إلا بعد تدمير المسجد الأقصى كما يدعون.

في هذا المكان وفي ذلك الزمان في فلسطين كانت عائلة من نسل داود تخدم في الهيكل في مدينة اسمها الناصرة من الجليل على رأسها ابنا عم هما زكريا وعمران.

عمران:

يوجد لبس تاريخي حول عمران.. حيث إن نبي الله موسى .... ابن عمران وكان له أخت اسمها مريم وأخوه هارون.. والقرآن ذكر أن مريم ابنة عمران وذكر تبكيت اليهود لها بقولهم يا أخت هارون.. فالتبس الأمر على البعض مع أنه واضح جدًّا.. وقد سئل الرسول ﷺ عن ذلك عن المغيرة بن شعبة قال: لما قَدِمْت نجران سألوني، فقالوا: إنكم تقرءون يا أخت هارون، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا فلما قدمت على رسول الله ﷺ سألته عن ذلك فقال: **إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم.**

ولم تذكر أناجيل النصارى الأربعة اسم أبي مريم (عمران) والأرجح أنه مات قبلها.. وتولت أمها تسميتها.. ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

وكانت امرأة عمران قد رزقت بنتًا -قبل مريم- اسمها اليصابات[١] زوجها أبوها عمران من ابن عمه زكريا -أحد كهنة المعبد والذي اختصه ربه بالنبوة- وانقطع نسل امرأة عمران بعد اليصابات.. بل وكانت اليصابات عاقرًا لا تنجب حتى وصلت إلى سن العجز..

ويقدر الله أن تحمل امرأة عمران.. وتفرح بحملها.. وتتمناه ولدًا.. فتنذره للخدمة داخل المعبد..

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ ومحررًا من حرر الولد؛ أي أفرده لطاعة الله وخدمته[٢] ولم يكن يحرر للخدمة إلا الغلمان..

---

(١) وهي إليزابيث Elizabeth بالإنجليزية.

(٢) المعجم الوسيط ج ١ ص١٦٥.

وضعت امرأة عمران حملها.. وقد مات زوجها عمران.. وإذا بالمولود أنثى.. فتتوجه أم مريم العابدة إلى الله لتخبره سبحانه بأمرها.

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[آل عمران:٣٦]. وقد استجيب لها في قولها: ﴿وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾كما تقبل منها نذرها.

والنبي ﷺ قال: «**ما من بني آدم مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مسِّ الشيطان غير مريم وابنها**».

ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم ﴿وِإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [(١)] [مريم: ٣٦].

معنى مريم

هي اسم آرامي أصله (ماري – أما). وماري تعني الرب.. ويختصر (مار) بمعنى سيد القوم أو السيد ومن هنا كان القديسون يبدأ أسماؤهم بـ (مار) مثل مار جرجس ومارمرقس بمعنى السيد جرجس والسيد مرقس.

و(أما) هي نفسها (أمة) في العربية فيكون اسم مريم (ماري- أما) أي أمة الرب.

وقد ترجم اسمها في الإنجيل عندما ذكرت قصة تبشير الملك لها بعيسى (وقالت مريم؛ هو ذا أنا أمة الرب ليكن قولك، فمضى من عندها الملاك).

مريم وزكريا[(٢)]

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]. وكانت هذه المرة

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء (٣١٧٧).

(٢) اسم زكريا في العبرانية (زخريا) وتنطق زكريا.. وهو مقطعين (زكر) وهو يعني (ذكر) بالعربية و(يا) وهو اختصار لـ (يهوا) اسم الله في العبرية.. فمعنى زكريا هو (ذكر الله).. وجاء في سورة مريم ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ بمعنى الذاكر لله.

الأولى والأخيرة أن تكون أنثى في خدمة الهيكل

وأنبتها ربها نباتًا حسنًا فقد تربت على عينه - سبحانه وتعالى- كما صنع موسى على عينه - سبحانه وتعالى.. فكانت سيرتها مرضية طفلة عابدة في الهيكل ثم أنثى خادمة للهيكل..

عاشت مريم طفولتها مع أمها في هذه العائلة الكريمة حتى وصل سنها إلى خمس أو ست سنوات فألحقت بالمعبد.

ولكن كان لا بدَّ لها من كفيل.. وقد مات أبوها.. ولما أخذتها أمها إلى بيت الرب (الهيكل).. اختلف القائمون على خدمة البيت من الكهنة كل منهم يريد أن يكفلها.. فهو شرف عظيم لهم أن تكون في رعايته تلك المنذورة لخدمة الهيكل.. ولم يكن هناك حلٌّ إلا إجراء القرعة ووضعت الأقلام في وعاء كل قلم مكتوب عليه اسم صاحبه فخرج قلم زكريا زوج أختها الياصبات.. وكان هذا اختيار الله لها..

(وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا)

ويبين القرآن أن هذه الحادثة التي هي من خصوصيات بني إسرائيل، والتي كانت داخل المعبد وقليلة التداول، لهي دليل على صدق القرآن وصدق محمد ﷺ أن يقصها عليهم بعد أكثر من سبعمائة عام ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

في المحراب:

نمت مريم ووصل سنها إلى ما بعد السادسة عشر وكانت إقامتها شبه الدائمة في محراب المعبد تتعبد لله تعالى معتكفة لا تخرج تقريبًا.. وكان زكريا يتفقدها ويزورها في المحراب.. فكان يجد لديها شيئًا غريبًا ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أنَّى لك هذا؟!

كنت أقوم بدوري كأب مسئول نحو أولاده وبناته فكنت أتفقدهم فأنظر في

مذكراتهم الخاصة، وأراجع تليفوناتهم المحمولة وكانوا بفضل الله كحسن ظني فيهم..

وفي يوم علمت ابنتي أني كنت أطالع بعض ما ظنوا أنها خصوصياتهم فعاتبتني في ذلك فقلت لها: إنه حقِّي يا بنيتي ويقع ضمن مسئوليتي التي تقرها لي..

قالت ابنتي: إني لا أعترض على مسئولياتك يا أبي ولكن أليس مطالعة أغراض الناس دون إذنهم منهي عنه؟ ألم تنهنا أنت عنه كثيرًا؟

ولمحت ابتسامة ظافرة على جانبي شفتي ابنتي.. فذهبت في تفكير سريع لم ألبث أن عدت منه أحمل طوق نجاة فقلت لها مبتهجًا:

عندي الدليل القرآني على أن ما فعلته جائز لي قالت ابنتي وهي تعد نفسها للهزيمة: أي دليل ذلك؟

قلت من كان يكفل مريم؟ قالت زكريا.

قلت هل كان يثق فيها؟ قالت ومن لا يثق في مريم.

قلت أأنا خير أم زكريا؟ قالت مبتسمة زكريا يا أبي.

قلت أأنت خير أم مريم؟. قالت طبعًا مريم.

قلت لها فكان زكريا رغم ثقته بمريم يتفقد أحوالها بل يسألها عمَّا غمض عنه ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.

فهو شعار تربوي أن من حقِّ الوالدين على أبنائهما أن يسألوا دائمًا عمَّا لم يحضروه لهم (من أين لكم هذا؟).

وأظن أن زكريا كان يقوم بدوره ككفيل ومرب.. فناداها برقة ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا﴾.

ودعا زكريا

وهزته إجابتها من أعماقه.. ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾.

هنالك! في هذه اللحظة وفي هذا المكان (المحراب) استشعر الفيض والعطاء الإلهي الذي جعل تلك الرغبة التي كانت مستقرة في قلبه تتأجج ولا تهدأ إنه يريد ولدًا... وهو شيخ كبير وامرأته أخت مريم عاقر لا تلد وقد وصلت هي الأخرى للسن الكبير.

ولكنه دعا ربه.. لأنه يعلم أنه لا يحقق الرغبات إلا الله.. وقد وصف الله دعاءه بأنه (خفي) أي في سره وداخل نفسه لم يطلع عليه غيره.. ولكن الله -تعالى- اطلع عليه ويحسن بنا أن ننظر إلى صيغة دعاء زكريا كما ورد في سورة الأنبياء وسورة مريم.

في سورة الأنبياء: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾.

وفي سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۞ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً ۞ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً﴾.

وواضح من دعاء زكريا آخر أنبياء بني إسرائيل إلى أي حد وصل فسادهم حتى فسد كهانهم (موالي زكريا) حتى خاف على الشريعة منهم فطلب من ربه ابنًا يكون نبيًّا بعده ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾؛ أي يرث النبوة التي استمرت في آل يعقوب حتى زمنه هذا.

ويستجيب الله لزكريا وتحمل زوجته الياصابات أخت مريم بنبي الله يحيى بن زكريا.





اصطفاء مريم

ويرسل الله الملائكة إلى مريم يبلغونها باصطفائها مرتين ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾.

فكانت رعاية الله -تعالى- لمريم على ثلاث مراحل:

الاصطفاء الأول: وهو قبولها لخدمة الرب في الهيكل وهي أنثى لأول مرة ولم يكن هذا لغيرها من الإناث.

الاصطفاء الثاني:التطهير: لقد استمرَّ اليهود يتهمون مريم العذراء بالزنى؛ لأنهم وجدوها ومعها طفل من خطيبها..

وإذا نظرنا إلى روايات الإنجيل عن ميلاد عيسى ابن مريم نجدها تقف عاجزة عن ردِّ هذا الاتهام.

في إنجيل لوقا(١)

[وفي الشهر السادس (أي بعد حمل أختها زوجة زكريا) أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة، إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف. واسم العذراء مريم] وكان يوسف يعمل بالنجارة فاشتهر باسم يوسف النجار.

وفي إنجيل متى(٢)

(أما ولادة يسوع فكانت هكذا؛ لما كانت مريم أمة مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا (أي يدخل بها)، وجدت حبلى من الروح القدس).

---

(١) لوقا (١- ٢٦، ٢٧).

(٢) متى (١-١٨، ١٩).

وهنا حدثت المشكلة داخل عائلة مريم

لقد وجد يوسف امرأته المخطوبة له حاملاً وهو متأكد أنه لم يمسَّها.. فماذا يفعل.. لقد أراد أن يفسخ خطبته بها.. وكانت الخطبة تعادل الزواج في الشريعة اليهودية فكان لا بدَّ من طلاق شرعي معلن يفسخ به الخطبة وكان يجب أن يقدم سببًا لطلبه فسخ الخطبة.. ويوسف من نسل داود أي من عمومة مريم.. وهو يراها طاهرة مقيمة في المحراب فلم يرد أن يفضحها ويفضح البيت الداودي كله والذي كان الكهنة منه فأراد أن يكون الأمر سرًّا بينه وبين أهلها.

[إنه سلوك رجل عادل بار، فالبار يسعى دائمًا لستر ذنوب وتعديات وأخطاء الآخرين][1].

ولذلك ورد في إنجيل متى: [فيوسف رجلها إذ كان بارًّا، ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سرًّا][2].

وتأتي براءة مريم ليوسف خطيبها في رؤية رآها كما يرويها متى أيضًا يقول عن يوسف: [ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور، إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً.. يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك؛ لأن الذي حبل به فيها من الروح القدسي. فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع؛ لأنه يخلص شعبه من خطاياهم][3].

وأطاع يوسف ما جاء في الرؤيا وواضح تصرفاته الأخلاق الراقية التي رزقه الله بها؛ ليكون مؤهلاً لمرافقة مريم في هذه المهمة الشاقة أن تكون أم كلمته عيسى عليه السلام.

[فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب، وأخذ امرأته ولم يعرفها[4] حتى ولدت ابنها البكر ودعا اسمه يسوع].

---

(١) حياة المسيح (دراسة تفصيلية) د.برابان ج. بابلي.

(٢) إنجيل متى ١ - ١٩.

(٣) متى ١/ ٢٠- ٢١.

(٤) يعرفها: أي يجامعها.

ويبدو أن خبر الرؤيا وصل إلى زكريا وزوجته أخت مريم فتقبل البيت الطاهر نبأ حمل مريم وباركته أختها عند زيارة مريم لها ومكثت عندها ثلاثة أشهر[١]..

وهكذا فإن خبر حمل مريم كان داخل عائلتها سرًّا إلى أن وضعته وكان أن شاع الخبر.. امرأة مخطوبة تلد ولدًا.. فأشيع النبأ في اليهود- أهلها-.. الذين لا يعترفون إلى الآن بطهارة مريم بل يصفونها بالزنى.

إخوة عيسى

واستمر الأمر على هذا والنصارى لا يجدون في كتبهم ما يبرئ عيسى أو المسيح إلا أنه قد دعي بابن يوسف النجار وهو الابن البكر لمريم من يوسف حيث تزوجا بعد ذلك وأنجبا أربعة إخوة لعيسى.. كما ورد في الإنجيل.

[وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجًا طالبين أن يكلموه، فقال له واحد، هو ذا أمك وإخوتك خارجًا طالبين أن يكلموك][٢]. وورد في الإنجيل المتداول في أيدي النصارى اليوم أسماء إخوته أيضًا [ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم في مجمعهم حتى بهتوا، وقالوا: من أين لهذا هذه الحكمة والقوات أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب وموسى وسمعان ويهوذا؟ أو ليست إخوته جميعهن عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلها[٣].

وهكذا استمرت التهمة ملتصقة بمريم من اليهود ولا يستطيع النصارى الدفاع إلا بما آمنوا به من براءة مريم حتى جاء القرآن فأعلن براءتها وألقم اليهود حجرًا مسكتًا فأعلن أنها مطهرة.. وأنها أحصنت فرجها وذكرها الله كنموذج للمرأة الصالحة.

وهنا تظهر عظمة هذا الدين، ويتبين مصدره عن يقين فهذا محمد ﷺ رسول الإسلام الذي يلقى من أهل الكتاب -ومنهم النصارى- ما يلقى من التكذيب والجدل

(١) لوقا ١/ ٣٩-٤٥.

(٢) متى: ١٢، ٤٦-٤٧.

(٣) متى ١٣: ٥٤-٥٦.

والشبهات.. ها هو ذا يحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على «نساء العالمين» بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق. وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم ويتخذون من تعظيمها مبررًا لعدم إيمانهم بمحمد وبالدين الجديد!

أي صدق؟ وأية عظمة، وأية دلالة على مصدر هذا الدين، وصدق رسوله الأمين ﷺ!

إنه يتلقى الحقَّ من ربه عن مريم وعن عيسى ؈، فيعلن هذا الحق، في هذا المجال ولو لم يكن رسولاً من الله الحق ما أظهر هذا القول في هذا المجال[1].

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ ثم جعلها في مرتبة الصديقين.

﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

وأخيرًا يصف بني إسرائيل بالكفر لاتهامهم مريم ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾.

وهكذا كانت مريم العذراء القديسة موصومة بالفاحشة قرونًا من الزمان لا شهادة على براءتها إلا شهادة أتباع عيسى.. فجاء القرآن شهادة أخرى من النبي الخاتم على براءتها.. فكان هذا تصديقًا لقوله -تعالى- ﴿وَطَهَّرَكِ﴾.

٣- الاصطفاء الثالث:

قالوا هو: أن تكون معجزة لم تتكرر ولن تتكرر أن تحمل مريم بكلمة من الله بدون أن يمسها رجل.

وقالوا: إنه اصطفاء على نساء العالمين بالفضل والخيرية؛ ولذلك جمع ابن كثير أحاديث الكاملات من النساء وخير النساء في الجنة وخير نساء العالمين فكانوا أربعة،

(١) في ظلال القرآن ٣٩٥- ٣٩٦.

وبدراسة الأحاديث وصل إلى أن خير النساء على الإطلاق هي مريم بنة عمران، ويليها خديجة بنت خويلد، ثم فاطمة بنت محمد ﷺ وبنت خديجة، ثم آسية امرأة فرعون[١].

فمريم خير نساء العالمين.. ولذلك يقول ﷺ لفاطمة: «أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول».

البشارة بعيسى

نعود إلى مريم الشابة الصغيرة المصطفاة وهي تأوي إلى المحراب حيث تنفذ هذه الوصايا لا تخرج منه إلا لحاجة شديدة، يأتيها رزقها من عند الله ولا يدخل عليها إلا كافلها وزوج أختها النبي زكريا. والتي تلقت أمور ربها لتعدها للمعجزة الكبرى في أعراف الناس والشأن العادي للمشيئة الإلهية.. ولكن رغم ذلك تحتاج إعدادًا ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ وإن كانت هذه توجيهات من الله إلى مريم إلا أنه أيضًا وصف دقيق لحالتها في المحراب حيث تنفذ هذه الوصايا.

وفي أحد مرات خروجها من الهيكل لقضاء حاجتها التي تتطلب أن تكون متفردة بعيدة عن الناس جاءها الملك في صورة بشر ليخبرها بأنها ستحمل في طفل.. ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۞ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۞ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾

[مريم: ١٦-١٨].

فتاة صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة تجلس في معبدها بعيدًا عن الناس تعبد ربها في أنس وسعة وذات يوم حدث لها ما جعلها تتوارى من قومها ومن زملائها في المحراب ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [مريم: ١٧]؛ ذلك لتقض بعض شئونها كفتاة.. وفجأة تجد أمامها شابًّا ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٧] فانخلع قلبها.. ولملمت نفسها وجمعت حاجاتها.. ولم تجد من يعيذها إلا ربها فصرخت ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ

(١) البداية والنهاية.

بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:١٨]

علمت مريم أن التقي ذو نهي على صاحبه يمنعه من أي شر[١]، لقد سألت نفسها من هذا الشاب الذي فاجأها في خلوتها الخاصة. وأسرع الضيف الغريب بالإجابة ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم:١٩]، وتسري الراحة في نفس مريم. إذا فأنت ملاك في شكل إنسان وكم جاءتها الملائكة برزق ربها وكم قالوا لها ﴿اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ ولكن لا يتركها الملك في راحتها تلك طويلاً، ولا تمكث الطمأنينة إلا لحظة وإذا بالملك يفجر مفاجأة تهزُّ كل كيانها يقول لها: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم:١٩]، ويعود إليها الفزع من جديد.. فتاة صغيرة غارة في مكان خالٍ، وشاب يقول لها ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا﴾ وهنا تدفعه بحياء وخجل، ولكن في قوة وعزم قالت: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠]، وقد قرئت (ليهب لك) وهي صحيحة؛ أي ربك أرسلني ليخبرك أنه سيهب لك غلامًا فكان ردّها المتعجب ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [مريم:٢٠]؛ أي لم أتزوج! والمسُّ هنا كناية عن العلاقة بين زوجين وهو كما قال -تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٠]، ولن أكون كذلك يومًا ما.

وهنا تخرج الحقيقة الإلهية من فم جبريل أن الأمر ليس بهذا الهول وليس بتلك الصعوبة فنحن لم نره كذلك إلا لبعده عنا ولكن بالنظر إلى الفاعل. ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١].

هو على الله هين.. وأي أمر على الله هين، فما هذا في خلق السماوات والأرض وما هذا في خلق الجبال وما هذا في خلق الشمس والقمر، وما هذا في كل خلق من خلق الله، والكل على الله هين.

لماذا جاء عيسى بهذا الشكل؟

يجيب الله -تعالى- مبينًا سببين لمجيء هذا المولود العجيب:

---

(١) وردت قصة؛ أنه كان هناك شاب مجرم اسمه (تقي) نظنته مريم هو فقالت هذا.. وهي قصة بلا سند يعتمد عليه ولا تليق بأسلوب القرآن الذي لا يهتم بذكر الأسماء غالبًا.

١ - ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم:٢١].

آية تذكر بالخلق الأول خلق آدم وحواء.

﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥].

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

آية لن تتكرر مرة أخرى؛ لأن نواميس الله وسننه هي الأصل.

آية بين يدي انتهاء النبوة في بني إسرائيل والتبشير لبني إسماعيل وقدوم النبي الخاتم يقول يوحنا على لسان عيسى:

«لكن أقول لكم الحق.. إنه خير لكم أن أنطلق لأن إن لم أنطلق لا يأتيكم البارقليط.. ولكن إذا ذهبت أرسل إليكم».

والبارقليط كلمة تعني الذي له الحمد الكثير؛ أي الأحمد.. وهكذا بين القرآن اسمه في البشارة.

﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾.

٢ - ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم:٢١].

فعيسى جاء رحمة للناس وخاصة في عهده، لقد جاء على دين قد ضاق بالناس حتى أن خطوات الطهارة كانت حوالي ٢٧ خطوة والأحكام عجيبة عجيبة، والعقيدة طلاسم، والكهنوت جبروت؛ ولذلك كان بين يدي دعوة عيسى قوله: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران:٥٠].

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٢١].

قالوا هذا من كلام الله.. أنه قضي الأمر. وقالوا: إنه من كلام جبريل..

الأناجيل وبراءة مريم

وقد أوردت الأناجيل قصة إعلان مريم بميلاد عيسى كالآتي:

يقول لوقا: [فدخل إليها الملاك، وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها. الرب معك. مباركة أنت في النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة من عند الله، وها أنت ستحبلين وتلدين ابنًا وتسمينه «يسوع»](١).

وكان رد فعل مريم كما يقول لوقا: [فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف(٢) رجلاً فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضًا القدوس المولود منك يدعى ابن الله](٣).

فهو ذا الياصبات نسيبتك هي أيضًا حبلي بابن في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرًا؛ لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله. فقالت مريم: هوذا أنا أمة الرب ليكن لي كقولك، فمضى من عندها الملاك](٤).

وهكذا يربط الملاك بين حمل مريم وحمل أختها الياصبات؛ لأن في الثاني: معجزة أيضًا؛ حيث إنها كانت عاقرًا وكبيرة في السن، وزوجها كبير أيضًا ليقرب لها فكرة أن الله قادر على كل شيء(٥).

وهو نفس ما ذكره الله على لسان زكريا

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٠].

---

(١) لوقا ١: ٢٨- ٣٨.

(٢) (أعرف رجلاً) في لغة الأنجيل تعني (لم يمسسني بشر) أي لم تكن لي علاقة زوجية مع رجل وقد ورد في قصة يوسف النجار [وأخذ امرأته ولم يعرفها حتى ولدت ابنها البكر ودعا اسمه يسوع] [متى ١: ٢٥].

(٣) سوف يأتي توضيح معنى (ابن الله) و(الأب) من خلال ورودها في الأناجيل.

(٤) لوقا: ١: ٣٤- ٣٨.

(٥) وواضح الربط بين قصة مريم وقصة زكريا ويحيى كما ربط القرآن بينهما في سورة آل عمران ومريم مع وضوح الفرق بين بلاغة القرآن في العرض وركاكة لغة الأناجيل التي كتبها البشر والترجمات المختلفة.

مريم تـزور أختها

ويذكر لوقا أيضًا أن مريم انطلقت لزيارة أختها اليصابات فلما رأتها ركض الجنين في بطنها فباركت مريم وباركت الطفل الذي ستلده، يقول لوقا: [فقامت مريم في تلك الأيام وذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريا وسلمت على اليصابات فلما سمعت اليصابات سلام مريم ارتكض الجنين في بطنها وامتلأت اليصابات من الروح القدس وصرخت بصوت عظيم وقالت: مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك][1].

ثم هنأتها على رضاها بقدر الله لها وصبرها على ذلك، يقول لوقا على لسانها: [فطوبى للتي آمنت أن يتم ما قيل لها من قِبَل الرب][2].

كيف حملت مريم؟

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وفي سورة الأنبياء: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

فهل الروح هنا هو الروح في سورة مريم ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم:١٧] فكانت النفخة منه وما معنى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾؟.

وتأتي الروح في القرآن على خمسة أوجه [الرحمة، وملك معين، وجبريل، والوحي، والحياة].

فقوله -تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ تعني برحمة منه.

وقوله -تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ هو ملك على يمين العرش.

---

(١) لوقا ١: (٣٩- ٤٣).

(٢) لوقا: (١-٤٥).

وقوله -تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ هو جبريل عليه السلام.

وقوله -تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ هو جبريل أيضًا.

وقوله -تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ هو الوحي.

وقوله -تعالى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ تعني حياة عيسى. وكذلك ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ يعني الحياة.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾.. تعني الحياة وهكذا فهناك اختلاف بين الروح التي أرسلها الله -تعالى- إلى مريم تنبئها بالبشرى والروح التي نفخها فيها ليكون عيسى ابنها في بطنها[1].

وهو عليّ هين

وقد يجد البعض في حمل مريم لعيسى بدون أب أمر فوق العادة، ولا يذكر أن خلق آدم بلا أبوين كان أكثر عجبًا، وخلق حواء من آدم الذي لا يملك جهازًا تناسليًّا يحمل فيه مولودًا كان أكثر وأكثر.

ثم إن نجاح عملية استنساخ كائن كامل من خلية واحدة بلا تزاوج أو ذكورة أو أنوثة.. واستنباتها في خارج الرحم ثم زرعها في رحم لتخرج كائنًا حيًا كل ذلك يجعل النظر إلى أمر خلق آدم وحواء وعيسى على أنهم بالنسبة لله أمر هين كل ما في الأمر أن يقول كن...

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢].

حملت به في بطنها كأي امرأة عادية تسعة أشهر وكان ذلك بعد ستة شهور من حمل يحيى.

وكما روى لوقا في إنجيله أنها مكثت عند أختها اليصابات ثلاثة أشهر فيبدو أنها

---

(١) انظر الوجوه والنظائر أبو عبدالله الدامغاني ج ١ ص ٣٦٤، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر ١٩٩٦م.

حضرت ولادة يحيى، واطمأنت على أختها وعادت مرة أخرى إلى أورشليم (القدس) ولم تكن دلائل الحمل بدأت تظهر عليها، ولكن كان هاجس ولادتها في بلدتها يؤرقها ويؤرق خطيبها يوسف الذي أصبح شريكًا لها في تحمل مسئولية هذا الحمل المبارك.

وهنا تتدخل عناية الله لتوفير وسيلة لإخفاء أمر مريم عن الذين يعرفونها في مدينتها، وحتى نتفهم الموقف الذي ذكره لوقا في إنجيله يجب أن نتعرف على المكان الذي كانت تعيش فيه مريم.

كانت مريم تعيش في الناصرة في الجليل شمال فلسطين. عند حملها بعيسى وفي هذا الوقت صدر قرار من قيصر روما التي كانت تحتل فلسطين أن يكتتب كل السكان لتنظيم عملية الضرائب (مثل التعداد العام للسكان).

وكان القرار يستلزم أن يعود كل واحد إلى بلده التي ولد فيها.. ولما كانت مريم ويوسف من سبط يهوذا ومن بيت داود فكان لزامًا عليهما أن يسافرا إلى بيت لحم مدينة داود جنوب أورشليم في وسط فلسطين فقطعا المسافة في ثلاثة أيام.

يقول لوقا: [وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونين، وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرونيوس والي سوريا فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته. فصعد يوسف أيضًا من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتب مع مريم امرأته المخطوبة وهي حبلى[1].

وهناك في بيت لحم حيث لا يعرفها أحد تقريبًا.. تم الميلاد العظيم.﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]

ونلاحظ في ﴿فَأَجَاءَهَا﴾.. أي ألجأها واضطرها؛ أي جاءها فجأة فجلست تحت جذع النخلة، وها هي مريم الشابة الصغيرة الطاهرة تواجه الآلام الجسدية مع الآلام

(١) (لوقا ٢: ١-٦).

النفسية، ويفاجئها المخاض ويلجئها إلى جذع النخلة تستند عليه وتتشبث به من آلام الولادة وهي وحيدة عذراء في أول ولادة لها لا تعرف شيئًا، ولا معين لها في شيء، كيف ستعود إلى قومها في الناصرة وهذا المولود على ذراعيها.. كيف ستواجه كهنة المعبد الذين رأوها طاهرة مطهرة في المحراب.. نعم إن زكريا وزوجته وخطيبها يعرفون سرَّ هذا المولود الطاهر بعد أن أوحى الله إليهم بذلك عن طريق رؤيا يوسف النجار خطيبها ولكن كيف سيأتي الوحي كل قومها.. من ينقذها من هذه المصيبة.

وبذلك ابتعد يوسف بمريم عن بلدها وأهلها التي تعرفها وذلك برعاية من الله ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ على بعد ثلاثة أيام من بلدتها حوالي مائة وخمسين كيلو مترًا بين الناصرة في الشمال وبيت لحم في الجنوب.

يا ليتني مت!

كان الطلق يضرب كل كيان الصغيرة مريم مع الألم النفسي الشديد من تصورها ما يحدث لها فصرخت في نفسها ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

وفي شريعة الإسلام: ورد نهي عن تمني الموت في أكثر من حديث فعَنِ النَّضْرِ بْنَ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ أَنَسٌ ﷺ وَلَوْلاَ أَنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لاَ تَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ لَتَمَنَّيْتُهُ»(١).

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الموْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ فَاعِلاً فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْراً لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْراً لِي»(٢).

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «لاَ يَتَمَنَّى أَحَدُكُمُ الموْتَ إِمَّا مُحْسِناً فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ وَإِمَّا مُسِيئاً فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ»(٣).

(١) رواه البخاري، ح (٧٢٣٣).
(٢) رواه البخاري، ح (٥٦٧١).
(٣) رواه البخاري، ح (٧٢٣٥).

ولكن هل هذا النهي على إطلاقه؟

قال العلماء: لا... هذا متعلق بالضر في الدنيا حتى أن حديث أنس ورد بصيغة تخصص الضر بالضر الدنيوي، أما إذا كان الضر في الدين؛ أي فتنة في الدين فيجوز وهذا أول موقع من ثلاثة مواقع يجوز فيها تمني الموت:

١- تمني الموت في سبيل الله وهي الشهادة.

٢- عند نهاية الأجل بحسن الخاتمة.

فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا

وكان هذا هو حال مريم.. عندما اشتد عليها الأمر وشعرت أن العار قد لحقها وأنها قد يتهم دينها بذلك المولود فقالت: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] أي لم أكن شيئًا يذكر.

وهنا يأتي التثبيت الإلهي ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ [مريم: ٢٤] وقرئت (مَن تحتها) بفتح الميم من (مَن) ولذلك كان لها تفسيران.

١- أنه عيسى ابنها فهو من تحتها.

٢- أنه جبريل الملك مِن أسفل الوادي.

ولم يتكلم عيسى إلا مرة واحدة، كما رجح ابن كثير واختار الأول سيد قطب: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۞ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۞ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٤، ٢٦].

﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ لا تحزني فإن الله معك.. وهي مسحة حانية على أساها...

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥].

وهكذا تجد مريم نفسها أمام معجزات متتالية:

١- كلام عيسى المولود على رأي من قرأ (مَن تحتها) ،أو اتصال مباشر ومستمر بملاك الوحي جبريل على رأي من قرأ (مِن تحتها).

٢- سريان جدول ماء عذب وتدفقه تحتها وقد قيل إنه لم يكن موجودًا.

٣- لم يكن وقت إثمار النخل ولكنه أثمر رطبًا جنيًّا.

٤- مجرد هزها للجزع الذي لا يهتز - وهي المرأة الضعيفة النفساء- يتساقط الرطب[1].

وكل هذه دلالات على طلاقة القدرة الإلهية وإلغاء جميع الأسباب أمامها ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فيعود القلب إلى الفاعل الأول -سبحانه وتعالى- وتدرك أن كل ما حدث هو من الله والله كفيل بحفظها، وهذا اطمئنان لمريم وإشعار لها بأن الله معها لن يتركها بعد أن حرَّك الكون كله من أجلها.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦] وقرة العين هي الراحة والاستقرار.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ مهما رأيت ﴿مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ فقولي إني نذرت الصوم عن الكلام وهو منهي عنه في شريعتنا.. ولكن هنا لا مجال للكلام البشري فالمعجزة لا تحتاج لكثرة شرح وجدال، هذه امرأة علمت أن أحدًا لن يصدقها أنها حملت من غير زوج وأنتم يا بني إسرائيل لن يجدي معكم الكلام.. فالحديث معكم بعد ذلك أكبر من قدرات البشر..

ونلاحظ المشابهة لموقف زكريا حيث الصمت عند المعجزة ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ ...﴾.

---

(١) وقفت طويلاً متدبرًا لأجد الحكمة من التفات النص القرآني عن مصيبتها التي تمنت الموت من أجلها إلى توجيهها إلى الأكل والشرب ورعاية صحتها بوليدها ولما لم أجد ما يشفي صدري تركت الأمر لمن يتدبر ويراسلني بنتائج هذا التدبر.

براءة مريـــم

المسيح الطفل ينطق:

وجاء موعد اللقاء الرهيب الذي كانت مريم تعمل له ألف حساب وقبل أن نستطرد في الموقف القرآني من هذا اللقاء نقف عجبًا أمام الأناجيل المتداولة التي حكت قصة ميلاد عيسى ابن مريم حيث إنها لم تذكر هذا الموقف، بل وبالرجوع إلى أصدقائي النصارى وجدت أن قصة كلام عيسى في المهد غير مثبتة لديهم.. ونسأل سؤالاً مهمًّا: كيف تلقى قوم مريم هذا الوليد الذي على ذراعيها؟ والمعروف تشدد اليهود في جريمة الزنى... ومريم لم تكن متزوجة... كانت مخطوبة لقريبها يوسف النجار والخطبة عندهم لا تحل العلاقة بل تظل على حكمها.

ولم أجد في الأناجيل الأربعة المتداولة أمرًا مقنعًا ببراءة مريم لا أقول مقنعًا لأتباع عيسى فهؤلاء يرجى منهم الاقتناع بأصل الإيمان لديهم وأنه يكفي أن تقول الأناجيل أنها بريئة ليصدقوا بذلك.

ولكن ماذا حدث عند ميلاد عيسى من معجزات تبرئ أمه لقد حدثت حادثتان ذكرتها الأناجيل في نفس ميقات ميلاد عيسى.

تعتبرا نوعًا من أنواع الحوادث المدعمة كمعجزات بين يدي ميلاده.

الرعاة

الأولى: أن مجموعة من الرعاة كانوا في حراسة ليلية فظهر لهم جبريل (ملاك الرب) ليخبرهم بميلاد المخلص المنتظر الذي ينتظره اليهود فانطلقوا ليخبروا كل سكان بيت لحم بالخبر.

يقول لوقا في إنجيله: وكان في تلك الكورة[1] رعاة متدينون يحرسون حراسات الليل

---

(١) أي: القرية.

على رعيتهم، وإذا ملاك الرب وقف بهم، ومجد الرب أضاء حولهم فخافوا خوفا عظيمًا، فقال لهم ملاك الرب: لا تخافوا. فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب.

أنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرب[١] وهذه لكم العلامة، تجدون طفلا مُقمَّطًا مُضطجعًا في مذود، وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماوي مسبحين الله وقائلين: «المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس المسرَّة».

ولما مضت عنهم الملائكة إلى السماء قال الرجال الرعاة بعضهم إلى بعض لنذهب الآن إلى بيت لحم وننظر هذا الأمر الواقع الذي أعلمنا به الرب، فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضطجعًا في المذود، فلما رأوه أخبروا بالكلام الذي قيل لهم عن هذا الصبي وكل الذين سمعوا تعجبوا مما قيل لهم من الرعاة، وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها، ثم رجع الرعاة وهم يمجِّدون الله ويسبِّحونه على كل ما سمعوه ورأوه كما قيل لهم[٢].

وهذه الحادثة كانت في بيت لحم حيث ولد عيسى وليست الناصرة حيث قوم مريم.. فهي لا زالت تحتاج ما يدعمها عند مواجهة قومها وخاصة عند بدء حركتها لترحل إلى أقرباء لها بعد الحادثة التالية.

المجوس:

ولد عيسى في بيت لحم، وكان في أرض الفرس مجوس من المنجِّمين كانوا قد علموا من حساباتهم الفلكية أن طفلاً سيولد بأرض فلسطين وأنه سيكون ملكًا على اليهود. ورأوا أن نجمه قد ظهر في السماء فعلموا أنه قد ولُد، فشدُّوا الرحال إلى فلسطين ليتشرَّفوا برؤية هذا الوليد ويتحققوا من صدق نبوءتهم. فجاءوا إلى أورشليم لظنهم أنه لا بدَّ يولد بها ما دام سيكون ملكًا على اليهود. وراحوا يسألون الناس عن المولود.

يقول متى[٣]: (وإذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود

(١) سيأتي معنى الرب والأب والآب من الأناجيل تدل على أن عيسى نبي وليس إلهًا..

(٢) لوقا: ٢ : ٨-٢٠، والمذود هو المكان الذي يوضع فيه الطعام للحيوانات.

(٣) متى (٢ : ١-٦)

ملك اليهود فإننا رأينا نجمه في المشرق وأتينا لنسجد له، فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه، فجمع كل رءوساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح؟ فقالوا: إنه يولد في بيت لحم اليهودية؛ لأنه هكذا مكتوب: «وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا؛ لأن منك يخرج مُدبِّر يرعى شعبي إسرائيل».

ولعل المجوس كانوا يتوقعون أن يجدوا أورشليم على علم بهذا المولود والجميع ينتظرون ويرحِّبون بمليكهم المقبل، فإذا بهم يكونون أول المبشِّرين به. ولما علموا من الكهنة أنه سيولد في بيت لحم تشككوا في حساباتهم، وكذلك تشكك هيرودس (ملك اليهود) في صدق نبوءتهم فلم يتخذ إجراءً حاسمًا للتأكد منها، بل طلب من المجوس أن يذهبوا إلى بيت لحم ويبحثوا عن المولود الذي يتوقعونه.

يقول متى(١) : [حينئذٍ دعا هيرودس المجوس سرًّا وتحقق منهم زمان النجم الذي ظهر ثم أرسلهم إلى بيت لحم، وقال: اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبي ومتى وجدتموه فأخبروني؛ لكي آتي أنا أيضًا وأسجد له، فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذي رأوه في المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف حيث كان الصبي، فلما رأوا النجم فرحوا فرحًا عظيمًا جدًّا وأتوا إلى البيت ورأوا الصبي مع مريم أمه فخروا وسجدوا له، ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبًا ولبانًا ومُرًّا، ثم أُوحي إليهم في حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس فانصرفوا في طريق آخر إلى كورتهم].

ومن المؤكد أنهم إذ لم يرجعوا إلى هيرودس فإنه ظنَّ أنهم لم يعثروا على الطفل وأن رؤيتهم لنجمه كانت مجرد أوهام.

وكانت مريم قد علمت من المجوس أن هيرودس يطلب الصبي، ولا شكَّ أنها حدست أنه يريد به شرًّا وإن ادعي للمجوس أنه يريد أن يسجد له، ولا شك أنها أسرَّت بمخاوفها ليوسف النجار خطيبها فقرر أن يلجأ إلى أقارب لهم في إحدى ضواحي بيت

(١) متى (٢: ٧- ١٢).

لحم وهي بلدة فارس التي تبعد ١٩كم عن بيت لحم، وبمجرد أن طهُرت مريم من نفاسها بعد ٤٠ يومًا من الولادة اشترى يوسف أتانا (أنثى الحمار) وأركب مريم وابنها معها وسار هو يقود الأتان.

وهذه القصة أيضًا لا تبرر لقوم مريم ما يعتبرونه جريمة أن تأتي لهم بطفل بلا زواج.

القرآن وبراءة مريم:

والآن نعرض لما حدث كما عرضه القرآن الكريم ونقارن بين هذا العرض للمعجزة التي تعطى لقومها اليهود مبررًا مقنعًا لتقبل ما جاءت به وسمُّوهُ (شيئًا فريًّا) فتقف عائلتها معها على الأقل، وبين ما عرضته الأناجيل من مرور هذا الأمر بلا عقاب برغم أنه ليس هناك مبرر لذلك فمريم لم تكن فتاة عادية وإنما كانت بنت الهيكل سليلة خدام الهيكل وأختها زوجة نبي وستصبح أم نبي..

كيف تمرُّ تلك الفضيحة لأسرة الأنبياء هكذا بلا معجزة مدوية... وهل هناك معجزة في هذا الموقف أكثر دويًّا من كلام الطفل في مهده ليبرئ أمه ويعلن عن هويته ومن هو.

وفي البداية أخبر الله مريم بما تفعل ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾.

فالكلام ممتنع عن مريم؛ لأن الذي سيتكلم هو الطفل نفسه.

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ۞ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ۞ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ۞ قَالَ إِنِّي عَبْدُ الله آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

إنكار النصارى لكلام عيسى في المهد[1]:

هذه هي المعجزة التي يخبر القرآن بها أنها حدثت عند ميلاد عيسى لتبرئ أمه أمام قومها من اليهود..

ويبدو أن حادثة كلام عيسى في المهد كانت في حيز ضيق من قوم مريم في مدينة فارس التي تبعد عن بيت لحم حوالي ١٩كم، وعن بلدتها الناصرة في الجليل حوالي ١٣٠كم فلم يشاهدها كل اليهود.. وجاءت الأحداث المتتالية بعد ذلك من أمر ملك اليهود بقتل الأطفال وهروب مريم بابنها إلى مصر وغيرها، فحجبت هذه المعجزة إلا أنها على الأقل برأت مريم أمام قومها.. ولكن لم تسجلها الأناجيل وسجلت فقط أن مريم ولدت عيسى بغير أب ولم تقدم غير الإيمان دليلاً على ذلك فاستغلها اليهود استغلالاً سيئًا طوال حوالي سبعمائة عام

حتى جاء القرآن ليعلن براءة مريم ويكشف عن هذه المعجزة التي حدثت من الطفل الوليد ونسيها النصارى أنفسهم، والعجيب عدم احتفاء النصارى بهذا الأمر الذي جاء به القرآن.. إلا أن بعض عقلائهم مثل النجاشي عندما استمع إليها دمعت عيناه وأعلن تصديقه لها.

والأكثر عجبًا أن الأناجيل عندما تذكر عيسى تذكره بنفس الهوية التي عرفه بها المجتمع اليهودي خلال سنوات عمره الثلاثين أنه ابن يوسف النجار.. ولذلك عندما ذكرت الأناجيل نسبه ذكروه مقترنًا بيوسف كأب له يقول متى: (ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح)[١].

ويقول لوقا: [ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة وهو على ما كان يُظن ابن يوسف بن هالي].

وهنا أمران: أن النسب الذي ذكره متى فيه يوسف بن يعقوب ويذكر لوقا أنه ابن هالي..

وهالي هو عمران أبو مريم وبقية النسب هو نسب مريم.. فلوقا هنا يثبت ما يثبته القرآن دائمًا أن عيسى ابن مريم لا أب له.. ولكن يذكر يوسف هنا لعادة اليهود من نسب الشخص لأب ولعدم معرفته إلا ببنوته ليوسف[٢].

(١) متى ١:١٦.

(٢) انظر حياة المسيح ص ١٦.

الأمر الثاني: تصريح لوقا بأن هذا كان الظن في نسب عيسى إنه ابن يوسف النجار فكيف يتلقى الناس تلك الأناجيل طوال القرون التي سبقت الإسلام والتي تشكك في نسب عيسى ثم لا تعلن سببًا لعدم وجود أب له بجانب الدعاية اليهودية التي اتهمت مريم؟! كيف يتلقون ذلك هذا من العجب العجاب!!

وهكذا عاش عيسى ثلاثين عامًا في قوم معروفًا بأنه ابن يوسف النجار.. ولذلك لما جاءهم بالرسالة تعجبوا وقالوا: [من أين لهذا هذه الحكمة والقوات أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويونس وسمعان ويهوذا؟

أليست أخواته جميعهن عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلها][1].

فيأتي القرآن ليكون شهادة من خارج دائرة اليهود والنصارى بنسب عيسى أنه ابن مريم وكلمة الله التي ألقاها إليها وروح منه.

مريم تواجه أهلها:

ونعود إلى مريم في موقفها العصيب حيث تواجه أهلها لأول مرة ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾.

الأرجح أن ذلك لم يكن في الناصرة حيث زكريا النبي وزوجته اليصابات أختها اللذان كان يمكن أن يدافعا عنها ولكن حدث ذلك في بلدة فارس القريبة من بيت لحم حيث يوجد أهل لمريم من قومها.

وتملكهم العجب وعدم التصديق خاصة أن يوسف لا زال خطيبها ولكن أسرعوا يكذبون أنفسهم حيث مريم مبرأة عندهم.. فلم يجدوا بدًا إلا أن يظهروا عجبهم ويذكروها بماضيها الطاهر، بل وبماضي آبائها قالوا:

---

(١) (متى ١٣: ٥٥-٥٦).

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٨][1].

ولم تجد ما تفعله أمام هذه اللهجة التي تحمل اللوم والعتاب وعدم التصديق وتحمل السخرية والتقريع، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩]، فاشتعل غضبهم ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

وهنا تحدث المعجزة التي تخرس معها الأفواه.. ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ [مريم:٣٠]، تكلم الوليد في مهده، لم يقل إني ابن الله. ولم يقل: إني إله. ولم يقل: إني ثالث ثلاثة آلهة، قال: إني عبد الله ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ قالوا قضى أن يأتيني الكتاب ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۞ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣٠، ٣١]، قالوا من بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم:٣١]، ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢] قالوا لا تجد أحدًا عاقًّا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًّا.. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].



(١) فيها أقوال صحيحة مثل: إنها من نسل هارون؛ مثل قولك: يا أخا العرب أو: يا شبيهة هارون وكان رجلًا صالحًا في عهدها.

وأيضًا وردت غرائب مثل: كان هناك رجل فاسد في عهدها اسمه هارون أو أنها أخت هارون التي بصرت بموسى عن جنب، والعجيب أن السيدة عائشة أيدت هذا الرأي.. ولكنها رجعت عنه إلى الحقيقة حيث إن كعب الأحبار قال: (يا أخت هارون) ليس هارون أخو موسى.. فقالت عائشة كذبت.. قال يا أم المؤمنين إن كان النبي ﷺ قال فهو أعلم وأخبر.. وإلا فإني أجد بينهما كذا وكذا، وأيضًا جادل النصارى فيه.

عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ لَمَّا قَدِمْتُ نَجْرَانَ سَأَلُونِي فَقَالُوا إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ يَا أُخْتَ هَارُونَ وَمُوسَى قَبْلَ عِيسَى بِكَذَا وَكَذَا. فَلَمَّا قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ سَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَمُّونَ بِأَنْبِيَائِهِمْ وَالصَّالِحِينَ قَبْلَهُمْ».

الموضوع واضح والسبب في هذا التصور أنه ورد أنه بعد خروج بني إسرائيل من البحر وغرق فرعون قامت مريم ابنة عمران بين يدي موسى وهارون تدق الدف «وليست هي مريم العذراء أم عيسى إنما هي مريم أخرى وعمران آخر».

اسم المولود



(المسيح عيسى)

تقبل قوم مريم ما جاءت به ولم يكن هذا إلا بعد أن أظهر الله لهم دليلاً معجزًا هو كلام (عيسى) في المهد.. ولكن يبدو أن الأمر استمرَّ في طي الكتمان أو هكذا فضلت عائلة مريم فاختفت هذه الحادثة من التاريخ واستمرَّ (عيسى) ابن مريم معروفًا في بني إسرائيل عيسى بن يوسف النجار.

وفي حوارات مع أصدقائي من النصارى أخذوا على القرآن تسمية المسيح (عيسى) قلت لهم وماذا في هذا؟

أولاً: الأحداث هي التي تهمنا.

ثانيًا: هل في تسمية عيسى ما يقلل من شأنه عليه السلام.. ويمكن أن ننظر في الأمر بدقة علمية أكثر.. واضح من الروايات التي سجلها كتبة الأناجيل أن اسم عيسى الذي أنبأ الله به مريم هو يسوع أو هو عمانوئيل أو المسيح[1].

ولقد أورد القرآن له اسمان؛ الأول: المسيح، والثاني: عيسى ابن مريم (ويسوع) هو يشوع في العبرية وتعني (خلاص الرب) أو مخلِّص.. ويترجمها متى في إنجيله يقول: [فستلد ابنًا وتدعو اسمه يسوع؛ لأنه يخلص شعبه من خطاياهم].

وتترجم الكلمة (يشوع) إلى (يسوع) في العربية وهي من الفعل ساع يسوع سوعًا.. ومعناها في العربية هلك وضاع.. وساعت الإبل؛ أي تركت بلا راعٍ.

وكعادة القرآن اختيار أفضل الأسماء فلو أطلق اسم يسوع لفهم بالمعنى العربي بما يدل على الهلاك أو الضياع.. فمن نفس حروف (يسوع) كانت (عيسى) وهي من (عسى) التي تعني الرجاء.

---

(١) [متى ١: ٢١-٢٥].

وهي أيضًا مشتقة من الفعل معتل الوسط (عاس، يعيس) وهي بمعنى كد وكدح على عياله مثلاً وعاس ماله؛ أي أحسن القيام عليه، والأعيسى من الإبل هي الكرام منها وجمعها عيس. يقول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهرها محمول

وهكذا يكون معنى إطلاق اسم عيسى على المسيح (يشوع) أفضل من إطلاق اسم يسوع بما فيه من دلالة غير مقبولة من الضياع والهلاك.

أما دلالات (عيسى) فهي بمعنى الكريم الذي كدح وكدّ في مهمته وأحسن القيام عليها.. وهل هناك كد وكدح من أن يكون على قيد شعرة من الصلب كما نرى فلا يزيده هذا إلا تمسكًا بالله ورضوخًا لمشيئته حتى ينقذه الله- تعالى[1].

المسيح

أما الاسم الذي ذكره القرآن وكتبته كتب الأناجيل أيضًا فهو (المسيح) وذكر في القرآن إحدى عشرة مرة مقترنًا بالاسم (عيسى) ومتفردًا عنه وأكثرها معرفًا بابن مريم.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

والمسيح من (المسح بدهن البركة) وهو زيت الزيتون وهو طقس يهودي يرسم به الكاهن أو الملك أو النبي، أما عيسى فلم يمسحه كاهن ولا نبي بل سماه الله (المسيح) دلالة على أن الله هو الذي مسحه؛ أي عينه في هذه المكانة.. ولذلك تذكر معرفة (المسيح) علمًا عليه وحده كأنه إذا ذكر (المسيح) فيكون عيسى عليه السلام لا غيره[2].

ولقد سمى يوسف النجار ومريم عيسى في اليوم الثامن يوم ختانه.. يقول لوقا:

---

(١) وهذا من روائع الاستخدام القرآني للغة حيث الاهتمام بالمعنى وإبراز اللفظ الذي يعبر أكثر عن أفضل المعاني.

(٢) انظر في ذلك البدراوي ص ٤٨ .وإعجاز القرآن ج ٢ ص٢٧٠ لرءوف أبو سعدة والمعجم الوسيط ١/ ٤٦٤.

[ولما تمت ثمانية أيام ليختتنوا الطفل سمي يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حُبِل به في البطن][1].

وقدمت مريم قربانًا بسيطًا للرب على ميلاد ابنها على شريعة اليهود يقول لوقا: [ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى صعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب كما هو مكتوب في ناموس الرب أن كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوسًا للرب ولكي يقدموا ذبيحة -كما قيل في ناموس الرب- زوج يمام أو فرخي حمام][2].



(١) لوقا: ٢: ٢١.
(٢) (لوقا:٢: ٢٢) وانظر الخروج من العهد القديم (١٣: ٢).

مريم والمهمة الصعبة

إنها تلك المهمة التي رفعتها إلى درجة الصديقين وجعلتها خير نساء العالمين وعدتها إحدى الكاملات من النساء.. أن تحمل بكلمة الله وتلده وتواجه به قومها ثم ترعى النبي الطفل (عيسى ابن مريم) في طفولته وتحرسه وتربيه لأداء المهمة التي جاء بها.

وبدأت المصاعب منذ أول لحظة بعد مرور ابتلاء الحمل والولادة العجيبتين بفضل الله.. وهروبها إلى مدينة فارس القريبة من بيت لحم ومن جنود ملك اليهود هيرودس[1] الذين كانوا يبحثون عن الطفل المولود حسب نبوءة المجوس.. فلم يجدوه وأخبرهم الملاك في حلم أن ينصرفوا ولا يبلغوا هيرودس به فانصرفوا، ثم أن الملك اليهودي ظل عامين ينتظر المجوس ووسوس له الشيطان أن مملكته ستضيع منه والحل أن يقتل جميع الأطفال الذين في بيت لحم أقل من سنتين[2] ويبدو أن هيرودس أراد أن يذيق اليهود أقرباءه من نفس الكأس الذي أذاقهم فرعون من قبل.

إلى مصر:

يقول متى: وإذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلاً: قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه، فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر وكان هناك إلى وفاة هيرودس[3].

---

(1) قيل: إن هيرودس لم يكن يهوديًا؛ أي ليس من نسل يعقوب إنما هو من نسل عيسو ابن إسحاق أخو يعقوب الذي كان ناقمًا على نسل يعقوب؛ لأن يعقوب بخدعة رخيصة وبتدبير من أمه زوجة إسحق أخذ البكورية من عيسو بكر أبيه فأصبح أبوه هو المستحق للنبوءة وليس عيسو وهكذا ظل الصراع بين قوم الأخين وقوم يعقوب الذين سكنوا في فلسطين وتسموا بنو إسرائيل وقوم عيسو الذين سكنوا في أرض مدين جنوب فلسطين وتسموا الآدوميون (راجع التوراة ١: ١١ وعمو بديا ١: ١٠) وواضح أن ذلك كله من أباطيل التوراة المحرفة بين يدي اليهود.

(2) (٢٠٠٠ عام على مجيء العائلة المقدسة إلى مصر)، الأنبا اثناسيوس ص ٢٢٠ وانظر بدراوي ٦/ ٢٩.

(3) (متى ٢: ١٣-١٥).

ولم ترد تفاصيل الرحلة إلى مصر في الأناجيل كما رواها أصحابها.. ولم ترد في القرآن أيضًا إلا إشارة بسيطة يقول -تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وهو وصف دقيق لأرض مصر (فالربوة) هي المكان المرتفع من الأرض المقابل للزرع.. و(ذات قرار) تعني ذات خصب (ومعين) هو الماء الجاري[(١)].

في مصر

كان عمر عيسى عند دخوله مصر سنتين وبقي في مصر مع أمه حوالي أربع سنوات لم تمكث فيها في مكان واحد بل كانت دائمة الترحال والانتقال من شمال مصر إلى جنوبها؛ وذلك تخفيًا من الحاكم الروماني في مصر ولنا أن نتصور مريم وزوجها يوسف النجار والطفل الصغير على حمار ضعيف ينتقلون بين قرى مصر لا يمكثون في مكان واحد إلا أيام قليلة.. وقد ظهرت بركة السيد المسيح الطفل عليه السلام في كل مكان توجهوا إليه.

العودة:

جاء الملاك ليوسف في رؤيا يأمره بالعودة إلى فلسطين ويبلغه وفاة هيرودس فأراد أن يعود إلى بيت المقدس إلا أن سمع أن المملكة تقسمت بين أبناء هيرودس الثلاثة فيلبس وانتيباس وأرخيلاوس الذي ملك اليهودية بعد موت أبيه ولما علم أنه كان مثل أبيه جبار يكره اليهود احتار وخاف فأوحى الله إليه أن يذهب إلى الناصرة بالجليل حيث يحكم انتيباس.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٥ ص٢٨٧ وقد ذكر اختلاف العلماء في تفسير الآية هل هي مصر أم دمشق أم بيت المقدس.. ورغم ترجيحه الأخير في التفسير إلا أنه يعود فيميل إلى أنها مصر في التاريخ وهو ما أثبتته رواية النصارى والوقائع التاريخية. انظر: البداية والنهاية ج ٢ ص ٦٩ - ٧١. والبدراوي ج ٦ ص ٣٠ وما بعدها. والقرآن لا يهتم كثيرًا ببيان الأماكن بقدر ما يبرز المعنى حيث إن المقصود هو الإشارة إلى إيواء الله لهما إلى مكان طيب ينضر فيه النبت ويسيل فيه الماء ويجدان فيه الرعاية والإيواء. (الظلال ٤/ ٢٤٦٩) كما يشير إلى الرحلة والمشقة فيها ثم فضل الله بأن يضعوا الرحال في مكان طيب، إلا أن التاريخ والآثار تثبت أن الربوة هي مصر وأن رحلة العائلة المقدسة مريم وزوجها يوسف وابنها عيسى كانت إلى مصر.

يقول متى: [فلما مات هيرودس إذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر قائلاً: قم وخذ الصبي وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل؛ لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي فقام وأخذ الصبي وأمه وجاء إلى أرض إسرائيل ولكن لما سمع أن أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضًا عن هيرودس أبيه خاف أن يذهب إلى هناك، وإذ أوحى إليه في حلم انصرف إلى نواحي الجليل][(١)].

واستقرت العائلة في الناصرة في الجليل شمال فلسطين وكان سن عيسى عليه السلام حوالي ست سنوات.

طفولة المسيح عليه السلام

هذه الفترة من عمر عيسى عليه السلام من ست سنوات وحتى اثنتا عشرة سنة لم تذكر في الأناجيل ويقول عنها كتاب الأناجيل ومفسروها أنها فترة مجهولة من حياته ولذلك تأتي مجرد إشارة عابرة إليها يقول لوقا: [وكان الصبي ينمو ويتقوى بالروح ممتلئًا حكمة، وكانت نعمة الله عليه][(٢)].

لماذا الناصرة؟

وقد سجل مفسرو الأناجيل حكمة لاختيار الناصرة ليتربى فيها الطفل عيسى ويكبر بل ويبدأ رسالته من هناك، والناصرة في منطقة الجليل شمال فلسطين حيث يعيش خليط من الشعوب عادوا بعد الأسر البابلي وتدمير مملكة الشمال فهم شعوب ليست يهودية أصيلة، بجانب أن الجليل كانت مركزًا للتجارة يرتادها الكثير من الأجانب فكانت تتصف بصفات المدن التجارية المختلطة التي يعبر بها التجار.. وكانت بعيدة عن أورشليم (القدس) المركز الديني بحوالي مائة وخمسون كيلو مترًا وهي مسافة شاسعة في هذا الوقت بالنسبة لطرق المواصلات وأساليبها.. وكان رجال اليهودية يكرهون الناصرة.. وكانوا يظنون أن المسيح المنتظر سيظهر من أورشليم مركز التعليم الديني والمحكومة بالقيم

---

(١) متى: ٢: ١٩-٢٣.

(٢) لوقا: ٢: ٤٠.

الدينية فإذا به يتربى وينمو ويظهر من مدينة فاسدة أغلب سكانها وثنيون.. حتى أنه عندما ظهر قالوا (أمن الناصرة يمكن أن يكون شيئًا صالحًا)[١]. ولذلك كانوا يدعونه (يسوع الناصري) أو (المسيح الذي من الناصرة) كنوع من التحقير والرفض له ولدعوته.

مريم وعيسى شابًا

ويكبر الطفل حتى يصل سن الثانية عشرة وكما هو مسجل في الإنجيل كان ينمو ويتقوى بالروح ويمتلئ بالحكمة فكان نموه سريعًا وظاهرًا.. وأمه ترعاه وهي مدركة أي رجل سيكون هذا الطفل الذي بين يديها وتخاف عليه من اليهود ومن الرومان..

وقد حدثت لها حادثة زادتها خوفًا عليه ذلك في أحد الأعياد ذهبت هي وزوجها يوسف إلى أورشليم ومعها طفلها عيسى وكان سنه بلغ اثني عشر عامًا.

يقول لوقا: [وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح. ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد، وبعدما أكملوا الأيام بقي عند رجوعهما الصبي يسوع في أورشليم ويوسف وأمه لم يعلما، وإذ ظناهُ بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف، ولما لم يجداهُ رجعا إلى أورشليم يطلبانه، وبعد ثلاثة أيام وجداهُ في الهيكل جالسًا في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم وكل الذين سمعوهُ بهتوا من فهمه وأجوبته، فلما أبصراهُ اندهشا، وقالت له أمه: يا بُنيَّ لماذا فعلت بنا هكذا، هو ذا أبوك وأنا كنَّا نطلبك معذَّبين، فقال لهما: لماذا كنتما تطلبانني ألم تعلما أنهُ ينبغي أن أكون في مال أبي. فلم يفهما الكلام الذي قالهُ لهما، ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعًا لهما، وكانت أمهُ تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها، وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس][٢].

لقد بدأ عيسى الشاب الذي لم يتجاوز سنه الثانية عشرة يستشعر أن هناك خطأ ما في دين قومه فتوجه إلى معابدهم يسأل ويستفسر حتى بهر القوم وهم لا يعرفونه وعندها

---

(١) (يوحنا: ٤٥، ٤٦).

(٢) (لوقا ٢: ٤١- ٥٢).

فزعت مريم فزعًا شديدًا لأنه لو كشف أمره فإن اليهود سيقتلوه وهذا ما تعلمه من خلق قومها وأظن أن مريم كانت تفهم جيدًا ما يقوله عيسى بل ويوسف أيضًا فكيف لم يفهما قوله: (ينبغي أن أكون في مال أبي)[1] وقد أوحى إليهما في حمله وطفولته أنه سيكون نبي هذه الأمة.

وواضح من تربية مريم لعيسى قوة شخصيتها وسيطرتها عليه كأي أم مع ابنها فلم تؤثر تلك النبوة التي تعلمها عنه في مباشرة رعايتها وسلطتها عليه واتضح ذلك من قول لوقا: [وكان خاضعًا لهما].

وتضيف مريم إلى ما تحفظه عن ابنها النبي هذه الحادثة كما قال لوقا: [وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها].

موت يوسف النجار

تسمى الأعوام الثمانية عشرة سنة من سن الاثنتا عشرة سنة إلى الثلاثين من عمر عيسى (السنوات الصامتة) حيث لم يذكر فيها شيء من حياة المسيح في الأناجيل المتداولة ولكن اقترح المفسرون أشياء حدثت في هذه الأعوام[2]

١ - أن عيسى كان يباشر مهنة النجارة مع أبيه يوسف.

٢- أن يوسف مات في هذه المرحلة حيث لم يذكر اسمه في الأناجيل بعد الحادثة الأخيرة.

٣- أن عيسى وهو المفترض أنه الابن البكر ليوسف كان يرعى أمه وإخوته الأربعة وأخواته وعائلته بعد موت عائلها يوسف النجار.

وقد أوكل عيسى لأحد تلامذته (يوحنا) رعاية أسرته بعد موته فأخذ يوحنا مريم إلى بيته[3].

(١) سيأتي توضيح معنى أبوة الله لعيسى من خلال ما سجلته الكتب المتداولة بين يدي النصارى.
(٢) حياة المسيح، بربان ج. بايل ص٢٦.
(٣) (يوحنا: ١٩: ٢٦).



أم عيسى النبي

ويستمر عيسى في النمو العجيب الذي هو برعاية الملك -سبحانه وتعالى- فيزداد حكمة بل وبسطة في جسمه ويعلو شأنه بين الناس كما يقول لوقا: [وأما يسوع فكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس].

ووصل عيسى إلى سن الثلاثين وأمه تقترب من الخمسين وهي حكمة الله أن تكون أمه بقوتها تقف بجواره عندما يواجه قومه.

ولكن كانت المخاوف تعتصر قلبها ولا زالت قصة يحيى ابن أختها الذي قتله اليهود من أجل تلبية شهوة ملك وهو النبي.. فماذا سيحدث لابنها؟

مريم ومقتل ابن أختها يحيى

بدأ يحيى دعوته ورسالته في بني إسرائيل... وراح يجوب القرى والمدن يبكت الناس على خطاياهم ويدعوهم إلى التوبة بعد أن تنسك وارتدى أخشن الثياب وبدأ في تعميد الناس في نهر الأردن[١].

وكان يحيى يدعو بني إسرائيل بقوة وشدة ويفضحهم أمام أنفسهم فلما قدم إليه جموع اليهود معترفين بخطاياهم ليتعمدوا (يتطهروا) بين يديه ورأى فيهم بعض الكهنة من الفريسيين والصدوقيين[٢].

صرخ فيهم بشدة (يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ فاصنعوا

---

(١) التعميد عبادة يهودية وهي شعيرة التطهير عندهم واستمرت في المسيحية ولذلك سمي يحيى (يوحنا المعمدان) وأرسل الكهنة من أورشليم بعض وفودهم ليسألوه من أنت هل أنت المسيح؟ فأجاب بالنفي، هل أنت إيليا الذي رفع إلى السماء عاد مرة أخرى؟ فأجاب بالنفي.. إذًا من أنت؟ فقال لهم: (صوت صارخ في البرية: أعدوا (قوموا) طريق الرب اصنعوا سُبُلهُ مستقيمة) (يوحنا ١: ١٩- ٢٤) (متى ٣: ١-٣).

(٢) الطائفتان الأساسيتان اللتان انقسم إليهما اليهود وكانوا على خلاف شديد بينهما أدى إلى الاقتتال والاتهام بالرياء والكفر وإنكار بعض أسفار التوراة.

أثمارًا تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا؛ لأني أقول لكم: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاد إبراهيم)[١].

ومريم تتابع هذا الانقلاب الذي صنعه ابن أختها يحيى وتلك الحركة المتجهة إلى التوبة التي أوجدها في بيئة بني إسرائيل.. وقد توجهت معه إلى نهر الأردن لتتعمد كبقية بني إسرائيل..

وتعمد عيسى من يحيى.. رغم أنه لم يكن يحمل خطيئة يريد أن يتطهر منها.. ولذلك امتنع يحيى في أول الأمر فقال له عيسى (هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر)[٢].

وواضح أن عيسى لا يحب كسر القواعد المعمول بها حيث إنه حتى يكون النبي والكاهن عند اليهود لا بد أن يتطهر عند بلوغ الثلاثين من عمره على يد نبي.

يحيى الشهيد

طمع أنتيباس ملك اليهود ابن هيرودس في الزواج من زوجة أخيه هيروديا الجميلة التي طلقها وهذا خلاف شريعة اليهود فندد يحيى بهذا الزواج وأعلن أنه زنا فأمر أنتيباس ملك اليهود بالقبض عليه ووضعه في السجن.. واستمر يحيى وهو في سجنه يعلن أنه زواج باطل.. وطلبت هيروديا من الملك قتله إلا أنه لم يستطع ذلك لأنه كان يهابه ويعتبره قديسًا.

فأمرت هيروديا ابنتها سالومى أن ترقص للملك فرقصت له حتى سر بها وأقسم أن يعطيها أي شيء تريده وهنا طلبت رأس يحيى فلم يستطع الملك الرجوع في قسمه في وجود الضيوف فقتل يحيى.

ووقع الخبر على سمع مريم وقع الصاعقة وقد مات زكريا كافلها وعلى أرجح

---

(١) متى ٣: ٧-٩.

(٢) (متى ٣: ١٥) وترجمة (نكمل) اليونانية أيضًا نحقق ونتمم.. و(كل بر) تعني مشيئة الله، انظر إنجيل متى الدراسي ص٩.

الأقوال أن اليهود قتلوه أيضًا فانصدع قلب مريم وهي مدركة نهاية الطريق الذي يسير إليه ابنها عيسى.

المسيح يعلن رسالته

﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

هكذا عرف عيسى نفسه لقومه.. وبدأ يدعوهم إلى الهدى ويلخص رسالته كما قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وكان لغلظة قلوب بني إسرائيل أثر كبير في الأسلوب الذي بعث الله به عيسى... حيث أيده بالمعجزات المادية لقوم لا يعترفون إلا بالمادة.. فجاءهم عيسى معلنًا ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وكانت مريم قريبة جدًّا من ابنها ترى تلك المعجزات بين يديه فلا يزيد إيمانها ولا ينقص فقد آمنت به وهو في بطنها حين أخبرها الملك ولكنها كانت كأي أم ملهوفة عليه خائفة وخاصة وهي تدرك موقف قومها اليهود من الأنبياء..

وكانت مريم تتجول خلف المسيح ابنها تحاول رؤيته وقد انغمس تمامًا في دعوته حتى أنها جاءت هي وإخوته يريدون رؤيته وطلبوا الدخول عليه يقول مرقس: [فجاءت حينئذٍ إخوته وأمه ووقفوا خارجًا وأرسلوا إليه يدعونه وكان الجمع جالسًا حوله فقالوا له [هو ذا أمك وإخوتك خارجًا يطلبونك][(١)].

فأراد عيسى أن يستغل الموقف في تربية من حوله على أخوة الإيمان التي هي أعلى من أخوة الدم رغم معرفته بحب أمه له واتباعها لدعوته[(٢)].

---

(١) (مرقس ٣: ٣١، ٣٢).

(٢) والعجيب أن شراح الإنجيل يدعون أن أمه وإخوته لم يؤمنوا به إلا بعد رفعه؛ ولذلك طلبوا منه أن يعود معهم إلى البيت ويترك ما يدعو إليه وهذا عجيب لأن أمه كانت مؤمنة به منذ حمله وكذلك أبوه وكان هو بارًّا بإخوته فكيف لم يؤمنوا به؟! (حياة المسيح ص٦٧).

يقول مرقس: [فأجابهم قائلاً من أمي وإخوتي ثم نظر إلى الجالسين وقال: ها أمي وإخوتي لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمي][(١)].

وقال لوقا [فأجاب وقال لهم أمي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها][(٢)].

عيسى ومواجهة اليهود

وكان المحيطون به يحذروه أن أنتيباس سيقتله كما قتل يحيى.. فكان يقول لهم: [لا يمكن أن يهلك نبي خارجًا عن أورشليم][(٣)].وكان الاعتراض عليه قد وصل مداه وبدأ يشتد في موعظته كما كان يحيى يفعل فينادي فيهم: [يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا، هو ذا بيتكم يترك لكم خرابًا][(٤)].

وكان قد أخبرهم من قبل أنه سيؤخذ ويضرب ويعذب كما أخبر كتاب الأناجيل[(٥)].

وفي أيامه الأخيرة كان عيسى يؤكد على ذهابه ولكنه لم يكن يعرف أنه سيرفع إلى السماء بل سيقتل وكانت وسيلة القتل الشائعة هي الصلب.

وكان هذا ابتلاء لعيسى حيث يتبين ثباته أمام المحنة ويورث هذا الثبات لأتباعه.. ولكنه يبين لهم أن البعض سيسقط مثل يهوذا الذي سيشي به وبطرس الذي سيذكره ثلاث مرات.

الوصية الأخيرة والبشارة بمحمد ﷺ

أورد يوحنا في إنجيله نصًا طويلاً لوصية عيسى لتلاميذه نقتطف منها هنا بشارته بمحمد ﷺ.

---

(١) (مرقس ٣: ٣٣، ٣٤).

(٢) (لوقا ٨: ٢١).

(٣) (لوقا ١٣: ٢٣).

(٤) (لوقا ١٣: ٣٤، ٣٥).

(٥) (متى ٢: ١٧- ١٩).

يقول يوحنا[١] ناقلاً عن عيسى في الإنجيل الذي كتبه:

«هذِهِ هي وصيَّتي أن تُحِبّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كما أَحْبَبْتُكُمْ.

ليس لأحد حب أعظم من هذا».

«اثبتوا في وأنا فيكم، كما أن الغصن لا يقدر أن يأتي بثمر من ذاته إن لم يثبت في الكرمة، كذلك أنتم أيضًا إن لم تثبتوا في».

«ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب، روح الحق، الذي من عند الأب ينبثق، فهو يشهد لي. وتشهدون أنتم أيضًا لأنكم معي من الابتداء».

«قد كلمتكم بهذا لكي لا تعثروا، سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله».

«وأما الآن فأنا ماضٍ إلى الذي أرسلني، وليس أحد منكم يسألني: أين تمضي؟ لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة: أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي. وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني أيضًا. وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين».

«إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية»[٢]. ويفسر النصارى المعزى الوارد هنا بروح الحق أو الروح القدس[٣]. ويرى علماء النصارى أن المعزي الآخر هو المسيح نفسه عند عودته إلى الدنيا على أساس أن الروح القدس أحد الأقانيم الثلاثة التي يتمثل به الله فهو (الأب

---

(١) يوحنا ليس تلميذ عيسى أو أحد حوارييه ولكنه مختلف فيه أنه كتب ما كتب بعد ٩٠ عامًا من ميلاد المسيح أو هو تلميذ بولس اليهودي الذي وضع عقيدة تأليه عيسى في النصرانية فكان ينقل عنه في إنجيله.

(٢) (فقرات من يوحنا: ١٤، ١٥، ١٦).

(٣) انظر إنجيل يوحنا ص٤٨.

والابن والروح القدس).

ولكن هذا ينقده قول المسيح كما أورد يوحنا في الإنجيل [ومتى جاء المعزى الذي أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي][١].

ولكن بالرجوع إلى الكلمة في أصلها الآرامي الذي كان يتكلم به عيسى والذي ترجم إلى اليونانية نجد أن كلمة المعزى ترجمت من اليونانية من كلمة (بيركليت).. تعني أفعل من الحمد أي (أحمد).

وهو الاسم الذي ذكره القرآن لرسول الله ﷺ كما بشر به المسيح عيسى ابن مريم.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

عيسى يشفق على نفسه

لم ينكر عيسى بشريته عندما أطلق همومه وبثها لتلاميذه لما عرف أن الله حكم عليه بالقتل ولم يعلمه أنه سيرفعه قبل أن يتمكنوا منه.. فدخل بستان زيتون اسمه (جثيماني)[٢] ومعه بعض تلاميذه يقول مرقس: [وابتدأ يدهش ويكتئب فقال لهم نفسي حزينة جدًا حتى الموت!][٣].

وينطلق عيسى بعيدًا ليصلي وينقل لنا مرقس صلاته والتي يتبين منها أن ما أخبره الله به ثقيل على نفسه حتى أنه أشفق على نفسه من ذلك العذاب يقول مرقس: [ثم تقدم قليلاً وخرَّ على الأرض، وكان يصلي لكي تعبر عنه الساعة إن أمكن. وقال: يا أبا الآب[٤] كل شيء مستطاع لك، فأجز عني هذه الكأس.. ولكن ليكن لا ما أريد أنا، بل ما تريد

(١) (يوحنا ١٥: ٢٦).
(٢) وهي كلمة يونانية تعني (معصرة الزيت).
(٣) (مرقس ١٤: ٣٤).
(٤) وهي تعني يا رب الأرباب أو يا مالك الملوك.

أنت][1]. ولما رجع وجدهم ناموا وقد أمرهم أن يسهروا فأشفق على ضعفهم أن يتعرضوا لمثل ما سيتعرض هو له يقول مرقس: [ثم جاء ووجدهم نيامًا فقال لبطرس: يا سمعان أنت نائم أما قدرت أن تسهر ساعة واحدة؟ اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة. أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف][2].

وعاد ليصلي بنفس الصلاة ويدعو الله بنفس الدعاء ثلاث مرات يقول: [يا أبتاه (يا رب) إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها، فلتكن مشيئتك].

القبض على عيسى ومحاكمته

في النهاية سلم نبي الله عيسى لما أخبره به ربه أنه مقبوض عليه.. وسيتعرض لعذاب شديد حتى أنه لما أراد أحد حوارييه الدفاع عنه أمره أن يكف وقال له: [اجعل سيفك في الغمد الكأس التي أعطاني الأب (الرب) ألا أشربها][3].

وواضح أنه لم يكن يعلم أن الله سينجيه منهم وقبض على عيسى ابن مريم وسيق للمحاكمة وأنكره بطرس تلميذه ثلاث مرات كما تنبأ له[4].

وواجه عيسى ست محاكمات ثلاثة أمام قضاة وكهنة اليهود وثلاثة أمام الحكام الرومان وكان يتعرض للضرب والتعذيب والإهانة من اليهود أمام تلك المحاكم وكان يتحمل صابرًا محتسبًا؛ لأنه يعلم أن هذا ما كتبه الله عليه.

ولم تستطع المحاكم اليهودية أن تثبت على عيسى جريمة ما فتوجهوا به إلى الحاكم الروماني.

وتتوالى الفتاوى العجيبة فنجد رئيس الكهان واسمه (قيافا).. يفتي لليهود أنه (خير

---

(١) (مرقس ١٤: ٣٥-٣٦).

(٢) (مرقس ١٤: ٣٧- ٣٨).

(٣) (يوحنا ١٨: ١١).

(٤) (متى ٢٦: ٦٩ – ٧٠، متى ٢٦: ٧١- ٧٥].

أن يموت إنسان واحد من الشعب في سبيل أن تبقى الجماهير)[١].

وهي فتوى تضحك بقدر ما تؤلم، ووصل الأمر لرئيس الكهنة أن يسمح بلطم عيسى على وجهه[٢].

مناظرة كهنة اليهود

ووقف عيسى في اجتماع الكهنة اليهود يناقشونه في محاولة للبحث عن دليل لقتله تحت وطئة الإهانة واللطم [وكان رؤساء الكهنة والمجمع كله يطلبون شهادة على يسوع ليقتلوه، فلم يجدوا لأن كثيرين شهدوا عليه زورًا ولم تتفق شهاداتهم][٣].

[أما هو فكان ساكتًا ولم يجب بشيء][٤]. واستخدم الكهنة أسلوبًا غوغائيًّا في التعامل معه وتصيد الأخطاء حتى أن رئيس الكهنة اليهود قام بعمل استعراضي عندما قال لهم عيسى ﷺ [من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسًا على يمين القوة وآتيًا على سحاب السماء][٥]. ينبئهم بعودته آخر الزمان.

ويلاحظ أنه لم يقل لهم: إنه إله أو ابن إله إنما هو ابن الإنسان كما كان يكرر كثيرًا في أقواله التي نقلت بعضها الأناجيل.

(فمزق رئيس الكهنة حينئذٍ ثيابه قائلاً: لقد جدف[٦]، ما حاجتنا بعد إلى شهود، ها قد سمعتم تجديفه ماذا ترون فأجابوا وقالوا: إنه مستوجب الموت حينئذٍ بصقوا في وجهه وسلموه وآخرون لطموه قائلين: تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك)[٧].

وكان الرومان قد نزعوا من مجمعات الكهنة اليهود سلطة الإعدام فلابد أن يصدق عليه الحاكم الروماني.

---

(١) (يوحنا ١٨ : ١٤).
(٢) (يوحنا: ١٨ : ٢٣).
(٣) (مرقس ١٤ : ٥٥، ٥٦، متى ٢٦ : ٥٩، ٥٦).
(٤) (مرقس ١٤ : ٦١).
(٥) (متى ٢٦ : ٦٤).
(٦) جدف أي قال كلامًا فيه كفر.
(٧) (متى: ٢٦ : ٦٥-٦٨).

[ولما كان الصباح تشاور جميع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب على يسوع حتى يقتلوه فأوثقوه ومضوا به ودفعوه إلى بيلاطس البُنطى الوالي][١].

وكانت مشورتهم ليست لإثبات التهم ولكن ليتفقوا على ما هي التهمة التي سيوجهونها له أمام الحاكم الروماني الذي لا يهمه في كثير أو قليل أن يجدف أحد من اليهود أو يقوى إيمانه[٢].

أمام الحاكم الروماني

وأمام بيلاطس الحاكم الروماني وقف عيسى عليه السلام وآثار التعذيب بدأت تتضح عليه، وكان اليهود يشتكون للوالي منه وهو لا يتكلم [فقال له بيلاطس: أما تسمع كم يشهدون عليك فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالي جدًّا][٣].

فسأل الوالي كهنة اليهود المصاحبين له: (أية شكاية تقدمون على هذا الإنسان) قالوا له: لو لم يكن فاعل شر لما كنا قد سلمناه إليك. فقال لهم بيلاطس: خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم. فقال له اليهود: لا يجوز لنا أن نقتل أحدًا][٤].

وواضح من إجابة اليهود أنهم لا تهمة لديهم وأنهم رغم ذلك قد صمموا على قتله، بل وكأنهم يملون على الوالي الحكم وواضح أن الوالي لا يرى داعيًا لكل ما يفعلون فلم يكن هناك مشكلة من عيسى على الرومان فهو قد أرسل لبني إسرائيل ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

وأمام إصرار بيلاطس أن يوجه اليهود له تهمة بدءوا يلفقون له التهم قائلين: [إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر. قائلاً: إنه هو مسيح ملك. فسأله بيلاطس قائلاً: أنت ملك اليهود فأجابه وقال: أنت تقول. فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة

(١) (متى: ٢٧: ١-٢).
(٢) (إنجيل متى الدراسي ص ٦٩).
(٣) (متى ٢٧: ١٣، ١٤).
(٤) (يوحنا: ١٨: ٢٩-٣١).

والجموع إني لا أجد علة في هذا الإنسان.. فكانوا يشددون قائلين: إنه يهيج الشعب وهو يعلم في كل اليهودية مبتدئًا من الجليل إلى هنا][1]. ولما سمع بيلاطس أنه من الجليل أراد أن يتخلص من هذه المحاكمة فأمرهم أن يذهبوا به إلى أنتيباس ابن هيرودس ملك اليهود على منطقة يهودية التي منها الجليل.

أمام ملك اليهود

كان ملك اليهود (أنتيباس هيرودس) فرحًا أنه سيرى عيسى؛ لأنه سمع عنه الكثير من الحكايات والمعجزات ولكن اغتاظ جدًّا من صمت عيسى أمامه وعدم اعتنائه بالإجابة عن أسئلته (وسأله بكلام كثير فلم يجب بشيء ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يشتكون عليه باشتداد فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به وألبسه لباسًا لامعًا ورده إلى بيلاطس وهكذا يقف نبي الله عيسى أمام جميع أنواع المحاكم الدينية والمدنية والمستعمر الروماني... وواضح من عدم اعتنائه بالرد على الاتهامات أنه قد سلم تمامًا لأمر الله الذي أعلمه له وانتظر تنفيذه.

أمام بيلاطس مرة ثانية

وعاد عيسى المسيح إلى بيلاطس من عند هيرودس الذي لم يثبت عليه تهمة تستوجب قتله.. فعرض على اليهود إطلاقه لهم بمناسبة الأعياد كعادته فلم يوافقوا واختاروا أن يطلق سراح لصٍّ ويصلب هو وعرض عليهم ذلك ثلاثة مرات وهم يصرُّون على قتله.

(فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء والشعب وقال لهم: قد قدمتم إليّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب، وها أنا قد فحصت قُدَّامكم ولم أجد في هذا الإنسان علةً مما تشتكون به عليه، ولا هيرودس أيضًا؛ لأني أرسلتكم إليه، وها لا شيء يستحق الموت صُنِعَ منهُ. فأنا أود به وأطلقه وكان مضطرًّا أن يطلق لهم كل عيد واحدًا، فصرخوا بجملتهم قائلين: خذ هذا وأطلق لنا باراباس. وذاك كان قد طُرِح في السجن لأجل فتنةٍ

(١) (لوقا ٢٣: ٢-٥).

حدثت في المدينة وقتل. فناداهم أيضًا بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع. فصرخوا قائلين: اصلبه اصلبه. فقال لهم ثالثةً فأيُّ شرٍّ عمل هذا. إني لم أجد فيه علةً للموت. فأنا أُود به وأطلقه. فكانوا يلجون بأصوات عظيمة طالبين أن يُصلَب. فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة. فحكم بيلاطس أن تكون طلبتهم فأطلق لهم الذي طُرِحَ في السجن لأجل فتنة وقتل الذي طلبوه وأسلم يسوع لمشيئتهم)(١).

دم المسيح على اليهود

برغم ما عرف عن بيلاطس من القسوة والعنف إلا أنه كان يعلم أن أخلاق اليهود ما جعله يتريث في حكمه طويلاً (لأنه عرف أن رؤساء الكهنة كانوا قد أسلموه حسدًا)(٢).

وأضاف إلى تردده أن زوجته أرسلت إليه [قائلة: إياك وذلك البار؛ لأني تألمت اليوم كثيرًا في حلم من أجله](٣). فقد أوحى إليها الله في الرؤيا ما جعلها تشكك بيلاطس حتى يثبت دم المسيح على اليهود حيث يقدمون للقتل آخر أنبيائهم كما هم معتادون.

﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

ويمعن الوالي الروماني في إحكام التهمة على بني إسرائيل فيقدم لهم بديلاً أن يطلق عيسى لهم ولكنهم يختاروا أن يطلق مجرمًا ويصلب عيسى عليه السلام ثم يقف أمامهم معلنًا براءته من دمه حيث لا تهمة عليه [فلما رأى بيلاطس أنه لا ينفع شيئًا، بل بالحري يحدث شغبًا أخذ ماء وغسل يديه قدام الجمع قائلاً: [إني بريء من دم هذا البار أبصروا أنتم فأجاب جميع الشعب وقالوا «دمه علينا وعلى أولادنا» حينئذٍ أطلق لهم باراباس وأما يسوع فجلده وأسلمه ليصلب](٤).

---

(١) (لوقا ٢٣: ١٣ - ٢٥).

(٢) (مرقس ١٥: ١٠) (متى ٢٧: ١٨).

(٣) (متى ٢٧: ١٩).

(٤) (متى ٢٧: ٢٤-٢٦).



طريق الآلام

تعذيب نبي

لقد تعرض الأنبياء لكثير من العذابات من قومهم بدءًا بالكلمة النابية وانتهاءً بالقتل.. فهذا إبراهيم يلقى في النار فينجيه الله.. وهذا نوح يتعرض لكل وسائل الإيذاء من قومه وهذا زكريا يتعرض للقتل ويحيى يقتل... وهذا محمد ﷺ.. يتعرض للضرب والتفل والرمي بالتراب والحجارة وإلقاء بقايا الجزور المذبوح على رأسه وأن يضع أبو جهل قدمه على رأسه وهو ساجد حتى يكاد يقتله ويلف ابن أبي معيط الرداء على رقبته حتى يزرق وجهه ويدبرون له مؤامرة قتل فيخرجه الله من بينهم سالمًا ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وهذا عيسى يتلقى نفس المعاملة من قومه فيسلموه إلى العسكر ليعذبوه..

فأخذ عسكر الوالي يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة، فعروه وألبسوه رداءً قرمزيًّا، وضفروا إكليلاً من شوكٍ ووضعوه على رأسه، وقصبة في يمينه. وكانوا يجثون قدامه ويستهزئون به قائلين: «السلام يا ملك اليهود!» وبصقوا عليه، وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه. وبعد ما استهزأوا به، نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه، ومضوا به للصلب[١].

بيلاطس يتردد مرة ثانية

أمر بيلاطس بجلد عيسى ﷺ وهو عقاب للمصلوب قبل صلبه.. وكان بيلاطس موقن ببراءة عيسى ﷺ إلا أنه أراد إما أن ينتزع اعترافًا منه أو يعفيه بالجلد عن الصلب

(١) (متى ٢٧: ٢٧- ٣٠) (مرقس ١٥: ١٦-٢٠).

بعد رؤية زوجته التي أخبرته بل وبعد تبرؤه من دم عيسى.

ولذلك عاد ليعرض على اليهود أن يعفو عنه ويناقش عيسى من جديد بل يصل الأمر إلى شبه رجاء أن يساعده على العفو عنه وهو موقف عجيب من بيلاطس الفاسد العنيف وكأن الله يريد إثبات التهمة على اليهود لا غيرهم فلا يجدوا لأنفسهم حجة من بعد.

يقول يوحنا:

(فخرج بيلاطس أيضًا خارجًا وقال لهم: «ها أنا أخرجه إليكم لتعلموا أني لست أجد فيه علة واحدة» فخرج يسوع خارجًا وهو حامل إكليل الشوك وثوب الأرجوان. فقال لهم بيلاطس: «هو ذا الإنسان!». فلما رآه رؤساء الكهنة والخدام صرخوا قائلين: «اصلبه! اصلبه!»[1]. قال لهم بيلاطس: «خذوه أنتم واصلبوه، لأني لست أجد فيه علة». أجابه اليهود: «لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت؛ لأنه جعل نفسه ابن الله». فلما سمع بيلاطس هذا القول ازداد خوفًا. فدخل أيضًا إلى دار الولاية وقال ليسوع: «من أين أنت؟». وأما يسوع فلم يعطه جوابًا. فقال له بيلاطس: «أما تكلمني؟ ألست تعلم أن لي سلطانًا أن أصلبك وسلطانًا أن أطلقك؟» أجاب يسوع: «لم يكن لك علي سلطان البتة، لو لم تكن قد أعطيت من فوق [2]. لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم». من هذا الوقت كان بيلاطس يطلب أن يطلقه، ولكن اليهود كانوا يصرخون قائلين: «إن أطلقت هذا فلست محبًا لقيصر. كل من يجعل نفسه ملكًا يقاوم قيصر!».

فلما سمع بيلاطس هذا القول أخرج يسوع، وجلس على كرسي الولاية في موضع يقال له «البلاط» بالعبرانية «جبّاثا»[3]. وكان استعداد الفصح، ونحو الساعة السادسة. فقال لليهود: «هو ذا ملككم!». فصرخوا: «خذه! خذه! اصلبه!» قال لهم بيلاطس:

(١) اصلبه: لم تعرف الشريعة اليهودية الصلب، بل كانت وسيلة الإعدام هي الرجم، لكن الصلب كان طريقة الرومان في تنفيذ حكم الإعدام.

(٢) من فوق: المقصود: من الله.

(٣) جبّاثا: هي كلمة آرامية؛ وتعني: «المرتفع» انظر تلك المعاني في إنجيل يوحنا الدراسي ص٥٥.

«أأصلب ملككم؟» أجاب رؤساء الكهنة: «ليس لنا ملك إلا قيصرا». فحينئذٍ أسلمه إليهم ليصلب[1].

ولكن شبه لهم

إلى هنا لا يجد المسلم أي غضاضة في تقبل ما رواه كتاب الأناجيل المتداولة حول حياة عيسى ابن مريم وأمه مريم بنت عمران حيث لم ترد أي تفاصيل في النصوص الإسلامية قرآن وسنة تتحدث عن هذه الفترة كما لم يرد ما يخالف شريعة الإسلام في هذه النصوص.

والفقرة التالية لهذه الأحداث هي الصلب وهي مفترق واضح في الاعتقاد بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

لقد سارت الأحداث كما بينا بغض النظر عن دقة كتاب الأناجيل في التفاصيل التي اختلفت اختلافًا بيِّنًا بين كل كاتب وآخر ورأى تلك الأحداث اليهود والخمسة آلاف الذين اقتنعوا برسالة المسيح عيسى ابن مريم الكل رآه يخوض تلك الأحداث حتى أمه... بل الكل رآه يساق إلى الصليب والكل رآه يرفع على الصليب والكل رآه يموت على الصليب.. ويظن اليهود أنهم صلبوه ويسجل ذلك القرآن عنهم ويظن النصارى أنه هو المصلوب على الصليب ويظل هذا القول من الفريقين متداولاً حوالي ستمائة عام حتى جاء القرآن وكما وضح أكثر من قضية لم يكن النصارى أنفسهم يعلمونها وأهمها كلام عيسى في المهد ليبرئ أمه والذي جاء حجة للنصارى على اليهود الذين اتهموا مريم بالزنى طوال هذه الأعوام ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، وليعلن أنها مصطفاة ومطهرة وأنها مصطفاة على نساء العالمين.

يأتي القرآن بالحقيقة التي جهلها اليهود والنصارى وأخفيت عنهم طوال هذه القرون أن الذي على الصليب ليس عيسى ابن مريم وأنهم لم يقتلوا المسيح رغم محاولتهم قتله.

---

(١) (يوحنا ١٩: ٤-١٦).

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وإنا قد نعذر اليهود على عدم تصديق هذه الآية لأنهم موقنون أنهم رفعوا ذلك المقبوض عليه على الصليب وفاضت روحه بعد ذلك ولكن كيف نعذر النصارى على عدم تصديقهم لتلك الحقيقة التي جاءت بلا دافع إلا إظهار الحق. والتي هي رفع من شأن عيسى ابن مريم حيث تبين أنه مثل إدريس ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]. وأن الله لم يتركه يتمكن منه اليهود وأنه نصره في النهاية تصديقًا لقوله -تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

ولكن شيئًا حدث لدين النصارى لأسباب ذكرها التاريخ جعله يتعرض للكثير من الدخن جعل أصحابه أنفسهم في حيرة كبيرة من أمرهم واختلاف شديد حتى اليوم.

كما قال -تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۞ بَل رَّفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

متى حدث الرفع؟

والحقيقة أن الله -تعالى- لم يكشف لنا في قرآنه أو حتى سنة رسوله ﷺ عن وقت التشبه وكيفية الرفع وهذه طريقة القرآن في الكشف عن الحقائق والاهتمام بالعبر والسنن دون الدخول في التفاصيل.

ولكن المفسرين اجتهدوا في هذا الموضوع أشواطًا بعيدة وفسروا التشبه وكيفية الرفع بعدة أقوال؛ منها:

الأول: أن المسيح قبل أن يدخل عليه الجنود وهو في أصحابه قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني وهو رفيقي في الجنة فقام شاب صغير من الموجودين وقال: أنا فأعادها المسيح ثلاث مرات لا يقوم إلا هذا الشاب فقال أنت هو وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو وفتحت فتحة في سقف البيت وأخذ عيسى عليه السلام. وأخذ الشاب وصلب[١].

(١) ابن كثير ج٢ ص٢٧٨-٢٧٩.

الثاني: أن الشبه وقع على كل الموجودين فهدد اليهود بقتلهم جميعًا فقال أحدهم: أنا عيسى فأخذوه وصلبوه.

الثالث: أن الشبه وقع على رجل اسمه سرجس كان موجودًا معهم ورفع عيسى عليه السلام ودل يهوذا على سرجس ولاحظ الناس نقصان عددهم واحدًا.

الرابع: وهو أشهر الأقوال إن الشبه وقع على يهوذا الذي وشى به ودلَّ عليه فأخذ وصلب مكانه وسكت تكفيرًا عن ذنبه أو أخرس الله لسانه.

وذكر البعض أنه صاح: أنا الذي دللتكم عليه... ويستدل البعض على ذلك أن مرقس رأى شابًّا عريانًا إلا من إزار يتبع المقبوض عليه يقول مرقس: [وتبعه شاب لابسًا إزارًا على عريه فأمسكه الشبان فترك الإزار وهرب منهم عريانًا][1]. ويفترض المفسرون للإنجيل أنه هو مرقس نفسه[2].

ثم اختفى الشاب، ولكن افترض المفسرون المسلمون أن هذا الشاب هو عيسى نفسه وأن الملائكة أخذوا ملابسه وألقوها عليه[3].

رأي في الشبيه

وهذه كلها آراء ظنية لا ترتفع إلى درجة اليقين، واليقين الوحيد فيها أن عيسى لم يصلب وأن المصلوب شبيه له وأنه يرفع إلى الله قبل صلبه فهل رفع عند القبض عليه أم بعد ذلك، فيرجح الدكتور رشدي البدراوي أنه لم يرفع عند القبض عليه بل هو عيسى الذي قبض عليه وتعرض للمحاكمات والتعذيب والإيذاء، وهذا رأي قريب للمنطق وروايات كتاب الأناجيل حيث إنه كيف يتعرض شبيه لكل هذه المحاكمات ولكل هذا العذاب الذي لا شك غالبًا في وقوعه، كما أن يهوذا كما روت الأناجيل انتحر بعد ندمه على ما فعل وهي رواية مقبولة عقليًّا.

---

(١) (مرقس ١٤: ٥١- ٥٢).

(٢) (إنجيل مرقس الدراسي ص٤٣).

(٣) من إعجاز القرآن جـ٢ ص٢٨، رءوف أبو سعدة، وانظر بدران ٦/ ١٠١.

ثم يقدم الدكتور إبراهيم بدران رأيًا جامعًا أنه بعد أن جهز عيسى للصلب وضع في السجن فاستجار بالله وصاح (إلي إلي لماذا شبقتني؟) وهي تعني (ربي ربي لما تركتني)(١). فرفعه الله إليه فأخذ الجندي الموكل به سجينًا آخر بدله كان فيه شبه كبير من هيئة عيسى ﷺ لما لم يجد سجينه المطلوب موجود في مكانه فكان ذلك تفسيرًا لشبه لهم بالشبه بين السجين وعيسى ﷺ.

ولأن الله -تعالى- لم يكشف لنا عن القضية فإنَّ هذه كلها اجتهادات قد تخطئ وقد تصيب وكل منها يحتاج الدليل العقلي ولهذا إذا وجد أي باحث ما يقرب المعنى فلا عليه أن يطرحه ولكن دون الجزم أنه الحق المطلق الذي لا يحتمل الخطأ.. بل الأولى أن يقدمه وهو يعلم أنه ظن وأن الظن لا يغني عن الحق شيئًا؛ ولذلك فقد رأيت معنى في الأناجيل التي كتب فيها أصحابها القصة قد تكون تفسيرًا للتشهيه وميقات الرفع..

وبالعودة إلى سياق القصة كما رواها كُتَّاب الأناجيل المتداولة نجد أننا قد وقفنا عند قرار بيلاطس بصلب عيسى وترحيب اليهود بهذا القرار.

طريق الآلام

جرد الجنود المسيح ﷺ من ذلك الرداء الأحمر (القرمزي أو الأرجواني) الذي ألبسوه إياه استهزاءً به وألقوا عليه رداءه وخرجوا به ليصلبوه وكان على المذنب أن يحمل صليبه الخشبي الثقيل على كتفيه (وروى التاريخ أن المذنب كان يحمل الخشبة الأفقية فقط على كتفيه؛ لأن الرأسية تكون موضوعة في مكان الصلب)(٢).

وبدأ الجنود يسوقون المسيح عيسى ابن مريم حاملاً تلك الخشبة الضخمة على كتفيه في الحواري والأزقة؛ ليكون عبرة للآخرين...

آخر نبوءات المسيح

يقول لوقا: [وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء اللواتي كُنَّ يلطمن أيضًا وينحن عليه. فالتفت إليهنَّ يسوع وقال: يا بنات أورشليم لا تبكين عليَّ بل ابكين على أنفسكن

(١) هذه العبارة ذكر رواة الأناجيل أن عيسى قالها على الصليب [مرقس ١٥: ٣٤، متى ٢٧: ٤٦].

(٢) انظر حياة المسيح ص ١٣٩.

وعلى أولادكن. لأنه هو ذا أيام تأتي يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم تُرضع. حينئذٍ يبتدئون يقولون للجبال اسقطي علينا وللآكام غطينا. لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا فماذا يكون باليابس][1].

إنه يتنبأ بما سيحدث لليهود من عذاب على أيدي أعدائهم ومثاله ما حدث بعد حوالي أربعين عامًا في عام ٧٠م. على يد الرومان وقيصرهم الطاغية نيرون الذي أرسل قائده لإخماد أحد ثورات اليهود، فشدد الحصار حول أورشليم ودمر أسوارها واقتحم المدينة وهجم على الهيكل ودمره تمامًا وأمر بحل جميع تنظيمات اليهود وأمعن في إذلالهم وحرم اليهود من دخول أورشليم.. وبعدها عام ١٣٥م[2].

الشبيه والرفع كما أرى[3]

ووصل التعب بعيسى مبلغه من العذاب والضرب واستهزاء اليهود به في طريقه فرفع عيسى وجهه إلى السماء وفعل كما تفعل الأنبياء ودعا ربه وقال: [اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون][4].وهنا كاد المسيح أن ينهار من التعب فأشار أحد الجنود إلى رجل من المتابعين ليحمل الصليب عن عيسى، يقول ثلاثة أناجيل من الأربعة [ولما مضوا به أمسكوا رجلاً قيروانيًا كان آتيًا من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع][5].

وكان القانون الروماني يلزم أي فلاح أن يحمل ما يأمره الجندي لمدة ميل..

---

(١) (لوقا ٢٣: ٢٧ – ٣١).

(٢) ادعى أحد حاخامات لليهود أنه المسيح المنتظر وأنه جاء ليحرر اليهود من الوثنيين وأرسل إمبراطور الرومان جيشًا لقمع الحركة فبلغ عدد قتلى اليهود ما يقرب من ½ مليون وأسر ما يقرب من هذا العدد.. ودمر بقية أطلال أورشليم وتفرق اليهود تاركين فلسطين وهاجروا إلى الحجاز واليمن ومصر.. وكاد أن ينقرض اليهود في فلسطين تمامًا راجع تاريخ الإمبراطورية الرومانية سيد أحمد علي الناصري ص٢٤٥ وبدراوي ٦/ ٢٠٠١.

(٣) كان البعض يؤمنون بالتشبيه والرفع من النصارى. والدليل على ذلك: ما كتبه الدكتور داود رياض أرمانيوس في كتابه (ما هي حتمية كفارة المسيح؟ ص ٤٦ حول أصل فكرة أن شبيهًا صلب عوضًا عن المسيح يقول: [كانت هناك فكرة أو عقيدة في بعض الكتب الأبوكرافية (أي الأناجيل التي رفضها النصارى واعتبروها كاذبة) كالمكتشفة في نجع حمادي بمصر تقول: إن المسيح لم يصلب ولكن شبيهه قد صلب مكانه) واحتمالات التشبيه في هذه الكتب هي نفس الاحتمالات التي قدمها علماء المسلمين كما ذكر الدكتور داود أرمانيوس في كتابه المذكور.

(٤) (لوقا ٢٣: ٣٤).

(٥) (لوقا ٢٣: ٢٦، مرقس١٥: ٢١، متى ٢٧: ٣٢).

وذكرت الأناجيل أن الرجل كان اسمه سمعان من قيروان في تونس الحالية شمال إفريقيا.. وذكر مرقس أنه والد ألكسندري وروفي.. والذي كان له ولأسرته دور واسع في النصرانية بعد ذلك.

وأرى أن هذه هي اللحظة المناسبة للتشبيه والرفع.. فعملية استبدال الخشبة لا تأخذ ثوانٍ والجماهير محتشدة حول عيسى، ولا يلحظ الكثير منهم عملية التبديل حيث لم يكن هناك أحد من تلاميذ عيسى كما ذكر مرقس في إنجيله [فتركه الجميع وهربوا][(١)]. وقال متى: [حينئذٍ تركه التلاميذ كلهم وهربوا][(٢)]. فيقع الشبه على سمعان ويرفع عيسى ابن مريم ولا يلاحظ ذلك أحد من الحضور ويؤخذ سمعان الذي ألقى الله عليه شبه عيسى ﵇ ليوضع على الصليب[(٣)].

والمشكلة الأساسية التي تواجه هذا الافتراض أنه لماذا لم يتكلم سمعان ويعلن أنه ليس عيسى؟

نقول: إن سمعان تكلم فعلاً وهو مؤكد من أتباع عيسى.. فالكلمات السبع التي قالها عيسى على الصليب يمكن أن يقولها أي أحد.. ويمكن أن يكون الله قد أوحى إلى سمعان بالتشبه وما سيحدث له فلما اشتدَّ عليه الأمر قال:

١ - (إلى إلى لما شبقتني) أي ربي ربي لما تركتني؟[(٤)].

وقد يكون رأى ما يفعله المجرمون في المصلوب ظنًّا أنه عيسى فقال:

٢ - (اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون)[(٥)].

ويمكن أن يكون هو سمعان المؤمن الذي أراه الله جنته مقابل فداء نبيه بنفسه هو

---

(١) (مرقس ١٤: ٥٠).

(٢) (متى ٢٦: ٥٦).

(٣) قد يرى البعض أن سمعان لا ذنب له.. ولكن في هذه المواقف قد يضحى بهذا الإنسان البسيط في سبيل رسالة عليا.. ويختزن له الله نصيبًا وأجرًا في الآخرة.

(٤) (مرقس ١٥: ٣٤، متى ٢١: ٤٦).

(٥) (لوقا ٢٣: ٣٤).

الذي قال للمجرم الذي آمن بعيسى ووبخ الآخر على استهزائه به[١].

٣- (الحق أقول لك: إنك اليوم تكون معي في الفردوس)[٢].

٤- وطبيعي في هذا الموقف أن يقول المصلوب المعذب (أنا عطشان).

ومنطقيا أن ينظر إلى الصديقة مريم أم عيسى والنساء اللاتي تجمعن حول الصليب بعد جولاتهم معه ورؤيته عذاب عيسى وسواء بوحي من الله أو باجتهاد منه يوصي من منطلق الدور العظيم الذي يقوم به يوحنا تلميذ عيسى بمريم أمه فقال:

٥- (يا امرأة هو ذا ابنك) لمريم و(هو ذا أمك) ليوحنا[٣].

ثم يتوجه البطل الفدائي إلى ربه وكأنه يعلن رضاه عن هذه التضحية التي قدمها ويسأله أن يرضى عنه ويقول آخر كلماته.

٦- (في يدك أستودع روحي)[٤].

وفي النهاية يقول:

٧- «قد أكمل»[٥]

أي أني قد أكملت العمل الذي أمرتني به وقدمت روحي فداءً لنبيك وقد صرخ بها المصلوب كنوع من الفرح الغامر والشعور بالانتصار على شيطانه وحصوله على الشهادة، وهنا خرجت روح سمعان أو المصلوب على الصليب أيًا كان هو[٦]...

---

(١) المعروف أن اليهود إمعانًا في إذلال عيسى عليه السلام صلبوا على يمين وشمال المصلوب رجلين مجرمين (مرقس ١٥: ٢٧).

(٢) (لوقا ٢٣: ٣٤).

(٣) (يوحنا ١٩: ٢٦، ٢٧).

(٤) (لوقا ٢٣: ٤٦).

(٥) (يوحنا ١٩: ٣٠).

(٦) هذه الاجتهادات هي محاولة لفهم قوله -تعالى- في القرآن: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]. وهي اجتهادات لا ترقى إلى مرتبة اليقين ولا نلزم أحدًا بها.. مع العلم أن النصارى يرون رؤية أخرى حول الصلب معروفة في دينهم أن المصلوب هو عيسى نفسه ليفدي الله به العالم ويغفر لهم خطيئة أبيه آدم انظر: (ما هي حتمية كفارة المسيح، د. داود رياض أرمانيوس الكنيسة الإنجيلية ٢٠٠١م. ويقول -تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

مريم تحت الصليب

هل تدرك أي أم موقف مريم وهي تقف تحت الصليب وهي تظن أن ابنها هو ذلك المصلوب الذي يقطر دمًا بسبب طعنة بحربة في جنبه من أحد الجنود بعد موته[١]. وبعد أن عاينت ذلك العذاب الرهيب الذي مر به ابنها سواء الحقيقي قبل تسليم الخشبة أو الشبيه بعد أن شبهه الله بعيسى.

وكتابة لافتة استهزائية على الصليب بثلاث لغات [يسوع الناصري ملك اليهود][٢].

واستهزاء اليهود بالمصلوب سواء العامة والكهنة يقولون: [إن كان هو ملك إسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به][٣]. أي ألم ومعاناة عانتها مريم في تلك الساعات الثلاث.

دفن المصلوب

نحن نقف معها هناك حيث القبر الذي أعده أحد تلاميذ عيسى الأخفياء واسمه يوسف الرامي الذي كان من وجهاء اليهود والذي ذهب يستأذن بيلاطس في أخذ الجسد فأذن له.. [فأنزله ولفه بكتان ووضعه في قبر منحوت حيث لم يكن أحد وضع قط][٤]. وتبعت مريم الجنازة مع النساء حتى المقبرة [ونظرن إلى القبر وكيف وضع جسده][٥].

مريم تزور قبر ابنها

انطلقت مريم مع بعض النسوة لزيارة قبر ابنها ولكن حدثت زلزلة عظيمة في ذلك

---

(١) (يوحنا ١٩: ٣٤).

(٢) (يوحنا ١٩: ١٩).

(٣) (متى ٢٧: ٤٢).

(٤) (لوقا ٢٣: ٥٢، ٥٣).

(٥) (لوقا ٢٣: ٥٥).

اليوم[1] وبسبب هذه الزلزلة انفتحت قبور كثيرة في أورشليم[2] ولذلك لما وصلت مريم ومن معها من النساء وجدن القبر مفتوحًا ولم يجدوا الجثة فيه.. وكان اليهود قد طلبوا من بيلاطس أن يرسل حرسًا لحراسة الجثة حتى لا يأخذها التلاميذ[3] فلما وصل إلى أسماعهم أن القبر خالٍ من الجسد أمروا الحُرَّاس أن يقولوا: إن تلامذته سرقوه ونحن نيام [فشاع هذا القول عند اليهود إلى هذا اليوم][4].

وما صلبوه!

قلنا إن هناك اجتهادين في وقت التشبيه:

الأول: أنه حدث عند القبض عليه.. والذي مر بالمحاكمات والتعذيب هو الشبيه وليس عيسى عليه السلام.

الثاني: إنه حدث بعد القبض عليه ومروره بالمحاكمات والتعذيب وقبل الصلب وهو الأقرب لقوله -تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

ويقدم بعض الباحثين فكرة جديدة تدور حول تفسير ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ فكل التفسيرات السابقة قامت على أساس أن الضمير يعود إلى عيسى عليه السلام أنه شبه لهم رجل آخر مكانه، ولكن رأى البعض أن تفسير شبه لهم أي القتل والصلب فهم قد يكونوا وضعوه على الصليب وقد يكونوا ظنوا موته ولكن كل ذلك لم يحدث إنما شبه لهم هذا..

وقدم الأستاذ أحمد ديدات ومن سار على نهجه في هذا التفسير أكثر من ثلاثين دليلاً من الإنجيل على هذه الفكرة؛ منها نزول الدم والماء من جسده بسبب ضربة الحربة بعد موته[5]. .. وهو لا يحدث لإنسان حيٍّ.. فلقد نزل المصلوب من على الخشبة حي..

---

(١) (متى ٢٨: ٢).

(٢) حياة المسيح ص ١٤٦.

(٣) (مرقس ١٥: ٤٧).

(٤) (متى ٢٨: ١٥).

(٥) (يوحنا ١٩: ٣٤).

ولذلك تعجب بيلاطس من أن يكون قد مات وهو لم يمكث على الصليب أكثر من ثلاث ساعات ولم تكسر ساقاه كما يفعلون مع غيره[١].

وهذه النظرية تفسر كل ما حدث على الصليب وبعد الصلب وقضية القيامة بعد ثلاثة أيام وظهور المسيح لتلامذته.. أن ذلك كله والمسيح عيسى ابن مريم حي وقد أماته الله بعد ذلك موتة طبيعية ورفعه إليه كما بين -سبحانه ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥][٢].

وهذا اجتهاد مقبول من جوانب متعددة إلا أنه يقف أمامه قول الله -تعالى: ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾.

عقيدة المسلم

في نهاية بحث الأستاذ أحمد ديدات الممتع الذي استنتجه كله من الأناجيل المتداولة بين أيدي النصارى قال: (عقيدتي هي عقيدة القرآن كما وردت في قوله -تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧][٣].

وهذا هو الواجب على المسلم إجمالاً أما البحث العلمي فيستوجب على الباحث قراءة النصوص والاجتهاد فيها بشرط عدم التعارض مع الثابت من القرآن والسنة وهذا ما فعله علماء السلف والمعاصرين، وعدم الجزم بأن ما جاء به هو الصواب الذي ماعداه خطأ حيث لا يوجد نص ثابت الدلالة يرجع اليه.

ولقد سئل الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت[٤] عن عقيدة المسلم في حياة المسيح أو

(١) (مرقس ١٥: ٤٤- ٤٥).

(٢) راجع (مسألة صلب المسيح بين الحقيقة والافتراء)، أحمد ديدات، ترجمة علي الجوهري دار الفضيلة، القاهرة.

(٣) مسألة صلب المسيح ص ١٨٢.

(٤) مجلة الرسالة -السنة العاشرة- العدد ٤٦٢.

موته وفي رفعه إلى السماء فبين ما مختصره:

١ - أن معنى التوفي هو الموت العادي وليس القتل فالله يعده أن ينجيه من قومه فلا يتمكنون من قتله.

٢- أن معنى الرفع هو رفع المكانة لا رفع الجسد.

٣- أن رفع عيسى أو وفاته ليست عقيدة يكفر منكرها؛ لأنه ليس هناك نص قطعي جاء بها وأن كل ما يدور حول هذا الأمر هو اجتهادات تفيد الصواب والخطأ لا الإيمان والكفر.

إلا أننا نعود مرة أخرى فنؤكد أن عيسى لم يصلب ولم يقتل.. قد يكون قد مر بكل الآلام التي ذكرتها الأناجيل ولكنه عند الصلب شبه لهم.. ورفعه الله إليه ونجاه منهم كما ذكر القرآن وقد فضلنا أن نذكر مثل هذا الاجتهاد حيث نعيش مع مريم تلك اللحظات التي ترى فيها ابنها يتعرض لمثل هذا الألم من أجل دعوته التي ابتليت هي أيضًا منذ البدء من أجلها.





مريم بعد عيسى

وعاشت مريم بعد أن اطمأن قلبها على نجاة ابنها إما برؤيا رأتها أو وحي من السماء عاشت بعدها حينًا من الزمان في هدوء الطاهرة الصديقة يرعاها يوحنا تلميذ المسيح وأبناءها الأربعة إخوة عيسى.. حتى كتب الله عليها الموت فماتت -رحمها الله- وتقبلها مع الصديقين وقالوا إنها بقيت بعد عيسى خمس سنوات وماتت وعمرها بضع وخمسون عامًا.

خير نساء العالمين

وردت أكثر من رواية لحديث خير نساء العالمين وأكمل النساء.. وتعددت الشخصيات من اثنتين إلى ثلاثة إلى أربعة ولكن جمع كل الأحاديث تكرار اسم مريم فيها بل وورودها أول النساء في الترتيب.

حتى قال ﷺ: «فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجنَّةِ إِلاَّ مَا كَانَ مِنْ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ».

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضلها أشهرها ما ورد أنها زوجة النبي ﷺ في الجنة.

رضي الله عنها وأرضاها فقد كانت نموذجًا للفتاة العفيفة الشريفة القوية المجاهدة.

«الأب» و«الآب» و«أبي» و«أبوكم»:

ترد كلمة «الأب) في حق الله عز وجل -أراميًا وعبريًا- لغة المسيح عليه السلام بمعني الرب الإله.

ولقد تردد في أقوال المسيح قوله: «أبي الذي في السماوات» و«أبوكم» الذي في السماوات، ولا يُتخيَّل أن المسيح عليه السلام حينما يقول لتلاميذه: «أبوكم الذي في السماوات» يقصد أبوَّة حقيقية ولكنه يقصد «ربكم الذي في السماوات».

وهناك معنى مجازي؛ وهو أن الأب في العائلة هو الذي يرعى أولاده فيكفل لهم الرزق وأسباب المعيشة فكذلك الله ربّ السماوات هو الذي يكفل الرزق لعباده.

ومن هذا المنطلق فكل العباد عيال على الله -سبحانه وتعالى. إلا أن بعض اليهود والنصارى فهموا من قول المسيح لهم «أبوكم الذي في السماوات» أن لهم وضعًا متميزًا عن جميع الخلق. وذلك ما نعاه عليهم القرآن الكريم ونفاه في قوله -تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ الله وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلله مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وهكذا وضع القرآن الكريم هذه الأبوة التي ذكرها المسيح عليه السلام. في موضعها الصحيح. فهم بشر مثل سائر البشر الذين خلقهم الله وإن كان هناك أفضلية فهي مرتبطة بمدى تمسكهم بالأوامر والنواهي التي جاء بها المسيح ومن قبله موسى عليه السلام.

وقياسًا عليه فلا يجب أن يفهم من قول المسيح عن نفسه «أبي الذي في السماوات» أنه يعتقد في بنوة حقيقية لله -سبحانه وتعالى- تضفي عليه صبغة إلهية فهي بنوة مجازية حيث لا أب له من البشر بل بكلمة من الله -وروح منه- تخلَّق في رحم مريم العذراء وولد كما يولد سائر البشر. وما ذلك على الله بعزيز.

وها نحن نرى في أيامنا هذه استنساخ المخلوقات، فمن خلية واحدة يتكون حيوان كامل. وقوله -تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وعليه يمكننا أن نفترض أن النفخة الإلهية سبَّبت انقسام البويضة -دون أن يخصبها حيوان منوي- وتوالى انقسام البويضة حتى تكون الجنين الذي شاء الله له أن يوجد بدون أب. وقد حدث شيء مثل ذلك عند خلق آدم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢]، ولا يدَّعي أحد أن آدم هو ابن الله اعتمادًا على أنه ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ كما ادعوا أن المسيح هو ابن الله استنادًا إلى النفخة الإلهية في رحم مريم البتول ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وهكذا يتساوى آدم وعيسى في خلقهما ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

كما أن هذا نفي للألوهية عن الروح القدس (جبريل) أيضًا فلا تبقى إلا ألوهية الله وحده. وهذا ما أكده عيسى ﷺ كما جاء في إنجيل مرقس[١] «فجاء واحد من الكتبة وسأله أيّة وصية هي أول الكل. فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هي اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا إله واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هي الوصية الأولى».

كما أن عيسى ﷺ كان كثيرًا ما يقول عن نفسه «ابن الإنسان» أي أنه كان يؤكد على أنه «ابن إنسان» نفيًا لما قد يفهم خطأ من قوله «أبي الذي في السماوات».

وأخيرًا فإن موسى ﷺ استعمل كلمة «أباك» وهو يقصد «ربك» حينما قال لبني إسرائيل[٢] : الرب تكافئون بهذا يا شعبًا غبيًّا وغير حكيم. أليس هو أباك ومُقتنيك. هو عملك وأنشأك».

ولكن المسيحيين المتأخرين تأثروا بما أجراه الله على يدي عيسى من المعجزات. وقصروا معنى «أبي الذي في السماوات» على أُبوَّة حقيقية متأثرين بآراء بولس الرسول المنادية بالتثليث.

كذلك جاء وصف عيسى بأنه «فتاي» في إنجيل[٣] : «لكي يتم ما قيل بإشعياء النبي القائل: هو ذا فتاي الذي اخترته. حبيبي الذي سُرَّت به نفسي. أضع روحي عليه فيخبر الأمم بالحق. لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفئ حتى يخرج الحق إلى النصرة وعلى اسمه يكون رجاء الأمم».

والفقرة الواردة في إشعياء[٤] تقول: «هو ذا عبدي الذي أعضده، مختاري الذي سُرّت به نفسي وضعتُ روحي عليه فيخرج الحق للأمم.

(١) (١٢: ٢٨).
(٢) (تثنية ٣٢: ٦).
(٣) (متى ١٢: ١٦).
(٤) (٤٢: ١).

ونلاحظ هنا أن عيسى عليه السلام أشير إليه بلفظ «هو ذا فتاي» ومرة أخرى «هو ذا عبدي». ثم جاء وصف لبعض أخلاقه: هدوء الطبع ولطف الطباع ولم يرتكب أي إثم ولو بسيط كأن تكون عصا (قصبة) مكسورة فلا يكسرها ثانية أو فتيلة قد أوشكت على الانطفاء فلم يقم بإطفائها كناية عن أنه ما داس قط أو طرد أحدًا ولو ضعيف الإيمان وما قسا أبدا على ضمير مجروح. ثم أشارت نهاية الفقرة إلى أنه سيخرج المؤمنين من سجن الخطيئة إلى حرية الإيمان بالله، ومن ظلمات الشرك إلى نور الإيمان. وهو في هذا لا يختلف عن رسالة غيره من الأنبياء والمرسلين.

كلمة الوحي

يقول -تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى الله إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِالله وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِالله وَكِيلاً ۞ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لله وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۞ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ الله وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا﴾

[النساء: ١٧١ - ١٧٣].

وقال -تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۞ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨١- ٨٢].

وقال -تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لله الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

وقال -تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ۞ اللهُ الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص].

وثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«قَالَ تَعَالَى: شَتَمَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، يَزْعُمُ إِنَّ لِي وَلَداً، وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْأً أَحَدٌ».

وفي (الصحيح) أيضًا: عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ الله، أَنَّهُمْ يَجْعَلُون لَهُ وَلَداً وَهُوَ وَيَرْزُقُهُمْ وَيُعَافِيهِمْ».

﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ الله قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ ۞ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۞ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٨].

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۞ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۞ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۞ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۞ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۞ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨- ٩٥].

وتحية أخيرة للصديقة الطاهرة المطهرة حبيبة المؤمنين مريم ابنة عمران رمز الأمومة الخالصة.



3

خديجة بنت خويلد

زوجة من السماء

العظمة العاطرة

نحن المسلمين نحب أمنا خديجة حبًّا خاصًّا جدًّا حب يملأه التوقير والإجلال ولذلك عندما نجلس بين يديها نجد أنفسنا قد اجتمعت فيها مجموعة من المشاعر مشاعر بر الأبناء لأمهم، ومشاعر توقير التلاميذ لأستاذهم، ومشاعر المبهورين بحكيمهم...

ولم لا...؟!

وآسية قد أخذتنا بطولتها وتضحيتها وهي تؤمن بموسى وتتبعه بل وتتحمل ما تتحمل من أجله. فنقول نعم حق لها ذلك لقد ربته بين يديها واستشعرت نحوه أمومة وحب.

ومريم تلك التي ركبت آتانها (حمارها) تهرب بوليدها عيسى تحمي رسالة ربها من فتك اليهود.. وتتبعه أين ذهب مؤمنة به مصدقة بكل ما جاء عنه... فنقول نعم فهي الصديقة المصطفاة التي جاءها البشير بنبوة عيسى على لسانه نفسه في المهد.. ويكفي أنها هي التي أنجبته.

حتى فاطمة -رضي الله عنها- عندما سنتحدث عنها ونرى من عظمتها التي أهلتها لتكون من خير نساء أهل الجنة سنقول ولم لا؟ فهي ابنة النبي ﷺ التي تربت على عينه.

وعائشة أفضل النساء تلك التي جعلها الله روحًا من الروح وريحانًا من الجنة لرسوله في الدنيا سنقول ولما لا؟ وقد تربت طفلة في بيت النبوة.

وهذا كله ليس تقليلاً من شأنهن إنما بيان لأبواب فتحت لهن ليسلكن هذا المسلك مع أنبياء الله.

أما خديجة فقد كانت زوجة.

نعم زوجة.. وأي زوجة كانت؟!

سألت زوجتي كعادتي عند البدء في كتابة بحث جديد ماذا تشعرين عندما يذكر أمامك أم المؤمنين خديجة -رضي الله عنها؟

سمعت صمتها المشتاق ولمحت في عينيها دموع حب ترقرق.. ثم قالت هامسة: السلام عليك يا أمي، ثم نظرت إليّ ترى عطش الإجابة في عيني وقالت باسمة.. أشعر بالإجلال والتوقير والمهابة أشعر أنها امرأة مختلفة عن جميع النساء.

قلت: وأنا كذلك.

وسكتنا لأن الموقف لا يحتمل إلا صمت الذكريات.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾

قرأت كثيرًا منذ بدأ لساني النطق تلك السورة الدرة من الدرر. ﴿وَالضُّحَى ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ۞ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ۞ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى ۞ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ۞ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۞ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى ۞ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ١-٨].

ثم قرأت معاني الكلمات وأنا في صباي وقرأت تفسيرها في دراستي.. وتبحرت في معانيها في شبابي.. واليوم وأنا أكتب عن خديجة أرى رؤيا جديدة.. لقد كانت بفضل الله -تعالى- تلك الواحة التي عوض الله بها نبيه ذلك كله.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ فاقد الأب والأم والجدّ.. يرعاك عم ذو عيال.. فآواك في سن شبابك في سكن ومكانة وقوامة.. حيث خديجة السكن.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ تائهًا تبحث عن الحق بعد أن أنكرت فطرتك الطاهرة ما عليه قومك وخاصة في علاقتهم بالله.. فهداك إلى الخلوة والعزلة تبحث في آفاق الكون والنفس عن ربك.. ومهدت لك زوجتك كل هذا فكانت تمدك بالعون وترعاك بالخدم وتوفر لك الوقت صابرة وهي أم لأربع بنات.. حتى وجدت الهدى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن

﴿نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾.. لا مال لك فأنت لم ترث عن أبيك مالاً أو عن أمك.. ووصل أمر قومك بني هاشم إلى أقلهم مالاً وأكثرهم عيالاً أبي طالب عمك وكنت تعمل في رعي الغنم في بدء سعيك[١] ثم بدأت رحلة الكد في الدنيا.. فأغناك الله ببيت فيه المال والسعة في بدء شبابك وزوجة راضية بك تعطيك كل شيء عن طيب نفس.. فوجدت الغنى عن الناس بخديجة.

والعجيب أنه ورد في بعض الأخبار أن هذه السورة نزلت بسبب نقاش بين خديجة ورسول الله ﷺ.. يبين مدى حرصها عليه ومحاولتها التخفيف عنه بل ومكانتها عنده.

فعندما يهتم الزوج بأمر حتى يحدث له قلق شديد وجزع تجد الزوجة المحبة اللبيبة تتخذ أحد موقفين إما أن تهون الأمر على زوجها وتبين عدم أهميته حتى تقلل من جزعه وقلقه، وإما أن تحتد على زوجها وتطالبه بأن يكف عن الجزع ويعطي نفسه فرصة يتفكر فيها؛ لأن الأمر من الأهمية لأن يحتاج هدوء بالٍ ونفس.

ولقد اختارت خديجة الموقف الثاني في هذه الحادثة كما ورد في الأخبار.. فلقد فتر الوحي عن رسول الله ﷺ وكان -عليه الصلاة والسلام- في حيرة من أمره ما هذا الذي يأتيه؟ وكان يخاف على نفسه أن يتهمه الناس في عقله وكانت خديجة كثيرة التهدئة له وسؤال العقلاء وطمأنته كما فعلت عندما سألت ابن عمها ورقة.

ولكن عندما طالت مدة فتور الوحي اشتد جزع النبي ﷺ حتى كاد يهوى بنفسه من فوق جبل من شدة ما يجد من الجزع.

هنا نجد موقف الزوجة اللبيبة الحكيمة المدركة للموقف النفسي لزوجها تدعوه أن يكف عن الجزع حتى لا يغضب منه الله -تعالى- فتقول له في شكل مداعبة تلطف بها الأمر وتوجهه من طرف خفي إلى خطورة جزعه (يا محمد إني أرى ربك قد قلاك[٢]

---

(١) يقول ﷺ: «مَا بَعَثَ الله نَبِيًّا إِلاَّ رَعَى الْغَنَمَ».

(٢) وقيل معناها: تجنب وبعد عنه وجفاه.

ممَّا نرى من جزعك).

فأنزل الله -تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ فعند اشتداد الكرب على الزوجين الحبيبين جاء الفرج من الكريم.

يقول ابن كثير: (لعلها قالته على وجه التأسف والتحزن)[١].

البداية

ولكن ما لنا نبدأ الحديث من منتصفه؟!

إنه الحب المتلهف للدخول إلى عالم أمنا خديجة -رضي الله عنها- الوقور.

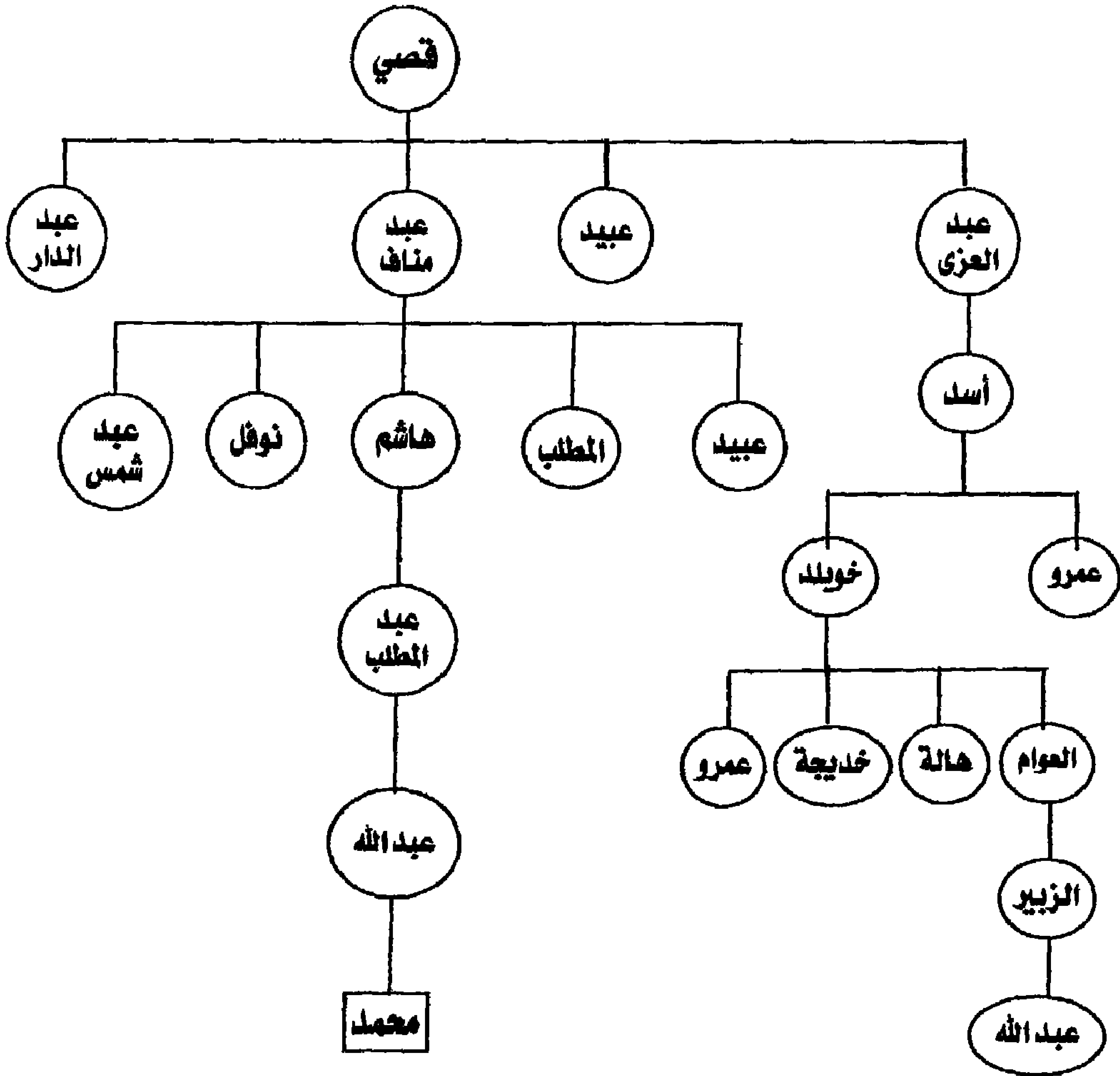
ولكن تعالوا نبدأ من النسب.

من هي؟

هي خديجة بنت خويلد بن عبد العزى بن قصي حيث تلتقي مع رسول الله ﷺ في قصي فهي أقرب نسائه نسبًا إليه وأمها فاطمة بنت زايدة بن الأصم.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج٨ ص ٢٤٣ وقال: والحديث مرسل من جميع طرقه رواه ابن جرير في تفسيره.. وذكره محب الدين الطبري في السمط السمين باب: (ذكر ما نزل بسببها) (فالحديث ضعيف) وقد ورد سبب صحيح في نزول الآية أن المشركين في المدينة لما فتر الوحي عن رسول الله ﷺ تهجموا عليه، وقالوا: لقد قلاك ربك؛ أي أبغضك وتركك فنزلت السورة تطييبًا لخاطر الحبيب ﷺ ومن المعاني التي ذكرها المفسرون أن الله آواه في يتمه برعاية أبي طالب وهداه بنزول الوحي وأغناه بخديجة -رضي الله عنها. ولذلك كان ﷺ يقول: «والله مَا أَبْدَلَنِي خَيْراً مِنْهَا قَدْ آمَنَتْ بِي حين كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ وَرَزَقَنِي الله الولد دون غيرها من النِّسَاءِ».



فهي عمة الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ وابن عمة النبي ﷺ صفية بنت عبد المطلب.

قبل محمد ﷺ

تزوجت السيدة خديجة رجلين قبل رسول الله ﷺ ماتا عنها هما:

١- عتيق بن عابد.. وأنجبت له حارثة (أنثى).

٢- أبو هالة التيمي (مالك بن زرارة) وقيل: هند بن زرارة وأنجبت له هالة (أنثى) وهند (ذكر).

وقد أسلم أولاد خديجة من زوجيها السابقين.. وأشهرهم هند بن هند بن زرارة.. عاش حتى خلافة علي ﷺ ومات بالبصرة في الطاعون فازدحم الناس على جنازته وتركوا جنائزهم وقالوا: ربيب رسول الله ﷺ وكان فصيحًا بليغًا وصَّافًا ، وصف رسول الله ﷺ فأحسن وأتقن، وكان يقول: أنا أكرم الناس أبًا وأمًّا وأخًا وأختًا، أبي رسول الله ﷺ وأمي خديجة -رضي الله عنها- وأخي القاسم ﷺ وأختي فاطمة -رضي الله عنها-.

عن الحسن بن علي قال: سألت خالي هند ابن أبي هالة -وكان وصَّافًا- عن حلية رسول الله ﷺ وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئًا أتعلَّق به.

فقال: كان رسول الله ﷺ فخمًا مفخمًا، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رجل الشعر، إذا تفرَّقت عقيصته فرق، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه.

يقول محب الدين الطبري: وأما الجاريتان المذكورتان في أولادها ممَّن قبل رسول الله ﷺ فلم أظفر من أخبارهما بشيء[1].

فخديجة -رضي الله عنها- امرأة صاحبة تجربة عريضة في الحياة تزوجت وأنجبت ومات عنها زوجاها وتركا لها ثروة كبيرة استطاعت بحكمة أن تديرها تجارة رابحة وتستعمل الكثير من الرجال في تجارتها.

الطاهرة

وهي من توافقات القدر.. فقد كان لقبها في مكة هو نفس لقب محمد ﷺ... الطاهر.. فهي أيضًا الطاهرة.. وكان أهل مكة يصفونها بسيدة نساء قريش.. وكانت تتصف بجانب كل مؤهلاتها السابقة أنها من أجمل نساء قريش.



(١) السمط السمين ص ٢٣. يقصد حارثة بنت عتيق وهالة بنت هند بن زرارة.. وإن كانت الأخيرة ورد أنها كانت تزور النبي ﷺ بعد موت خديجة وكان يفرح بقدومها ﷺ.



اللقاء الطاهر

كانت -رضي الله عنها- تقوم بشكل شريف من أشكال التجارة؛ وهي المضاربة.. حيث تشارك التجار بمالها؛ ليتاجروا لها فيه ويحصلون على أجرٍ مقابل ذلك.

وكانت دائمًا تبحث عن ذلك الرجل الذي تستأمنه على مالها.. وكانت سيرة الطاهر الأمين محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ سيد قريش قد وصلتها فرغبت في أن يتاجر لها في مالها.

وفي لقائها الأول بمحمد ﷺ وبعد عرض مشروعها عليه أن يذهب بتجارة لها إلى الشام قالت له في نهاية لقائها به: «يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك[1] في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك»[2].

وانطلق الشاب ذو الخامسة والعشرين عامًا إلى الشام يحمل تجارة سيدة قريش؛ ليتاجر فيها وصحبه (ميسرة) غلام خديجة الذي أرسلته رفيقًا له في رحلته وأمرته؛ «لا تعصي له أمرًا ولا تخالف له رأيًا».

وعادت القافلة

وانتهت جلسة الحساب بين خديجة ومحمد ﷺ ولم يفتها أن تلاحظ ذلك الفرق الواضح في المكاسب التي جاء بها محمد وما كان يأتي به الرجال من قبله وبين أسلوبه في

(١) سطتك: تعني مقامك.

(٢) ورد أن أبا طالب هو الذي أقنع ابن أخيه بأن يعمل مع خديجة حيث احتياجه للمال وعرض عليه أن يكلمها له.. فوافق ﷺ. ولا تعارض فقد يكون كلا الأمرين تم وتوافقت الرغبات؛ وذلك دلالة على قرب الأسر من بعضها. وورد أن هذه العبارة التي قالتها خديجة لمحمد ﷺ عند عرض التجارة معه ووردت عند عرضها الزواج عليه ولكن لما استبعدنا فكرة أنها هي التي عرضت عليه الزواج -كما سنرى- فإنه يمكن أن تكون قالت له تلك العبارة في ذلك الموقف أو بعد أن جاءها طالبًا الزواج منها أو في كلا الموقفين.

إدارة العمل وبين أسلوب غيره.

ثم استدعت ميسرة لتستمع منه إلى ما كان من أمر القافلة وأمر محمد ﷺ.

وأفاض ميسرة في ذكر أخلاق رسول الله ﷺ في مسيره وسفره وفي بيعه وشرائه وفي معاملته للناس أيًا كانوا.. وفي أمانته.

وقد ذكر الرواة مجموعة أحداث عجيبة ذكرها ميسرة أنها حدثت في هذه الرحلة.

ومن الأمور التي وقفت أمامها خديجة طويلاً عندما باعت ما جاء به محمد من بضائع فكان ربحها ضعف ثمنها تقريبًا، فتعجبت، وهي التاجرة الماهرة، من ذكاء هذا الشاب في أول رحلة تجارة له أن لا يعود إليها بأموال ولكن يشترى بهذه الأموال بضائع، ثم يتعين انتقاء هذه البضائع مما تحتاجه مكة ومن أجودها بحيث يتهافت التجار عليها ليشتروها بأضعاف ثمنها فتربح خديجة من هذه الرحلة أكثر من مرة.. مرة ببيع تجارتها في الشام ومرة ببيع تجارتها في مكة ومرة بنوعية هذه البضائع التي جلبها محمد معه..

- حقًا إن أمره لعجيب.

هكذا كان الخاطر يدور في عقل خديجة.

تفكير جديد

بدأ هذا الشاب الأمين محمد ﷺ يشغل من تفكير السيدة الطاهرة خديجة جزءًا كبيرًا.. وبدأت نفسها تحدثها بين شدٍّ وجذب.. حتى استقرت في النهاية إلى قرار.. لو تقدَّم محمد ﷺ لي ليتزوجني فسوف أقبله..

إن كل شيء متوافق بيننا.

النسب يكاد يكون واحدًا فنحن أولاد عمومة..

والمكانة عالية فهو ابن سيد قريش ومن العائلة التي تتصدر مكان القيادة في قريتها (مكة)..

والاحتياج متبادل فهو شابٌّ في ريعان شبابه، خطا خطوات واسعة في الرجولة

يحتاج إلى زوجة عاقلة تدبر له حياته، ولقد رأت فيه ما يجعلها تثق أنه نوعية مختلفة من الرجال.. إنه من هؤلاء الذين يحتاجون امرأة تجمع بين حكمة العقل وحنان القلب وتجربة الحياة.. وهي ترى نفسها كذلك.

وهي امرأة ذات أولاد يحتاجون أب يرعاهم وذات مال تحتاج إلى رجل يديره معها.. وذات منصب تحتاج إلى مَن يدعمه لها.. وهي ترى فيه المؤهلات التي تؤهله لذلك بجانب الخلق العالي الذي يمكن أن تترجمه في كلمتين الأمانة والعفة[١].

ولكن يقف أمام هذا الزواج مشكلتان أساسيتان ومشكلة إجرائية.

أما المشكلتان فهما فقر محمد ﷺ... ولقد سارعت هي بتجاهل هذه المشكلة حيث إن نسبه وحسبه ومكانته يغطيان كثيرًا على هذه المشكلة بل وغناها ورغبتها في أن يدير هذا الغنى معها تجعله يملك رأس المال المناسب، ثم إن أسرته ستغطي له هذا الفقر وهذا ما حدث كما سنرى.

أما المشكلة الثانية فهي فرق السن بينهما الذي يبلغ خمسة عشر عامًا تكبره هي به[٢]... وهنا تبتسم خديجة في نفسها فهي مدركة تمامًا أن رقة العيش ولينه التي عاشت فيها جعلت تلك السنون الأربعين التي مرت بها لم تؤثر في أنوثتها فهي تثق في نفسها كأنثى..

كذلك من خلال تعاملها مع محمد ﷺ وجدت أنه قد عبر هذه السنين الخمسة عشر بمسافات من خلال حكمة وخبرة وعمق، تعجبت هي منها من أين حصل عليها؟!

بجانب أن هذا الفارق في السن لا قيمة له في أعراف مكة على مستوى القبائل جميعها وحولها عشرات التجارب من أقربائها وجيرانها.. فلن تجد ممانعة على مستوى العادات والتقاليد.

---

(١) لقد أدركت خديجة الآن لماذا كانت ترفض الخطاب من وجهاء مكة الذين تقدموا للزواج منها بعد موت زوجها الثاني.. إنها كانت تبحث عن نموذج جديد وفريد من الرجال.. كانت تبحث عن نموذج وجدته في محمد ﷺ.

(٢) ورد بعض الاختلاف في عمره ﷺ فمنهم من نقل أنه كان عمره ٢١ عامًا، وقيل: ثلاثين.. بل قال البعض: إن عمر خديجة كان مساويًا لعمره؛ أي حوالي خمسة وعشرين عامًا.. ولكن الثابت أنها كانت أكبر منه سنًّا ويدور فرق السن حول الخمسة عشر عامًا.. (انظر سيرة ابن هشام ١/ ١٩٢).

وأخيرًا نأتي إلى المشكلة الإجرائية.. من سيكلم محمدًا ﷺ في هذا الموضوع وهي العفيفة الطاهرة الذي يمنعها حياؤها أن تكلمه في مثل هذا الموضوع.

وقبل أن نسترسل لا بدَّ أن أذكركم أعزائي القراء أننا الآن نتحدث عن محمد ﷺ الشاب العربي القرشي... البشر العادي في مكة.. لا نتحدث عن النبي محمد ﷺ ورغم أن سيرته ﷺ قبل النبوة لا يوجد فيها ما يخفى أو يتعارض مع مقام النبوة إلا أنه لزم التنويه؛ حيث إننا نستعرض علاقة عادية جدًّا ليس فيها أي ميزة ترفع عن مستوى البشرية ولا تتعارض بشريتها بأي شكل مع مقام النبوة الذي سيرتقي إليه محمد ﷺ بعد سنوات.

ونعود -وقبل أن تحل خديجة هذه المشكلة الإجرائية- إلى محمد ﷺ وقد انشغل في حياته وشئون أسرته حيث يعيش مع عمه أبي طالب.. فهل غابت ذكرى خديجة عن تفكيره؟.. أظنه لا. فمثل هذه المرأة يظل الرجل يفكر فيها بعض الوقت مقدرًا مكانتها وقدرتها التي تفتقدها الكثير من النساء. وأظنه كان يبتسم في نفسه من كرمها عندما يتذكر ما أخبر به ﷺ بعد ذلك.. أنه كان يعمل معها برفقة رجل آخر فكان يقول: (ما رأيت من صاحبة خير أَخْيَرَ من خديجة.. ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من الطعام تخبئها لنا)[1].

يا لها من امرأة كريمة ويا له من خلق يحبه الكريم ﷺ.. ولكن إلى هنا لم يتعد التفكير بمحمد ﷺ فهو يدرك تلك العقبة التي تقف بينه وبين الزواج وهي الفقر.. وهو العفيف الذي يأبى أن يسأل أعمامه شيئًا.. ويفضل أن يكد ويتعب في الحصول على ما يتزوج به على أن يطلب من أعمامه شيئًا.

الخطبة

فكيف حلت خديجة تلك المشكلة الإجرائية.. أن يتقدم محمد ﷺ لخطبتها وألا تجرح في الوقت نفسه حياءها وتبدو هي الطالبة لا المطلوبة.

إن الحل بسيط ويبدو أن محمدًا ﷺ كان ذا سمعة طيبة محبوبًا في البيوت.. فلما عرضت خديجة الأمر على إحدى صديقاتها القريبة منها وتعلم قربها من عائلة محمد ﷺ

---

(١) ذكرها الطبري في السمط السمين ص١٣.

وهي (نفيسة بنت منيه).. توجهت نفيسة مباشرة إلى محمد ﷺ ولَّمحت له بأمر الزواج.. فأجابها بلطف –ما بيدي ما أتزوج به فإذا بها تقول مبتسمة مؤكدة.

– فإن دعيت إلى الجمال والشرف والمال.. ألا تجيب؟

قال: ومن هذه؟

قالت: خديجة بنت خويلد، ومؤكد أن ملامح الفرح قد بدت على وجه الشاب الطاهر وهو يقول لها:

– إذا اذكريني عندها..

وسعت نفيسة في أفضل زواج وأعلاه على مرِّ التاريخ وقيل: إن أبا بكر الصديق وكان صديق محمد ﷺ كان وسيطًا أيضًا في هذا الزواج وهو الذي كان يختلف بينه وبين خديجة حتى أنكحها إياه[1].

وانطلق محمد إلى بيت خديجة ومعه عمه حمزة بن عبد المطلب فخطبها إليه.

يوم العقد

مرت أيام التعارف والخطبة بين محمد ﷺ وخديجة وجاء يوم العقد وحضر أعمام محمد ﷺ.. وخطب أبو طالب خطبة النكاح، وقال فيها: «أما بعد أن محمدًا ممَّن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفًا ونبلاً وفضلاً وعقلاً وإن كان في المال قل فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك».

وتقدم عمها عمرو بن أسد بن عبد العزى وأثنى على محمد خيرًا، وزوجها له في حضور أخيها عمرو بن خويلد، وكان زواجها في العام الذي كانت قريش تعيد بناء الكعبة فيه.

موقف أبيها

وللأسف كان أبوها غائبًا عن الوعي في هذا الوقت حيث كان مخمورًا إلا أن النبي

(١) انظر البداية والنهاية جـ٩/ ٣٣١.

ﷺ كساه حلة.. وقامت خديجة بتطييبه.. فلما نام واستيقظ في الصباح سأل ما هذه الحلة وما هذا الطيب؟ فقالوا: هذه أهداها لك زوج ابنتك محمد بن عبد الله فأنكر خويلد أن يكون زوج ابنته من أحد.. وخرج يصيح حتى جاء الحجر ووصل الخبر إلى بني هاشم فأسرعوا ومعهم محمد فكلّموه.. حتى هدأ.. ثم قال: أين صاحبكم الذي تزعمون أني زوجته خديجة؟

فبرز له رسول الله ﷺ... فلما نظر إليه قال:

- إن كنت زوجته فسبيل ذلك (أي أوافقه) وإن لم أكن فعلت فقد زوجته[1].

صداق خديجة

ورغم فقر محمد ﷺ إلا أنه قدَّم صداقًا مناسبًا لخديجة حيث أصدقها عشرًا من الإبل الصغيرة السن (أبكار) وقدَّم لها أعمامه هدايا قيمة، ثم عاد رسول الله ﷺ وأضاف إلى صداقها اثنتي عشرة أوقية ذهبًا زيادة في إكرامها.

وليمة البناء

ودخل ﷺ على خديجة ثم ذهب ليخرج من البيت في الأيام التالية فقالت له: إلى أين يا محمد؟ اذهب وانحر جزورًا أو جزورين وأطعم الناس ففعل ذلك ﷺ.



---

(١) انظر البداية والنهاية ج ٢/ ٣٦٢ ويتعارض مع هذه القصة ذكر البعض أن خويلد مات قبل ذلك في حرب الفجار.



خمسة عشر عامًا

إنها ثلاث كلمات ولكنها في عمر الدنيا من أهم خمس عشرة سنة في التاريخ.. إنها سنوات الإعداد والتدريب لخاتم الأنبياء.

خمسة عشر عامًا.. يباشر محمد ﷺ مسئولياته كزوج ورب بيت.. وأب لأولاد وبنات وكرجل تعتمد عليه زوجته في إدارة أموالها.. فترتقي قدراته ويصبح من رجالات مكة المعدودين المأخوذ برأيهم في المواقف الجلل..

بناء الكعبة

ومن المواقف التي تذكرها السير وتدل على بلوغ محمد تلك المكانة في قومه.. أنه لما بلغ خمسة وثلاثين عامًا اجتمعت قريش على إعادة بناء الكعبة وتسقيفها.. ولكرامة الكعبة عندهم قسموا العمل بينهم لكل قبيلة جزء وبدأت كل قبيلة في جمع الأحجار لبنائها.. وبدأ البناء حتى وصل إلى مستوى وضع الحجر الأسود فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتحالقوا وأعدوا للقتال واستمروا على هذا أربعة ليال أو خمسة.. وكان فيهم عقلاء اجتمعوا مع رءوساء القوم في المسجد وتشاوروا وتناصفوا

فقال رجل من أسنهم.. يا معشر قريش: اجعلوا بينكم أول من يدخل من باب المسجد يقضي فيما تختلفون فيه فارتضى الناس هذا الرأي وجلسوا ينتظرون أول قادم وكل يمني نفسه أن يكون حليفًا له أو من عشيرته؛ ليحكم له.

وتطلعت أبصارهم إلى ذلك القادم عليهم فكان محمد بن عبد الله ﷺ.. فلم رأوه هللوا فرحين جميعا، وقالوا: هذا الأمين رضينا بحكمه.

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: هلمّ إلي ثوبًا فأتي به، فأخذ الركن فوضعه

بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعًا ففعلوا ما أخبرهم حتى إذا بلغوا به موضعه وحمله -عليه الصلاة والسلام- بيده.. ووضعه في مكانه ثم بنى عليه.

وهكذا كانت مكانته ﷺ عندهم :أمين ، مرضي السيرة والحكم قد اكتملت له المكانة في قومه.

حجه ﷺ قبل البعثة

وانطلق ﷺ يحج إلى بيت الله وكان العرب يحجون إليه كبقايا لدين إبراهيم بينهم. وقد شوهوا صورة الحج التي فرضها الله على إبراهيم حين نادى في الناس بالحج كما أمره الله -تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

فاخترعت قريش فكرة الحمس؛ بمعنى التشدد في العبادة وكانوا لا يقفون على عرفة كما يقف الناس ويفيضون من منى وليس من عرفات.. وابتدعوا في ذلك أمورًا كثيرة في طعامهم.. وسكنهم.. حتى أنهم قالوا: إنه لا ينبغي لهم الطواف بالبيت إلا في ثياب الحمس.. فإن لم يجدوا منها شيئًا طافوا بالبيت عراة، فإن طاف أحدهم بثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف ولم يستفد منها شيئًا.

وجاء الإسلام فأبطل عادات الحمس وما ابتدعوه في ملة إبراهيم فقال -تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]... أي من عرفات وليس من منى .

وكان ﷺ من الحمس ولكن أكرمه الله في حجه قبل بعثته فلم يفعل شيئًا من ابتداعهم.. يقول جبير بن مطعم: لقد رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي وإنه لواقف على بعير له بعرفات مع الناس تاركًا قومه حتى يدفع معهم منه (أي يفيض مع الناس من عرفات).

وقال جبير متعجبًا حين رآه واقفًا كذلك: هذا رجل أحمسي فما باله لا يقف مع الحمس حيث يقفون؟!

خـــير حِجْر

دخل رسول الله ﷺ بيت خديجة وفيه ثلاث ربائب له، بنتان اسمهما: هند بنت عتيق وهالة بنت زرارة، وولد اسمه هند بن زرارة تربوا جميعًا في حجره خمسة عشر عامًا، فلما جاء ﷺ بالبعثة أسلموا جميعًا.. وتزوج البنات.. وعاش هند حتى خلافة علي ﷺ ومات بالبصرة بالطاعون وكان وصَّافًا حيث إن أشهر وصف للنبي ﷺ جاء عن طريقه(١).

واشتهر في كتب التاريخ باسم هند ابن أبي هالة.. وهو ربيب رسول الله ﷺ.. وكان خال أبناء النبي ﷺ.. الذي يصفه لهم وصفًا دقيقًا يرد شوقهم إلى تذكر صورته حيث كانوا أطفالاً قبل أن يموت ﷺ.

يقول الحسن سألت خالي هند بن هالة عن رسول الله ﷺ فوصفه لي.

التواصل العائلي:

ومن دلائل نجاح هذا الزواج السعيد ذلك التواصل بين عائلة النبي ﷺ وبين عائلة خديجة بكل أطرافها فهذا العوام بن خويلد أخو خديجة يتزوج صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ.. وتنجب له الزبير بن العوام حواري رسول الله ﷺ... وهذا العاص بن الربيع ابن أختها هالة بنت خويلد.. يتزوج ابنة خالته زينب بنت محمد ﷺ ويكون معها بيتًا جميلاً سوف نحكي عنه بعد ذلك.

وكانت لهالة أختها أفضل مكانة بعد موت خديجة حيث كانت تزور رسول الله ﷺ فيهش لها ويبش وكان يرسل لها الهدايا.. ويفرح لقدومها وسماع صوتها الذي يشبه صوت خديجة.

وحكيم بن حزام بن خويلد وعمته خديجة بنت خويلد قد ولدته أمه في جوف الكعبة قبل الفيل بثلاث عشرة سنة، وذلك أنها دخلت تزور فضربها الطلق وهي في الكعبة فوضعته على نطع، وكان شديد المحبة لرسول الله ﷺ.

---

(١) السمط السمين ص ٢٣.

ولما كان بنو هاشم وبنو المطلب في الشعب لا يبايعون ولا يناكحون، كان حكيم هذا يقبل بالعير يقدم من الشام فيشتريها بكمالها، ثم يذهب بها فيضرب أدبارها حتى يلج الشعب يحمل الطعام والكسوة تكرمة لرسول الله ﷺ ولعمته خديجة بنت خويلد.

وهو الذي اشترى زيد بن حارثة فابتاعته منه عمته خديجة فوهبته لرسول الله فأعتقه، وكان قد اشترى حلة ذي يزن فأهداها لرسول الله ﷺ فلبسها، قال: فما رأيت شيئًا أحسن منه فيها.

ورغم حبّه هذا الشديد لرسول الله ﷺ فقد تأخر اسلامه الى يوم الفتح هو وأولاده كلهم.

حياة أبوية حافلة

وكانت الحياة الأبوية لمحمد ﷺ قبل البعثة حافلة فقد أنجبت السيدة خديجة له ستة أو سبعة من الأبناء والبنات أنجبت القاسم وبه كان يكنى ﷺ.. فينادى أبا القاسم وتوفي رضيعًا.. وأنجبت الطيب والطاهر.. وقيل إنهم واحد ويطلق عليه (عبد الله).. ويقال إنه مات بعد البعثة ويقال قبلها وعمره عشر سنوات.

أما بناته الأربعة -رضي الله عنهن- جميعًا فأرجح ترتيب لهن كالآتي: زينب الكبرى ثم رقية[1] ثم أم كلثوم ثم فاطمة التي ولدت قبل البعثة بخمس سنوات.

وعاش البنات بين أكرم والدين محمد ﷺ وخديجة وتربوا تربية راقية تبدت آثارها بعد ذلك في تلقي دعوة أبيهم وتحملهم الأذى معه في سبيلها كما سنرى بعد.

زواج البنات

وكان من تقدير الله -تعالى- لنبيه.. أن زوج بناته ﷺ قبل أن يبعث إليه وهذا أيضًا يدل دلالة قاطعة على شأن تلك الأسرة الكريمة في قريش فقد تزوجت زينت ابن خالتها أبو العاص بن الربيع.. وهو ابن هالة بنت خويلد أخت خديجة ودخل بها وعاشا سنوات

---

(١) ورد أن رقية أكبر من زينب ولكن الأرجح الترتيب الذي أثبتناه.

قبل البعثة متزوجين..

يقول الرواة أن خديجة هي التي سألت رسول الله ﷺ أن يزوج زينب بأبي العاص وكان محمد ﷺ لا يخالفها.

وتزوج عتبة وعتيبة ابني أبي لهب رقية وأم كلثوم بالترتيب.. وكان أبو لهب يحب محمدًا ﷺ قبل البعثة حبًّا شديدًا وكان سعيدًا بارتباطه بمحمد بتلك المصاهرة.. فتمَّ العقد وتأجل البناء بهما..

ولما جاءت البعثة ودب الحقد في قلب أبي لهب وتصدى لابن أخيه محمد بأسوأ أسلوب وتصدت زوجته أم جميل لإيذاء النبي ﷺ ووضع الشوك على بابه وفي طريقه.. كما حكت السيرة.. ووصل حقده إلى مداه عندما ردَّ على محمد ﷺ وهو يدعو الناس من فوق جبل الصفا بعد أن جمعهم فقال له: تبت يدك ألهذا جمعتنا..

فنزل الوحي يرد عن رسول الله ﷺ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

وهنا اشتعل بيت أبي لهب نارًا وهاجت امرأته، وقالت: إن ابن أخيك يهجونا.. وكانت قريش قد جاءت أبا لهب وقالوا له: لقد فرغنا محمدًا لدعوته وزوجنا بناته فأمر أولادك أن يطلقوا بنتيه وسنأمر أبا العاص أن يطلق ابنته حتى ينشغل بنفسه عنَّا.

فأمر أبو لهب ابنيه بعد نزول سورة (تبت) أن يطلقا رقية وأم كلثوم.. فطلقاهما فزوجهما رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان بعد إسلامه الواحدة بعد الأخرى.

ورفض أبو العاص بن الربيع أن يطلق زينب في قصة حب ووفاء رائعة[1].

على أبواب الوحي

رفض رسول الله ﷺ منذ صباه لهو الجاهلية وعبثها وقد حكى أنه همَّ بالنزول من

---

(١) سيأتي الحديث بالتفصيل عند الكلام عن بنات النبي ﷺ.

المراعي حيث كان يرعى غنم أبي طالب وهو صبي إلى مكة ليشهد بعض لهوهم ولكن الله ألقى عليه النوم في طريقه فلم توقظه إلا لسعة الشمس.

ورفض ﷺ عبادتهم فلم ير أصنامهم.. وكان يصل إلى سمعه أسماء وسلوكيات مجموعة من شيوخ مكة رفضوا الوضع الديني والاجتماعي في بلادهم تمامًا وبدءوا يبحثون عن دين جديد يروي ظمأ قلوبهم؛ ومنهم ورقة بن نوفل ابن عم خديجة الذي اجتمع يومًا في عيدٍ لأحد أصنام قريش مع عبيد الله بن جحش ابن عمة رسول الله ﷺ وعثمان بن الحويرث وزين بن عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب.

وقال بعضهم لبعض تعلموا والله ما قومكم على شيء لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ما حجر تطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع يا قوم التمسوا لأنفسكم بأنكم والله ما أنتم على شيء فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية؛ دين إبراهيم[(١)].

وتنصر ورقة وابن جحشي وابن الحويرث وتوقف زيد بن نفيل عن جميع الأديان وبدأ يبحث في الحنيفية الإبراهيمية وكان من شعره:

أربًّا واحدًا، أم ألفَ ربٍّ أدينُ إذا تقسَّمت الأمور

عزلت اللات والعزّى جميعًا كذلك يفعل الجلد الصبور

وكان ورقة بن نوفل كما بيَّنا ينتظر النبي الذي بشرت به الكتب السابقة.. وقد اتسعت الآمال عنده عندما حدثته خديجة عن أحوال زوجها الشاب محمد.. واستمرت الأخبار تنتقل من خديجة إلى ورقة.. بتلك الأشياء العجيبة التي كانت تحدث له.. وذلك بدءًا من رحلته في تجارتها إلى ما حدث يوم الوحي.

حيث قصت عليه ما حكاه لها ميسرة حول رحلة محمد معه إلى الشام سواء عن أخلاقه وأمانته أو عن تلك الأحوال التي رآها تحدث معه..

فلما استمع إليها قال لها:

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٩٩.

- لئن كان هذا حقًّا يا خديجة، إن محمدًا لنبي هذه الأمة الذي تحدثت عنه الكتب... وأن هذا أوان ظهوره.

وانطلقت خديجة بهذه المعلومة تدبر أمرها لترتبط بهذا الإنسان الكامل.. وكان ورقة بعد ذلك يسألها عن أحوال محمد.. حتى استبطأ الأمر فكان يقول لها.. حتى متى؟[(١)].

وبدأ رسول الله ﷺ، وقد اقترب سنه من الأربعين بعد خمسة عشر عامًا من الزواج من خديجة يعود إليها بأخباره العجيبة الجديدة.

سلام المخلوقات

حدث في البداية أنه كان إذا خرج إلى الشعاب والأودية لا يمرُّ بحجر ولا شجر إلا قال له: السلام عليك يا رسول الله..

وكان لا يلتفت لذلك في أول الأمر حتى كثر وازداد.

الرؤيا الصالحة

ثم كان إذا رأى رؤيا جاءت كفلق الصبح، رأى يومًا في منامه أن سقف بيته نزعت منه خشبة وأدخل فيه سلم من فضة، ثم نزل إليه رجلان فأراد أن يستغيث فمنع الكلام، فقعد أحدهما إليه والآخر إلى جنبه.

فأدخل أحدهما يده في جنبه فنزع ضلعين منه فأدخل يده في جوفه ورسول الله ﷺ يجد بردها، فأخرج قلبه فوضعه على كفه فقال لصاحبه: نعم القلب؛ قلب رجل صالح، فطهر قلبه وغسله، ثم أدخل القلب مكانه وردّ الضلعين، ثم ارتفعا إلى السماء ورفعا سلمهما فإذا السقف كما هو.

فذكر ذلك لخديجة فقالت له: أبشر، فإن الله لا يصنع بك إلا خيرًا. هذا خير الله فأبشر[(٢)].

---

(١) البداية والنهاية ٢/ ٣٦٣.

(٢) التربية القيادية ١/ ٦٦ عن الخصائص الكبرى للسيوطي ١/ ٢٣٣.

ثم حبب إليه الخلاء.. واختار لخلوته غارًا فوق جبل حراء الذي يطل على حرم الكعبة.. وكان ذلك شكل من أشكال العبادة التي وجدها في قومه وتسمى التحنث ومعناها التبرر من البر أو كما قال الحنف هي من التحنف أي دين الحنفية الإبراهيمية وهو شكل من أشكال المجاورة لبيت الله للتعبد(١).

وكان يفعل ذلك شهرًا كل عام وكان ﷺ يمكث ذلك الشهر يطعم من يمرّ عليه من المساكين فإذا قضى جواره.. كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعًا أو ما شاء الله من ذلك ثم يرجع إلى بيته.

وكانت خديجة تدرك تمامًا تلك الحاجة للتحنث عند رسول الله ﷺ فتعدّ له عدته وتزوده بما سيعطيه للمساكين.. وتبقى ترعى أولاده وقد تزوده بزاد وهو في جواره فوق الجبل في حراء وترسل إليه الخدم تطمئن عليه.. وتنتظره متلهفة إلى لقائه عند عودته حتى أنه لما تأخر عنها يومًا قالت له: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، حتى بلغوا مكة ورجعوا لي(٢).

وجاء الوحي:

ويدخل محمد ﷺ على خديجة يومًا فَزِعًا ولم ينتظر حتى تقوم له كعادتها يقول عليه الصلاة والسلام: «فجلست إلى فخذها مضيفًا إليها»(٣). يقول: وهو يرجف فؤاده «**زملوني زملوني غطوني غطوني**».. لقد غمر نفسه في صدرها يتطلب أمانًا.. وبدأ يحكي لها ما رآه في غار حراء في خلوته هذه المرة.

لقد أتاه آت لم يكن يعرفه ففزع منه بشدة وخاف على نفسه.. وأمره أن يقرأ فقال له ما أنا بقارئ (أنا لا أعرف القراءة) فاحتضنه بشدة حتى بلغ منه الجهد ثم أطلقه وكرر أمره له بالقراءة.. وكرر ذلك مرات حتى قال له يريد أن يتخلص من شدة ضغطه عليه: ما أقرأ؟

---

(١) وهي شكل من أشكال الاعتكاف.. والاعتكاف يكون داخل المسجد والمجاورة تكون خارجه.
(٢) ابن هشام ١/ ٢٤٦.
(٣) أي ملتصقًا بها.

فقال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۞ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

ثم انصرف الملك عنه.. وإذا به يناديه من السماء: «يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله».

وبعد أن انتهى من حكايته نظر إلى عيني زوجته المطمئنة وابتسامتها المشجعة فقال لها:

– لقد خفت على نفسي يا خديجة.

وهنا تنطلق الكلمات التي اختزن القدر خديجة لتقولها كلمات تعبر عن ثقة زوجة في زوجها الذي عاش معها خمسة عشر عامًا قالت: **«كلا والله ما يخزيك الله أبدًا. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»**.

ولكن محمدًا ﷺ لم يكن يدري عن هذا الموضوع شيئًا، لقد كان يتعبد إلى الله بما يختاره من دين قومه ويراه أقرب إلى الصواب مثل الحج والتحنث والتصدق.. أما الرسالة والنبوة فكان كما قال الله عنه: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

ولم يكن يميل إلى أصنام قومه حتى أنه وهو في تجارة خديجة اختلف مع تاجر، فقال له التاجر: احلف باللات والعزّى. فقال محمد ﷺ: ما حلفت بهما قط، فقال الرجل: القول قولك[١].

لقد رأى ما لاقاه الذين حاربوا دين قومه أمثال ورقة وزيد بن نفيل وحويرث وعبيد الله بن جحش.. لقد سمع كثيرًا عن هواتف الجن وخزعبلات الكهان.. وهو لا يريد أن يكون واحدًا من هؤلاء.

هو السيد في قومه.. الراجح العقل بينهم الصادق الأمين.. لا يريد أن يكون ذلك.

وهنا تقترب منه خديجة أكثر وأكثر وتقول له: أبشر يا ابن العم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

---

(١) التربية القيادية: ١/ ٥٩.

لقد تذكرت الآن يوم أن وقف ذلك اليهودي على جمع من نساء قريش وهن مجتمعات في المسجد فقال: يا معشر نساء قريش، إنه يوشك أن يكون فيكن نبي فأيكن استطاعت أن تكون فراشًا له فلتفعل فحصبه النساء وقبحنه وأغلظن له. وأغضت خديجة على قوله ولم تعرض فيما عرض فيه النساء ووقر ذلك في نفسها[١].

وتداعت الذكريات إلى قلب خديجة ومحمد ﷺ بين ذراعيها قد هدأت أنفاسه.. لقد تذكرت ما أخبرها به ميسرة مما حدث له في رحلته ثم كلام ورقة بن نوفل.. ثم ذلك السلوك العجيب لمحمد الزوج الرجل الذي كان طهارة وأمانة تسير على الأرض.

إنه هو.. النبي كما أخبره جبريل.

ولقد كانت خديجة تُلَمِّح بذلك لمحمد ﷺ فلا يأبه به ولا يأخذه مأخذ التصديق فهو لا يرى نفسه في هذه المكانة التي هي اختيار من الله وليست مجاهدات أخلاقية أو عبادية ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

(ذكر الفاكهي عن أنس ﷺ أن النبي ﷺ كان عند أبي طالب، فاستأذن أبا طالب أن ينصرف إلى خديجة.. فأذن له.. وأرسل خلفه جارية يقال لها نبعة في شيء ما أو قال لها: انظري ما تقول له خديجة[٢] قالت نبعة: فرأيت عجبًا ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب، فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها[٣] ثم قالت: بأبي أنت وأمي والله ما أفعل هذا الشيء ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيبعث، فإن تكن فاعرف حقي ومنزلتي وادع الإله الذي سيبعثك لي، فقال لها: «**والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبدًا، وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبدًا**».. ورجعت نبعة وأخبرت أبا طالب بذلك[٤].

---

(١) التربية القيادية ١/ ٦٠ عن ابن إسحاق في المبتدأ.

(٢) أوردت السيرة أن ذلك قبل الزواج وأرى أنه كان بعد الزواج وكان ذلك من شدة حرص أبي طالب على ابن أخيه محمد الشاب.

(٣) وهو ما يؤكد أنه بعد الزواج حيث إن أعراف العرب لا تسمح بمثل هذا السلوك ولاستقامة أخلاق خديجة ومحمد أن يتهاونا في هذا الأمر.

(٤) التربية القيادية ١/ ٦٢ عن السيرة الحلبية ١/ ٢٢٨ وفتح الباري ٧/ ١٣٤.

العلم النبوي

لقد حفظ الله رسوله ﷺ من أن يأتي كاهنًا أو يجلس إلى راهب يتلقى منه العلم.

لقد كان علم النبي ﷺ علمًا ربانيًا من لدن العليم الخبير، لم يخالطه علم بشري قاصر، وكان حقًّا صرفًا يطبعه الله -تعالى- في قلب نبيه.

ومن هذا المنطلق، فقد طبع الله -تعالى- نبيه على بغض الشعراء والكهان، وفطره على البعد عن الأحبار والرهبان. فالشعراء والكهان يزعمون صلتهم بالجن والشياطين، والأحبار والرهبان يزعمون أنهم يتلقون من عند الله -عز وجل- وعصم الله -تعالى- نبيه عن مصادر المعرفة البشرية القاصرة أو المنحرفة هذه كلها، وبقي فؤاده الشريف الذي غسل بماء زمزم مرتين أو أكثر، ونزع حظ الشيطان منه الذي كان يتمثل بالعلقة السوداء. وتم هذا الاصطفاء الرباني وهو -عليه الصلاة والسلام- في الرابعة من عمره. وغسل قلبه الشريف ليتهيأ لتقبل الوحي. فحفظته العناية الإلهية من أي صلة بهذه المصادر.

وبينا كان المجتمع الجاهلي، ومجتمع أهل الكتاب، والمثقفون والعلماء فيه يتلهفون إلى ظهور النبي المنتظر، وخاصة أهل الكتاب الذين وصفهم الله -تعالى- بمعرفة هذا النبي فقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

أقول: بينما كان هؤلاء يعيشون هذه القضية بكل جوارحهم واندفاعهم النفسي كان النبي ﷺ بمنأىً عن هذا، ولا يخطر له على بال، كما يقول التعبير القرآني: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]. فهو غافل عن كل ما يدور حوله عن هذه القضية.

ومن حكمة الله -عزَّ وجلَّ- أن يكون قلبه الشريف خاليًا عن ذلك، حتى لا يصبو إلى هذا الأمر ويطمع إليه فيدفعه ذلك إلى الأحبار والرهبان يسألهم، ويبحث عن ذلك. وقد رأينا من هذه النماذج من كان يعد نفسه ليكون هو النبي المنتظر، كما جرى مع أمية بن أبي الصلت الثقفي والذي رفض الإيمان حين فاتته النبوة التي كان يصبو إليها مع معرفته

بالحق من عند الله، وهو موقف معظم أهل الكتاب: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

ومن هذا المنطلق، نستطيع أن نفسر المواقف الأولى للنبي ﷺ من مقدمات الوحي. فلبغضه الكهان والشعراء، ولخلو نفسه من الصبوة والتطلع إلى أن يكون نبي هذه الأمة ولاجتنابه القرب من الأحبار والرهبان فهو يعرف أن هذه الأحاديث تدور في فلكهم وفي أخبارهم، ولكراهته للتطلع للسمعة والزعامة. لهذا كله كان يخشى أن يكون جزءًا من هذه النماذج. فكان يخشى على نفسه -عليه الصلاة والسلام- كما قال لخديجة، وكان يخشى أن يكون للشيطان دور في تزيين هذا الأمر له في لحظاته الأولى. وكان يخشى قبل أن يتثبت من هذه الأمور أن يكون خذلانًا ربانيًا له(١).

إلى ورقة

وانطلقت خديجة بمحمد إلى ورقة بن نوفل وكان قد عمي وكبر سنه جدًا.. وذكرته بما كانت تقصّ له عن محمد ﷺ ثم التفتت إلى محمد ﷺ وقالت: «يا ابن عم اسمع من ابن أخيك».. فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى.

اشتدت سعادة ورقة وهو يقول لمحمد ﷺ بعد سماع الخبر هذا هو الناموس الذي نزل الله على موسى(٢).. يا ليتني فيه جذعًا (أي شابًا) ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال له محمد ﷺ متعجبًا! أو مخرجي هم؟!

قال ورقة: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي (أوذي) وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا. وهنا لم تكتم خديجة ما ملأ قلبها من قلق على حبيبها الذي كان يدور في رأسه جميع ما توجس به وسبب له هذا الرعب الشديد عندما قال له جبريل: يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله.

(١) التربية القيادية ص ٧٠، ٧١.

(٢) وذكر موسى ولم يذكر عيسى رغم إيمانه هو به لاتساع ديانة اليهود في الجزيرة في هذا الوقت، وأنهم كانوا أكثر من يعلنون بأنه زمان النبي المكتوب في التوراة وورد أنه قال ناموس عيسى وراجع فتح الباري ١/ ٣٥.



خديجة الأولى

كانت خديجة هي الأولى.. فهي الزوجة الأولى.. وهي الحبيبة الأولى وهي الراعية الأولى.. وهي أم الأولاد الأولى ثم هي المؤمنة الأولى.. فقد بذرت بذرة الإيمان برسول ورسالة في قلبها من قبل أن تتزوج محمدًا ونمت البذرة وأخرجت براعمها وهي تراه بين يديها وفي بيتها وهي ألصق الناس به.. ثم ها هو ما أن يخبرها أن جبريل ناداه أنه رسول الله إلا وتقول له مباشرة:

- «إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة».

فلقد رأته نبيًّا وهو شابّ، ورأته نبيًّا وهو تاجر، ورأته نبيًّا وهو زوج، ورأته نبيًّا وهو أبو أولادها، بل ورأته نبيًّا مع أولادها من غيره بل ومع إخوتها وأخواتها وأهليها وأهله بل ومع قريش التي ما كانت تعرفه إلا بالأمين.

لقد آمنت به ولازال هو في قلق مما يأتيه.. إن الأمر ثقيل ولم يكن محمد فيما يراه من نفسه يستطيع أن يتحمله ولذا فلم يكن يرجوه كما بيّن -تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦][(١)].

(فما كان رسول الله ﷺ يطمح إلى الوحي ولا يعرف شيئًا عنه ولم يكن بذهنه انتظار جبريل، لقد كان الأمر جديدًا كل الجدة عليه حتى ليمضي فزعًا إلى خديجة يخاف أن يكون قد مسه مسّ من شيطان ويخشى على عقله ممَّا رأى وسمع ولعل أمر النبوة -كما وضحنا- في حسّ خديجة أكبر منه من حسّ النبي ﷺ، فهي تأمل وتنتظر وورقة من طرف آخر يأمل

(١) نعم كان محمد ﷺ كذلك قبل أن تأتي ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢]. فلما جاءته ترك الغار.. وترك الراحة.. وانطلق يدعو قومه وكانت خديجة تشفق عليه تقول له: استرح يا محمد، فكان يقول لها: مضى عهد النوم يا خديجة.

ويترصد وينتظر حتى أنه يقول شعرًا فيما تخبره به خديجة من أحوال محمد ﷺ.

وأخبار صدق خبرت عن محمد يخبرها عنه إذا غاب ناصح
وظني به أن سوف يبعث صادقًا كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيم حتى يرى له بهاء منشور من الذكر واضح

لقد كان الوحي مفاجأة كاملة لرسول الله ﷺ بينما عند خديجة تحقيقًا لانتظار طال، فخديجة وابن عمها ورقة كأنهم يرونه رأي العين أهلاً لهذه النبوة[1].

وانطلقت خديجة تؤكد ما تيقنت به أن محمدًا هو نبي هذا الزمان وأن ما يأتيه ليس هاتفًا من الشيطان أو وسواس أو ضعف في عقله، لقد استمرَّ جبريل يزور محمدًا ﷺ بعد ذلك قبل أن يتوالى نزول القرآن.. وكأن محمدًا كان لا زال في قلق منه وفي نقاش بينه وبين زوجته حول طبيعة ذلك الوحي الذي يأتيه قالت له:

- أي ابن عم.. أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك.

قال ﷺ: نعم..

قالت فإذا جاءك فأخبرني.

فجاءه جبريل عليه السلام كما كان يصنع وهو جالس معها.. فقال رسول الله ﷺ: يا خديجة هذا جبريل قد جاءني..

قالت: قم يا ابن عم فاجلس على فخذي الأيسر.. فجلس رسول الله ﷺ كما أخبرته.

فقالت له: هل تراه؟

قال: نعم.

قالت: فتحول إلى الأيمن.. ففعل.

قالت: هل تراه..

قال: نعم...

(١) التربية القيادية ١/ ٦٥.

فتحسرت خديجة وألقت خمارها (غطاء رأسها الذي يغطي عنقها وصدرها)..

وفي رواية أنها أدخلت رسول الله ﷺ تحت ثيابها (بينها وبين درعها) ثم قالت: الآن هل تراه؟

فقال ﷺ: لا.

قالت فرحة: يا ابن عم أثبت وأبشر، فوالله إنه لملك وما هذا بشيطان.

الصِّدِّيقة

لقد كانت خديجة سيدة نساء مكة -وهي سيدة نساء الأرض- تبحث عن الكمال البشري من خلال البيئة المحيطة بها، قرأت الحديث عن نبي يصطفيه الله -تعالى- من أهل الأرض، ومن خلال القرائن المتعددة؛ وما سمعته من ابن عمها ورقة وغيره، وأن هذا النبي من أهل الحرم، وما أشار إليه ذلك اليهودي عن قرب بعث هذا النبي: (فأيتكن استطاعت أن تكون فراشًا له فلتفعل).

كل هذه الأمور جعلتها تتجاوز الكهان والشعراء وكبراء قريش، ليكون محطّ نظرها ذلك النبي المصطفى من الله، ومنذ أن توسمت بالنبي ﷺ تلك الخصائص والصفات التي تؤهله لهذا الموقع، وما تداوله الرهبان عن أنه هو، لم تتردد لحظة واحدة في الزواج منه، حتى تمَّ ذلك الأمر.

والخلطة الزوجية اليومية، والمعاشرة المباشرة تكشف المعدن الحقيقي للإنسان، فكثير من القيادات المشهورة تتكشف عيوبها الحقيقية من خلال المخالطة.

لقد كان الصادق الأمين محمد في خلقه وفضله أهلاً للنبوة، وثقتها بصدق الأخبار التي عاينتها وتأكدت منها، رأت أن ليس في مجتمع مكة كله من هو كفء لها غير محمد ﷺ وبعد أن تكاملت الأخبار لديها بذلك. وكانت خبرة خمسة عشر عامًا مع رسول الله ﷺ عمقت هذه المعاني، ورسخت هذه الأحاسيس في نفسها فهي في كل يوم تكشف جانبًا من العظمة النبوية، وفي كل يوم تطلع على فضيلة عالية من فضائله -عليه الصلاة والسلام-

وتزداد به حبًّا وتفانيًا في سبيله، وتمضي لتكون الأداة -الطيعة المطواعة لتنفيذ كل ما يرغبه- عليه الصلاة والسلام-.

وحين حبّب إليه الخلاء في الأعوام الأخيرة قبيل البعثة، كانت لا تتردد لحظة واحدة في تهيئة هذا الجو الذي اختاره -عليه الصلاة والسلام- فهو في قلبها وفي عقلها وفي وجدانها المثل الأعلى، وثقتها بحكمته وحصافة عقله وسداد رأيه، جعلت هذه الأمور ليست محل مناقشة عندها، فهي تهيئ له الزاد وترافقه حين يرغب بذلك، وتنتظر عودته من قمة الجبل على أحرّ من الجمر، حيث كان يتحنث في حراء؛ ولعل هذا التحنث الذي رأته منه ﷺ رفع وتيرة الأمل عندها إلى أعلى درجاته بأن يكون هو النبي المنتظر، وأخذت تحسُّ بلهفة وشوق أن الموعد قد أزف وأن النبوة قد لاحت أعلامها.

ومن عظمة شخصيتها -رضي الله عنها- ذلك الكتمان لما في نفسها من مطامح، وذلك التجمل بالصبر لما تحلم به من أمل في أن يكون زوجها النبي المنتظر، وابتعدت عن الأضواء؛ لتذوب شخصيتها في شخصه -عليه الصلاة والسلام، وثقتها بحكمته تنزع من نفسها أن تتردد لحظة واحدة في تنفيذ قناعته، فهي تعلم بفراستها أنه المعد لتلك المهمة العظمى على مستوى البشرية كلها، لا على مستوى زعامة محلية وضيعة.

لقد وظفت شهرتها الواسعة، ومالها الوفير، وعقلها الراجح، وذكاءها الوقاد في خدمة هذه الشخصية الجليلة التي تتوسم فيها أن تكون السبيل لهداية البشرية الحيرى.

وكاد قلبها يخرج من بين ضلوعها من الفرح، حين سمعت من محمد ﷺ لأول مرة عن تلك الأصوات التي تقول له: إنه رسول الله، وعن سلام الحجر عليه، وكيف يلتفت ولا يرى أحدًا.

إنها تكظم كل انفعالاتها قبل هذه المفاجأة، فلا تحدث محمدًا ﷺ عن آمالها فيه.

وهي ترى أن هذا الأمر لا وجود له في تفكيره، ولا أثر له في قلبه وفؤاده، تدع هذا الأمر نجوى حرّى بين ضلوعها؛ ولذلك رأت في أول هذه الإشارات، التي بثها إياها ﷺ أن الأمر قد وقع، أو هو على وشك الوقوع. فقالت له: معاذ الله، ما كان ليفعل بك ذلك،

إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث.

لقد كان ﷺ في حسها وفي أعماقها أكبر من كل من في الأرض، ولا يقبل حسها إطلاقًا أن يكون هذا رؤيا من الشيطان، على ما تعرف من مناحي عظمته وسموه وطهره. ومع ذلك، فأرادت أن تتثبت أكثر حين ارتأت أن يذهب أبو بكر الصديق ومحمد ﷺ إلى ورقة.

والحقيقة أنها تود أن يتثبت ﷺ من ذلك؛ لأنها رأت في هذا الحديث ما أثلج صدرها يقينًا بصحة فراستها وصحة تنبؤها، بأن هذا الأمر على وشك الوقوع.

وكان ﷺ يُحدِّث الطاهرة خديجة ويبثها بكل ما في نفسه. وقد أخذتها السعادة وغمرتها النشوة حين حدثها عن رؤياه الأولى، فقالت له: أبشر، فإن الله -عزَّ وجلَّ- يصنع بك خيرًا، وحين حدثها عن رؤياه بشق صدره قالت له: هذا والله خير فأبشر.

وهي على ثقة برؤياه التي كانت تأتي بصدقها كفلق الصبح. وما هذه الرؤى الجديدة إلا رؤى صادقة كسوابقها، لكنها بحصافة عقلها وتكامل شخصيتها لم تشأ أن تبث أحدًا خبر هذه الرؤيا، ولا تميل إلى أخذ الأحكام والقناعات منها؛ لكن بعد أن برزت الأصوات لتنادي رسول الله ﷺ وتسلم عليه، وتتحدد الأصوات بـ: أنا جبريل، وأنت رسول الله كان لا بدَّ من الخطوة الحاسمة في سؤال ورقة، لعل جوابه يطمئن شخص النبي بذلك، فهي على ثقة أن الله -تعالى- لا يخذله ولا يسلمه، وهو على هذه الذروة الشامخة من الخلق.

وتكاد لا تني وهي تعد اللحظات، متى يأتي الأمر الجلي بعد هذه المقدمات، وبعد كلام جبريل؟ إن عمرها ومصيرها وحياتها ارتبطت بهذا المعنى، ثم جاءها ﷺ ليقول لها: «**أرأيتك هذا الذي كنت أحدثك أني رأيته في المنام، فإنه جبريل استعلن لي، أرسله إليّ ربي**»، وأخبرها بالذي جاءه من الله -عز وجل- وكانت هذه لحظة العمر، فقد تأكد ﷺ من أن ربه عز وجل أرسل له جبريل وقد رآه يملأ ما بين السماء والأرض.

وفي هذه اللحظة وصلت خديجة ذروة سعادتها، بعد أن رأت حبيبها المصطفى يؤكد لها أنه رسول الله، ولم تنتظر ثانية واحدة بسماعها الخبر، بل قالت:

أبشر فوالله لا يفعل الله بك إلا خيرًا، فاقبل الذي جاءك من عند الله – عز وجل–، فإنه حق وأبشر فإنك رسول الله حقًا.

بقي عليها أن تعرف من هو جبريل هذا؟

قال لها ورقة ابن عمها: يا بنية أخي، ما أدري لعل صاحبك النبي الذي ينتظر أهل الكتاب، والذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

أما خديجة، فقد انتهى الأمر عندها بأن محمدًا قد بعث، منذ أن علمت أن جبريل ﷺ هو رسول الله إلى محمد –صلوات الله وسلامه عليه.

وكان هذا أهم انعطاف في حياة الصديقة خديجة، فكانت أول من آمن من أهل الأرض على الأرض، وأول من صلى لله على الأرض من أهل الأرض.

بهذه النفسية استقبلت خديجة الإسلام(١).

وفتر الوحي

والآن نعود إلى تلك المرحلة التي بدأنا بها كلامنا عندما فتر الوحي واشتد جزع النبي ﷺ وعادت إليه شكوكه مرة أخرى.. وازداد خوفه على نفسه أن يتهمه الناس وقد تسرب أمر مجيء الوحي إلى بعض القريبين من أسرته وبدأ سفهاء منهم يعيرونه بذلك حتى قالت زوجة عمه أبي لهب: قد قلاك ربك يا محمد..

وانطلق محمد جزعًا إلى خديجة وأخبرها الأمر فانفعلت لانفعاله ولم تأخذه هذه المرة باللين الذي يلقاه منها عندما يقلق.. ولكنها أظهرت بعض الغيظ من استمرار خوفه فإذا بها تقول له ما معناه نعم قد يكون ربك قد قلاك مما نرى من جزعك وخاصة بعد أن علمت منه أنه كان يصعد إلى قمم الجبال يريد أن يردى بنفسه منها ألمًا وحزنًا.. فإذا

(١) التربية القيادية ١/ ٧٣– ٧٥.

بجبريل يأتيه يطمئنه.. يا محمد أنت رسول الله حقًّا وأنا جبريل[١]...

وبالتأمل في هذه المقولة نجد فيها من التخفيف والتلطيف أكثر من المعايرة كما قد يظن البعض، ويجد فيها من قلق خديجة على زوجها ما جعلها تستخدم الشدة عليه من أجل أن تخفف جزعه الذي قد يكون سببًا فيما يخاف فينزل الله -تعالى: ﴿وَالضُّحَى ۞ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ يعدد بها نعم الله عليه؛ ومنها: نعمته عليه بخديجة كواحدة من النعم التي آواه الله في سكنها الزوجي وأغناه من مالها.. بل وعوضه بها يُتْم الأم في طفولته بقلب الأم في شبابه[٢].

والمصلية الأولى

وكانت الصلاة أول ما فرض على محمد ﷺ.. وافترضت ركعتين ركعتين.. الأولى قبل غروب الشمس والثانية قبل طلوعها ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: ٥٥].

وجاء جبريل يعلم رسول الله ﷺ الوضوء والصلاة فتوضأ أمامه ثم صلى به.. فتعلم منه ﷺ. وانطلق ﷺ فكان أول شيء يفعله أن يعلم خديجة الوضوء والصلاة كما علمه جبريل ثم يصلي بها كما صلى به جبريل.. فكانت المصلية الأولى كما كانت المؤمنة الأولى.

وإني يا قارئي العزيز أستشعر كما شعرت أنت الآن بذلك الجو العائلي الرفراف الذي يضفي على الدعوة دفئًا وسكينة.. أشعر برائحة وعبق ذلك التلازم الشديد بين الداعية وزوجته.. أرى بعيني مشهدًا رائعًا لداعية بلغ تأثيره الآفاق .. تقف إلى جواره زوجة تفيض بالأخلاق والقيم والحب والعطاء.

---

(١) أنكر البعض هذه الروايات حول صحة أن يردي بنفسه من شاهق قلقًا بعد انقطاع الوحي وضعفها كنوع من تنزيه مقام النبوة ونحن هنا لا نناقشهم من حيث السند فالروايات مقبولة كما حقق علماء الحديث إلا أننا نريد أن نبين أن رسول الله ﷺ كان بشرًا من البشر وما حدث معه هو اختيار واصطفاء. ومؤكد أنه كان لأسباب ومؤهلات فيه ﷺ إلا أنه ليس اكتسابيًا أو لأنه عبقري وإن كان هو كذلك أو لأنه ترك دين قومه.. الأمر ببساطة كما حدث لأخيه موسى ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] ولذلك فقد اشتد قلقه لخوفه أن يكون أصابه مس مثلاً أو خلل في عقله كما بينا من قبل..

(٢) وراجع ما بيناه في ذلك وما ذكره ابن كثير ج ٨ ص ٢٤٣.

الصحابية الأولى

نهلت خديجة -رضي الله عنها- من معينه ﷺ خمسة عشر عامًا قبل البعثة وكانت تراه أخلاقًا يسير أمامها.. فتتأسى بخلقه حتى تصطبغ به وترى أنه المؤهل الأساسي لاختيار الله -سبحانه وتعالى- ليكلفه بمهمة الرسالة وليكون نبي آخر الزمان كما بينت عندما علمت بالوحي..

فإذا بها رضي الله عنها تنال فضل الصحبة قبل الخلق أجمعين.. وتشارك النبي ﷺ أيام الإعداد الأولى كما شاركته أيام الإعداد منذ شبابه الأول.

وتنزل في بيتها ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۞ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۞ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ۞ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلا ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ١- ٥] وتنزل أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۞ وَلاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۞ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١- ٧].

وينفض رسول الله ﷺ عن نفسه الغطاء ويزيح النوم عن بدنه ليدخل مدرسة التربية حيث قيام الليل وترتيل القرآن.. ورغم أنه كان واجبًا عليه وحده لأن الأمر ثقيل.. لأنه الحق فإن خديجة شاركته ذلك كله.

(لقد علم رسول الله ﷺ أنه لم يعد هناك نوم وأن هنالك تكليفًا ثقيلاً، وجهادًا طويلا، وأنه الصحو والكد والجهد منذ ذلك النداء الذي يلاحقه ولا يدعه ينام).

ولقد علمت خديجة أنها مشاركة كل المشاركة في هذا الجهد وذلك القيام.. مشاركة منذ البدء كمؤمنة بالرسالة، ومشاركة لأنها زوج النبي ﷺ التي وجب عليها الوقوف بجانبه، ومشاركة لأنها تعلم أن ما كانت تأخذه من رسول الله ﷺ من عطاء الرجل والزوج في بيته سوف يقل كثيرًا بسبب ذلك القول الثقيل، وسوف تتحمله هي كله وقامت خديجة بالمشاركة خير قيام لقد أصبحت الصحابية الأولى.

البيت المسلم الأول

وبنظرة سريعة إلى بيت رسول الله ﷺ في الشهور الأولى بعد بعثته نجد أنه تحول إلى بيت مسلم بالكامل، فقد أسلمت خديجة وبناتها (زينب ورقية وأم كلثوم). وكانت فاطمة

صاحبة الخمس سنوات تراقب ذلك كله وتنفعل بكل ما فيه.

وأسلم علي بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ وهو ابن عشر سنين وكان يتربى في بيت رسول الله ﷺ، فهو في حجره منذ أن ذهب محمد ﷺ قبل البعثة إلى عمه أبي طالب معه عمه العباس بعد أن أصابت قريش أزمة شديدة تضرر منها أبو طالب، حيث كان سيد قريش الذي عليه إسعاف الناس وكان ذا عيال فعرضا عليه أن يأخذ كل واحد منهما أحد عياله؛ ليتكفل به فأخذ العباس جعفرًا وأخذ محمد ﷺ عليًا الذي كانت خديجة خير أم له.. فما أن جاءت الرسالة حتى آمن ﷺ وكان يخرج معه إلى الشعب يصليان.

وأسلم زيد بن حارثة.. وهو الابن المتبنى لرسول الله ﷺ.. وله قصة رائعة؛ ملخصها أن حكيم بن خزام ابن أخو خويلد ابن أخو خديجة -رضي الله عنها- قدم من الشام وقد اشتراه مع رقيق له وزارته خديجة وكانت قد تزوجت محمدًا ﷺ.. فقال لها: اختاري يا عمة أي هؤلاء الغلمان شئت أهدي إليك فاختارت زيدًا.. فلما رآه محمد ﷺ طلب منها أن تهبه إليه. فوهبته إليه..

وكان أبوه حارثة قد حزن عليه حزنًا شديدًا حيث خطفه اللصوص من أمه وباعوه وهو في سن ثماني سنوات وقال فيه أبوه شعرًا منه:

بكيت على زيد ولم أدر ما فعل ... أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل

ووصل الشعر إلى بعض رجال مكة فأخبروا أباه أنه عند محمد ﷺ.. فقدم مكة وعرض على محمد ﷺ أن يفديه بما يريد من المال..

وهنا يبرق خلق نبوي ممَّا استودعته التربية الإلهية في هذا الرجل الذي سيكون نبيًّا بعد أعوام، قال: ولما لا نخيره؟ إن شاء بقي معي وإن شاء ذهب معك..

فاختار زيد محمدًا ﷺ فأعلن -عليه الصلاة والسلام- أن زيدًا ابنه وظل ينادى زيد بن محمد حتى نزل تحريم التبني وانتساب المرء لغير أبيه كما ورد في قصة زواجه من زينب بنت جحش التي عرضتها سورة الأحزاب.

فلما عرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام لم يتلبث زيد بل أسلم فورًا.

وأسلم هند بن هند ربيب رسول الله ﷺ وبقية أبناء خديجة من غير محمد ﷺ الذين كانوا يتربون في بيته -عليه الصلاة والسلام.

وإني لألمح بشائر النور على وجه خديجة وهي تشاهد تلك البذرة المسلمة الأولى التي تكونت في بيتها وخاصة عندما جاءها رسول الله ﷺ يبشرها بإسلام صديق الأسرة وأقرب الأصدقاء إليه.. ابن أبي قحافة..

وكان اسمه عبد الكعبة أبو بكر بن أبي قحافة وسماه رسول الله ﷺ: عبد الله.

ثم ينقل إليها الخبر الأعظم.. لقد أسلم على يد أبي بكر نفرٌ من أفضل رجالات قريش؛ مثل عثمان بن عفان والزبير بن العوام (ابن عمة رسول الله ﷺ) وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله.. وأسلمت ابنتاه أسماء وعائشة وزوجته أم رومان أم عائشة:

ليكون بيت أبي بكر ثان بيت في الإسلام، ثم توالت البيوت ولكن كان بيت خديجة هو البيت الأول.

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ

مرت ثلاث سنوات من الدعوة سرًّا.. وقد تعهد رسول الله ﷺ الرعيل الأول من المؤمنين بالتربية في دار الأرقم.. ثم جاء أمر الله -تعالى- له: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وجعل له المرتبة الأولى من هذا الجهد أن يبدأ بعشيرته.. فقال -تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۞ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤، ٢١٥].

لقد آلم خديجة كل الألم ذلك الموقف الذي قابل به عشيرة النبي ﷺ (قريش) دعوته وأكثر ما آلمها هو موقف عمِّه أبي لهب عندما جمعهم النبي ﷺ ليدعوهم فقال له: تبًّا لك ألهذا جمعتنا!!

ولكن شرح قلبها دفاع القرآن عن النبي ﷺ والرد عنه ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [سورة المسد].

سنة الابتلاء

لقد تلقت خديجة الضربات التي تلقاها محمد ﷺ وأصحابه.. فما كان نبأ يأتيها من تعذيب المسلمين أو إيذاء رسول رب العالمين إلا وكأنه طعنة في قلبها الطيب ولما لا؟! وكل يوم يأتيها بأشد مما قبله.

- لقد اتهموه بالسحر والجنون.
- ألقوا عليه التراب والحجارة.
- رموا فوق رأسه أحشاء الجزور المذبوح.
- وضعوا أمام بيته الشوك والقاذورات.
- هموا بقتله أكثر من مرة.

ويعود -عليه الصلاة والسلام- إليها يبثها ما في قلبه كما عاد أول مرة عندما جاءه الوحي ولكن نفس غير النفس وقلب غير القلب وروح غير الروح.

وكان يزيد من ألم خديجة فوق ما تعانيه مما يحدث لحبيبها ونبيها وزوجها محمد ﷺ ما يحدث لأصحابه الضعفاء منهم بل والأقوياء.. فقد وصلها ما حدث لأبي بكر يوم ضربه الكافر على وجهه بحذاء مخصوف بالحديد فسوى وجهه، وما لاقاه سعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان، وما لاقاه عمار بن ياسر وأسرته وشهادة أمه وأبيه، وما لاقاه بلال وعامر ابن فهيرة وزنِّيرة. لقد أسعدها كثيرًا عتق أبي بكر لهؤلاء الضعفاء.

ثم جاءها خبر كالصاعقة لقد طلق عتبة وعتيبة أبناء أبي لهب ابنتيها رقية وأم كلثوم قبل أن يدخلا بهما وكانا عاقدين.. وذلك بإعاذ من أبيهما وأمهما.. وتدبير من قريش

بجانب ذلك الرد السيئ الذي ردَّ به عتبة على رسول الله ﷺ.

ولكن طيب الله خاطرها بموقف أبي العاص بن الربيع ابن أختها الذي أبى أن يطلق زينب ابنتها برغم ما عرضوه عليه مقابل ذلك، وقال: والله لا أطلق بنت الآمين أبدًا.

ثم يزوج رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رقية ابنته فتسعد خديجة لذلك النسب الشريف من أحد أبناء بني أمية بن عبد شمس.

وتعود الآلام وهي تودع ابنتها رقية مع زوجها عثمان بن عفان ضمن الوفد الأول من المهاجرين إلى الحبشة هربًا من بطش قريش.

نسمات لطف

وإن كان بعض نسمات من لطف الله تهب على هذه الكتيبة المؤمنة بجانب ما كان يفعله الوحي؛ ذلك في معاونة أبي طالب ووقوفه مع رسول الله ﷺ يصدّ عنه هجمات قريش.

وكذلك تحييد عمه العباس نفسه إلا أنه لم يمنع أهل بيته من الإسلام فأسلمت زوجته أم الفضل وابنها ابن عباس، ثم أسلم حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وأسلم عمر بن الخطاب فكان إسلامه نصرًا مبينًا للمسلمين حيث هدأ بعض الشيء من هجوم قريش على المسلمين.

المقاطعة

ولم تجد قريش بدًا بعد تلك الانتصارات التي أصابها محمد ﷺ وأصحابه من الأمن في الحبشة وإسلام حمزة وعمر وبدأ أمر الإسلام ينتشر في القبائل إلا أن يقاطعوا بني عبد المطلب قوم رسول الله ﷺ من بني هاشم فلا يبيعون لهم ولا يشترون منهم، ولا يزوجوهم ولا يتزوجون منهم.

وحاصرت قريش بني عبد المطلب في شعب أبي طالب.. وهنا ظهرت الحمية العربية مع مكانة محمد ﷺ في قومه فانحاز إليهم جميع بني هاشم غير بني عبد المطلب.. فقد

دخلوا معهم الشعب واجتمعوا إلى أبي طالب.. وخرج من بني هاشم أبو لهب ابن عبد المطلب عم النبي ﷺ فظاهر قريشًا على قومه، ومن سفاهته أنه لقي هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان فناداها يخبرها بأنه مع قريش ضد قومه، وقال: «يا بنت عتبة هل نصرت اللات والعزى وفارقت من فارقهما وظاهر عليهما؟ قالت: فجزاك الله خيرًا يا أبا عتبة».

واستمرت المقاطعة بين سنتين وثلاث سنوات حتى وصل الجهد بالمسلمين وبني هاشم والمطلب أقصاه حيث لم يكن يصلهم شيء إلا سرًّا.

خديجة ورصيد الجهاد

وحتى لا يفوت خديجة أي أجر نجدها تقوم بعمليات جهادية في إمداد المسلمين المحاصرين وأهليهم بالزاد، وكانت قد دخلت الشعب مع زوجها ونبيها رغم أنها ليست من بني هاشم ولا من بني عبد مناف.

ووضعت مع ابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد خطة الإمداد حيث كان يحمل الجمال بالطعام ويقودها إلى فم الشعب.. ثم يطلقها لتدخل شعب أبي طالب، ووصل الأمر إلى معركة بين حكيم وصديق له وأبي جهل حيث لقي الأخير حكيمًا ومعه غلام يحمل قمحًا يريد أن يدخل به شعب أبي طالب.. فتعلق أبو جهل بحكيم بن حزام.. وقال له: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة.

فجاء أبو البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فقال لأبي جهل مالك وله؟

فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم.

فقال أبو البختري وكان يكره أمر الصحيفة والمقاطعة:

طعام كان لعمته (خديجة) عنده يبعثه إليها.. أفتمنعه أن يأتيها بطعامها؟ خلِّ سبيل الرجل..

فأبى أبو جهل واشتد على البختري فأخذ البختري لحي بعير فضربه به فشجه ووطئه وطئًا شديدًا.

وكان هذا الموقف من أسباب نقض الصحيفة حيث انضمَّ البختري إلى خمسة من وجهاء قريش واتفقوا على نقض هذه الصحيفة الظالمة وإنقاذ بني هاشم من الهلكة جوعًا.

أسوأ جيران

وعاد محمد ﷺ وزوجته وأولاده إلى بيتهم وكان من ابتلاء الله لهم هؤلاء الجيران.

أمثال أبو لهب.. والحكم بن العاص بن أمية .. وعقبة بن أبي معيط وعدي بن حمراء الثقفي وابن الأصداء الهذلي..

يقول ابن إسحاق: لم يسلم رسول الله ﷺ من أحد منهم إلا من الحكم بن العاص.. فكانوا يباشرون إيذاءه كأسوأ جيران...

فكان أحدهم يطرح عليه ﷺ رحم الشاة[1] وهو يصلي وكان آخر يطرحها في برمة طعامه إذا وضعت على النار... حتى اتخذ ﷺ ساترًا من حجارة ليستتر به منهم إذا صلَّى..

فكان ﷺ إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يحمله ﷺ على عود ويقف به على بابه، ثم يقول: يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟!! ثم يلقيه في الطريق.

ذلك بجانب ما كان يلاقيه من امرأة أبي لهب خاصة - واسمها أم جميل- حيث كانت تجمع الشوك وتضعه أمام داره ليلاً حتى إذا خرج الفجر يتأذى منه فأنزل الله فيها ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [المسد: ٤،٥] والمسد هو الشوك.

عودة رقية

ووصل خبر إلى المهاجرين في الحبشة أن هناك تفاهمًا بين قريش ورسول الله ﷺ.. وأن مكة في طريقها للإسلام فعاد أكثرهم إلى مكة فلما اقتربوا من مكة علموا أن نبأ إسلام مكة باطل فدخلوا مستخفين أو بجوار وحماية أحد أهليهم.. وعادت رقية إلى حضن أمها خديجة..

درة من الوحي

دخل البعض على خديجة التي قاربت الستين.. وأخبروها ما يشيعه العاص بن وائل السهمي أحد عتاة كفار مكة عن رسول الله ﷺ قالت لهم: وما يقول.

---

(١) وأظن المقصود برحم الشاة أحد شيئين كل منهما أقذر من الآخر؛ إما ما يخرج من بطن الشاة حين ذبحها أو المشيمة الناتجة عن الولادة والتي تسمى بلغة مصر العامية (الخلاص).

قالوا: يقول: «دعوه فإنما هو رجل أثير لا عقب له لو مات لانقطع ذكره واسترحنا منه».

انحدرت دمعة من عين خديجة وتذكرت وهي تمسحها أولادها القاسم وعبد الله اللذين ماتا..

ولكن جاءها رسول الله ﷺ بخبر ملأ قلبها سعادة لقد أنزل الله سورة هي درة من الدرر.. ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾. [سورة الكوثر].

ابتسمت خديجة.. وانطلقت شفتاها تردد الحمد لله فقد تمثل لها ذلك الكوثر.. وهو العطاء الكثير الذي يفيض به الله -تعالى- على نبيه ﷺ في دنياه.. وذلك النهر الفياض في الجنة والذي هو خصوصية لرسول الله ﷺ يسقي منه أمته.



وداعا أمنا خديجة

وترقد خديجة في فراش المرض ويدخل عليها رسول الله ﷺ وقد تضاعف حزنه.. ويجيب على سؤال عينيها له.. يقول في حزن.

- مات أبو طالب.

وضاعف حزنه ﷺ أنه أراد منه وهو يلفظ آخر أنفاسه أن يشهد أن لا إله إلا الله ليشفع له بها يوم القيامة ولكنه لم يسمعها منه..

كان يقول له بعد أن رفض زعماء قريش أن يقولوها: أي عم فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة.. فكان يقول: يا ابن أخي والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني قلتها جزعًا من الموت لقلتها.

وألحَّ عليه ﷺ بها ساعة موته... ولكنه أبى إلا أن العباس عمه اقترب منه حين رآه يحرك شفتيه فأصغى إليه بأذنه.. ثم قال لرسول الله ﷺ: يا ابن أخي والله قد قال الكلمة التي أمرته أن يقولها:

فانصرف رسول الله ﷺ بعد أن تأكد من وفاة عمه أبي طالب وقال في أسى: لم أسمع[1].

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٢٠.. وورد أن أبا طالب قال عند موته عندما ألحَّ عليه رسول الله ﷺ وهو على دين قومه، وورد أنه أخف الناس عذابًا يوم القيامة.. ويجد المؤمنون في أنفسهم شيئًا من موقف أبي طالب ويكاد البعض يطلب له المغفرة بسبب دفاعه المشرف عن النبي ﷺ.. إلا أن الأمر كله بيد الله يحكم ما يريد.. وإن كنا لنشكر لأبي طالب موقفه من رسول الله ﷺ وما فعله نصرة لدينه طوال حوالي عشر سنوات ولا يسر عذاب أبي طالب مؤمنًا، ولا يضره أن يعفو الله عنه.. وإن كان الله لن يخزى إبراهيم في أبيه فإنه -سبحانه- لن يخزي محمدًا في عمه. أما ما ورد في عذاب أبي طالب يوم القيامة فقد يكون هذا عذابه قبل أن يعفو الله عنه.. ونسأل الله -تعالى- أن يعفو عنا جميعًا.

نزلت الدموع من عيني خديجة وهي تستشعر مدى حزن رسول الله ﷺ على عمِّه بل وتقرأ ما سيأتيه الغد من موت أهم نصير له في مكة.

وتمرُّ أيام الحزن على أبي طالب ويشتدُّ المرض بخديجة ورسول الله ﷺ يواسيها كلما دخل عليها.

حتى ذهبت خديجة إلى ربها تلاحقها البشرى بالفوز العظيم.

الوزيرة الأولى

قال ابن إسحاق: (وكانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدَّق بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسول الله ﷺ فكان لا يسمع شيئًا يكرهه من الرد عليه، فيرجع إليها إلا تثبته وتهون عليه أمر الناس)[1].

وفي رواية: وآمنت به خديجة، وصدقت بما جاء من الله ووازرته على أمره، فخفف الله بذلك عن نبيه، لا يسمع شيئًا مما يكرهه من ردٍّ عليه وتكذيبٍ له فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها، إذا رجع إليها تثبته وتخفف عليه وتصدقه وتهون عليه أمر الناس -رحمها الله تعالى.

ومن الملاحظ أن مصادر السيرة النبوية صمتت تمامًا عن ذكر أية حادثة تخص خديجة طيلة عشرة أعوام من البعثة حتى لقيت ربها، ويدلنا هذا الصمت على أمر مهم جدًّا، هو أنها -رضي الله عنها- قطعت علائقها الاجتماعية وصلاتها العامة بالناس، وتفرغت للنبي المصطفى -صلوات الله وسلامه عليه- تؤدي أعظم رسالة في الوجود في بيته، وتحيا كل حياته، إنها تذوب فيه وفي تحقيق كل آماله ورغباته.

ويكفيها أن هذا السلوك سيكون القدوة والأسوة فيما بعد، فالنساء المؤمنات في الأرض حين يتمثلن هذا الموقف، ويفقهن هذه القضية، يعرفن أن المرأة تبلغ أعظم الدرجات حين تقف بجوار زوجها الداعية المجاهد، وتهب نفسها له وتتخلى عن ذاتها من

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٠٥ ط. المنار.

أجله، وتذوب فيه وفي قضيته بحيث تنسى شهرتها وثقافتها وعلمها؛ لتكون بجوار زوجها، فقد انقطعت خديجة -رضي الله عنها- عن كل ما حولها من أهل الأرض، نسوة ورجالاً بعد النبوة، وتفرغت لحبيبها المصطفى ﷺ تشد أزره وترعى حاجته، وتكون بلسم جراحه وزوال ألمه ونصبه، وذلك بعد أن كانت نجم نساء مجتمعها، ومطمح آمال الرجال في النساء، فبلغت بهذا الجدّ والاجتهاد في هذا المجال أعلى مراتب نساء أهل الأرض في زمانها.

وكانت ثانية نساء أهل الأرض في الأزمنة والعصور، بعد مريم بنت عمران، اللهمَّ إلا ما كان من فاطمة ابنتها -رضي الله عنها- والذي يعتبر تفوقها على أمها مضافًا إلى رصيد خديجة -رضي الله عنها- التي أنجبت وربَّت سيدة نساء أهل الجنة. ولا ننسى كذلك أنها وضعت مالها كله بين يدي رسول الله ﷺ ينفق منه ما يشاء على دعوته، فكانت وأبو بكر خير من يمثل النساء والرجال في هذا الوجود. وكانت خير صاحبة لرسول الله ﷺ كما كان أبو بكر ﷺ خير صاحب له. والمال أهون ما يبذل في هذا السبيل، حين يبلغ الحب ذروته مع الحبيب، والثقة أعظم ما تكون الثقة حين كان ﷺ يتصرف بمال خديجة الصديقة -رضي الله عنها- ومال أبي بكر الصديق كأنه ماله: «وواستني بمالها إذ حرمني الناس».

مقامها عند الحبيب ﷺ

لقد أمضت عمرها كله وزيرة صدق لرسول الله ﷺ وكانت بجواره في أقسى ظروف محنته ﷺ يجد عندها السلوان والراحة.

ويوضح عظمة خديجة ما روي عن مقامها في نفس رسول الله -عليه الصلاة والسلام:

أ- جاءت خولة بنت حكيم فقالت: يا رسول الله، كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة. قال: **«أجل، كانت أم العيال وربة البيت»**(١).

(١) ذكره ابن حجر في الإصابة وقال: الحديث سنده قوي مع إرساله ٨/ ٦٠.

ب- وعن عبد الله بن عمير قال: وجد رسول الله ﷺ على خديجة حتى خشي عليه، حتى تزوج عائشة(١).

جـ- وكما غضب ﷺ أن يفكر أحد من المسلمين أن يرقى إلى مقام صاحبه أبي بكر ﷺ فقد غضب ﷺ أن تفكر واحدة من المسلمات أن ترقى إلى مقام صاحبته خديجة - رضي الله عنها- ولو كانت عائشة الصديقة -رضي الله عنها- وكان ثناؤه على الصديق أبي بكر مطابقًا لثنائه على الصديقة خديجة.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يومًا من الأيام، فأخذتني الغيرة فقلت: هل كانت إلا عجوزًا قد أبدلك الله خيرًا منها؟ فغضب، ثم قال: **«لا والله ما أبدلني الله خيرًا منها. آمنت إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني منها الله الولد دون غيرها من النساء»** قالت عائشة: فقلت في نفسي: لا أذكرها بعد بسيئة أبدًا)(٢).

وكان غضب رسول الله ﷺ من أحب خلق الله له بعد أبي بكر ﷺ من عمر لأنه أغضب أبا بكر، كذلك كان غضب رسول الله ﷺ من أحب خلق الله له بعد خديجة، من عائشة بنت الصديق -رضي الله عنها.

لقد كانت خديجة -رضي الله عنها- ملء سمعه وبصره، وهبتْ حياتها له، ومالها له، ونفسها له، ولا غرو أن تفعل هذا خير نساء الأرض بسيد ولد آدم، وأن تفعل هذا بعد أن تربت على يديه ﷺ خمسة عشر عامًا، تنهل من معين النبوة، وتعب من خلق هذه الدوحة الطاهرة الزكية.

الفائزة الأولى

وحقّ لها -رضي الله عنها- بعد الأوليات السابقة أن تكون الفائزة الأولى.

---

(١) المصدر نفسه ٨/ ٦١.

(٢) الاستيعاب لابن عبد البر ٤/ ١٨٢٣، ١٨٢٤، وقد أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ٩/ ٢٠٤ وقال فيه: رواه أحمد، وإسناده حسن.

فهي أول من بشر من نساء المؤمنين بالجنة، وأقرّ الله عينها بذلك قبل وفاتها، وقبل أن يبشر أحد من المؤمنين بذلك في حياته، وجاءت هذه البشرى محفوفة بالسلام عليها من رب العالمين، ورسول رب العالمين جبريل.

(فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- قَالَ أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ»[1].

ولا ندري إن كان رسول الله ﷺ قد بشرها أنها خير نساء الأرض أم لا، كما مرَّ معنا في الحديث السابق في الصحيحين: «خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ».

أو أنها لقيت هذه البشرى بعد أن لقيت وجه ربها راضية مرضية ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠].

ولا ندري إن أقرَّ رسول الله ﷺ عينها بأنها أنجبت سيدة نساء أهل الجنة فاطمة بنت محمد، وأعلمها بذلك أم لا؟ وأنها أنجبت إحدى أربع نسوة هن خير نساء أهل الأرض كما مرَّ معنا من قبل في الحديث الصحيح: «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أَرْبَعٌ: مَرْيَمُ بْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، وَفَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ، وَآسِيَةُ بِنْتُ مُزَاحِمٍ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ».

والمرء لا يحب أن يكون أحد أفضل منه إلا ولده. وأقرَّ الله -تعالى- عين خديجة بأنها أنجبت سيدة نساء أهل الجنة فاطمة -رضي الله عنها- فكانت وابنتها فاطمة تعادلان أمم الأرض ونساءها في الخيرية والسيادة. (وقد أورد ابن عبد البر من وجه آخر عن ابن عباس رفعه: «سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية»، قال: وهذا حديث حسن يرفع الإشكال)[2].

---

(١) البخاري، كتاب فضائل الصحابة باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها م٢، ج٥ ص٤٨، وعند مسلم ج٤ ص١٨٨٧، ح ٢٤٣٢. والقصب عند جمهور العلماء: اللؤلؤ المجوف. وقيل: قصر من ذهب منظوم بالجوهر. والمراد بالبيت هنا: القصر.

(٢) فتح الباري للإمام ابن حجر العسقلاني ٧/ ١٣٦. أي إشكال الترتيب.

الوفاء النبوي

لقد عاشت خديجة مثل رفيقاتها الثلاثة آسية ومريم وابنتها فاطمة لقضية النبوة، ووهبت نفسها لها، وقدَّر الله -تعالى- لها أن تعيش مع رسول الله ﷺ خمسة عشر عامًا قبل البعثة، فشهدت من هذا المعدن الكريم النفيس ما زادها يقينًا بصحة فراستها إلى أن جاء الوحي بتصديق هذه الفراسة، وبقيت حتى اللحظة الأخيرة من حياتها تجاهد صابرة مصابرة، وعاشت أحلك الظروف في الدعوة، وعاشت سني الحصار الصعبة في شعب بني هاشم، فكيف كافأها في حياتها -عليه الصلاة والسلام؟

يقول الإمام ابن حجر: (ووقع عند مسلم من طريق حفص بن غياث هذه في آخر الحديث: قالت عائشة: فأغضبته يومًا فقلت: خديجة؟ فقال: «إني رزقت حبَّها»، قال القرطبي: كان حبُّه ﷺ لما تقدم ذكره من الأسباب. وهي كثيرة، كل منها كان سببًا في إيجاد المحبة، ومما كافأ النبي ﷺ به خديجة في الدنيا أنه لم يتزوج في حياتها غيرها. فروى مسلم عن طريق الزهري عن عروة عن عائشة قالت: لم يتزوج النبي ﷺ على خديجة حتى ماتت. وهذا مما لا اختلاف عليه بين أهل العلم من الأخبار وفيه دليل على عظم قدرها عنده، وعلى مزيد فضلها؛ لأنها أغنته عن غيرها، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين؛ لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عامًا انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عامًا وهي نحو الثلثين من المجموع، ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها، فيكون لها مثل أجرهن، ولما ثبت أن «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» وقد شاركها في ذلك أبو بكر الصديق ولا يعرف قدر ما لكلٍّ منهما من الثواب؛ بسبب ذلك إلا الله -عزَّ وجلَّ)[1].

وتستمر الذكرى

وكان لوفاتها ووفاة أبي طالب في العام العاشر، أشد الأثر على نفس النبي ﷺ حتى

(١) المصدر نفسه ٧/ ١٣٧.

ليسمى المسلمون هذا العام بعام الحزن؛ لوفاة هذين النصيرين الكبيرين له.

وبقيت ذكراها ماثلة في كيانه ﷺ وما من شيء يذكره بها إلا هاجت أشجانه لفراقها:

ففي الصحيح عن عائشة قالت: كان رسول الله إذا ذبح الشاة يقول: «**أرسلوا إلى أصدقاء خديجة**»، قالت: فذكرت له يومًا فقال: «**إني قد رزقت حبها**»(١).

وعن عائشة قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال: «**اللهم هالة بنت خويلد**» فغرت فقلت: ما تذكر من عجوز...(٢).

وكما يقول النووي في شرح مسلم: (فارتاح لذلك؛ أي: هش لمجيئها، وسرّ بها لتذكره بها خديجة وأيامها، وفي هذا كله دليل لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والعشير في حياته ووفاته وإكرام أهل ذلك الصاحب)(٣).

بعد خديجة وأبي طالب

تتابعت على رسول الله ﷺ مصائب المشركين بعد وفاة وزيرته الأولى خديجة وعضده الأول أبي طالب قبل مهجره بثلاث سنوات ونالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تطمع به من قبل حتى أن سفيهًا من سفهاء قريش يعترضه وينثر على رأسه التراب.. فدخل ﷺ بيته.. والتراب على رأسه وعيناه تدور في البيت بحزن تبحث عن خديجة.

هدية الله

ولكن يد الله أرحم من أي يد... تقدمت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي.. وهو يقول لها ﷺ: **لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك**.

وفكر ﷺ أن يتجه بالدعوة خارج قريش فاتجه إلى ثقيف فوق جبل الطائف إلا أنهم ردوا عليه أسوأ ردٍّ..

---

(١) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة ح (٤٤٦٤).

(٢) مسلم ج٤ ص ١٨٨٩ ح ٢٤٣٧.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/ ٢٠٢.

وجلس ﷺ بعد أن نال منه التعب والألم جسديًا ونفسيًا.. ولم يجد أمامه إلا أبواب السماء فرفع يديه يناجي ربه: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس».

وفي رحلة العودة بدأت بشائر النور، لقد أسلم الغلام عداس النصراني غلام عتبة وشيبة ابني ربيعة.. واستمعت الجن إلى القرآن فآمنت وذهبت لتنذر قومها ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢].

ثم دخل ﷺ مكة وأخذه الحنين إلى جبل حراء لتتدفق عليه الذكريات هناك حيث كان أول لقاءٍ له مع الوحي هناك وحيث انطلق منه إلى خديجة لتكون أول من يؤمن به وتوقفت الذكريات عند موقفه اليوم خائفًا أن يدخل مكة.. فأرسل إلى المطعم بن عدي الذي أحضر أبناءه وأمرهم أن يحملوا السلاح. وخرجوا حتى أتوا المسجد ثم أرسل لرسول الله ﷺ أن يدخل فدخل ﷺ في جوار المطعم يحميه هو وأولاده فطاف بالبيت كعادته وصلَّى عنده ثم انصرف إلى بيته[(١)].

ولكنه لم يجد في البيت خديجة بل وجد زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.. وعلي وزيد...

ورحلةكانت قد بدأت منذ أن قال ﷺ (مضى عهد النوم يا خديجة) إلا أنها تستمر بدون خديجة.

رحمة الله وبركاته عليك يا أمي

وهنيئًا لك قصرك في الجنة

ورضوان من الله أكبر

ذلك الفوز العظيم.



(١) كان المطعم بن عدي غير مؤمن برسالة النبي ﷺ ولكن كان من أصحاب العقل والحكمة في مكة.. فكان ممَّن اشترك في نقض صحيفة المقاطعة وأجار النبي ﷺ عند دخوله مكة عائدًا من الطائف.. وتوفي بعد هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة مباشرة ورثاه حسان بقصيدة وورد أن رسول الله ﷺ قال عن أسرى غزوة بدر [لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم سألني هؤلاء لو هبتهم له]. وفاءً لكرمه معه.

4

فاطمة بنت محمد ﷺ

أم أبيهـــا

مولد الزهراء

عاد محمد ﷺ إلى بيته وهو سعيد بما حدث على يديه حيث استطاع بفضل الله أن يمنع حربًا كانت ستقوم بين قبائل قريش؛ بسبب تنازعهم على من يضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة... اتسعت ابتسامته وهو يتذكر ذلك الحل البسيط الذي حلَّ به المشكلة بأن فرد ثوبه على الأرض وأخذ الحجر بيده ووضعه على الثوب وأمر كل زعيم قبيلة أن يأخذ طرفًا من الثوب ويرفعوه جميعًا، ثم أخذ الحجر ووضعه في مكانه.. لقد ارتضى الزعماء بهذا الحل لأنه بجانب منطقيته فهو صادر من الشاب الأمين محمد بن عبد الله الذي يجد عندهم كل التقدير والاحترام.

دخل محمد ﷺ البيت وهو مشغول بما حدث، فإذا به يجد حركة في البيت، فتذكر حالًا أن خديجة زوجته كانت في أيام وضعها، وجاءته البشرى لقد وضعت خديجة أنثى جميلة، وحملها أبوها بين ذراعيه وابتسم لزوجته وهو يقول: نسميها فاطمة. لم تزد خديجة أن تبتسم في وهن. إنها الرابعة بعد زينب ورقية وأم كلثوم.

وكان ذلك يوم الجمعة الموافق للعشرين من جمادى الآخرة في السنة الخامسة قبل البعثة.

وكانت في تسميتها فاطمة إلهام حيث قال علي ﷺ: «سميت فاطمة لأن الله فطمها وحجبها من النار»[١].

وتسمى بالزهراء لأنها زهرة المصطفى ﷺ، ولقبت بالبتول أي المنقطعة إلى الله -تعالى- ولكثرة ما بينها وبين مريم بنة عمران من مواقف التشابه حيث رعايتها للنبي ﷺ وأنها وهي خيرا نساء أهل الجنة على الإطلاق.

---

(١) رواه الديلمي، والفطم هو القطع والمنع.

أولاده ﷺ:

لا خلاف أن جميع أولاد النبي ﷺ من خديجة بنت خويلد سوى إبراهيم الذي مات صغيرًا من مارية بنت شمعون القبطية (المصرية).

واختلف العلماء في أولاده وخاصة الذكور وموعد مولدهم وموعد وفاتهم.

والراجح أنه ﷺ ولد له ولدان هما القاسم وعبد الله وأربع بنات ومات الولدان وبقي الأربع بنات وأرجح ترتيب لهن هو: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وأصغرهن فاطمة.

وكان لقب الطاهر والطيب يطلقا على القاسم وعبد الله.

وكانت خديجة -رضي الله عنها- إذا ولدت طفلا دفعته إلى من يرضعه كعادة العرب فلما ولدت فاطمة لم يرضعها غيرها.





خمس سنوات

قضت فاطمة سنواتها الأولى في ذلك البيت الجميل الذي يسوده الحب والسكينة والهدوء بين قطبيه الزوج محمد بن عبد الله ﷺ والزوجة خديجة بنت خويلد وأخواتها الثلاثة وأخويها القاسم وعبد الله.. وكانت أصغر الأولاد فلاقت اهتمامًا من الجميع.

لم يقلقها إلا هذا الحزن الذي رأته يرتسم على وجه أبيها وأمها يوم توفي أخويها الواحد وراء الآخر وبقي البنات الأربعة ترعاهن أمها مع ذلك الطفل القوي المحبوب عند أبيها علي بن أبي طالب الذي عرفت أنه ابن عمها..

وكان رسول الله ﷺ قد أخذه من عمه أبي طالب ليكفله بعد أن كثر عياله وقل ماله. فأصبح علي كأحد أبنائه ﷺ.

وبدأت فاطمة تتفهم ما حولها وتسأل عن غياب أبيها فترات طويلة، ثم يعود فتستقبله أمها خديجة فرحة بحضوره.. ثم ما تلبث أن تعدَّ له زادًا ليرحل من جديد فلما سألت فاطمة الصغيرة قيل لها: إن أباها يذهب إلى غار في أعلى جبل حراء يتعبد فيه لله..

لم تكن فاطمة تدرك كثيرًا حول الله وعبادته فلم يكن في بيتها صنم يعبد ولم يكن أبويها حريصين على أن يعرف أحد من أبنائهم الكثير عن عبادة قومهم التي رفضاها بشدة، فلم يسجدا لصنم قط، ولم يقدما قربانًا لصخرة من التي يعبدها قومهم قط، واختار أبوها محمد بن عبد الله ﷺ ذلك النوع من العبادة الذي يسمى (التحنث) أو (التحنف)، وهو شكل من أشكال الاعتكاف خارج المسجد واختار جبل حراء الذي يطل على البيت المحرم ليتفكر في الله وخلقه... ويتأمل في العلاقة معه وحال قريش وما وصلت إليه في عقيدتها وشركها بالله.

زواج البنات

كانت سعادة فاطمة شديدة وهى الصغيرة المحبوبة إلى أخواتها بتلك الأخبار التي

تناهت إلى سمعها أن أختها زينب ستتزوج ومن مَنْ؟ مِن ابن خالتها العاص بن الربيع، الذي كان يلقب في مكة بالأمين مثل أبيها وتمت مراسم العرس وقامت الأفراح واكتشفت فاطمة الصغيرة أن زينب أمها الثانية ستذهب بعيدًا عن البيت.. قد يكون آلمها ذلك قليلًا إلا أن أحزانها ذابت في الفرحة الكبيرة التي كانت حولها..

ومرت بعض الأيام وإذا بهمسات فرح أخرى تغمر البيت لقد خطب عتبة وعتيبة أبناء عبد العزَّى[1] بن عبد المطلب... أبناء عم النبي ﷺ... أختاها رقية وأم كلثوم وقام بالخطبة للأخوين عمه أبو طالب في يوم واحد وكان كبير قريش ووافق النبي ﷺ بعد استشارة ابنتيه فصمتتا ووافقت خديجة.. وما هي إلا أيام حتى أتمَّ ﷺ العقد على الأخوين.. وتحدد موعد الزفاف الذي لم يتم.

وبقيت فاطمة تنتظر أن تكون وحدها في المنزل بعد زواج أختيها.

صغيرة النبي ﷺ

لم تلحظ فاطمة الصغيرة ذات الخمس سنوات ذلك القلق الذي دخل على حياة أبيها وأمها يوم عاد ﷺ يومًا يرتجف ويقول: زملوني زملوني غطوني غطوني فأخذته أمها على عادتها بين ذراعيها وهدأت من روعه.. ثم انطلقت لزيارة خالها ورقة بن نوفل.. وعادت مستبشرة إلى أبيها ليذهب معها ويعود وقد زال الكثير من التوتر عنه.

لماذا يؤذى أبي؟

نعم لم تدرك فاطمة الصغيرة ذات السنوات الخمسة ما حدث لأبيها وأنه أوحي إليه بكتاب من عند الله الواحد الأحد.. وأنه كلف بأشق مهمة يتكلفها بشر وهي النبوة ثم الرسالة.. كل ما أدركته فاطمة هو ذلك التغير الهائل الذي حدث في علاقة أبيها بقومه. لقد كانت بالأمس ترى أباها ملأ عين قريش يسمونه الصادق الأمين يتأسون بمشورته ويجلون مقدمه ويستمعون لقوله.. فماذا حدث؟!

---

(١) هو أبو لهب بن عبد المطلب عم النبي ﷺ.. وكان محمد ﷺ من أحب أولاد أخيه إليه. ولقد أعتق جارية يوم أتته بخبر ولادة محمد ﷺ فلما جاءت الرسالة محمدًا ﷺ انقلب عليه كما روت السيرة، فسبحان مقلب القلوب!

إن أكثر ما هالها ذلك اليوم الذي خرج أبوها إلى المسجد الحرام فتبعته كعادتها فوجدته وقد وقف يصلي بين يدي الله متوجهًا إلى الكعبة ولما استوى ساجدًا لله -تعالى- فإذا بأحد الرجال يتقدم من أبيها وبقية الرجال يترقبون فلما تبينته عرفت أنه عقبة بن أبي معيط...

توجست فاطمة شرًّا مِن تَسَلُّلِ هذا الرجل واقترابه من أبيها.. وفجأة رأته ألقى شيئًا من يده على رأس أبيها الساجد، اندفعت فاطمة لتجد أن الرجل قد وضع على رأس أبيها الساجد النظيف الطاهر أحشاء جزور مذبوح فلوثت رأسه وظهره بالروث والدم.. ثم استضحكوا حتى جعل بعضهم يميل على بعض.. فانطلقت فاطمة الصغيرة تلقي الأذى عن رأس أبيها وتسب هؤلاء الجفاة القساة فلما انتهى ﷺ من صلاته أخذها بين ذراعيه وهدأ من روعها، ثم انطلق يدعو عليهم رافعًا يديه فلما رأوا ذلك سكن عنهم الضحك وخافوا دعوته.. ولكنه ﷺ قال: «**اللهمَّ عليك بهذا الملأ من قريش**» ثم عدد سبعة؛ منهم: عقبة بن أبي معيط وأمية بن خلف.

يقول عبد الله بن مسعود: فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعًا[(١)].

وكان طبيعيًّا أن يتسلل السؤال إلى عقلها الصغير... ويترك أثرًا مؤلمًا في قلبها الرقيق لماذا يؤذى هذا الرجل أبي؟!

تجويع الصغيرة

ويشتدُّ السؤال حدة عندما تجد فاطمة نفسها وقد حملتها أمها خديجة الشريفة الطاهرة وتوجهت بها وباقي بناتها إلى شعب أبي طالب.. ونظرت فاطمة إلى الناس حولها إنهم قومها وقوم أبيها بنو هاشم وبنو عبد المطلب وتمر الأيام لتدرك فاطمة أنهم محاصرون وممنوع أن يبيع أحد لهم طعامًا أو يشتري منهم.. لقد بدأ الجوع يتسرب إلى الناس من حولها حتى هي أصابها الكثير من الجوع حتى اضطرت إلى أكل أوراق الشجر.. لقد

(١) أخرجه البخاري كتاب الوضوء ح (٢٣٣)، ومسلم، كتاب الجهاد ح (٣٣٥٠).

استمرَّ الحال ثلاث سنوات لولا هذه الرواحل التي كانت تتسرب إليهم محملة بالطعام لمات الكثيرون جوعًا ولقد علمت أن خالها حكيم بن حزام بن خويلد من الذين يهربون الطعام إلى الشعب.

ومع تقدم سن فاطمة فهي الآن تقترب من الثامنة بدأت بعض ملامح إجابة السؤال تتعرف عليها إن أباها جاء قومه بدين جديد.. دين يدعو إلى توحيد عبادة إله واحد هو رب السماء والأرض ونبذ ما يعبدون من دونه من أصنام.. دين يدعو إلى مكارم الأخلاق وحسن الجوار والعفة والطهارة والأمانة ولكن إذا كان أبي يدعوهم لكل هذا الخير فلماذا يؤذونه؟

ولم تجد فاطمة إجابة إلا أنها آمنت بما جاء به أبوها وتحملت معه الألم والأذى.

آلام أختيها

مرت سنوات الحصار الثلاث وفرحت فاطمة مع مَن فرحوا عندما جاء الخبر بنقد بعض أشراف قريش للصحيفة التي علقتها قريش بمقاطعة بني هاشم وفكّ الحصار، وزاد فرحها عندما علمت أن أباها أنبأهم أن القرضة أكلت الصحيفة إلا اسم الله.. فلما وجدوا ذلك زاد يقين المؤمنين بأنهم على الحق.

ولم يلبث أن جاء خبر مؤلم آخر عرفته فاطمة عندما رأت دموع أختيها رقية وأم كلثوم ووصل إلى آذانها الخبر لقد طلق عتبة وعتيبة أبناء أبي لهب عمها أختيها بمؤامرة من قريش حيث قالوا: لقد أرحتم محمدًا من بناته وزوجتموهم ففرغ لدعوته فعليكم أن تطلقوا بناته؛ لينشغل بهن واستطاع أبو لهب وزوجته أم جميل أن يؤثرا على ابنيهما عتبة وعتيبة أن يطلقا رقية وأم كلثوم وكانا لم يدخلا بهما بعد.

وهرولت فاطمة إلى أختها الكبرى زينب فإذا بها رغم حزنها على أختيها تطمئنها أن ابن خالتها العاص بن الربيع ردَّ على قريش (والله لا أطلق ابنة الأمين أبدًا).

وزاد فرح فاطمة عندما علمت أن عثمان بن عفان سيد شباب بني أمية الذي أسلم مع أبيها قد خطب أختها رقية.. وبدأت مراسم الزواج السعيد ولكن يعود القلق من جديد حيث علمت أن رقية أختها قد صاحبت زوجها عثمان بن عفان مهاجرين إلى الحبشة بدينهم.

وفاة أمها

أتمت فاطمة خمسة عشر عامًا وقد مرَّ على بعثة أبيها عشرة أعوام وهي المؤمنة من أول يوم المتابعة لحركة النبي ﷺ خطوة خطوة.. لقد أدركت فاطمة حجم الدعم الذي يلقاه النبي ﷺ سواء الدعم النفسي أو المادي من أمها خديجة أو دعم التأييد والنصرة من عمِّها أبي طالب.

وفي هذا العام العاشر من البعثة توالت المحن عليها وعلى أبيها.. لقد ماتت أمها خديجة فاشتدت الأحزان عليها.. وكانت أحزان مزدوجة حيث حزنها على أمها وحزنها على حزن أبيها عليها.. ثم تضاعفت الأحزان يوم أن مات أبو طالب بعد شهر من وفاة خديجة[1]. وفقد النبي ﷺ كل التأييد الذي كان يحصل عليه في مواجهة قريش وكانت رقية هناك في الحبشة وزينب مع زوجها العاص بن الربيع ولم يبق إلا أم كلثوم وفاطمة.. وهنا استشعرت فاطمة مسئوليتها الملقاة عليها نحو أبيها وبدأت تقوم بها خير قيام حتى أطلق عليها (أم أبيها).

عن عبد الله بن عمير قال: وجد رسول الله ﷺ على خديجة حتى خشي عليه حتى تزوج عائشة، وكان ﷺ كثيرًا ما يذكرها بعد وفاتها ويترحم عليها وكانت فاطمة كثيرًا ما تذكر أمها وتعيد حديث الذكريات مع أبيها حتى سألته يومًا قالت: قلت: يا رسول الله أين أمي خديجة؟ قال: في بيت من قصب. قلت: أمن هذا القصب؟ قال: لا من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت[2].



---

(١) هذه رواية أخرى غير ما بيناه في قصة خديجة -رضي الله عنها- أن أبا طالب مات قبلها.. والروايتان ثابتتان ولا ضرر من اعتمادهما.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط.

في المدينة

الهجـــرة

ثمانية عشر عامًا هو عمر فاطمة الآن وهي تمكث في بيتها في مكة هي وأختها أم كلثوم بعد أن هاجر أبوها ﷺ إلى يثرب وهاجر ابن عمها علي بن أبي طالب بعده بثلاثة أيام وقد أدى أمانات رسول الله ﷺ إلى أهلها كما أمره ﷺ.. وهاجر زيد بن الحارث ربيب رسول الله ﷺ والذي تربى أيضًا في بيته.

ولما أراد عبد الله بن أريقط مرشد الرسول ﷺ في طريق الهجرة العودة إلى مكة أرسل معه مولياه زيد بن حارثة وأبو رافع ومعهما بعيران وخمسمائة درهم ليجيئا بفاطمة وأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد، وكانت رقية قد هاجرت مع زوجها عثمان، وزينب عند زوجها أبي العاص بن الربيع بمكة، وجاءت معهم بركة (أم أيمن) حاضنة رسول الله ﷺ وامرأة زيد بن حارثة وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر وفيهم عائشة أم المؤمنين ولم يدخل بها رسول الله ﷺ وقدمت معهم أسماء بنت أبي بكر امرأة الزبير بن العوام وهي حامل بعبد الله بن الزبير[(١)].

وأغلق بيت محمد بن عبد الله ﷺ وخديجة بنت خويلد العامر في مكة، كما أغلقت بيوت المسلمين المهاجرين هناك.

وتسلل الركب بهدوء.. ولكن علم به سفهاء مكة فانطلق خلفهم الرجال حتى لحقوا بهم فإذا بأحدهم ويدعى الحويرث بن نقيذ ينخس بعير الفتاتين فيلقى البعير بهما على الأرض ويكاد يدهسهما بأقدامه لولا أن الله سلَّم.. وانطلق الحويرث بالبعير[(٢)] سارقًا له

---

(١) البداية والنهاية ج٣ ص ٢٠٠.

(٢) وأهدر رسول الله ﷺ دم الحويرث هذا ضمن عشرة أهدر دمهم ولم يسامحهم يوم فتح مكة.. فقتله علي بن أبي طالب ﷺ.

مما سبب أذى كبيرًا للركب. فلم يجد الفتاتان ما يركبان فانطلقا يمشيان في هجرة إلى الله على الأقدام من مكة إلى المدينة تركب حينًا وتمشي حينًا.

وكانت فترة الحصار قد أثرت على تكوين فاطمة الفتاة الصغيرة.. فاجتمع نحول الجسد وتعب المشي وألم سفالة القوم على القلب الصغير، فلم تكن إلا رحلة من الحزن والألم لم يزيله إلا لقاء الفتاتين الصغيرتين بأبيهما الذي تحمَّل كل هذا في سبيل الله، وكان قدوته أبوه إبراهيم الذي ترك بأمر الله زوجته وابنه الرضيع بوادٍ غير ذي زرع عند بيته المحرم ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

رقية يوم الفرقان

لقد كانت سعادة المسلمين بالنصر يوم بدر الذي سمَّاه الله (يوم الفرقان) عظيمة ولكن لم يكن أحد أسعد من فاطمة، لقد ذاقت حلاوة النصر بعد أن رأت بعينيها ما لاقاه أبوها في سبيل هذا النصر منذ كانت طفلة لم تعبر الخمس سنوات بعد.. فها هو بعد خمسة عشر عامًا تقريبًا وفي أول معركة يلاقي فيها أعداءه بعد أن أفرغ كل ما لديه من وسائل الحسنى والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن.. كان لا بدَّ أن يفرق الله بين الحق والباطل فكانت معركة بينه سبحانه وبين أعدائه ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢].

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد بدر فلم يجد ما توقع من فرحة المسلمين بالنصر.. لقد شاب النصر بعض الحزن.. لقد ماتت رقية ابنة رسول الله ﷺ وزوج عثمان بن عفان الحي الرقيق.. ماتت بعد رحلة طويلة من الإيمان والهجرة والعودة ثم الهجرة..

وهذا هو قدر الأنبياء أن تتوالى عليهم المحن حتى يخلصوا من هذه الدنيا بالله - سبحانه وتعالى.

ودخل رسول الله ﷺ على ابنته فاطمة يطيب خاطرها وقد عزم أمرًا.. لقد صمم أن يحول

حزنهم إلى فرح ولن يكون ذلك إلا بأن يزوج عثمان بن عفان ابنته الثانية أم كلثوم...

إنه القلب الكبير ﷺ الذي يستطيع أن يطوي أحزانه ليفرح الناس من حوله.. وتحوّلت الأحزان إلى أفراح ونال عثمان شرف أن لقب بذي النورين فعنده كانت ابنتي رسول الله ﷺ.

زهراء المدينة وتوافد الخطاب

كانت فاطمة ذات الثمانية عشر عامًا الحسيبة النسيبة الجميلة شبيهة أبيها رسول الله ﷺ هي فتاة المدينة بحقّ.

تقدم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار لخطبتها من أبيها وخاصة أنه ﷺ تزوج عائشة بنت أبي بكر.. ولم يعد في حاجة شديدة لخدمة فاطمة (أم أبيها) له.

لقد أجل الكثيرون من قبل أن يطلبوها من أبيها؛ لأنهم أدركوا حاجته الشديدة لها أما اليوم فليتقدموا لينالوا شرف الارتباط بالنبي ﷺ.

تقدم أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنهم أجمعين- ولكن اعتذر رسول الله ﷺ لهم برفق ولطف.

عَلِيّ رضي الله عنه

وتقدم علي بن أبي طالب ابن عمها الذي تربى معها في بيت أبيها وكان عمره حين ولادتها خمس سنوات رآها تكبر طفلة وتنضج شابة وتتحمل مؤمنة وترعى ابنة بارة لأمها ولأبيها.

وكانت أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.. والتي كان رسول الله ﷺ يعتبرها أمه بعد وفاة أمه وقد أسلمت وهاجرت.

ولكنه.... فقير

وهل يضيرك الفقر يا علي وأنت أول غلام أسلم ورفيق رسول الله ﷺ في صلاته في الشعب وأول فدائي في الإسلام...

أتذكر يوم نمت في فراشه ﷺ وأنت تتوقع سيفًا حاقدًا من تلك السيوف المتربصة على باب رسول الله ﷺ يوم هجرته.

أتذكر يوم استأمنك على أمانات قريش عنده ﷺ حتى تؤديها ثم تهاجر إليه..

أليس أنت ابن أبي طالب عظيم قريش الذي وقف بجوار ابن أخيه يدافع عنه ويحميه حتى آخر رمق في حياته.

هكذا كان الحوار يدور بين علي بن أبي طالب وبين إخوانه من المسلمين الذين كانوا يشجعونه على خطبة فاطمة ابنة عمه.. وتشجع علي وانطلق عازمًا على خطبة فاطمة من النبي ﷺ..

ولَمَّا اقترب علي وجلس في مجلس الرسول ﷺ فإذا به يغلبه حياؤه.. فلا يذكر حاجته..

وأضاءت ابتسامة النبي ﷺ وجهه وهو يلتفت إليه ويقول بهدوء:

ما حاجة ابن أبي طالب؟

قال علي وهو يتعثر في كلماته: ذكرت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال له الرسول ﷺ: مرحبًا وأهلًا.

تردد علي قليلًا وانطلق إلى أصحابه يستفسر ماذا تعني: مرحبًا وأهلًا.. ضحك الأصحاب وقالوا له: إنها تعني الموافقة.. لقد رحب بك وأهل وكان يكفيك واحدة.

كاد علي يطير فرحًا عندما استمع هذه الكلمات.

إنها تعني أن أمله الذي كان يراوده بدأ يتحقق..

وانطلق ﷺ بين تهنئة أصحابه وفرح قلبه يعد نفسه للخطبة والزواج. وانطلق النبي ﷺ يخبر فاطمة.

عن أبي هريرة قال: لما خطب علي فاطمة دخل عليها رسول الله ﷺ فقال لها: (أي

بنية! إن ابن عمك عليًّا قد خطبك فماذا تقولين؟

فبكت ثم قالت: كأنك يا أبت إنما ادخرتني لفقير قريش؟

فقال: والذي بعثني بالحقِّ ما تكلمت فيه حتى أذن الله لي فيه من السماوات.

فقالت فاطمة: رضيت بما رضي الله ورسوله[١].

مهر ابنة النبي ﷺ

ما كادت الفرحة تضيء في قلب علي ﷺ حتى انطفأت فقد تذكر كيف يدبر مهر فاطمة؟ بل وكيف سيعد لها بيتها؟ ثم إن أمه فاطمة بنت أسد زوج أبي طالب ستعيش معه.. لقد أسلمت وهاجرت مع ابنها علي وكان ﷺ يقول عنها: «لم ألق بعد أبي طالب أبر بي منها».

ما الحل إذًا..؟!

وانطلق ﷺ إلى رسول الله ﷺ يؤكد خطبة فاطمة.. فقال له ﷺ ماذا عندك من مهر؟ فقال ﷺ.. ليس لدي شيء يا رسول الله. فقال له ﷺ فأين درعك الحطمية التي أهديتها لك في غزوة بدر فقال له هي معي.. فقال له ﷺ: إذًا أعطها لها مهرًا. يقول علي: وإنها لحطمية ما قيمتها أربعمائة دراهم[٢].

ودعا لهما رسول الله ﷺ.. «اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما».

وأرسل رسول الله ﷺ مع ابنته بعض ما جهزها به.

وباع علي الدرع فأسرع عثمان يشتريه بأربعمائة وسبعين درهمًا كانت مهر فاطمة... وذهب علي ليشتري بعض لوازم العرس فقال له رسول الله ﷺ: اجعل ثلثين في الطيب وثلث في الثياب... وقامت الأفراح في المدينة وذبح حمزة عم النبي ﷺ جملين وأطعم الناس[٣].

---

(١) البداية والنهاية ٥/ ٢٣٠.
(٢) البداية والنهاية (٣/ ٤١٩).
(٣) الإصابة –الصحيحين.

الزفاف السعيد

أعد نساء النبي ﷺ فاطمة لعرسها وأمر ﷺ أم سلمة أن تذهب بها إلى بيت علي وأن تنتظره هناك.

وقال لعلي لا تحدث شيئًا حتى آتيك... وهو حق الأب أن يأذن لزوج ابنته بالبناء وهو الفرق بين العقد والدخول على الزوجة أن يأذن الولي.

يقول علي: فلما كان ليلة دخلت عليها.

قال: «**لا تحدثا شيئًا حتى آتيكما**».

قال: فأتانا وعلينا قطيفة أو كساء فتحركنا.

فقال: «**مكانكما**»، ثم دعا بقدح من ماء فدعا فيه، ثم رشه عليّ وعليها، وقيل: إنه توضأ وصب وضوءه على علي وفاطمة ودعا لهما.

فقلت: يا رسول الله، أنا أحب إليك أم هي؟

قال: «**هي أحب إليّ وأنت أعز عليّ منها**».

وأولم رسول الله ﷺ عليها بكبش من عند سعد وآصع من الذرة من عند جماعة من الأنصار، ودعا لهما بعدما صبَّ عليهما الماء[١].

وفي رواية أنه قال: (**اللهم بارك لهما في شملهما**) وكان عمرها -رضي الله عنها- خمسة عشر عامًا وكان علي أكبر منها بستِّ سنوات.

ورغم بساطة عرسها -رضي الله عنها- يقول جابر بن عبد الله: لما حضرنا عرس علي وفاطمة -رضي الله عنهما- فما رأينا عرسًا كان أحسن منه. ولقد خطب علي فاطمة مدة عام ثم دخل عليها بعد هذا العام أوائل عام ٣هـ بعد وقعة بدر.

---

(١) أخرجه النسائي.

البيت الصغير:

قال علي ﷺ: «لقد تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل، ونجلس عليه بالنهار، وما لي ولها خادم غيرها، ولما زوجها رسول الله بي بعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها إذخر ورحائين وسقاء وجرتين»[١].

رتب علي شئون البيت، فجعل السقاية وجلب الماء على أمه، وجعل الشئون الخارجية عليه، وكان يساعد فاطمة في بعض أعمال البيت.

يقول علي: «ولم يكن لنا خادم يخدمنا، فطحنت فاطمة بالرحى حتى مجلت يدها، وقَمّت البيت حتى اغبرّت ثيابها»[٢].

وكان علي يسقي الماء بدل أمه حتى سنا صدره، وأصيب في رئتيه.

ولما علم علي -كرم الله وجهه- أن النبي ﷺ قد جاءه سبي، قال لفاطمة: «لو أتيت أباك فسألتيه خادمًا». فأتته، فقال النبي: «ما جاء بك يا بنية؟». قالت: جئت لأسلم عليك. واستحيت أن تسأله، ورجعت، فأتاها رسول الله من الغد، فقال: «ما كانت حاجتك؟». فسكتت، فقال علي: «والله يا رسول الله، لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وهذه فاطمة قد طحنت حتى مجلت يداها، وقد أتى الله بسبي فأخدمنا».

فقال الرسول ﷺ: «لا والله، لا أعطيكما وأدع أهل الصُّفة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن». فرجعا إلى منزلهما، فأتاهما رسول الله ﷺ ليخفف عنهما عناءهما، وقال لهما برفق وحنان: «ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟». قالا: بلى: فقال: «كلمات علمنيهن جبريل: تسبحان الله دبر كل صلاة عشرًا، وتحمدان عشرًا، وتكبران عشرًا؛ وإذا أويتما إلى فراشكما، تسبحان ثلاثة وثلاثين، وتحمدان ثلاثة وثلاثين، وتكبران أربعًا وثلاثين».

يقول علي ﷺ: «فما تركتهن منذ علمنيهن رسول الله ﷺ».

---

(١) رواه البيهقي، البداية والنهاية (٣/ ٤١٩).

(٢) مجلت يدها: تسلخت. وقمت: أي كنست.



الزوج علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1]

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن عم رسول الله ﷺ وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف، وكان له من الإخوة: طالب، وعقيل، وجعفر، وكانوا أكبر منه، بين كل واحد منهم وبين الآخر عشر سنين،وله أختان: أم هانئ، وجمانة، وكلهم من فاطمة بنت أسد، وقد أسلمت وهاجرت.

رباه رسول الله ﷺ في بيته حيث تسلمه من أبيه أبي طالب ليخفف عبء الأولاد عنه وردًا لجميله في إيوائه وتربيته.

وكان علي أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، وكان ممن توفي ورسول الله ﷺ راضٍ عنهم، وكان رابع الخلفاء الراشدين، وكان رجلًا آدم شديد الأدمة، أشكل العينين عظيمهما، ذا بطن، أصلع، وهو إلى القصر أقرب، وكان عظيم اللحية، قد ملأت صدره ومَنكِبَيْه، أبيضَها، وكان كثير شعر الصدر والكتفين، حسن الوجه، ضحوك السن، خفيف المشي على الأرض.

أول غلمان المسلمين

أسلم علي قديمًا، وهو أول من أسلم من الغلمان، كما أن خديجة أول من أسلم من النساء، وزيد بن حارثة أول من أسلم من الموالي، وأبا بكر الصديق أول من أسلم من الرجال الأحرار. وكان سبب إسلام علي صغيرًا أنه كان في كفالة رسول الله ﷺ لأنه كان قد أصابتهم سنة مجاعة، فأخذه من أبيه، فكان عنده؛ فلما بعثه الله بالحق، آمنت خديجة وأهل البيت، ومن جملتهم علي، وأول من أسلم على الإطلاق خديجة، وأول من أسلم بعدها أبو بكر.

(١) أحببت أن أذكر بابًا مختصرًا جدًا حول علي بن أبي طالب حبيب رسول الله ﷺ وابن عمه وزوج ابنته الحبيبة وقد يرى البعض أني عدلت عن سيرة فاطمة إلى سيرة علي.. ولكنه الحب.. فمن يمنعني من حب آل البيت؟

المهاجر الشاب

كان علي يكتم إيمانه، خوفًا من أبيه، ثم أمره أبوه بمتابعة ابن عمه ونصرته، وهاجر علي بعد خروج رسول الله ﷺ من مكة، وكان قد أمره بقضاء ديونه ورد ودائعه، ثم يلحق به، فامتثل ما أمره به، هاجر، وآخى النبي ﷺ بينه وبين سهل بن حنيف.

رحلة الجهاد

وقد شهد علي بدرًا، وكانت له اليد البيضاء فيها، بارز يومئذ فغلب وظهر، فعن ابن عباس قال: «دفع النبي ﷺ الراية يوم بدر إلى علي وهو ابن عشرين سنة».

وكان على الميمنة ومعه الراية بعد مصعب بن عمير، وعلى الميسرة المنذر بن عمرو الأنصاري، وحمزة بن عبد المطلب على القلب، وعلى الرجالة الزبير بن العوام، وقيل: المقداد بن الأسود.

وقد قاتل علي يوم أُحُد قتالًا شديدًا، وقتل خَلْقًا كثيرًا من المشركين، وغسل عن وجه النبي ﷺ الدم الذي كان قد أصابه من الجراح حين شج في وجهه وكسرت رباعيته[١].

وشهد يوم الخندق، فقتل يومئذٍ فارس العرب، وأحد شجعانهم المشاهير، عمرو بن عبد ود العامري، وشهد الحديبية وبيعة الرضوان. وشهد خيبر، وكانت له بها مواقف هائلة، ومشاهد طائلة:

منها أن رسول الله ﷺ قال: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**»[٢]. فبات الناس يذكرون أيهم يعطاها، فدعا عليًّا -وكان أرمد[٣] -فدعا له، وبصق في عينه؛ فلم يرمد بعدها، فبرأ وأعطاه الراية، ففتح الله على يديه، وقتل مرحبًا فارس اليهود.

وذكر محمد بن إسحاق، أن يهوديًّا ضرب عليًّا فطرح ترسه، فتناول بابًا عند الحصن فترس به، فلم يزل في يده حتى فتح الله على يديه، ثم ألقاه من يده. قال أبو رافع: فلقد

---

(١) رباعيته: الرباعية: السنُّ التي بين الثنية والناب.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجهاد ح (٢٧٢٤).

(٣) الرمد: داء يصيب العين.

رأيتني أنا وسبعة معي نجتهد أن نقلب ذلك الباب على ظهره يوم خيبر فلم نستطع.

عن جابر، أن عليًّا حمل الباب على ظهره يوم خيبر حتى صَعِدَ المسلمون عليه ففتحوها، فلم يحمله إلا أربعون رجلًا.

وشهد عليّ عمرة القضاء، وفيها قال له النبي ﷺ: «**أنت مني، وأنا منك**». وشهد الفتح وحُنَيْنًا والطائف، وقاتل في هذه المشاهد قتالًا كثيرًا، واعتمر من الجعرانة مع رسول الله ﷺ ولما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك واستخلفه على المدينة، قال له: «يا رسول الله، أتخلفني مع النساء والصبيان؟». فقال: «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟! غير أنه لا نبي بعدي**»[1]. وبعثه رسول الله ﷺ أميرًا وحاكمًا على اليمن، ومعه خالد بن الوليد، ثم وافى رسول الله ﷺ عام الوداع إلى مكة.

الصاحب الأمين

ولما مرض رسول الله ﷺ قال له العباس: سل رسول الله ﷺ فيمن الأمر بعده؟ فقال: «والله لا أسأله، فإنه إن منعناها لا يعطينا الناس بعده أبدًا». والأحاديث الصحيحة الصريحة دالة على أن رسول الله ﷺ لم يوص إليه ولا إلى غيره بالخلافة، بل لوّح بذكر الصديق؛ وأشار إشارات مفهمة ظاهرة جدًّا إليه.

وخطورة ادعاء أن رسول الله ﷺ أوصى إلى علي بالخلافة، يلزم منه خطأ كبير، من تخوين الصحابة وممالأتهم بعده على ترك إنفاذ وصيته وإيصالها إلى من أوصى إليه، وصرفهم إياها إلى غيره، لا لمعنى ولا لسبب، وكل مؤمن بالله ورسوله ويتحقق أن دين الإسلام هو الحق، يعلم بطلان هذا الافتراء؛ لأن الصحابة كانوا خير الخلق بعد الأنبياء، وهم خير قرون هذه الأمة التي هي أشرف الأمم بنص القرآن وإجماع السلف والخلف، في الدنيا والآخرة، ولله الحمد.

مع أبي بكر رضي الله عنه

ولما مات رسول الله ﷺ كان علي من جملة من غسّله من أهله وكفّنه وولي دفنه. ولما

---

(١) أخرجه البخاري كتاب المغازي ح (٤٠٦٤).

بويع الصديق يوم السقيفة، كان علي من جملة من بايع بالمسجد، وكان بين يدي الصديق كغيره من أمراء الصحابة، يرى طاعته فرضًا عليه، وأحب الأشياء إليه. ولما توفيت فاطمة بعد ستة أشهر -وكانت قد تغضبت بعض الشيء على أبي بكر بسبب الميراث الذي فاتها من أبيها ﷺ، ولم تكن اطلعت على النص المختص بالأنبياء وأنهم لا يورثون، فلما بلغها، سألت أبا بكر أن يكون زوجها ناظرًا على هذه الصدقة، فأبى ذلك عليها، فبقي في نفسها شيء ،واحتاج علي أن يداريها بعض المداراة -جدد البيعة مع الصديق -رضي الله عنهما-،

مع عمر ﷺ

فلما توفي أبو بكر، وقام عمر في الخلافة بوصية أبي بكر إليه بذلك كان علي من جملة من بايعه، وكان معه يشاوره في الأمور، ويقال: إنه استقضاه[1] في أيام خلافته، وقدم معه ومع جملة سادات أمراء الصحابة إلى الشام؛ وشهد خطبته بالجابية.

مع عثمان ﷺ

فلما طعن عمر، جعل الأمر شورى في ستة أحدهم علي، ثم خلص منهم بعثمان وعلي، فقدم عثمان على علي، فسمع وأطاع.

فلما قتل عثمان يوم الجمعة لثمان عشرة خلت من ذي الحجة سنة خمسٍ وثلاثين على المشهور، عدل الناس إلى علي فبايعوه قبل أن يدفن عثمان. وقيل: بعد دفنه.

رابع الخلفاء الراشدين

وقد امتنع علي من إجابتهم إلى قبول الإمارة حتى تكرر قولهم له، وفر منهم إلى حائط بني عمرو بن مبدول، وأغلق بابه، فجاء الناس فطرقوا الباب وولجوا عليه، وجاءوا معهم بطلحة والزبير، فقالوا له: إن هذا الأمر لا يمكن بقاؤه بلا أمير، ولم يزالوا به حتى أجاب.

الفتنة والرحيل

وحدثت في خلافته فتنة عظيمة بين المسلمين أجج نارها قَتَلَةُ عثمان الذين اندسوا في جيش علي. ولما همَّ بالصلح مع معاوية الذي كان يطالب بمعاقبة قَتَلَةِ عثمان، خرج عليه

---

(١) استقضاه: ولاه القضاء.

مجموعة من جيشه، واتهمته بتحكيم الرجال وتقديمهم على القرآن، وسموا في التاريخ بالخوارج، وقام أحدهم ويدعى أبا ملجم بقتله وهو خارج لصلاة الفجر. ودفنه أبناؤه الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، ولا يعلم مكان قبره، وقيل: إنه نقل بعد ذلك إلى البقيع ليدفن جوار زوجته فاطمة، كما أورد ذلك الخطيب البغدادي.

وطعن ﷺ يوم الجمعة، وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة أربعين من الهجرة، وسنُّهُ ثلاثٌ وستون سنة[١].

أولاده:

وقد رزق ﷺ الكثيرين من الأبناء والبنات، منهم الحسن، والحسين، وزينب، وأم كلثوم، من فاطمة بنت النبي ﷺ. ولم يتزوج على فاطمة حتى توفيت بعد النبي ﷺ بستة أشهر. فلما ماتت، تزوج الكثير من الزوجات، منهن من توفيت في حياته، ومنهن من طلقها، ومات عن أربع. ويبدو أن حروبه وعَلاقاته المتعددة جعلته يصل كل قبيلة بصلة الزواج والمصاهرة كعادة العرب ؛ وذلك لضمان العهود والمعاهدات. أما أولاده، فقد قتل معظمهم مع أخيهم الحسين في موقعة كربلاء.

من زوجاته:

أسماء بنت عميس التي تزوجها بعد وفاة زوجها أبي بكر الصديق ﷺ، وأنجبت له يحيى ومحمدًا الأصغر، وكان ابنها محمد بن أبي بكر، والذي تربى في بيت علي من أخلص أعوانه.

وأمامة بنت أبي العاص بن الربيع بنت زينب بنت رسول الله ﷺ وهي التي كان رسول الله ﷺ يحملها في صلاته، وأوصته فاطمة أن يتزوجها، وولدت له محمدًا الأوسط.

وتزوج **خولة بنت جعفر الحنفية**، وأنجبت له محمدًا الأكبر الذي يطلق عليه محمد ابن الحنفية، ولقد كان من سادات المسلمين، ولم يتعرض غالبًا للفتن التي حدثت في عصره.

ومن طرائف بناته أنه كانت له بنت من **أخت امرئ القيس** من بني كلب، وكان يأخذها معه إلى المسجد؛ فإذا سألها الناس: مَن أخوالك؟ تقول: هاو هاو. تعني بني كلب.

---

(١) لاحظ أنها نفس سن وفاة النبي وأبي بكر وعمر تقريبًا.

وقد عد له المؤرخون أربعة عشر ذكرًا وسبع عشرة أنثى، والراجح أن استمرار ذريته ﷺ في خمسة: الحسن، والحسين، وهي ذرية آل البيت أبناء فاطمة بنت النبي ﷺ، ومحمد ابن الحنفية، والعباس بن الكلابية، وعمر بن التغلبية.

ومن فضائله ﷺ:

أنه أقرب العشرة المشهود لهم بالجنة نسبًا من رسول الله ﷺ فهو ابن عم رسول الله ﷺ وفاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. قال الزبير بن بكار: وهي أول هاشمية ولدت هاشميًّا. وقد أسلمت وهاجرت.

وأبوه هو العم الشقيق الرفيق أبو طالب، واسمه عبد مناف. نص على ذلك الإمام أحمد بن حنبل هو وغير واحد من علماء النسب وأيام الناس.

وقد كان أبو طالب كثير المحبة الطبيعية لرسول الله ﷺ ولم يؤمن به إلى أن مات على دينه، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري من رواية سعيد بن المسيب عن أبيه في عرضه ﷺ على عمه أبي طالب وهو في السياق أن يقول: لا إله إلا الله، فقال له أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال: كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فخرج رسول الله ﷺ وهو يقول: «**أما لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**». فنزل في ذلك قوله -تعالى: ﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ [آل عمران: ٣٣] ثم نزل بالمدينة قوله -تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۞ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾[التوبة: ١١٣- ١١٤].

وعن ابن عباس قال: «أول من صلى -وفي رواية: أسلم -مع رسول الله بعد خديجة علي بن أبي طالب»[(١)].

---

(١) رواه الترمذي ومسألة أيهما أسبق إسلاما على أم أبو بكر وعقد الفصول للحديث حولها لا فائدة منها لأنها مقارنة غير لائقة بين صديق في سن الأربعين وابن عم وربيب في سن العاشرة، وحجم ما أعطى أبو بكر للإسلام حتى مات يوازي ما أعطاه علي حتى مات، وحسم العلماء الأمر بما يرضي عامة المسلمين أن أبا بكر أول من آمن من الرجال، وعلي أول الغلمان رضي الله عنهم أجمعين، قدموا أموالا وأعمارا وعشائر ولم نقدم إلا اجدالا وتحيزا وتعصبا .

وصحب علي رسول الله ﷺ مدة مقامه بمكة، وكان عنده في المنزل وفي كفالته في حياة أبيه؛ لفقر حصل لأبيه في بعض السنين مع كثرة العيال، ثم استمر في نفقة رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى زمن الهجرة، وقد خلفه رسول الله ﷺ ليؤدي ما كان عنده ﷺ من ودائع الناس، فإنه كان يعرف في قومه بالأمين، فكانوا يودعونه الأموال والأشياء النفيسة، ثم هاجر علي بعد رسول الله ﷺ وصحب رسول الله ﷺ إلى أن توفي وهو راضٍ عنه، وحضر معه مشاهده كلها، وجرت له مواقف شريفة بين يديه في مواطن الحرب.

ولما رجع ﷺ من حجة الوداع، فكان بين مكة والمدينة بمكان يقال له «غدير خم»، خطب الناس هنالك في اليوم الثاني عشر من ذي الحجة، فقال في خطبته: «من كنت مولاه، فعلي مولاه». وفي بعض الروايات: «اللهم، والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». والمحفوظ الأول، وإنما كان سبب هذه الخطبة والتنبيه على فضله ما ذكره ابن إسحاق من أن عليًّا لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن أميرًا هو وخالد بن الوليد ورجع علي فوافى رسول الله ﷺ بمكة في حجة الوداع، وقد كثرت فيه المقالة، وتكلم فيه بعض من كان معه بسبب استرجاعه منهم خلعًا[١] كان خلعها نائبه عليهم لما تعجل السير إلى رسول الله ﷺ فلما تفرغ رسول الله من حجة الوداع، أحب أن يبرئ ساحة علي مما نسب إليه من القول الذي لا أصل له.

قال عمر: «لقد أُعطي علي بن أبي طالب ثلاث خصال لأن تكون لي خَصلة منها أحب إليّ من حُمر النعم». قيل: وما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: «تزويجه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وسكناه المسجد مع رسول الله ﷺ يحل له فيه ما يحل له، والراية يوم خيبر»[٢].

باب علي رضي الله عنه:

وعن زيد بن أرقم أنه كان لبعض أصحاب رسول الله ﷺ أبواب شارعة من المسجد. قال: فقال ﷺ يومًا: «**سدوا هذه الأبواب إلا باب علي**». قال: فتكلم في ذلك

---

(١) الخلعة: العطية والنحلة.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ٣٧٨).

أناس، فقام رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإني أمرت بسد هذه الأبواب غير باب علي، فقال فيه قائلكم، وإني والله ما سددت شيئًا إلا فتحته، ولكن أمرت بشيء فاتبعته»(١).

وفي رواية عن سعد أن رسول الله ﷺ سد أبواب المسجد، وفتح باب علي، فقال الناس في ذلك، فقال: «ما أنا فتحته، ولكن الله فتحه».

وهذا لا ينافي ما ثبت في (صحيح البخاري) من أمره ﷺ في مرض الموت بسد الأبواب الشارعة إلى المسجد إلا باب أبي بكر الصديق؛ لأن نفي هذا في حق علي كان في حال حياته؛ لاحتياج فاطمة إلى المرور من بيتها إلى بيت أبيها، فجعل هذا رفقًا بها.

وأما بعد وفاته، فزالت هذه العلة، فاحتيج إلى فتح باب الصديق لأجل خروجه إلى المسجد ليصلي بالناس؛ إذ كان الخليفة عليهم بعد موته ﷺ، وفيه إشارة إلى خلافته.

وعن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «يا علي، لا يحل لأحد يجنب في المسجد غيري وغيرك»(٢).

قال علي بن المنذر: قلت لضرار بن صُرَد: ما معنى هذا الحديث؟

قال: لا يحل لأحد يستطرقه جُنبًا غيري وغيرك.



(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٧٩).

(٢) رواه الترمذي و قال: وهذا حديث حسن غريب.



آل البيت

عودة زينب:

نعود إلى فاطمة بعد هذه الرحلة القصيرة مع زوجها علي.

انشغلت فاطمة بما شغل أباها محمدًا ﷺ حول هجرة أختها زينب زوجة العاص بن الربيع.. وخاصة بعد أن أُسِرَ العاص بن الربيع في غزوة بدر، وأرسلت زينب بفدائه، ورأت فاطمة تلك القلادة التي هيجت الذكريات عند رسول الله ﷺ وعندها، قلادة أمها خديجة التي أهدتها لزينب عند زواجها.

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت لخديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بنها. قالت: فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال: **«إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها، فافعلوا»**. فقالوا: نَعَم يا رسول الله. فأطلقوه، وردوا عليها الذي لها». رواه أحمد.

إن أبا العاص يستحق أكثر من ذلك، فما خرج مع قومه ليحارب الدين الجديد، فكيف يحارب الأمين؟! إنما هي التجارة التي خرج ليعلم مصيرها، فهيجهم أبو جهل للقتال فقاتل. ثم إنه هو الذي رفض طلاق زينب، وقال: والله لا أطلق ابنة الأمين.

كانت فاطمة سعيدة بإطلاق سراح زوج أختها، واكتملت سعادتها بمدح رسول الله ﷺ له عندما قال لأصحابه: **«والله، ما ذممناه صهرًا»**. أي: لم يفعل في مصاهرته لنا ما نذمه به.

واشتدت سعادة فاطمة عندما وجدت أختها زينب تدخل المدينة ومعها ابنتها أمامة وابنها علي، وكان لقاء على شوق وخوف. نعم آلمها ما سمعت من تعرض الكافر هبار بن

الأسود لها وترويع ناقتها حتى سقطت من فوقها مما أسقطها حملًا كان في بطنها، وتذكرت ما فعله المشركون بها وبأختها عند هجرتهم، ولكن في النهاية اجتمع شمل البيت النبوي، وعادت زينب إلى المدينة.

الجـد ﷺ والأحفاد:

جاء أولاد فاطمة -رضي الله عنهم- في سنوات متتالية، فكان الأول (الحسن) في السنة الثالثة للهجرة بعد الزواج بعام، ويليه في العام الرابع (الحسين)، وفي العام الخامس جاءت (زينب)، وبعد عامين أنجبت أم كلثوم.

أجمل الأسماء:

يقول علي بن أبي طالب: «كنت رجلًا أحب الحرب، فلما ولد الحسن، هممت أن أسميه حَرْبًا، فقال ﷺ: **«بل هو حسن»**. فلما جاء الثاني، هممت أن أسميه حَرْبًا، فقال ﷺ: **«بل هو حسين»**. فلما ولد الثالث، جاء النبي ﷺ فقال: **«أروني ابني، ما سميتموه؟»**. فقلت: حَرْبًا. فقال: **«بل هو محسن»**. ثم قال: **«إني سميتهم باسم ولد هارون شبر وشبير ومشبر»**.

وقد سمى رسول الله ﷺ زينب وأم كلثوم على أسماء بناته أخوات فاطمة. وقد ورد في بعض الأحاديث أن عليًا سمى الحسن أولًا بحمزة، وحسينًا بجعفر، فغير اسميهما رسول الله ﷺ[1].

ويقال: إن محسنًا مات صغيرًا، أو إن هذا وهم من الرواة، ولم يولد لفاطمة طفل ذكر ثالث.

شبه النبي ﷺ:

كان الحسن والحسين مجتمعين صورة من رسول الله ﷺ قال الرواة: إن الحسن كان أشبه خلق الله برسول الله في وجهه أو الجزء الأعلى من جسده عمومًا. أما الحسين، فكان يماثله في نصفه الأسفل.

---

(١) البداية والنهاية (: ٧/ ٣٦٧).

عن عقبة بن الحارث، أن أبا بكر صلى بهم العصر بعد وفاة رسول الله ﷺ بليالٍ، ثم خرج هو وعلي يمشيان، فرأى الحسن يلعب مع الغلمان، فاحتمله على عنقه، وجعل يقول: «بأبي شبه النبي ليس شبيهًا بعلي». قال: وعلي يضحك. وكان أبو جحيفة يقول: «رأيت النبي ﷺ وكان الحسن بن علي يشبهه»[(١)].

وكانت فاطمة تنقر للحسن بن علي وتقول: «بأبي شبه النبي ليس شبيهًا بعلي».

وعن أنس قال: «كان الحسن بن علي أشبههم وجهًا برسول الله ﷺ»[(٢)].

وكذلك ورد عن علي قال: «الحسن أشبه برسول الله ما بين الصدر إلى الرأس، والحسين أشبه برسول الله ما أسفل من ذلك»[(٣)].

وعن علي قال: «كان الحسن أشبه الناس برسول الله ﷺ من وجهه إلى سرته، وكان الحسين أشبه الناس به ما أسفل من ذلك».

الاستقبال الحافل والحب الغامر:

كان النبي ﷺ يستقبل أحفاده استقبالًا حافلًا يملأ القلوب سعادة وبشرًا، برغم ما كان ﷺ يعاني من توالي تحديات قريش التي تجبر المسلمين أن يخوضوا حَرْبًا بعد حَرْب، فلم يكن هؤلاء الصغار يحتملون مثل هذه المشكلات، ولا تحتمل قلوبهم الصغيرة مثل هذه الهموم.

فكان ﷺ يعتنق حفيديه ويمص لسانهما ويداعبهما، وكان أحدهما يركب على ظهر النبي ﷺ وهو ساجد؛ فيطيل سجوده من أجله، وربما صَعَدَ معه إلى المنبر، وقد ثبت في الحديث أنه ﷺ بينما هو يخطب، إذ رأى الحسن والحسين مقبلين، فنزل إليهما فاحتضنهما وأخذهما معه إلى المنبر، وقال: «صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. إني رأيت هذين يمشيان ويعثران فلم أملك أن نزلت إليهما». ثم قال: «إنكم لمن روح الله، وإنكم لتبجلون وتحببون».

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

(٢) ورواه أحمد. (البداية والنهاية : ٨/ ٣٨).

(٣) رواه الترمذي كتاب المناقب ج (٣٧٠٧)، وقال: حسن غريب.

عن أسامة بن زيد، قال: «كان النبي ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمنا ثم يقول: «**اللهم، ارحمها، فإني أرحمها**»[١].

وفي رواية: «**اللهم، إني أحبها فأحبها**».

عن البراء بن عازب، قال: «رأيت النبي ﷺ والحسن بن علي على عاتقه، وهو يقول: «**اللهم، إني أحبه فأحبه**». وفي رواية زيادة: «**وأحب من أحبه**»[٢].

الجد الحبيب:

وانظروا إلى هذه الصورة الرائعة للجد النبي ﷺ وماذا يفعل مع أطفال فاطمة، يقول أبو هريرة: خرج رسول الله ﷺ إلى سوق بني قينقاع متكئًا على يدي، فطاف فيها، ثم رجع فاحتبى في المسجد في فناء فاطمة، وقال: «**أين لكاع، ادعوا لي لكاع**». فلم يجبه أحد، فانصرف وانصرفت معه إلى الفناء فقعد.

يقول أبو هريرة: وأظن أن أمه حبسته لتجعل في عنقه السخاب؛ (أي: العطر) فجاء الحسن فاشتد حتى وثب في حبوته، فأدخل فمه في فمه، فالتزمه رسول الله ﷺ والتزم هو رسول الله، ثم قال ﷺ: «**اللهم، إني أحبه فأحبه، وأحب من يحبه**».

عن أبي هريرة قال: خرج علينا رسول الله ومعه حسن وحسين، هذا على عاتقه، وهذا على عاتقه، وهو يلثم هذا مرة، وهذا مرة، حتى انتهى إلينا، فقال له رجل: يا رسول الله، إنك لتحبهما. فقال: «**من أحبهما، فقد أحبني؛ ومن أبغضهما، فقد أبغضني**»[٣].

وقد ورد عن عائشة وأم سلمة -رضي الله عنها- أن رسول الله اشتمل على الحسن والحسين وأمهما وأبيهما، فقال: «**اللهم، هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا**»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب ح (٥٥٤٤).
(٢) أخرجه البخاري كتاب المناقب ح (٣٤٦٦).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ح (٩٢٩٦).
(٤) واشتمل أي وضع عليها شملة وهي شيء من الثياب.

جاء الحسن والحسين يسعيان إلى رسول الله، فجاء أحدهما قبل الآخر، فجعل يده تحت رقبته، ثم ضمه إلى إبطه، ثم جاء الآخر فجعل يده الأخرى في رقبته، ثم ضمه إلى إبطه، وقبّل هذا، ثم قبّل هذا، ثم قال: «اللهم، إني أحبهما فأحبهما». ثم قال: «أيها الناس، إن الولد مبخلة مجبنة مجهلة».

عن بريدة: «كان رسول الله ﷺ يخطب، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان؛ فنزل رسول الله إليهما فأخذهما فوضعهما في حجره على المنبر، ثم قال: «صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، رأيت هذين الصبيين فلم أصبر». ثم أخذ في خطبته»[1].

وعن عبد الله بن جعفر، قال: كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تلقى الصبيان من أهل بيته، وأنه قدم من سفر فسبق بي إليه، قال: فحملني بين يديه، ثم قال: «جيء بأحد بني فاطمة إما حسن وإما حسين، فأردفه خلفه فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة».

وعبد الله بن شداد، عن أبيه، أن رسول الله صلى بهم إحدى صلاتي العشي، فسجد سجدة أطال فيها السجود، فلما سلم قال الناس له في ذلك، قال: «إن ابني هذا -يعني: الحسن -ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته».

وعن جابر، قال: دخلت على رسول الله وهو حامل الحسن والحسين على ظهره، وهو يمشي بهما على أربع، فقلت: نعم الجمل جملكما، فقال: «ونعم العدلان هما».

عن ابن عباس قال: خرج رسول الله وهو حامل الحسن على عاتقه، فقال له رجل: يا غلام، نعم المركب ركبت. فقال رسول الله: «ونعم الراكب هو».

عن زيد بن أرقم قال: نظر رسول الله إلى علي وحسن وحسين وفاطمة، فقال: «أنا حرب لمن حاربتم، وسلم لمن سالمتم»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب المناقب ح (٣٨٠٦)، وأحمد في مسنده.

(٢) أخرجه الترمذي كتاب المناقب ح (٣٨٠٥).

في الجنة:

وبشر النبي ﷺ أبناء فاطمة بالجنة، فكانت شهادة لها؛ وإن كانت أمها سيدة نساء العالمين وسيدة نساء أهل الجنة، فإنهما «سيدا شباب أهل الجنة» كما قال ﷺ[(١)].

وإن كان ﷺ قال عن فاطمة: إنها سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران .. فإنه ﷺ قال عن ابنيها الحسن والحسين: «**الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة إلا ابني الخالة، يحيى وعيسى** ﷺ».

عن علي قال: دخل علي رسول الله ﷺ وأنا نائم، فاستسقى الحسن أو الحسين، فقام رسول الله ﷺ إلى شاة لنا كي يحلبها، فدرت، فجاءه الآخر فنحاه، فقالت فاطمة: يا رسول الله، كأنه أحبهما إليك؟ قال: «**لا، ولكنه استسقى قبله**». ثم قال: «**إني وإياك وهذين وهذا الراقد في مكان واحد يوم القيامة**»[(٢)].

السبطان:

وقد أخبر ﷺ عنهما أنهما سبطان من الأسباط.

وهذه هي أخلاق الأسباط.

قال المدائني: جرى بين الحسن والحسين كلام فتهاجرا، فلما كان بعد ذلك، أقبل الحسن إلى الحسين، فأكب على رأسه يقبله، فقام الحسين فقبله أيضًا.

وقال: إن الذي منعني من ابتدائك بهذا، أني رأيت أنك أحق بالفضل مني؛ فكرهت أن أنازعك ما أنت أحق به مني[(٣)].

وكان الحسين بن علي يطوف بالبيت فأراد أن يستلم فما وسع له الناس.

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب المناقب ح (٣٧٠١).

(٢) رواه أحمد ح (٧٥٣).

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٧).

فقال رجل: يا أبا فراس من هذا؟

فقال الفرزدق:

هَـذا الَّـذي تَعـرِفُ البَطحـاءُ وَطأَتَـهُ   وَالبَيـتُ يَعرِفُـهُ وَالحِـلُّ وَالحَـرَمُ
هَـذا ابـنُ خَـيرِ عِبـادِ الله كُلِّهِـمُ   هَـذا التَقِـيُّ النَقِـيُّ الطـاهِرُ العَلَـمُ
هَـذا ابـنُ فاطِمَـةٍ إِن كُنـتَ جاهِلَـهُ   بِجَـدِّهِ أَنبِيـاءُ الله قَـد خُتِمـوا
يَكـادُ يُمسِـكُهُ عِرفـانُ راحَتِـهِ   رُكـنُ الحَطـيمِ إِذا مـا جـاءَ يَسـتَلِمُ[1]

وكان ﷺ يخاف عليهما ويحميهما..

عن أبي هريرة قال: «كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العشاء؛ فإذا سجد، وثب الحسين والحسن على ظهره؛ فإذا رفع رأسه، أخذهما أخذًا رفيقًا فيضعهما على الأرض؛ فإذا عاد عادا، حتى قضى صلاته أقعدهما على فخذيه.

قال: فقمت إليه فقلت: يا رسول الله، أردهما إلى أمهما؟

قال: فبرقت برقة فقال لهما: «ألحقا بأمكما».

قال: فمكث ضوءها حتى دخلا على أمهما»[2].

عن أم سلمة قالت: «بَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ فِي بَيْتِي يَوْمًا، إِذْ قَالَتِ الْخَادِمُ: إِنَّ عَلِيًّا وَفَاطِمَةَ بِالسُّدَّةِ. قَالَتْ: فَقَالَ لِي: «قُومِي فَتَنَحَّيْ لِي عَنْ أَهْلِ بَيْتِي». قَالَتْ: فَقُمْتُ فَتَنَحَّيْتُ فِي الْبَيْتِ قَرِيبًا، فَدَخَلَ عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَمَعَهُمَا الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ، وَهُمَا صَبِيَّانِ صَغِيرَانِ، فَأَخَذَ الصَّبِيَّيْنِ فَوَضَعَهُمَا فِي حِجْرِهِ فَقَبَّلَهُمَا -قَالَ- وَاعْتَنَقَ عَلِيًّا بِإِحْدَى يَدَيْهِ وَفَاطِمَةَ بِالْيَدِ الأُخْرَى، فَقَبَّلَ فَاطِمَةَ وَقَبَّلَ عَلِيًّا»[3].

عن زينب بنت أم سلمة أن المصطفى دخل عليه الحسن والحسين وفاطمة، فجعل

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٠٨- ٢٠٩).
(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٢٦).
(٣) رواه أحمد ح رقم (٢٥٣٢٩).

الحسن من شق والحسين من شق، وجعل فاطمة في حجره، وقال: «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد»[(١)].

المباهلة:

في العام التاسع من الهجرة ذلك العام الذي سمي عام الوفود وذلك بعد أن أعطت هدنة الحديبية الفرصة للمسلمين أن يلتقطوا الأنفاس.

وبدأت وفود القبائل حول المدينة ومكة تقبل على المدينة لترى رأيها من تلك القوة الوليدة في جزيرة العرب وكانت معظم الوفود تعلن اسلامها بعد لقاء الرسول ﷺ وسماع القرآن

وكانت فاطمة هناك في بيتها المفتوح على المسجد تقوم بدورها عونا لأبيها ونبيها ﷺ.

وجاء نصارى نجران فدخلوا المسجد في هيبة عظيمة حتى قال الصحابة: «ما رأينا بعدهم وفدًا مثلهم». وكان ﷺ في صلاة العصر.

وقد حانت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ فهم بهم الصحابة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوهم فصلوا إلى المشرق».

ودار الحوار بينهم وبين رسول الله ﷺ حول عيسى ابن مريم وتلقت فاطمة مع المسلمين في المدينة آيات سورة آل عمران تحاج النصارى وتكذب ادعاءاتهم بل وتبين لهم ما خفي عليهم بل وأنكروه من أمر عيسى وأمه مريم حتى أنزل الله القول الفصل فيهما فقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ۞ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ولم يعد هناك مجال لجدال ونقاش ولابد من عرض الأمر على الله فأنزل الله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]. جاء رسول الله ﷺ ومعه الحسن والحسين في خميل له (ولم تكن زينب وأم

---

(١) رواه الطبراني وغيره.

كلثوم بنتنا فاطمة قد ولدتا) وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة[١].

ونبتهل هنا بمعنى نتلاعن: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[٢].

فواعدوه أن يلاعنوه الغداة، فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد بعدما أخبرهم الخبر، أقبل ومعه الحسن والحسين في خميل له وأخذ بيد علي وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة. ثم أرسل إليهم، فأبوا أن يجيبوا، وأقروا له بالخراج ولم يسلموا.

يقول جابر: (وأنفسنا) رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب و (أبناءنا) الحسن والحسين و (نساءنا) فاطمة -رضي الله عنهم[٣].



(١) البداية والنهاية (٥/ ٤٩).

(٢) ابن كثير (٢/ ٣٠).

(٣) رواه الحاكم في مستدركه (٢/ ٥٩٣)، وراجع ابن كثير (٢/ ٣٣).



نصيبها من الجهاد

غزوة أُحُد ووفاة حمزة:

كانت فاطمة وزوجها علي ﷺ علامة مميزة في مسيرة رسول الله ﷺ الدعوية مثل كل صحابته الأوائل أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وغيرهم، كانت حاضرة جميع مواقعه، مشاركة بكل مشاعرها ووجدانها وحياتها.

في غزوة أُحُد كانت فاطمة متابعة مثل كل من مكث في المدينة من النساء، واستقبلت الجيش القادم من أُحُد وقد جمع جراحتين وليست واحدة؛ جراح المعركة وسبعين شهيدًا، وجراح الشعور بالرعب أن فريقًا منهم حاد عن أمر رسوله ونبيه فكان ما حدث:

﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ولمن لا يذكر ماذا حدث في أُحُد نقول باختصار شديد: إن رسول الله ﷺ استشار أصحابه بعد أن وصلته الأنباء أن قريشًا تُعِدُّ جيشًا للانتقام من المسلمين بعد هزيمة بدر.

وكانت الاستشارة هل نخرج لهم أم نتحصن بالمدينة، وكان رأي كبار القوم وشيوخهم أن نبقى والمدينة حصن لنا، ولكن الشباب وخاصة من لم يحضر بدرًا منهم كان في شوق للقاء قريش؛ فكان رأيهم ألا يدخلوها علينا، بل نخرج لهم، وكانوا هم الأكثر؛ فوافق الرسول رأيهم رغم أنه كان يميل لرأي الشيوخ.

وانطلق رسول الله ﷺ يلبس ملابس الحَرْب ويعد الجيش الذي خرج في ألف وثلاثمائة مسلم، وفي الطريق انهزم المنافقون، ورجعوا في ثلاثمائة رجل. فلما رأى بعض المسلمين ذلك، اهتزت ثقتهم في أنفسهم، وهموا بالرجوع، ولكن الله ثبتهم:

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢١- ١٢٢].

وجوار جبل أُحُد التقى الجيشان المسلمون في ألف يحمي ظهرهم جبل أُحُد، والمشركون في ثلاثة آلاف معهم النساء والإبل والغنائم.

ووضع رسول الله ﷺ خطة الحرب، فجعل مجموعة من الرماة على جبل صغير يسار أُحُد، وأمرهم بأمر محدد: «**احموا ظهورنا؛ فإن رأيتمونا نقتل، فلا تنصرونا؛ وإن رأيتمونا نغنم، فلا تشاركونا**».

ودارت المعركة، وانكشف المشركون، وأعطوا للمسلمين ظهورهم هربًا، وهم يلاحقونهم قتلًا وأسرًا. ثم انزاح الغبار عن ساحة المعركة، وبدأ المسلمون في جمع الغنائم، وهنا دار حِوار فوق جبل الرماة: هل ننزل لنشارك أم نبقى وقد انتهت المعركة؟ البعض رأى الالتزام الحرفي بأمر رسول الله ﷺ والآخرون رأوا أن المعركة قد انتهت، وبدءوا ينزلون وقائدهم ينهاهم فلم يستجيبوا:

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾

وهنا تغير سير المعركة، فهذا خالد بن الوليد القائد الذكي، وكان قائد كتيبة الفُرسان في جيش المشركين، وكان قد اختبأ خلف هَضْبة ولم يشارك في المعركة لإدراكه إحكام خطة الرسول ﷺ وأن هؤلاء الرماة لن يدعوه يشارك.. فلما انكشفوا، انطلق هو لينزل ساحة المعركة، ويبدأ بالصعود على جبل الرماة ليقتل من تبقى منهم ثم ينزل من على الجبل ليقتل المسلمين المشغولين في جمع الغنائم ظانين أن المعركة قد انتهت.

ولكن التقى بهم أسد الله حمزة وهم نزول من فوق الجبل، وأعمل فيهم سيفه العجيب، وكاد أن يفشل خطة خالد، إلا أن الله عاجله بوحشيٍّ، ذلك العبد الذي لم يكن له هدف في المعركة إلا قتل حمزة، فقد أغرته هند بنت أبي سفيان بكل الوسائل ووعدته بالذهب والحرية إذا قتل حمزة الذي قتل أباها وأخاها وعمها في غزوة بدر، واستقرت حربة وحشي في بطن حمزة لينهدم الجبل الذي كان يحمي المسلمين، وتعمل كتيبة خالد

التقتيل فيهم، وتكون النتيجة تشتت الجيش والاعتداء على رسول الله ﷺ ووقوعه في حفرة كان حفرها المشركون، ودخول حلقة غطاء رأسه (المغفر) في خده، وكسر أحد أسنانه.

واستشهد سبعون من المسلمين والرسول ﷺ يدعو المشتتين المذهولين، فلا يستجيبون.. فالكرب عظيم:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

ويتراكم الغم على قلوب المؤمنين ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ فقد أشيع أن محمدًا قد مات؛ فغمٌّ حرمان الغنائم، وغمٌّ تحول الهزيمة إلى نصر، وغمٌّ الشهداء، وهذا غمٌّ رابع.

وهذا كله لحكمة من الله عظيمة؛ لكي لا يكون الأمر متعلقًا بمغنم أو جراح، إنما الأمر كله لله ﴿لِّكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

يقول سيد قطب:

«وكانت النهاية أن يجزيهم الله على الغم الذي تركوه في نفس الرسول ﷺ بفرارهم غمًّا يملأ نفوسهم على ما كان منهم، وعلى تركهم رسولهم الحبيب يصيبه ما أصابه – وهو ثابت دونهم وهم عنه فارون – ذلك كي لا يحفلوا بشيء فاتهم ولا أذًى أصابهم . فهذه التجربة التي مرت بهم وهذا الألم الذي أصاب نبيهم – وهو أشق عليهم من كل ما نزل بهم – وذلك الندم الذي ساور نفوسهم وذلك الغم الذي أصابهم .. كل ذلك سيصغر في نفوسهم كلّ ما يفوتهم من عرض وكل ما يصيبهم من مشقة:

﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾»[(١)].

ويعود الجيش الحزين المجروح الوجل المشفق على نفسه، فلا الغنائم أحزنته، ولا الجراح آلمته، وإنما القلوب تتفطر على نتيجة معصية أمر الرسول ﷺ أنهم أصابهم مسّ من

(١) الظلال (١/ ٤٩٥).

غضب الله -تعالى- إلا أنه كان بهم رحيمًا:

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وأقيمت المآتم في المدينة تبكي الشهداء، وكان الكل يبكي حمزة.

وانطلقت صفية بنت عبد المطلب أخت حمزة تقول:

دَعـاه إلـهُ الحـقّ ذو العـرش دعـوةً ... إلى جنّـةٍ يَحيـا بهـا وسرورِ
فَـذلك مـا كنّـا نرجّـي وَنَرتجـي ... لِحمـزة يـومَ الحشر خـير مصـيرِ
فَـوَاللهَ لا أَنسـاكَ مـا هَبَّـتِ الصَّـبا ... وَلَأَبكِـيَنَ في مَحضَري وَمَسـيري
عَـلى أَسَـدِ الله الَّـذي كـانَ مِـدرَهاً ... يَـذودُ عَـنِ الإِسـلامِ كُـلَّ كُفـورِ[1]

وعاد رسول الله ﷺ إلى بيته ودخل هو وعلي على فاطمة.

قال ابن إسحاق: «فَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ إِلَى أَهْلِهِ، نَاوَلَ سَيْفَهُ ابْنَتَهُ فَاطِمَةَ، فَقَالَ: «اغْسِلِي عَنْ هَذَا دَمَهُ يَا بُنَيَّةُ، فَوَاللهِ لَقَدْ صَدَقَنِي الْيَوْمَ» وَنَاوَلَهَا عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ سَيْفَهُ، فَقَالَ: وَهَذَا أَيْضًا، فَاغْسِلِي عَنْهُ دَمَهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ صَدَقَنِي الْيَوْمَ»[2].

ثم قال علي لفاطمة وقد نظر إلى السيف وقد انحنى: «هاك السيف حميدًا فإنها قد شفتني»[3].

«فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَئِنْ كُنْت صَدَقْتَ الْقِتَالَ، لَقَدْ صَدَقَ مَعَك سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَأَبُو دُجَانَةَ»[4].

وجلس ﷺ بين يدي فاطمة تضمد جراحه.

قال البخاري: «عن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح النبي ﷺ

---

(١) المدره مثل (المنبر)، وهو الذي يدافع عن القوم بلسانه ويده.
(٢) سيرة ابن هشام (٤/ ٤٨).
(٣) السير لابن كثير (٢/ ٩٤).
(٤) سيرة ابن هشام (٤/ ٤٨).

فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دووي.

قال: كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسله،وعلي يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رمادًا ألصقتها فاستمسك الدم، وكسرت رباعيته يومئذ،وجرح وجهه، وكسرت البيضة على رأسه -عليه الصلاة والسلام»[١].

زيارة الشهداء:

قال الواقدي: «كان النبي ﷺ يزورهم كل حول؛ فإذا بلغ نقرة الشعب، يقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار». ثم كان أبو بكر يفعل ذلك كل حول، ثم عمر، ثم عثمان، وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تأتيهم فتبكي عندهم وتدعو لهم.

وكان سعد يسلم ثم يقبل على أصحابه فيقول: ألا تسلمون على قوم يردون عليكم»[٢].



(١) البداية والنهاية (٤/ ٣٠- ٣١).

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٤٦).

غيوم على الحياة الزوجية

كان علي يتميز بالشدة والصرامة والخشونة أحيانًا، وكان فارسًا يحب الحَرْب، وكان فدائيًّا لا يعرف أنصاف الحلول، جادًّا في سلوكه، صُلْبًا في آرائه، مقدمًا على ما يقتنع به. وكانت فاطمة قوية الشخصية، عاشت قسوة الحياة مع أبيها ﷺ فأصبح لها رأي يعتد به وخبرة في الحياة فكان يحدث أن يختلفا، حيث كانت الجدية هي المسيطرة على حياتها.

دخل عليها علي عائدًا من اليمن بعد أن أمّره رسول الله ﷺ عليها، وكانت عودته ليلحق رسول الله ﷺ في حجه، ورآها كأي زوجة قد كحلت عينيها وتزينت ولبست ثيابًا صبيغًا (أي معطرة) لاستقبال زوجها العائد، فلم يلتفت علي إلى زينتها، بل بادر بسؤالها: كيف فعلت ذلك؟ أنت مُحْرِمَة للحج؟ فإذا بفاطمة تجيبه في جدية: أمرني أبي بذلك.

يقول علي: فذهبت محرشًا[1] أستفتي رسول الله ﷺ في الذي ذكرت فاطمة، فقال ﷺ له: «صدقت، أنا أمرتها بهذا»[2].

وكان ﷺ قد أمر من لم يكن معه هدي أن يحلل ويجعلها عمرة. وهو التمتع.

ونلاحظ من أسلوب علي ﷺ ذلك الخطأ الذي يقع فيه كثير من الرجال -وخاصة الذين عاشوا حياة الجندية مثل علي- وهو تقديم الضوابط على اهتمامات المرأة.. فالمرأة تحب الزينة وتحب أن ترى أثر زينتها على زوجها.. فقد تخطئ أحيانًا أو تسرف في استخدام الزينة.. وهنا أنت أحد زوجين:

الأول: يوجه إلى الخطأ غير ملتفت للزينة.. وهذا يلقي من زوجته ما لاقاه علي من فاطمة ذلك الرد الجاد (أبي أمرني بذلك).

---

(١) قال النووي: التحريش الإغراء، والمراد هنا أن يذكر له ما يقتضي عتابها.

(٢) البداية والنهاية (٥/ ١٦٥).

الثاني: يهتم بالزينة ويمدح عليها ويذكر محاسنها ثم يوضح برفق ومن طرف خفي مواضع الخطأ أو الإسراف إن وجد.. وهذا سلوك النبي ﷺ في كثير من أحواله.

أبا تراب

وكان رسول الله ﷺ يتدخل ليصلح بينهما. رآه البعض يدخل بيت فاطمة حزينًا، ثم يمكث بعض الوقت ويخرج وقد علا وجهه البشر والسرور، فسأله أصحابه عن ذلك، فقال: «وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إليّ»[١].

وغضبت الزهراء يومًا من شدة علي وصلابته، فقالت له منفعلة: «والله لأشكونك إلى رسول الله ﷺ».

وانطلقت إلى أبيها وعلي خلفها يحاول إعادتها، إلا أنها وصلت إلى رسول الله ﷺ واشتكت له، فتلطف بها وصبرها وحملها على الرفق بعلي، وعاد علي بفاطمة إلى بيته وهو يقول لها: «والله لا آتي شيئًا تكرهينه أبدًا»[٢].

وخرج يومًا مغاضبا فاطمة، فجاء المسجد فنام فيه فدخل رسول الله ﷺ فسألها عنه فقالت خرج مغاضبا فجاء إلى المسجد فأيقظه وجعل يمسح التراب عنه ويقول: «قم أبا تراب قم أبا تراب».

عاصفة على البيت الصغير:

كان علي ﷺ كما ذكرنا ذا طباع تتميز بالجفاء قليلًا في تعاملاته مع فاطمة، وذلك بسبب طبيعته الشديدة، فقد قال هو عن نفسه: «كنت امرأ يحب الحَرْب». ولذلك سمى أبناءه حربًا، وغيّرها رسول الله ﷺ إلى الحسن والحسين.

وفاطمة فتاة تربت في بيت رجل رقيق يحترم المرأة ويقدر طباعها وإن استنكرها الرجال، وكان ذلك يترجم على شكل مشكلات بين الزوجين يتدخل رسول الله ﷺ في حلها ويسعده أن يزيل غبار المشكلات عن البيت الصغير. وفي ابتداء الحياة الزوجية،

(١) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٦)، الإصابة (٨/ ١٦٠).
(٢) ابن سعد (٨/ ٢٦)، الإصابة (٨/ ١٦).

وبعد أن امتلأ البيت بالأبناء[1] نظر علي ﷺ حوله، فلم يجد غضاضة اجتماعية في أن يتزوج بأخرى، فهذا نبيه ﷺ قد جمع بين سودة وعائشة وحفصة وأم سلمة، وهذا أبو بكر وعمر وغيرهم كل في بيته أكثر من زوجة، نعم نزل القرآن فألغى عادة الجاهلية في التعدد المفتوح، ولكنه جعل حدًّا أقصى هو أربع زوجات مع اشتراط العدل.

وبدأ علي ﷺ يبحث عن زوجة، فرأى أن جميلة بنت أبي جهل أسلمت وهاجرت، فلِمَ لا يفعل مثل بقية الصحابة ويكرم إحدى نساء المهاجرات بالزواج منها؟! ثم إن جميلة هي بنت عمرو بن هشام القرشي المخزومي، فأما حسبها ونسبها فهو لا غضاضة عليه، وعمها الحارث بن هشام.. وهذا هو ما قاله ﷺ لعلي عندما استأذنه، فقال: «**أعن حسبها تسألني؟**». قال علي: «قد أعلم ما حسبها، ولكن أتأمرني بها؟». فقال ﷺ: «**لا؛ فاطمة مضغة مني، فمن آذاها فقد آذاني**».

ورأى علي أنه لا غضاضة، ولكن يبدو أن الأمر كان يختلف عند رسول الله ﷺ.

ذهب علي في الطريق الطبيعي يخطب جميلة (ويقال: إن اسمها جويرية أو درة) من عمها الحارث بن هشام، فذهب الحارث يستأذن النبي ﷺ.

ومن هنا يتضح أن رسول الله ﷺ عرف من ثلاثة طرق: من علي عندما ذهب يستأذنه، ومن آل جميلة بنت أبي جهل (آل هشام بن المغيرة)، ثم من فاطمة -رضي الله عنها.

ويبدو أن النبي ﷺ قد اكتفى بالرد الأول على علي ظنًّا منه أن عليًا سيبادر بالإقلاع عن هذه الرغبة. فلما جاءه بنو المغيرة يستأذنونه استشعر أن الموضوع ما زال مستمرًّا، فإذا به يجد فاطمة قد انفجر غضبها وهي التي طالما اشتكت من شدة علي عليها، وتحملت صابرة معه ضيق العيش وجهده.

(١) رجحت عائشة عبد الرحمن في (سيدات بيت النبوة) أن هذا الموقف كان في العام الثاني للهجرة قبل أن تنجب فاطمة، وأرى أنه كان متأخرًا عن ذلك، ويمكن أن يكون بعد الفتح في العام الثامن؛ حيث إن آل أبي جهل أسلموا بعد الفتح ومنهم هشام بن المغيرة.

ودخلت على أبيها ﷺ كما روى البخاري ومسلم من حديث المسور بن مخرمة، قال: إن عليًّا خطب بنت أبي جهل، فسمعت بذلك فاطمة؛ فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: يزعم قومك أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكح بنت أبي جهل. فقام رسول الله ﷺ فسمعته حين تشهد يقول: «**أما بعد، أنكحت أبا العاص بن الربيع، فحدثني وصدقني، وإن فاطمة بضعة مني، وإني أكره أن يسوءها، والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله عند رجل واحد**». فترك علي هذه الخطبة(١).

وفي رواية أخرى عن المسور بن مخرمة أيضًا أن علي بن أبي طالب خطب ابنة أبي جهل على فاطمة – رضي الله عنها- فسمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس في ذلك على منبره هذا، وأنا يومئذٍ بلغت الحلم. فقال: «**إن فاطمة مني، وأنا أخاف أن تفتن في دينها**». ثم ذكر صهرًا له من بني عبد شمس، فأثنى عليه في مصاهرته إياه، قال: «**حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي، وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حرامًا، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبدًا**»(٢).

وفي رواية ثالثة عن المسور بن مخرمة أيضًا: أنه سمع رسول الله ﷺ على المنبر وهو يقول: «**إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما ابنتي بضعة مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها**»(٣).

لماذا رفض النبي ﷺ؟

هذا السؤال يفرض نفسه على كل من يستمع إلى هذه القصة، فالأمر حلال لا حرمة فيه، وقد بين النبي ﷺ ذلك، فهل ينبني على رفض النبي ﷺ حكم شرعي مثل تقييد التعدد برضا الزوجة مثلًا أو بكفاءة الأخرى، أو هو خصوصية لفاطمة بنت النبي ﷺ؟

في البدء لا بُدَّ أن ننظر إلى الحادثة في ظروفها التي وقعت فيها، وبتحليل الروايات

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ باب ذكر أصهار النبي ﷺ منهم أبو العاص بن الربيع.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب فرض الخمس، باب ما ذكر من درع النبي ﷺ وعصاه وسيفه.
(٣) رواه مسلم.

الثلاثة للحديث نجد الآتي:

أولاً: بيان أن ما يؤذي فاطمة يؤذي النبي ﷺ وإيذاء النبي منهي عنه بنص القرآن **﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾** [الأحزاب: ٥٣]: **«إن فاطمة بضعة مني وأنا أكره أن يسوءها. فإنما ابنتي بضعة مني، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها»**.

ثانيًا: هذا النوع من مسببات الغيرة قد يفتن فاطمة في دينها ويؤذيها: **«إن فاطمة مني وأنا أخاف أن تفتن في دينها»**.

ثالثًا: إن من الأمور التي لا تصح أن تجتمع في هذا الوقت من مسيرة الإسلام بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله في بيت واحد ولدى زوج واحد.

رابعًا: ذكر رسول الله ﷺ زوج ابنته (زينب) العاص بن الربيع وصدقه ووفاءه له: «ثم ذكر صهرًا له من بني عبد شمس، فأثنى عليه في مصاهرته إياه، قال: **«حدثني فصدقني، ووعدني فوفى لي»**.

خامسًا: ذكر استئذان بني هاشم (أهل المخطوبة) وعدم إذنه لهم: **«إن بني هاشم بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم»**.

سادسًا: وضع شرطًا للزواج أن يطلق علي فاطمة.

سابعًا: ذكر أن ذلك ليس تحريمًا للحلال، أو تحليلًا للحرام، ولكن للأسباب التي ذكرها.

١- أنه لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله أبدًا.

٢- أن الغيرة قد تفتن فاطمة في دينها.

٣- أن الزواج يؤذي فاطمة وهي بضعة منه يؤذيه ما يؤذيها، وأن إيذاء النبي ﷺ لا يجوز.

خصوصيات النبي ﷺ:

ومن الأمور المسلم بها في عقيدة المسلم نحو نبيه محمد ﷺ أن هناك مجموعة من الأمور التي تعتبر خصوصيات له ﷺ لا تشمل بقية الأمة، ولا يلتزم بها أحد، وهذه الخصوصيات في أشياء كثيرة، سواء على مستوى العبادة، أو الأمور الاجتماعية، أو غيرها، مثال ذلك:

١- صيامه وصالًا دون إفطار، فهو لا يجوز لغيره.

٢- فرض قيام الليل عليه والتخفيف على أمته بجعله نافلة.

٣- أنه يجوز أن يجمع من النساء أكثر من أربعة ولا يحل لغيره من الرجال الجمع فوق أربعة.

٤- أنه حرم عليه الزواج بعد أن نزلت عليه آية التحريم في سورة الأحزاب: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ ولم يحرم الزواج على أحد من المسلمين الابسبب شرعي.

٥- أن زوجاته أمهات المؤمنين؛ فلا يجوز لأحد أن يتزوجهن إذا طلقهن أو مات عنهن.

٦- أن زوجاته يضاعف لهن العذاب إذا أتين بفاحشة أو معصية، ولهن أجران على الطاعة.

٧- إنه لا يحل للمؤمن أن يتعامل مع زوجاته ﷺ إلا من وراء حجاب.

وغيرها من الأمور.. والذي يضاف إليها من هذه القصة أنه لا يجوز أن يتزوج صهره على ابنته في حياتها إلا أن يطلقها، ولا غضاضة عليه. وقد رأى الكثير من علماء المسلمين أن ذلك ليس خصوصية لفاطمة وحدها، وإنما هو لبناته جميعًا، وقد قال -تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ﴾.

وهكذا أقر النبي ﷺ القاعدة، وبين أن أحد أزواج بناته كان كذلك، ومدحه بصدقه

معه ووفائه له، وهو العاص بن الربيع زوج زينب الذي أرسلها إلى رسول الله ﷺ مهاجرة من مكة إلى المدينة رغم أنه لم يكن مؤمنًا، ثم إنه استمر لم يتزوج عليها حتى عاد إليها.

عدو الله

أما قضية «بنت عدو الله»، فهو أمر قدري ملزم مستهجن عند الفطر السليمة يبينه النبي ﷺ ليس على أنه العلة الوحيدة لرفضه، إنما هو علة مضافة إلى ما سبقها من العلل، وأهمها أن هذا الزواج سيؤذي فاطمة كما تؤذى كل امرأة، ولكن النبي ﷺ يبين أن إيذاء فاطمة إيذاء له ﷺ ومن عقيدة المسلم أن إيذاء النبي ﷺ كفر، ولا يجوز.

يقول النووي:

قال العلماء: في هذا الحديث تحريم إيذاء النبي ﷺ بكل حال، وعلى كل وجه، وإن ولد ذلك الإيذاء مما كان أصله مباحًا وهو حي، وهذا بخلاف غيره، قالوا: وقد أعلم ﷺ بإباحة نكاح بنت أبي جهل لعلي بقوله ﷺ: «**لست أحرم حلالاً**». ولكن نهى عن الجمع بينهما لعلتين منصوصتين:

الأولى: أن ذلك يؤدي إلى أذى فاطمة؛ فيتأذى حينئذ النبي ﷺ فيهلك من أذاه، فنهى عن ذلك لكمال شفقته على علي وعلى فاطمة.

والثانية: خوف الفتنة عليها بسبب الغيرة. وقيل: ليس المراد به النهي عن جمعهما، بل معناه أعلم من فضل الله أنهما لا تجتمعان.

كما ورد عن أنس بن النضر قوله: والله لا تكسر ثنية الربيع[1] ويحتمل أن المراد تحريم جمعهما، ويكون معنى «لا أحرم حلالاً» أي: لا أقول شيئًا يخالف حكم الله؛ فإذا أحل شيئًا لم أحرمه؛ وإذا حرمه لم أحلله، ولم أسكت عن تحريمه؛ لأن سكوتي تحليل له، ويكون من

---

(١) كانت الربيع من أقرباء أنس وقد حكم عليها بكسر أسنانها قصاصًا لكسرها سنة إحدى النساء.. فقال أنس والله لا تكسر ثنية الربيع فتعجب النبي أن يعترض أنس على حد من حدود الله فأنزل الله الإذن بالدية.. ووافق أهل المعتدى عليها فكان كلام أنس لا يعني الاعتراض بقدر ما يعني أنه يعلم من فضل الله أن ذلك لم يحدث وهو نفس معنى اعتراض النبي ﷺ.

جملة محرمات النكاح الجمع بين بنت نبي الله وبنت عدو الله[١].

وترك علي الخطبة ولم يتزوج على فاطمة طوال حياتها، وتزوج بعد موتها كنوع من المشاركة في الحياة الاجتماعية، خاصة بعد أن تعددت علاقاته الاجتماعية كخليفة للمسلمين.

ولا يفوت النبي ﷺ أن يبين أن هذا خاص به هو، وإنما هو حلال لغير علي من الرجال أن يتزوج من النساء مثنى وثُلاث ورُباع بشرط العدل كما بينت الآية.

أما جميلة أو جويرية بنت أبي جهل، فقد خطبها عتاب بن أسيد بن أمية أمير مكة في عهد النبي ﷺ فولدت له عبد الرحمن، وتزوجها بعده أبان بن العاص ابن عمه.

ولم تؤثر هذه الواقعة على علاقات المسلمين في المدينة، بل ومع رسول الله ﷺ فتحكي جميلة بنت أبي جهل أن رسول الله ﷺ مر بنا يومًا فاستسقى فسقيته، فقال ﷺ: **«خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم»**. وقد روت الأحاديث عن رسول الله ﷺ وروى عنها زوجها[٢].

حياة مستقرة:

واستمرت الحياة الزوجية بعد هذه العاصفة رقيقة جميلة، يشاركون في جهاد النبي والدعوة، ويكون بينهم ما بين الزوجين المتحابين.

دخل ﷺ عليهما يومًا وهما يضحكان، فلما رأياه سكتا، فقال لهما النبي: **«ما لكما كنتما تضحكان، فلما رأيتماني سكتما؟»**. فبادرت فاطمة قالت: بأبي أنت يا رسول الله قال هذا؛ قال: أنا أحب إلى رسول الله منك! فقلت: بل أنا أحب إليه منك.

فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «يا بنية، لك رقة الولد، وعلي أعز عليّ منك»[٣].



(١) شرح صحيح مسلم.

(٢) الإصابة ص٢٥٥، أسد الغابة ص٤١٧.

(٣) رواه الطبراني بإسناد صحيح.

ملامح التربية النبوية

رأينا الأسلوب النبوي في تربية الأطفال عندما كان يتعامل مع أحفاده، والذي يقوم على الإمتاع والاستمتاع واللعب والمداعبة وكل ما هو مظهر للحب والحنان والرأفة والاهتمام.

وإذا نظرنا لمجموعة المواقف النبوية التي ذكرتها السيرة حول علاقته بابنته فاطمة، وجدنا ذلك الاتجاه التربوي الذي سلكه ﷺ مع فاطمة، والقائم على الزهد في أمور الدنيا، والخشونة في الحياة؛ لأن مهمتها كانت تستدعي ذلك، إلى جانب الرقة الشديدة والحنان؛ لأنها أنثى تحتاج هذا.

رآها تلبس حليًّا من ذهب، فأمرها ببيعها والتصدق بثمنها، وقال: «**من أراد أن يحلق حبيبه بحلقة من نار فليحلقها بأساور من ذهب**». وقد أخذ بعض العلماء تحريم الذهب المحلق على النساء من هذا الحديث، إلا أن جمهور العلماء على حله، وأنها خصوصية لفاطمة.

وفي ابتداء الدعوة نجده يذكر فاطمة ضمن من ذكر عندما خاطب قريشًا وسنها حوالي ثماني سنوات، وهي رسالة إليها في نفس الوقت.

فعن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشًا فعم وخص، فقال: «**يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني كعب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني هاشم، أنقذوا أنفسكم من النار. يا معشر بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار. يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئًا، إلا أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها**»[1].

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان (٣٠٣).

ونفس الموقف عندما سرقت المخزومية، و هي رسالة أيضًا إلي فاطمة أن تظن أن حبه لها قد يبيح لها أن تخالف ولو شيئًا يسيرًا.

فعن عائشة أن قريشًا أهمهم شأن المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ؟! فكلمه أسامة، فقال: «أتشفع في حد من حدود الله؟». ثم قام فخطب ، ثم قال: «إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه؛ وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحد. وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها»(١).

ويستخدم معها أسلوب الترهيب ليحذرها من المخالفة.

فعن عبد الله بن عمرو قال: بينما نحن نمشي مع رسول الله ﷺ إذ بصر بامرأة لا يظن أنه عرفها؛ فلما توسط الطريق، وقف حتى انتهت إليه، فإذا فاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال: «مَا أَخْرَجَكِ مِنْ بَيْتِكِ يَا فَاطِمَةُ؟». قَالَتْ: أَتَيْتُ أَهْلَ هَذَا الْبَيْتِ فَرَحَّمْتُ إِلَيْهِمْ مَيِّتَهُمْ وَعَزَّيْتُهُمْ. فَقَالَ «لَعَلَّكِ بَلَغْتِ مَعَهُمُ الْكُدَى(٢)». قَالَتْ: مَعَاذَ الله أَنْ أَكُونَ بَلَغْتُهَا مَعَهُمْ وَقَدْ سَمِعْتُكَ تَذْكُرُ فِي ذَلِكَ مَا تَذْكُرُ. قَالَ: «لَوْ بَلَغْتِهَا مَعَهُمْ، مَا رَأَيْتِ الجَنَّةَ حَتَّى يَرَاهَا جَدُّ أَبِيكِ». رواه أحمد(٣).

والترغيب لتحصل على كل الخير

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: **«يا فاطمة، ما لي لا أسمعك بالغداة والعشي تقولين: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، و لا تكلني إلى نفسي طرفة عين؟»**(٤).

ويداوم ﷺ التذكير لها ولزوجها.

---

(١) رواه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء ج (٣٢١٦)..

(٢) الكُدَى : جمع الكدية؛ وهى المقابر.

(٣) البداية والنهاية (٢/ ٢٦٠).

(٤) رواه الخطيب البغدادي.

فعن أبي الحمراء قال: رابطت المدينة سبعة أشهر كيوم ، فكان النبيّ ﷺ يأتي باب علي وفاطمة كل غداة فيقول: «الصلاة الصلاة، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرِّجس أهل البيت و يطهِّركم تطهيرًا»(١).

ولا يؤثرها بهديته، بل يوزعها على كل من له صلة بها.

أهدي إلى رسول الله ﷺ حلة من إستبرق، فأعطاها لعلي، وقال له: «اجعلها خُمُرًا بين الفواطم». فشقها علي أربعة أخمرة:

الأول- لفاطمة بنت محمد ﷺ زوج علي.

والثاني- لفاطمة بنت أسد أم علي.

والثالث- لفاطمة بنت حمزة الشهيد.

والرابع- لفاطمة بنت عتبة(٢).



(١) البداية والنهاية (٥/ ٢٧٩).

(٢) وانظر: سيدات بيت النبوة ص٥٩٦.



فاطمة أم أبيها

فاطمة العاقلة وزوجات أبيها:

عاشت فاطمة كما كناها المؤرخون (أم أبيها) بعد وفاة أمها قبل الهجرة بثلاث سنوات حتى تزوج عائشة -رضي الله عنها- في العام الثاني للهجرة، عاشت تخدمه وترعاه، وتدبر شئونه، ويجد عندها الكثير مما يفتقده الرجل في بيته.

ولما تزوجت -رضي الله عنها- عليًا وتزوج النبي ﷺ عائشة -رضي الله عنها- تعددت بيوت النبي ﷺ حتى اجتمع لديه تسعة من النسوة، وكان بينهن ما بين الزوجات من أمور ذكرتها كتب السير والتاريخ، وسوف نذكر طرفًا منها عند الحديث عن عائشة -رضي الله عنها- إلا أن فاطمة العاقلة اللبيبة لم تكن لتتدخلَ في هذه المشكلات، ولا في علاقة أبيها ﷺ بنسائه، إلا فيما ندر.

ومن ذلك ما رواه البخاري أن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يوم عائشة، فاجتمع أزواجه إلى أم سلمة، وقلن لها: قولي له يأمر الناس أن يهدوا له حيث كان. وذكر أنهن بعثن فاطمة ابنته إليه، فقالت: إن نساءك ينشدونك العدل في ابنة أبي بكر بن أبي قحافة. فقال: «يا بنية، ألا تحبين من أحب؟». قالت: قلت: بلى! قال: فأحبي هذه[(١)].

وكانت عائشة تقول: «ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها». وكانت تقول: «ما رأيت أحدًا قَطُّ أحسنَ من فاطمة»[(٢)].

وحدث بين عائشة وفاطمة شيء (وتلحظ أن فاطمة أكبر من عائشة في السن بحوالي خمس سنوات) واحتكما إلى رسول الله ﷺ فلما أراد الرسول ﷺ أن يستمع إلى الشكوى

(١) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة ح (٤٤٧٢).
(٢) رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

من عائشة، قالت له: سلها يا رسول الله، فإنها لا تكذب!! وارتضت رواية فاطمة.

وكانت عائشة تدرك مكانة فاطمة وعلي عند رسول الله ﷺ فكانت تقول له: «والله لقد عرفت أن فاطمة وعليًّا أحب إليك مني ومن أبي مرتين أو ثلاثًا»[١].

فاطمة القوية:

جاء أبو سفيان بعد أن نكثت قريش عهدها في الحديبية كسفير من قريش إلى رسول الله ﷺ في المدينة؛ ليرى أثر ذلك على المسلمين، ويحاول أن يزيد في مدة العقد، وبعد أن امتنع كبار الصحابة عن التوسط له عند رسول الله ﷺ كأبي بكر وعمر حتى ابنته أم المؤمنين أم حبيبة، جاء إلى بيت علي بن أبي طالب واستشفع بفاطمة، فماذا كان ردها؟

ثم خرج فدخل على علي بن أبي طالب وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعندها حسن غلام يدب بين يديها، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحمًا وأقربهم مني قرابة، وقد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبًا، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ!

فقال: ويحك أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة، فقال: يا بنت محمد، هل لك أن تأمري هذا فيجير بين الناس (يقصد الحسن)، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ فقالت: والله، ما بلغ بني ذلك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على النبي ﷺ[٢].

وفي رواية أنه دخل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ فكلمها، فقالت: إنما أنا امرأة، وإنما ذلك إلى رسول الله. فقال لها: فأمري أحد ابنيك. فقالت: إنهما صبيان، ليس مثلهما يجير. قال: فكلمي عليًّا. فقالت: أنت فكلمه. فكلم عليًّا[٣].

العودة إلى مكة:

يوم الفتح أعطى رسول الله ﷺ الراية لعلي -رضي الله عنه- وكانت فاطمة معه

---

(١) رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) البداية والنهاية (٤/ ٣٢١).

(٣) البداية والنهاية (٤/ ٣٢٢).

تخدمه وترعاه -عليه الصلاة والسلام- فعندما جاءته أم هانئ لتشفع في رجال من قومها، وجدته يغتسل وفاطمة تستر عليه بثوبه.

الدار في مكة:

كانت الدار قد انتقلت إلى عقيل بن أبي طالب، وسأل أسامةُ بن زيد رسولَ الله ﷺ: أين تنزل يا رسول الله؟ أفي دارك؟ فقال ﷺ: «**وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟!**»(١). وفي رواية: «**وهل ترك لنا عقيل منزلًا؟!**»(٢).

كان الجميع يظن أن النبي ﷺ مقيم في مكة بعد فتحها، إلا أنه عاد إلى المدينة، وأكد ارتباطه بها وبالأنصار يوم حُنَيْن، يوم قال: «**فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة، لكنت امرأ من الأنصار. ولو سلك الناس شعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار**».

وتزور فاطمة قبر أمها خديجة في الحجون، وتعاودها الذكريات.

مكثت في مكة شهرين وبعض شهر، جاءتها في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة، وغادرتها مع النبي ﷺ في أُخريات ذي القعدة في العام نفسه بعد قضاء العمرة.

في حجة الوداع:

وحجت -رضي الله عنها- مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع؛ حيث استجابت لأمر رسول الله ﷺ للمسلمين أن يحلوا إحرامهم ويستمتعوا بالعمرة إلى الحج، وتزينت لمقدم زوجها علي من اليمن كما سبق أن قلنا.

فاطمة شبيهة وحبيبة أبيها:

عن أم المؤمنين أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: «**كانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ أشبه الناس وجهًا برسول الله ﷺ**».

وعن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أنها قالت: «ما رأيت أحدًا من خلق الله

---

(١) متفق عليه.
(٢) الطبقات الكبرى (٢/ ٩٨).

أشبه برسول الله ﷺ من فاطمة».

وقد بلغ من حب رسول الله ﷺ لابنته فاطمة -رضي الله عنها- أنه لا يخرج من المدينة حتى يكون آخر عهده بها رؤية فاطمة؛ فإذا عاد من سفره، بدأ بالمسجد فيصلي ركعتين، ثم يأتي فاطمة، ثم يأتي أزواجه.

وكان ﷺ يقول: **«فاطمة بضعة[١] مني؛ فمن أغضبها، أغضبني»**[٢].

وقد استدل ابن حجر بهذا الحديث على أنها أفضل بنات النبي ﷺ.

القريبة من أبيها:

كانت -رضي الله عنها- تهتم بأبيها حتى آخر عمرها، ففي فتح مكة عندما جاءت أم هانئ بنت أبي طالب أخت علي تبحث عنه لتشكو عليًا أنه مصر على قتل رجلين من أهلها، كان رسول الله ﷺ قد أمر بقتلهما، فاستجارا بها.

وفي رواية أنها دخلت عليه وهو يغتسل وفاطمة ابنته تستره بثوب، فقال: «من هذه؟». قالت: أم هانئ. قال: «مرحبًا بأم هانئ». قالت: يا رسول الله، زعم ابن أم علي بن أبي طالب أنه قاتل رجلين قد أجرتهما[٣]. فقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»[٤].

عن أنس بن مالك أن فاطمة ناولت رسول الله ﷺ كسرة من خبز الشعير، فقال: **«هذا أول طعام أكله أبوك منذ ثلاثة أيام»**.

عن جابر أن رسول الله ﷺ أقام أيامًا لم يطعم طعامًا حتى شق ذلك عليه، فطاف في منازل أزواجه، فلم يصب عند واحدة منهن شيئًا، فأتى فاطمة، فقال: **«يا بنية، هل عندك شيء آكله، فإني جائع»**[٥].

---

(١) قال ابن حجر: تنطق بضم الباء وفتحها وكسرها، والبضعة هي قطعة اللحم. انظر: فتح الباري (٧/ ١٣٢). وقال النووي: لا تصح إلا بالفتح. (مسلم شرح النووي ٥/ ٣١٤).
(٢) رواه البخاري كتاب المناقب ح (٣٤٣٧).
(٣) البداية والنهاية (٤/ ٣٤٤).
(٤) البداية والنهاية (٤ ٢٩٨- ٢٩٩).
(٥) البداية والنهاية (٦/ ١١٥).

وقد وردت قصص طويلة حول تكثير الطعام في بيت فاطمة وتشبيهها بمريم ابنة عمران حين كان زكريا يدخل عليها المحراب:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧] (١).

لماذا فاطمة؟

وتكفي الأسباب التالية للإجابة عن سائل يسأل: ولِمَ تبوَّأت فاطمة هذه المكانة العظيمة عند رسول الله ﷺ؟

- أصغر أولاده ﷺ.
- بيان عكس ما قد يظن البعض كرهه ﷺ أن يكون له أربع بنات في مجتمع لا يرحب بالبنات.
- ماتت أمها وأخواتها جميعا ولم يبقى لها الا أبيها ﷺ.
- الفقيرة زوجة الفقير وأخواتها تزوجن أغنياء.
- رعايتها له وحبها الشديد له ﷺ.
- أنها أم الذرية الحسن والحسين.



(١) إلا أن ابن كثير قال عن هذه الروايات: منكرة أو غريبة إسنادًا ومتنًا. ونحن لا نستبعد أن تكون البركة وافرة في هذه البيوت المباركة، إلا أننا لا نقبل إلا الخبر الصحيح.



وداع إلى لقاء

مَرَضُ النبي ﷺ:

وما كادت تفيق فاطمة الزهراء من صدمة فقد أختها زينب أم أمامة في العام الثامن للهجرة، ثم أم كلثوم في العام التاسع للهجرة، فتفجع في كل أخواتها حتى تأتي المصيبة التي تهون كل المصائب دونها، لقد مرض الحبيب الأب والنبي والراعي ﷺ واقترب من أجله.

لما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع، وأرسى قواعد الإسلام، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وأكمل الله الدين، حان وقت الرحيل عن الدنيا الفانية، وأخذت طلائع التوديع للحياة تظهر على ملامح الرسول ﷺ وتتضح من خلال عباراته وأفعاله:

فقد اعتكف في رمضان في السنة العاشرة من الهجرة عشرين يومًا، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام. وكان يدارسه جبريل القرآن في اعتكافه كل رمضان وفي هذا العام دارسه جبريل عليه السلام القرآن مرتين. وقال لمعاذ رضي الله عنه: **«يا معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا»**. وقال في خطبة الوداع: **«أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا»**. وشهد الناس له أنه بلّغ وأدى ونصح.

ثلاثة عشر يومًا:

وكان ابتداء مرضه ﷺ بعد حجة الوداع في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة ١١ هجرية -وكان يوم الاثنين -وقد صلى المصطفى ﷺ بالناس وهو مريض أحد عشر يومًا، وجميع أيام المرض كانت ثلاثة عشر يومًا.

وما أن سمعت فاطمة بذلك حتى هرعت لتوها لتطمئن عليه، وهو عند أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-.

عن عائشة قالت: كن أزواج النبي ﷺ عنده، لم يغادر منهن واحدة، فأقبلت فاطمة تمشي ما تخطيء مشيتها من مشية رسول الله ﷺ شيئًا، فلما رآها، رحّب بها، فقال: «مرحبًا بابنتي». ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم سارها فبكت بكاء شديدًا، فلما رأى جزعها سارها الثانية فضحكت، فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ من بين نسائه بالسرار، ثم أنت تبكين، فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: ما قال لك رسول الله ﷺ؟ قالت: ما كنت أفشي على رسول الله ﷺ سره.

قالت: فلما توفي رسول الله ﷺ قلت: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما حدثتني ما قال لك رسول الله ﷺ. فقالت: أما الآن، فنعم؛ أما حين سارني في المرة الأولى، فأخبرني أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة أو مرتين، وإنه عارضه الآن مرتين، وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك. قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي، سارني الثانية، فقال: «يا فاطمة، أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟». قالت: فضحكت ضحكي الذي رأيت.

ورأت فاطمة -رضي الله عنها- ما برسول الله من الكرب الشديد الذي يتغشاه، فقالت: واكرب أبتاه!! فقال ﷺ لها: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم يا فاطمة».

ولما حضرت النبي الوفاة، بكت فاطمة حتى سمع النبي صوتها، فقال ﷺ: «لا تبكي يا بنية، قولي إذا مت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فإن لكل إنسان بها من كل مصيبة معوضة». قالت فاطمة: ومنك يا رسول الله؟ قال: «ومني».

لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه، أرسلت عائشة إلى أبي بكر، وأرسلت حفصة إلى عمر، وأرسلت فاطمة إلى علي، فلم يجتمعوا حتى توفي رسول الله ﷺ وهو في صدر عائشة، وفي يومها يوم الاثنين حين زاغت الشمس لهلال ربيع الأول[١].

ولما مات الرسول ﷺ قالت فاطمة: «يا أبتاه أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه في جنة الفردوس

(١) البداية والنهاية (٥/ ٢٧٦).

مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه».

فلما دفن الرسول ﷺ قالت: «يا أنس، كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟!». وفي رواية: «يا أنس، أطابت أنفسكم أن دفنتم رسول الله ﷺ في التراب ورجعتم؟!». وبكت الزهراء أم أبيها، وبكى المسلمون جميعًا نبيهم ورسولهم محمدًا ﷺ وذكروا قول الله -تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

عن أم سلمة قالت: بينا نحن مجتمعون نبكي لم ننم، ورسول الله ﷺ في بيوتنا، ونحن نتسلى برؤيته على السرير، إذ سمعنا صوت الكرارين في السحر[١]. قالت أم سلمة: فصحنا، وصاح أهل المسجد فارتجت المدينة صيحة واحدة، وأذن بلال بالفجر، فلما ذكر النبي ﷺ بكى وانتحب، فزادنا حزنًا، وعالج الناس الدخول إلى قبره فغلق دونهم، فيالها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلا هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ[٢].

أَفَاطِمُ إِنْ جَزِعْتِ فَذَاكَ عُذْرٌ ... وَإِن لَّمْ تَجْزَعِي ذَاكَ السَّبِيلُ
فَقَبْرُ أَبِيكِ سَيِّدُ كُلِّ قَبْرٍ ... وَفِيهِ سَيِّدُ النَّاسِ الرَّسُولُ

ومما ينسب إليها من الشعر قولها ترثي أباها كما في سيرة اليعمري:

اغْبَرَّ آفَاقُ السَّماءِ وكُوِّرَتْ ... شَمْسُ النَّهارِ وَأَظْلَمَ المصران
فالأرضُ مِن بعدِ النبيِّ كَئِيبَةٌ ... أَسَفًا عَلَيْهِ كَثِيرَةُ الرَّجفانِ
فَلْيَبْكِهِ شَرْقُ الْبِلادِ وَغَرْبُها ... وَلْيَبْكِهِ مضر وكُلُّ يَمانِي
وَلْيَبْكِهِ الطَّوْدُ المعظم جَوُّهُ ... والبيتُ ذو الأستارِ والأركانِ
ياخاتمَ الرسل المباركِ ضوءُهُ ... صلَّى عَلَيْكَ مُنَزِّلُ الفُرقانِ

ميراث النبي ﷺ:

كان سهم النبي ﷺ الذي أصاب مع المسلمين، مما قسم بخيبر وفدك بكمالها، وهي

---

(١) حفاروا القبور.

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٢٣٧).

طائفة كبيرة من أرض خيبر، وأموال بني النضير مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب وتسمي الفيء[١]، فكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خاصة.

وكان يعزل منها نفقة أهله لسنة، ثم يجعل ما بقي مجعل مال الله، يصرفه في الكراع، والسلاح، ومصالح المسلمين؛ فلما مات -صلوات الله وسلامه عليه- اعتقدت فاطمة وأزواج النبي ﷺ -أو أكثرهن -أن هذه الأراضي تكون موروثة عنه، ولم يبلغهم ما ثبت عنه من قوله ﷺ: «نحن -معشر الأنبياء- لا نورث؛ ما تركناه فهو صدقة».

ولما طلبت فاطمة، وأزواج النبي ﷺ، والعباس، نصيبَهم من ذلك، وسألوا الصديق أن يسلمه إليهم، وذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «لا نورث، ما تركنا صدقة».

وقال: أنا أعول من كان يعول رسول الله، والله لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي، وصدق ﷺ وأرضاه، فإنه البار الراشد في ذلك التابع للحق[٢].

ولما كان اليوم الذي توفي فيه رسول الله ﷺ بويع لأبي بكر ﷺ في ذلك اليوم؛ فلما كان من الغد، جاءت فاطمة إلى أبي بكر ﷺ ومعها علي -كرم الله وجهه- فقالت: ميراثي من رسول الله ﷺ أبي.

فقال: أمن الرثة أو من العقد؟

قالت: فدك -قرية كان للنبي ﷺ نصفها -وخيبر وصدقاته بالمدينة أرثها كما يرثك بناتك إذا مت.

فقال أبو بكر ﷺ: أبوك والله خير مني، وأنت والله خير من بناتي، وقد قال رسول الله: «لا نورث، ما تركنا صدقة». (يعني هذه الأموال القائمة) فتعلمين أن أباك أعطاكها؟ فوالله، لئن قلت: نعم، لأقبلن قولك.

قالت: قد أخبرتك ما عندي.

---

(١) من قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلاَ رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦].
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٠٤).

وفي رواية أخرى، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أن فاطمة أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من النبي ﷺ فيما أفاء الله على رسوله ﷺ تطلب صدقة رسول الله التي بالمدينة وفدك وما بقي من خمس خيبر.

فقال أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركناه فهو صدقة. إنما يأكل آل محمد من هذا المال -يعني مال الله- ليس لهم أن يزيدوا على المأكل». وإني والله لا أغير شيئًا من صدقات النبي ﷺ ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله ﷺ، ولست تاركًا شيئًا كان رسول الله يعمل به إلا عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ.

ثم قال: والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرابتي وأوسع منه.

والحكمة من ذلك أن الله - تعالى- صان الأنبياء أن يورثوا دنيا؛ لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوتهم بأنهم طلبوا دنيا وورثوها لورثتهم، والنبي ﷺ لم يترك دينارًا ولا درهمًا، ولا عبدًا، ولا أمة، ولا شاة، ولا بعيرًا، ولا شيئًا يورث عنه، بل أرضًا جعلها كلها صدقة لله -عز وجل.

فإن الدنيا بحذافيرها كانت أحقر عنده كما هي عند الله من أن يسعى لها أو يتركها بعده ميراثًا -صلوات الله وسلامه عليه- وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين، وسلم تسليمًا كثيرًا دائمًا إلى يوم الدين[1].

عن عمرو بن الحارث قال: ما ترك رسول الله ﷺ دينارًا، ولا درهمًا، ولا عبدًا، ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة أن رسول الله ﷺ اشترى طعامًا من يهودي إلى أجل، ورهنه درعًا من حديد.

ثم إن من ورثة النبي ﷺ أزواجه، ومنهم عائشة بنت أبي بكر، وقد حرمت نصيبها

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٢٤٧).

بهذا الحديث النبوي، ولو جرى أبو بكر مع ميله الفطري، لأحب أن ترث ابنته عائشة؛ حيث كان ورثته ﷺ هم فاطمة وأزواجه وعمه العباس رضي الله عنهم

ولقد تعددت الروايات أن رسول الله ﷺ قال: «**لا نورث، وما تركنا صدقة**». وفي رواية يفصل مصير ما تركه يقول ﷺ: «**لا يقتسم ورثتي دينارًا ولا درهمًا، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عامي فهو صدقة**».

هل غضبت فاطمة؟

يقول الله -تعالى: ﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

وخير معبر عن هذه الآية ومفسر لها هو موقف أبي أيوب الأنصاري عندما وصله خبر الإفك الذي رمى به المنافقون صفوان بن المعطل صاحب رسول الله ﷺ وأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- فقال لزوجته: ما رأيك فيما يقال؟ فكذبت ما قيل، فقال لها: أسألك يا أم أيوب؛ هل إذا كنت مكان عائشة تفعلين ما يقولون؟ قالت بسرعة: لا والله. فقال لها: وأنا والله إذا كنت مكان صفوان لا أفعل ما يتهمونه به، ووالله إن صفوان خير مني وعائشة خير منك.

ولنضع أمام أي مؤمن هذه الحادثة كما روتها كتب السنة والسيرة وعلى ضوئها نستعرض موقف أبي بكر من فاطمة -رضي الله عنها.

جاءت فاطمة إلى أبي بكر ودار بينهما الحِوار التالي:

قالت: من يرثك إذا مت؟

قال: ولدي وأهلي.

قالت: فما لنا لا نرث رسول الله ﷺ؟!

ويبدو أن هذا الحِوار سبقه ما روي أنها أرسلت من يطلب منه ميراث النبي ﷺ فلما جاء الرد منه، أرادت أن تستيقن، فرد عليها الصديق رضي الله عنه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن النبيّ لا يورث**». ولكني أعول من كان رسول الله ﷺ يعول، وأنفق على من

كان رسول الله ﷺ ينفق[(١)].

وفي رواية قالت فاطمة: «أنت وما سمعت من رسول الله ﷺ»[(٢)].

يقول ابن كثير: وهذا هو الصواب والمظنون بها واللائق بأمرها وسيادتها وعلمها ودينها -رضي الله عنها.

وإن صحّت روايات ورد فيها أن فاطمة -رضي الله عنها- غضبت بعد ذلك من أبي بكر وهجرته حتى توفيت، وأن عليًّا دفنها لما توفيت ليلًا ولم يؤذن أبا بكر وصلى عليها، وأنه كان لعلي من الناس وجه في حياة فاطمة؛ فلما توفيت تنكر عليٌّ وجوه الناس، فالتمس مصالحة أبي بكر ومبايعته حيث لم يكن بايع تلك الأشهر.

فإن علماء الحديث بينوا صحة هذه الروايات من حيث السند، فاحتاجت بعد ذلك أن تناقش من حيث المتن؛ وذلك حيث نعرض عن كثير من الروايات التي وردت حول هذه القضية والتي وصلت عن طريق أبسط ما يقال فيه أنه واهٍ لا قيمة لرجاله الذين نقلوه لنستمع إليهم في مثل هذه الأمور التي تحدث بين كبار الناس.

ويمكن بيان ما ورد من نتائج هذه الحادثة كالآتي:

١ - غضبت فاطمة.

٢ - غضب علي لغضبها ولم يبايع أبا بكر.

٣- هجرته هو وعلي شهرًا.

٤ - لما ماتت فاطمة، دفنها علي ليلًا، ولم يؤذن أبا بكر.

٥ - كان الناس يقابلون عليًّا مقابلة حسنة طوال حياة فاطمة.

٦ - لما ماتت فاطمة، وجد علي تغير معاملة الناس له.

٧- أسرع يطلب الصلح من أبي بكر، وبايعه بعد ستة أشهر.

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح غريب.

(٢) رواه أبو داود.

أرأيتم تلك التصرفات تصدر من صحابة رسول الله ﷺ؟ الذين مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، بل وأثبت الملك -سبحانه وتعالى- أنه رضي عنهم بقوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ولم يصلنا أن هذه الآية نسخت بعد رسول الله ﷺ الذين حملوا لنا القرآن وسنة النبي ﷺ بلا تشويه ولا تحريف.

رجال كان الواحد منهم لا ينادي رسول الله ﷺ إلا فداك أبي وأمي يا رسول الله ﷺ.

قال شاعرهم:

فإن أبي ووالداه وعرضي لعرض محمد منكم وقاء

رجال كانوا يرون الشوكة يشاكها النبي ﷺ أثقل عليهم من أن يصلبوا على الخشب.

هؤلاء الرجال يتخاصمون ويتعادون بعد يوم من موته على مثل هذا ورغم وجود النص الصريح.

هل يصدق مؤمن هذا؟

نذكر بقوله -تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾

وإن من منهجي أن أعرض الجانب الذي أراه يليق بحال أبسط المؤمنين، فما بالك بأعظمهم، ولكن ما صح من الروايات لا يحق لنا أن نمر عليها أو نكتمها.

غضب فاطمة

أما غضب السيدة فاطمة، فإن ابن كثير يقول: إن فاطمة احتجت أول الأمر بالقياس (أي: قياسًا على أن أبا بكر وأي إنسان يرثه أولاده) وبالعموم في الآية الكريمة: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[النساء: ٧]. ولم تعلم أن هناك ما يخصصها، فأجابها الصديق بالنص على الخصوص بالمنع في حق النبي ﷺ وأنها سلمت له ما قال، وهذا هو المظنون بها -رضي الله عنها.

ويستنكر ابن كثير أن تكون فاطمة قد غضبت بعد أن سمعت ما ورد عن رسول الله ﷺ فيقول:

وأما غضب فاطمة -رضي الله عنها- على أبي بكر ﷺ، فما أدري ما وجهه؛ فإن كان لمنعه إياها ما سألته من الميراث، فقد اعتذر إليها بعذر يجب قبوله، وهو ما رواه عن أبيها رسول الله ﷺ أنه قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة». وهي ممن تنقاد لنص الشارع الذي خفي عليها قبل سؤالها الميراث، كما خفي على أزواج النبي ﷺ حتى أخبرتهن عائشة بذلك ووافقنها عليه.

وليس يظن بفاطمة -رضي الله عنها- أنها اتهمت الصديق ﷺ فيما أخبرها به، حاشاها وحاشاه من ذلك، كيف وقد وافقه على رواية هذا الحديث عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة، وعائشة -رضي الله عنهم أجمعين- ولو تفرد بروايته الصديق ﷺ، لوجب على جميع أهل الأرض قبول روايته، والانقياد له في ذلك[١].

أما عن سبب غضبها (إن كان قد حدث)، فيقول ابن كثير:

وكأنها سألته بعد هذا أن يجعل زوجها ناظرًا على هذه الصدقة، فلم يجبها إلى ذلك، فعتبت عليه بسبب ذلك، وهي امرأة من بنات آدم تأسف كما يأسفن، وليست بواجبة العصمة مع وجود نص رسول الله ﷺ ومخالفة أبي بكر الصديق -رضي الله عنها.

أما مبررات الصديق ﷺ في رفضه أن يكون علي ناظرًا على هذه الأرض يقوم بالعمل فيها بما أمر رسول الله ﷺ، فيبين ابن كثير أن أبا بكر «اعتذر بما حاصله أنه لما كان خليفة رسول الله ﷺ فهو يرى أن فرضًا عليه أن يعمل بما كان يعمله رسول الله ﷺ، ويلي ما كان يليه رسول الله؛ ولهذا قال: وإني والله لا أدع أمرًا كان يصنعه فيه رسول الله ﷺ إلا صنعته»[٢].

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٣٠٨).

(٢)البداية والنهاية (٥/ ٢٤٩- ٢٥٠) وكان هذا منهجه ﷺ في كل أمور خلافته .

وقد ورد أن عليًّا والعباس -رضي الله عنهما- هما أصحاب الاستشارة أن تكون الأرض معهم ينظران فيها بما كان رسول الله ﷺ ينظر فيها، فرفض أبو بكر ومن بعده عمر، ثم وافق عثمان بعد ذلك في خلافته، فكانت لهما (علي والعباس)، فأشار عبد الله بن عباس على أبيه أن يترك أمرها كله لعلي، فبقي علي ناظرًا عليها لم يغير حكم أبي بكر ولم يورثها حتى تولى الخلافة، فلم يعلم عنه أنه ورثها أو بين خطأ من سبقوه وأقر بحكم أبي بكر فيها، وبقيت هذه الأرض في حوزة أبناء علي بعده لم يغيروا حكم علي فيها، فمن أين جاء أن عليًّا غضب من أبي بكر أو أن فاطمة غضبت بمفهوم الغضب؟!

قد تكون عتبت على أبي بكر أنه رفض شفاعتها في أن يعين عليًّا والعباس مشرفين على الأرض، ثم أين فاطمة من هجر أبي بكر؟! ولم أجد في سيرته أي حادثة تجمعها معه قبل وفاة النبي ﷺ فمعنى أن تقول هجرته ولم تكلمه أنها كانت تكلمه أو تجلس معه مثلًا قبل ذلك.

ثم ألم تعلم فاطمة ما ورد عن رسول الله ﷺ: «**لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيركم من بدأ بالسلام**». وأحد رواة هذا الحديث هو زوجها علي رضي الله عنه فكيف تهجر الصديق ستة أشهر.

ثم ما بال إنسان (أي إنسان) مهما بلغت درجة إيمانه يعلم أنه سيموت قريبًا، وأنه سيد أهل الجنة، وأنه سيلحق بالنبي ﷺ أن يفكر مثل هذا التفكير ويغاضب ويخاصم، فما بالكم بفاطمة الزهراء -رضي الله عنها- وسوف نعرض وصيتها بعد قليل لنعلم فيما كانت تفكر فاطمة، ونعلم أن من أشاع هذه الأمور في وادٍ، وهؤلاء الأبرار في وادٍ آخر.

وقبل أن ننهي هذه القصة نبين أن رفيقة فاطمة في آخر أيامها كانت أسماء بنت عميس، والتي أوصت فاطمة أن تغسلها، وكانت أسماء هي زوجة خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

أما إذا قبلنا الروايات الصحيحة على ما هي عليه، وافترضنا أن فاطمة غضبت من أبي بكر، فإن الأمر انتهى قبل موت فاطمة وتصالحا كما وردت بذلك الأحاديث.

يقول ابن كثير:

وقد روينا عن أبي بكر ﷺ أنه تَرَضَّا فاطمة وتلاينها قبل موتها، فرضيت -رضي الله عنها.

عن الشعبي قال: «لما مرضت فاطمة، أتاها أبو بكر الصديق فاستأذن عليها، فقال علي: يا فاطمة، هذا أبو بكر يستأذن عليك؟ فقالت: أتحب أن آذن له؟ قال: نعم! فأذنت له، فدخل عليها يترضاها، فقال: والله، ما تركت الدار والمال، والأهل، والعشيرة إلا ابتغاء مرضاة الله ومرضاة رسوله ومرضاتكم أهل البيت. ثم ترضاها حتى رضيت»(١).

وقد اعترف علماء أهل البيت بصحة ما حكم به أبو بكر في ذلك.

قال زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: «أما أنا، فلو كنت مكان أبي بكر، لحكمت بما حكم به أبو بكر في فدك»(٢).

فهل انتهت هذه القصة؟ وهل يرضى المؤمنون بهذه النتيجة؟! أرجو ذلك.

علي والبيعة:

وقد ادعى البعض على علي بن أبي طالب أنه تخلف عن البيعة لأبي بكر الصديق تضامنًا مع فاطمة زوجته.

فأضيف إلى الكذب كذبة جديدة أن فاطمة قاطعت أبا بكر هذه فرية وأن عليًّا تضامن مع فاطمة فلم يبايع ، هذه الثانية.

وللرد على هذا نطلب من كل رجل يصدق هذه الكذبة أن يسأل نفسه لو كنت مكان علي (على افتراض أن فاطمة فعلًا خاصمت أبا بكر) هل أفعل مثل هذا؟

أستجيب لزوجتي في هذا الأمر العظيم بيعة أمير المسلمين وخليفة الرسول ﷺ

---

(١) رواه البيهقي وقال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي، والظاهر أن عامرًا الشعبي سمعه من علي أو ممن سمعه من علي.

(٢) رواه البيهقي البداية والنهاية (٥/ ٢٥٢- ٢٥٣).

الذي قال: «من بايع أميري، فقد بايعني»؟!.

هذا سؤال ....

ثم إن الروايات تثبت أن أبا بكر عندما صَعَدَ على المنبر سأل عن علي، فذهب ناس من الأنصار فأتوا به[1].

يقول ابن كثير معلقًا على هذه الرواية بعد أن بيّن صحتها:

وفيه فائدة جليلة، وهي مبايعة علي بن أبي طالب، إما في أول يوم، أو في اليوم الثاني من الوفاة، وهذا حق، فإن علي بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه، وخرج معه إلى ذي القصة لما خرج الصديق شاهرًا سيفه يريد قتال أهل الردة.

وإن كان علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ -رضي الله عنهم- قد غضبا فعلًا عند بيعة أبي بكر، فلسبب آخر غير استجابة علي لغضب فاطمة (إن كانت قد غضبت)، وهذا السبب يوضحانه في قولها: «ما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة، وإنا نرى أن أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار، وإنا لنعرف شرفه وخبره، ولقد أمره رسول الله ﷺ أن يصلي بالناس وهو حي»[2].

وقال ابن كثير:

ثم أمر آخر يبدو أنه أثر في القلوب أن ينشغل آل رسول الله ﷺ بتغسيله ودفنه ثم يفاجئوا أن الأمر قد تم وبويع لأبي بكر.

قد يجد القلب من هذا شيء، إلا أنهم بعد أن تبينوا أن الذي تم منع فتنة عظيمة كادت أن تحدث باختلاف المسلمين أنصارًا و مهاجرين حول من يتولى بعد رسول الله ﷺ حكم الدولة التى أسسها؟.

---

(١) البداية والنهاية (٥/ ٢٧٠).

(٢) البداية والنهاية (٥/ ٢١٩).

وكان ﷺ يحكم بصفتيه صفة النبوة وصفة الملك والرئاسة، فلما ذهب ﷺ بقيت صفة الرئاسة، فمن يتولاها؟ وكل من الأنصار والمهاجرين كان حريصًا على حماية هذه الدولة التي ترفع راية التوحيد في الأرض، فاجتمع الأنصار في مكان مظلل في حديقة بني ساعدة يسمى السقيفة، وكادوا يولون واحدًا منهم على أساس أنهم أنصار رسول الله ﷺ وهو نفسه قال: «**لو سلك الأنصار شعبًا، وسلك الناس شعبًا، لسلكت شعب الأنصار. والله، لولا الهجرة، لكنت من الأنصار**».

فخاف عمر أن يجتمع المهاجرون ليختاروا واحدًا منهم مع وجود نص بأن الإمارة في قريش؛ فيستغل المنافقون وأعداء المسلمين المتربصون لهم من الروم والفرس هذا الموقف الممزق لتنهار الدولة المسلمة الوليدة؛ فأسرع عمر إلي أبي بكر وأبي عبيدة أمين الأمة، وقال: «أدركوا الأمة قبل أن تأكلها الفتنة». وانطلقوا إلى سقيفة بني ساعدة، ودار حِوار طويل كان يجب أن يحسم بالاختيار، فلم يجدوا مثل أبي بكر تتفق عليه الأمة كلها فاختاروه؛ ولذلك نجد عمر بن الخطاب وهو يقر مبدأ الشورى في خلافته يقول: «كانت خلافة أبي بكر فلتة وقى الله شرها»؛ أي: كانت ظروف اختياره من الشدة والاقتراب من الفتنة مما جعل اختياره نجاة من هذه الفتنة ووقاية من شرها.

وبايع المسلمون جميعًا، وحَرَص أبو بكر أن يبايع كل أصحاب رسول الله ﷺ، وكان يتفقدهم، فلما لم يجد عليًّا المنشغل في أمر زوجته ابنة رسول الله ﷺ التي لا يدعي أحد أيًّا كان أن مصابه في رسول الله ﷺ مثل مصابها.

سأل عنه، فانطلق الأنصار -والأنصار بالذات- انطلقوا إلى علي يخبرونه بأن أبا بكر يسأل عنه، فإنه يجلس للبيعة العامة، فجاء علي- وفي رواية ضعيفة: «أنه جاء يجر إزاره». وأظن ذلك حرصًا منه على تأكيد موقفه رغم اختلاف وجهة نظره حول أسلوب التولية، وليس حول شخص أبي بكر.

بيت حزين

وتمر الأشهر الستة التي عاشتها فاطمة بعد أبيها ﷺ ويقال: إنها لم تضحك في مدة

بقائها بعده، وأنها كانت تذوب من حزنها وشوقها إليه[١].

وَأْذَنُوا لي أن ندخل أي بيت من بيوتكم مات فيه أبو الزوجة، ولنرى حال هذا البيت، ونرى موقف الزوج الشريف الكريم المحب من زوجته، ومدى حرصه على مواساتها وملازمتها والانشغال بها.

هذه بيوتكم، فما بالكم تبخلون على بيت علي بن أبي طالب البطل الفارس ذي الخلق الراقي - الذي ترك مجرد أن يفكر في الزواج لعلمه أن ذلك يغضب فاطمة- أن ينشغل بحزن ربة البيت ستة أشهر عن الحياة بكل تفاصيلها؛ فيقل وجوده في ديوان الحكم، أو يصلي وينصرف مسرعًا ليلحق بحبيبته مواسيًا.

ورغم ذلك كان الصحابة يراعون ذلك البيت الحزين، وخاصة الصديق الوفي أبو بكر، فتراه يزور بيت علي رضي الله عنه القريب من بيته، فقد كانت الأبواب المفتوحة على المسجد هي أبواب بيوت النبي، وبيت علي وبيت أبي بكر الذي كان إذا رأى الحسن بن علي يلعب بالقرب من بيت فاطمة يحتمله ويضاحكه ويقول: «بأبي شبه النبي ليس شبيهًا بعلي». وعلي يضحك.

علي وأخلاق الفارس:

وتموت فاطمة -رضي الله عنها- بعد ستة أشهر من وفاة النبي ﷺ وما أن يفرغ علي رضي الله عنه من دفنها إلا ويستشعر مسئوليته العظيمة، ويتحرك بروح الفارس منطلقًا إلى أبي بكر رضي الله عنه، ويدور حِوار راقٍ بينهما يبين فيه علي أنه فعلًا غضب أنه ظن أن أبا بكر استبد بالأمر دون بني هاشم، ويعلل ذلك قائلًا: «وكنا نرى لقرابتنا من رسول الله ﷺ أن لنا في هذا الأمر نصيبًا». ويذكر أبا بكر بالنبي ﷺ وقرابة النبي حتى يبكي أبو بكر ويقول له: «والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرابتي. وأما الذي شجر بينكم في هذه الأموال، فإني لم آل فيها عن الخير، ولم أترك أمرًا صنعه رسول الله ﷺ إلا صنعته».

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٣٦).

وهنا تبدو عظمة علي ﷺ وفروسيته وعمق نظرته إلى الأمور، فبعد أن يصلي أبو بكر ﷺ الظهر يستدير للناس ليبين لهم أنه لا شيء بينه وبين علي ﷺ، وأن عليًّا جاءه بعد أن قل انشغاله ببيته ليوضح الأمور معه، فيقوم علي ليذكر حق أبي بكر، ويذكر فضيلته وسابقته، ثم يتقدم إلى أبي بكر ليجدد بيعته له، فأقبل الناس على علي فرحين يقولون له: أحسنت.

يقول ابن كثير:

«فهذه البيعة التي وقعت من علي ﷺ لأبي بكر ﷺ بعد وفاة فاطمة -رضي الله عنها- بيعة مؤكدة للصلح الذي وقع بينهما، وهي ثانية للبيعة التي ذكرناها أولًا يوم السقيفة، ولم يكن علي مجانبًا لأبي بكر هذه الستة الأشهر، بل كان يصلي وراءه، ويحضر عنده للمشورة، وركب معه إلى ذي القصة»[1]. لحرب المرتدين.



(١) البداية والنهاية.



الزهراء... وداعا

الوصية:

ونعود نستروح الذكريات العطرة النقية بعد هذه المزاحمة من المشكلات التي أثارها الرواة، وجعلوا منها قصصًا يتكسبون قلوب العامة بها، نعود إلى الأبرار على حقيقتهم التي نظنهم عليها، ولا نحيد أبدًا عن ظننا الحسن بهم برواية واهية لا قيمة لها، أو حتى صحيحة لم تفهم جيدًا.

أوصت الزهراء -رضي الله عنها- عليَّ بن أبي طالب بثلاث وصايا في حديث دار بينهما قبل وفاتها. قالت الزهراء: يابنَ عم، إنه قد نعيت إلى نفسي، وإنني لا أرى حالي إلا لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة، وأنا أوصيك بأشياء في قلبي. فقال -كرم الله وجهه: أوصيني بما أحببت يا بنت رسول الله ﷺ. فجلس عند رأسها، وأخرج من كان في البيت. فقالت -رضي الله عنها: يابنَ العم، ما عهدتني كاذبة ولا خائنة، ولا خالفتك منذ عاشرتني. فقال ﷺ: معاذ الله! أنت أعلم بالله -تعالى، وأبر وأتقى وأكرم وأشد خوفًا من الله -تعالى- وقد عز علي مفارقتك وفقدك إلا أنه أمر لا بُدَّ منه. والله، لقد جددت علي مصيبة رسول الله ﷺ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد أوصت الزهراء -رضي الله عنها- عليًّا -كرم الله وجهه- بثلاث:

أولاً- أن يتزوج بأمامة بنت العاص بن الربيع، بنت أختها زينب -رضي الله عنها. وفي اختيارها لأمامة -رضي الله عنها- قالت: إنها تكون لولدي مثلي في حنوتي ورءومتي. وأمامة هي التي روي أن النبي ﷺ كان يحملها في الصلاة[1].

ثانيًا- أن يتخذ لها نعشًا وصفته له، وكانت التي أشارت عليها بهذا النعش أسماء

(١) البداية والنهاية (٧/ ٣٦٨).

بنت عميس -رضي الله عنها- وذلك لشدة حيائها -رضي الله عنها- فقد استقبحت أن تحمل على الآلة الخشبية ويطرح عليها الثوب فيصفها، ووصفه: أن يأتي بسرير، ثم بجرائد تشد على قوائمه، ثم يغطى بثوب.

ثالثًا- أن تدفن ليلًا بالبقيع[(١)].

وماتت فاطمة

مرت الأشهر الستة بعد وفاة النبي ﷺ ولم يتوف أحد من آل رسول الله ﷺ وأيقنت فاطمة -رضي الله عنها- بقرب أجلها، ولنا أن نستوعب حالها -رضي الله عنها- في هذه الأشهر الستة وهي مدركة تمام الإدراك بقرب لقاء ربها، ورقدت -رضي الله عنها- في مرض خفيف، وكانت سلمى خادمة رسول الله ﷺ تمرضها.

لم يطل مرض الزهراء -رضي الله عنها- الذي توفيت فيه، ولم يطل مقامها في الدنيا كثيرًا بعد وفاة أبيها -عليه الصلاة والسلام- فتوفيت -رضي الله عنها- وجددت وفاتها حزن المسلمين على رسول الله ﷺ فانطلقت المدينة كلها في جنح الليل تدفنها في البقيع كوصيتها.

وكان بيت أبي بكر حاضرًا بكل من فيه جنازتها، هذه زوجته أسماء بنت عميس تقف على غسل الجسد الطاهر مع زوجها علي بن أبي طالب حسب وصيتها، وكذلك سلمى أم رافع مولاة رسول الله ﷺ التي كانت من عبيد صفية بنت عبد المطلب عمته، ثم أصبحت له فأعتقها ضمن من أعتق، وصلى عليها علي زوجها وقيل: العباس عمها. وقيل: أبو بكر الصديق ﷺ خليفة رسول الله ﷺ[(٢)].

وتوفيت رضي الله عنها في رمضان عام ١١ هجريًا على أرجح الأقوال، وكان عمرها رضي الله عنها تسعة وعشرين عامًا.

وتوفيت بعدها أم أيمن بركة بنت ثعلبة حاضنة رسول الله ﷺ الذي كان يعتبرها أمه

---

(١) فهي التي أوصت بدفنها ليلا لشدة حيائها لا أن علي دفنها ليلا حتى لا يحضر أبو بكر دفنها! كما ردد الصغار.

(٢) أما حكاية أنها اغتسلت بنفسها في مرضها، وأمرت ألا يغسلها أحد، فهو ضعيف، ويتعارض مع صحيح أنها أوصت أن يغسلها علي وأسماء، وقال ابن كثير عنه: هو غريب جدًا، البداية والنهاية (٥/ ٢٨٣)،(٦/ ٣٦٧).

بعد أمه، وكانت الوحيدة التي يناديها يا أمه، وأعتقها وتزوجها زيد بن حارثة، وأنجبت أسامة بن زيد الحب بن الحب، وكان يقول عنها عندما يزورها في بيتها: **«هي أمي بعد أمي»**[١]. ثم ماتت أم المؤمنين زينب بنت جحش التي قال فيها رسول الله ﷺ أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدا.. كناية عن كثرة الصدقة.

وهكذا بدأ أهل رسول الله ﷺ في اللحاق به بعد وفاة فاطمة التي أخبرها أنها أول أهل بيته لحاقًا به.

خير نساء العالمين:

ورد عن رسول الله ﷺ في أكثر من رواية ذكر فاطمة في حديث الكاملات الأربعة، أو خير نساء العالمين، أو أفضل نساء أهل الجنة مع الثلاثة الكاملات: مريم، وخديجة، وآسية زوجة فرعون.

ولقد تتبع العلماء ترتيب النساء الأربعة في الروايات المختلفة ليحددوا أيتهن الأولى، فكانت النتيجة ما ذكره ابن كثير[٢]:

أن الأحاديث تدل على أن مريم وفاطمة أفضل الأربعة. وقد ورد عن عائشة أنها قالت لفاطمة: أرأيت حين أكببت على رسول الله ﷺ فبكيت، ثم ضحكت؟

قالت: أخبرني أنه ميت من وجعه هذا فبكيت، ثم أكببت عليه فأخبرني أني أسرع أهله لحوقًا به، وأني سيدة نساء أهل الجنة، إلا مريم بنت عمران، فضحكت.

وفي حديث أبي سعيد الخدري قال ﷺ: **«فاطمة سيدة نساء أهل الجنة، إلا ما كان من مريم بنت عمران»**[٣].

وهذا الحديث يشير إلى تقارب منزلتي فاطمة ومريم، وأنهما يستبقان إلى المركز الأول.

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٦٨).

(٢) البداية والنهاية (٢/ ٧٢).

(٣) رواه الترمذي وصححه.

ولقد ورد حديث يحسم الأمر ويبين الترتيب؛ وهو قوله ﷺ: «**سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران، ثم فاطمة، ثم خديجة، ثم آسية**».

يقول ابن كثير: «فإن كان هذا اللفظ محفوظًا بـ«ثم» التي للترتيب، فقد تبين تقدم مريم الذي دلّ عليه الاستثناء في الحديث الآخر»[١].

ولقد بين العلماء أفضلية هؤلاء الأربعة، فكل منهن كفلت نبيًّا:

أما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإنها حظيت بمزيد فضيلة على أخواتها (زينب، ورقية، وأم كلثوم)؛ لأنها أصيبت بموت رسول الله ﷺ، فكان فقد رسول الله ﷺ في صحيفتها وبقية أخواتها متن في حياته ﷺ فكن في صحيفته ﷺ.

وقد ورد عنه ﷺ أنه قال لها وهو يناجيها قبل موته: «**أحسب أني ميت في عامي هذا، وإنه لم ترزأ امرأة من نساء العالمين مثل ما رزئت، فلا تكوني دون امرأة منهن صبرًا**»[٢].

فاطمة وعلم النبوة:

روى عنها ابناها (الحسن والحسين)، وأبوهما (علي) وعائشة وأم سلمة، وسلمى أم رافع، وأنس.

ذكروا أن جميع ما روته لا يبلغ عشرة أحاديث، فمن ذلك: (حديث المسارة)[٣]، وحديث القول عند دخول المسجد[٤].

وحديث: «**ألا يلومن امرؤ إلا نفسه، يبيت وفي يده رمح مخمر**»[٥].

وحديث: «**ترك الوضوء مما مسته النار**»[٦].

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ٧٣).
(٢) أورده الطبراني في التفسير عن فاطمة بنت الحسين بن علي، فتح الباري (٧/ ١٣٢).
(٣) المقصود حديث مسارة النبي لها في مرض موته أنها أول أهله لحوقًا به.
(٤) رواه الترمذي وابن ماجه من رواية فاطمة الصغرى عنها مرسلاً.
(٥) أخرجه ابن ماجه من رواية ابنها الحسين عنها.
(٦) أخرجه أحمد من رواية الحسن بن الحسن عنها مرسلاً.

وحديث: «ساعة الإجابة في يوم الجمعة، وأنها إذا تدلت الشمس للغروب»[١].

وأخرج الطبراني عن فاطمة بنت رسول الله أنها أتت بالحسن والحسين إليه في شكواه الذي توفي فيه، فقالت: يا رسول الله، هذان ابناك فورثهما شيئًا. قال: «أما الحسن، فله هيبتي وسؤددي. وأما الحسين، فله جودي وجراءتي؛ فإن ابتليتم، فاصبروا؛ فإن العاقبة للمتقين».



(١) أخرجه البيهقي في الشعب، وأخرج أحمد عن محمد بن علي.

5

عائشة بنت أبي بكر

الحبيبة وحياة عامرة



بيت النبوة

تختلف بيوت الأنبياء عن غيرها من بيوت الزعماء أو حتى بيوت عامة البشر في أن الثانية تحافظ وبشده تصل إلى القسوة على السرية داخلها بحيث لا تسمح أن تخرج من ذاكرتها أي معلومة تخص ما يحدث في داخلها...

أما بيوت الأنبياء فهي عكس ذلك فهي تقريبًا مفتوحة معروض ما فيها على الناس بل يصل ذلك إلى التعمد إلى تسهيل الاطلاع على كثير من الأمور حتى أن الأمر الذي قد يري النبي ببشريته أنه يستحق الإخفاء يسارع الوحي إلى إظهاره ... ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

والحكمة من ذلك لا تخفى على ذي عقل فإن الأنبياء ما أرسلوا إلا قدوة للناس وأسوة حسنة ليتعلم الناس منها إدارة حياتهم وضبط علاقاتهم وتسيير أمورهم.

ولذلك نجد أن زوجات الأنبياء ذو مكانة خاصة تختلف عن أي زوجات لأي بشر ونجد الوحي يلاحقهن بالتوجيه المستمر والتذكير بأنهن غير الناس لتلك المكانة التي هن فيها: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ۞ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

بل يرفع أمامهن لهجة التحذير - بل والتهديد- أن يقعن فيما يقع فيه الناس من المعاصي واللمم ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠].

ولذلك نجد الحملة القرآنية تشنع على من سقطن من زوجات الأنبياء في الماضي

﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

يقول ابن كثير: (فخانتاهما) أي في الإيمان، ولم يوافقاهما على الإيمان ولا صدقاهما في الرسالة(١). ذلك رغم أنهما كانا يعيشان تحت سقف واحد وقد اختلطوا بالأزواج الأنبياء الاختلاط الذي يجعلهم يعاينون صدقهم.

يقول ابن كثير (وليس المراد بقوله (فخانتاهما) في فاحشة بل في الدين فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء) (٢).

وأورد ابن كثير بسنده عن ابن عباس في تفسير هذه الكلمة (فخانتاهما) قال: ما زنتا، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه.

وفي رواية أن امرأة نوح كانت تدل الجبابرة على المؤمنين مع نوح.

وفي رواية عنه أنه قال: «ما بغت امرأة نبي قط إنما كانت خيانتهما في الدين»(٣).

ولذلك فنحن لا نعتمد إلا الميزان القرآني للحكم على نساء الأنبياء فمهما كان رأي أحد أيا كان في تصرف من تصرفات نساء النبي ﷺ فلا يعتبر إلا إذا وافق رأي القرآن فيهن.... بل إننا نحكم على الناس إيمانا ونفاقا ومعصية بل وكفرا إذا خالفوا رأي القرآن في نساء الأنبياء.

عائشة : (زوجة الحبيب ﷺ).

رفيقه الجهاد...

النسمة الرطبة الندية في حياة النبي العظيم محمد ﷺ.

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٩٠.
(٢) المرجع السابق.
(٣) المرجع السابق.

أمي الحبيبة...

الصديقة بنت الصديق، تلك التي ملأت حياة المؤمنين حركة وفاعلية في حياة النبي ﷺ فتنزل القرآن يقص مرة ويحكم مرة ويضع الفقه مرة و....

تلك التي امتلأت ثقة بنفسها بثقة القرآن بها وتصديقها في أكثر من موقف...بل وإنزال براءتها حين تطاول النفاق القذر على سمعتها الطاهرة.

ثم بعد وفاة حبيبها وانقطاع الوحي نجدها المرأة المتحركة الفاعلة تبين الأحكام وتخرج من كنوز البيت النبوي ما يثري حياة الأمة بل وتعارض كبار الصحابة في أحكام سمعت فيها رأيًا آخر من فم النبي ﷺ، سمعته بأذنها أو رأت فعله بعينها.

قوية في الحق....مبادرة إلى الخير، تشارك الأمة أحوالها...تدرك تمام الإدراك أن لها دورًا مختلفًا...

نعم مختلف..

لقد كانت آخر همسات النبي ﷺ على صدرها...فانطلقت تعلن للناس ما حملت...

كانت مع أبيها..الخليفة الأول عندما أعلنها: (أنا لها) لما تطاول البعض على بعض أحكام الإسلام وارتدت الأعراب حول المدينة ومكة.

وكانت مع الفاروق عمر الفاتح تثبت دعائم الدولة العظيمة بعلم البيت النبوي.

وكانت مع ذى النورين عثمان حتى كادت أن تفديه بنفسها.

وكانت مع الإمام علي مبايعة حتى خرجت إليه تصلح بينه وبين معاوية حيث لم ترتضى ألا يكون دور المرأة فاعلاً عندما ترى أن لها دورها المهم.

ثم عادت إلى حجابها بعد أن رأت أن الأمة كادت أن تفقد رشدها.

هذه أمنا عائشة

إذا أرادت النساء أن يتعلمن العظمة فتلك دروسها، وإن أردن أن تكون لهن قضية

فذلك نموذجها الفريد، وإذا أردن أن يعرفن أدوارهن فقد تجمعت معظم خيوطها في يديها،

هذه عائشة في سطور فإذا أردنا أن نتوسع فماذا ستقول الصفحات؟ أظنها ستقول الكثير.... ونبدأ بتلك المداعبة اللطيفة من الحبيب ﷺ عندما قال: **«عائشة بين النساء كالثريد بين الطعام»** فالثريد سيد الطعام وعائشة سيدة النساء... بل أفضل النساء

إيه يا أمي

فلتتعلم النساء



بيت في القمة

أشرقت الشمس كعادتها بعد عام الفيل على مكة شاهدة على نصرة الملك - سبحانه وتعالى- لبيته وشهادة أيضًا على تلك الجاهلية العجيبة التي كان يعيشها أهل مكة بل والقبائل والبلاد والحضارات حولها.. والتي تبدو أول ملامحها في تلك الأحجار المنصوبة حول البيت وداخله والتي يعبدها الإنسان من دون ربه الذي (أكرمه ونعمه)..

ولكن قريشا تلك القبيلة العظيمة والتي كانت لها السيادة في مكة كانت تحتفل بمواليدها من كل بطن فيها. وها هي آمنة بنت وهب تنجب لعظيم مكة عبد المطلب ولدًا من ابنه عبد الله الذي مات وهو في بطن أمه في نفس عام الفيل فتعيد البسمة إلى شفتي هذا العجوز بمحمد الذي أصبح له شأن وأي شأن.

وكذلك هذه سلمي بنت صخر (أم الخير) تنجب لعثمان بن عامر (أبو قحافة) ولدًا بعد ثلاث سنوات تقريبًا من عام الفيل.. وهما من بني تيم أحد فروع قريش.. فيسميه أبوه (عبد الله) ويكنى بأبي بكر.. (والبكر هو الفتي من الإبل) [١].

الصديقان

وتشهد مرابع الصبا حول البيت لقاء وتعارفا بين الغلامين وتتوطد بينهما صداقة يشهد الزمان بعدها أنه لم تكن صداقة مثلها... ومحمد هو من نعلم ابن أشراف قريش من بني هاشم بن عبد مناف..

أما أبو بكر فهو ابن عثمان بن عامر من بني تيم..ويلتقي مع صديقه محمد بن عبد الله في الجد السادس (مرة بن كعب).

(١) ولد أبو بكر بعد ميلاد النبي ﷺ بسنتين وأشهر ومات بعد النبي ﷺ بسنتين وأشهر وعمره نفس عمر النبي ﷺ عند وفاته ثلاث وستون عامًا [تاريخ الخلفاء ص ٣٣].

وينمو الصديقان.. وتنمو معهما الصداقة... ويبدآن النظر في حال قومهما... ويأخذ محمد ﷺ لنفسه طريقًا من اجتناب معتقدات قومه بل وعاداتهم المنافية للفطرة وكذلك صديقه أبو بكر...ونتيجة هذا الاتفاق الفكري عاش الصديقان متصافيين متصاحبين.

أخرج أبو نعيم في الحلية بسند جيد عن عائشة- رضي الله عنها- قالت: (لقد حرم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية) [١].

وتعود عائشة لتؤكد هذه الصفة فتقول: (ما شرب أبو بكر الصديق خمرًا في الجاهلية ولا في الإسلام) [٢].

بل وسئل أبو بكر عن الخمر: هل شربت خمرًا في الجاهلية؟ قال أعوذ بالله فقيل له: ولم؟ قال: كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي فإن من شرب الخمر كان مضيعًا في عرضه ومروءته فبلغ هذا الحوار رسول الله ﷺ فقال: «**صدق أبو بكر**» مرتين[٣].

وهكذا تلازم الصديقان محمد الذي يربى على عين الله ليعده للمهمة الكبرى ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾، وأبو بكر الذي يتفاعل بأخلاقه ويتربى بتربيته ويقتدي بسلوكه ويهتدي بهديه.. فلا يحتاج لتردد في تصديقه عندما جاءه بخبر الوحي من السماء

وأحب أن أعرض هنا لموقفين لكل من الصاحبين محمد ﷺ وأبي بكر ﷺ يستحقان التأمل:

الموقف الأول: هو أحد المواقف المشهورة في حياة النبي ﷺ عندما عاد من غار حراء فزعًا يرتجف بعد أن جاءه جبريل وأخبره أنه رسول من الله وقرأ عليه أول آيات القرآن... يقول لزوجته خديجة القلقة عليه زملوني زملوني... وبعد أن هدأ ﷺ قال لزوجته: **لقد خفت على نفسي يا خديجة**. فإذا بالزوجة العليمة بزوجها التي عاشت معه خمسة عشر عامًا تقول له: (**والله لن يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب**

(١) الروض الأنف للسهيلي أ ١/ ح ١/ ٢٨٨.
(٢) كنز العمال ١٢/ ٤٨٨.
(٣) المصدر السابق.

المعدوم وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

الموقف الثاني: تحكيه عائشة -رضي الله عنها- تقول (لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة وعشية، فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر ﷺ مهاجرًا نحو أرض الحبشة حتى بلغ برك الغماد.. فلقيه ابن الدغنه[1] وهو سيد القارة. فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض وأعبد ربي، قال ابن الدغنه: فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الحق.. فأنا لك جار، ارجع واعبد ربك ببلدك) [2].

ألا يستحق هذين النصين طويل تفكر وطول نظر، ألم يستوقف أحد تلك المطابقة بين آراء من عاشر محمدًا ﷺ ومن تعامل مع أبي بكر ﷺ.

(حين نقارن بين هذين النصين، ندرك مدى التطابق الخلقي بين رسول الله ﷺ وبين أبي بكر الصديق، وهذا يعني أن الصديق كان يحرص على أن يتمثل أخلاق النبي ﷺ كاملة في الجاهلية قبل الإسلام) [3].

إلى جانب هذا المعنى نلمح مكانة أبي بكر الصديق في قومه والتي قاربت مكانة النبي محمد ﷺ الذي كان يلقب بالصادق الأمين، وقد ورد أن قريشًا كانت تضع أماناتها عنده حتى بعد إعلان نبوته وعدائها له فقد ورد أنه أبقى عليًا عندما هاجر ليرد أمانات قريش إلى أصحابها.

وكذلك أبو بكر فقد قال معروف بن خربون: إن أبا بكر كان واحدًا من عشر رجال من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والإسلام فكان إليه أمر الديات والغرم.[4]

---

(١) الدغنه أمه واسمه ربيعة بن رفيع.

(٢) رواه البخاري ، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة.

(٣) المنهج التربوي- التربية القيادية ج ١ ص٤٩.

(٤) تاريخ الخلفاء- السيوطي ص ٣٣.

التجـــارة

ويكبر الشابان ويتجه أبو بكر للتجارة ليزيد ماله ويصبح من أثرياء تجار مكة... وكذلك محمد تستأمنه سيدة نساء قريش على مالها بل ونفسها بعد ذلك فيتزوجها وتبدأ خيوط أروع قصة زواج يتبادل فيها الزوجان الحب والرعاية والود والسكن، واستمر أبو بكر صديقًا لمحمد ﷺ واستمر أيضًا يبني مكانته في مكة حتى أصبح له يد على رجالاتها... فقد تميز بالشجاعة والعطاء والإحسان والجود حتى شهد له الله –تعالى– أن من أسباب تجنبه للنار هذا السخاء حيث قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ۞ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ۞ وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ۞ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى ۞ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٧، ٢١][(١)].

ولقد كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولذلك نجد عروة بن مسعود سيد ثقيف يوم صلح الحديبية يقول: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك. وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة.

وفي البخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «**من أنفق من شيء من الأشياء وصي في سبيل الله دعته خزنة الجنة يا عبد الله هذا خير**» فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان. فقال أبو بكر: ما على من يدعى من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد؟ قال: نعم وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر».

وتزوج أبوبكر:

قتيلة بنت عبد العزي القرشية.. وأنجب منها أسماء (ذات النطاقين) وعبد الله، ولكن لم تستمر الحياة الزوجية طويلاً فطلقها أبو بكر[(٢)] ..

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير لسورة الليل ج ص ٧ ص ٣١٠ وإجماع المفسرين أنها نزلت في أبي بكر.

(٢) تأخر إسلام (قتيله أم أسماء) وقد ورد في تفسير قوله –تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]. أنها نزلت في أسماء وأمها قتيلة التي جاءت كافرة تزورها في المدينة ومعها هدايا فيها أقط (جبن) وسمن فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها حتى تستأذن رسول الله ﷺ وأرسلت إلى عائشة أختها تسأل النبي ﷺ فقال ﷺ: لتدخلها، ولتقبل هديتها، وأنزل الله الآية.

ثم تزوج أم رومان وهي زينب بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عقاب وينتهي نسبها إلى كنانة، ولقبها أم رومان، كانت تعيش في منطقة تسمى السراة، وهي منطقة كثيرة الجبال والهضاب في الجزيرة العربية وبمجرد بلوغها تزوجت من (الحارث بن سخبرة بن جرثومة الخير) وهو أحد شباب حيها وأنجبت له ولدًا أسمياه (الطفيل).

وعندما اشتدت الحياة بها وبزوجها بين الجبال رحلا إلى مكة ليقيا فيها.. وكعادة العرب نزل الزوجان في جوار[1] أبي بكر.. ولم يلبث الحارث زوج أم رومان أن يموت بعد عام من نزولهما مكة.. وتصبح المرأة الغريبة وطفلها بلا رجل يحميها ويرعاها فيسارع أبو بكر بالزواج منها ليرعاها هي وابنها الطفيل.

وتنجب أم رومان لأبي بكر عائشة وعبد الرحمن ويضم بيت أبي بكر هذه الزوجة الراعية الحانية وخمسة أولاد من آباء وأمهات مختلفين؛ أسماء وعبد الله من قتيلة، وعائشة وعبد الرحمن من أم رومان بجانب ابنها من الحارث الطفيل.. وكان الفرق بين أسماء وعائشة عشر سنوات.

صاحب النبي ﷺ

ويصل محمد ﷺ إلى قريب من سن الأربعين ويحب الخلوة والعزلة.. و ينتقي جبل حراء ليأوي إلى غار فيه يستقبل الكعبة بوجهه ويقلب وجهه بينها وبين السماء يعبد إلها استشعر وجوده في فطرته ونزهه عن كل ما تعبد قريش ومن حولها...

وهناك تلتقي السماء بالأرض ويحنو الملك -سبحانه- على خلقه لينزل عليهم كتابه الخاتم ويصطفي محمدًا ﷺ نبيا...

وكان أبو بكر مثل صديقه محمد ﷺ ضمن تلك الفئه القليلة في مكة التي رفضت ما هي عليه من دين وبدأت تبحث عن الدين الحق.. وكان يقتفي خطى صديقه ولكنه اتخذ اتجاهًا آخر وهو الإنصات والحوار والبحث..

(١) الجوار: من عادات العرب حيث ينزل القريب على رجل من أهل الحي، ويتمتع بحمايته كواحد من أهله.

يقول أبو بكر: كنت جالسًا بفناء الكعبة وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعدا؛ فمر ابن أبي الصلت، فقال كيف أصبحت يا باغي الخير؟ قال بخير قال: وهل وجدت؟ قال: لا فقال له:

كل دين يوم القيامة إلا ... ما مضى في الحنيفية بور

أما إن هذا النبي الذي ينتظر منا أو منكم، قال أبو بكر: ولم أكن سمعت قبل ذلك بنبي ينتظر ويبعث، قال فخرجت أريد ورقة بن نوفل - وكان كثير النظر إلى السماء كثير همهمة الصدر- فاستوقفته، ثم قصصت عليه الحديث، فقال: نعم يا ابن أخي، إنا أهل الكتب والعلوم، ألا إن هذا النبي الذي ينتظر من أوسط العرب نسبًا- ولي علم بالنسب- وقومك أوسط العرب نسبًا، قلت: يا عم وما يقول النبي؟ قال: يقول ما قيل له إلا أنه لا يظلم، ولا يظلم ولا يظالم، فلما بُعث رسول الله ﷺ آمنت به وصدقته(١).

الرجل الأول:

أسلم بيت النبي ﷺ من أول لحظة.. خديجة وعلى وزيد(٢) وبناته.

والآن.. من أول من يعرض عليه الدعوة بعد بيته؟ إنه صاحبه أبو بكر، لقد بث إليه الأمر كما بثه لخديجة وانطلق معه إلى ورقة بن نوفل كما انطلقت خديجة(٣).

لقد عايش أبو بكر هذه الفترة ببصيرة نافذة، وعقل نير، وفكر متألق، وذهن وقاد، وذكاء حاد، وتأمل رزين ملأ عليه أقطار نفسه، ولذلك حفظ الكثير من هذه الأشعار ومن تلك الأخبار(٤): فعندما سأل الرسول الكريم ﷺ أصحابه يومًا- وفيهم أبو بكر الصديق- قائلا: «**من منكم يحفظ كلام قس بن ساعدة في سوق عكاظ؟**» فسكت الصحابة، ونطق الصديق قائلا: إني أحفظها يا رسول الله، كنت حاضرًا يومها في سوق

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٥٢.

(٢) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري ص ٢٢.

(٣) كان زيد مولي رسول الله ﷺ فأعتقه وتبناه وكان يسمى زيد بن محمد، ويعيش في بيته كأهل بيته وكان على بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ اختاره الرسول من أولاد عمه ليكفله تخفيفًا على عمه أبي طالب وردًا لجميله عليه في اعتنائه به في صغره وكان أيضًا يعيش في بيت رسول الله ﷺ كأهل بيته.

(٤) أبو بكر الصديق ﷺ شخصيته وعصره، الصلابي ص ٢٧.

عكاظ، ومن فوق جمله الأورق وقف قس يقول: أيها الناس، اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا، إن من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا. مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور، ليل داج، وسماء ذات أبراج!!

ويقسم قس: إن لله دينا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه. ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا فناموا، ثم أنشد قائلا:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردًا ... للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومي نحوها ... يسعى الأكابر والأصاغر
أيقنت أني لا محا ... لة حيث صار القوم صائر[1]

وبهذا الترتيب الممتاز، وبهذه الذاكرة الحديدية، وهي ذاكرة استوعبت هذه المعاني، يقص الصديق ما قاله قس بن ساعدة على رسول الله وأصحابه[2].

إسلام أبي بكر

وكان أبو بكر يحدث أن رسول الله ﷺ عرض عليه الإسلام فما زاد على أن قال: «أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله»، فقلت: قد أجبتك إلى ما دعوت إليه، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

وتبين تفاصيل هذا العرض قرب البيت النبوي الشديد من أبي بكر الصاحب الأمين.

عن شرحبيل بن سعد قال: قال أبو بكر: بينا أنا في منزلي. وأنا أريد الطائف وحكيم ابن حزام، إذ دخل عليَّ الحارث بن صخر[3] فتحدث، ودخل حكيم بن حزام فقال له

(١) مواقف الصديق مع النبي بمكة،ص ٨.

(٢) مواقف الصديق مع النبي بمكة ص٩.

(٣) الحارث بن صخر. هو الحارث بن خالد بن صخر التيمي ابن خال أبي بكر الصديق، وكان قديم الإسلام بمكة وهاجر إلى الحبشة.

الحارث: يا أبا خالد،زعم نساؤنا أن عمتك خديجة تزعم أن زوجها رسول الله، فأنكر ذلك حكيم.

ودعوت لهما بطعام من سفرة أمرت باتخاذها لسفرنا، فأكلا وانصرف الحارث، فقلت لحكيم: والله ما رأيت في وجهك إنكار ما قال لك في عمتك. فقال حكيم: والله لقد أنكرنا حالها وحال زوجها، ولقد أخبرتني صاحبتي أنها تسب الأوثان، وما ترى زوجها يقرب الأوثان.

قال أبو بكر: فلما أبردت خرجت أريد النبي ﷺ، فابتدأت فذكرت موضعه من قومه وما نشأ عليه وقلت: هذا أمر عظيم لا يقارّك قومك عليه.قال: «يا أبا بكر، ألا أذكر شيئًا إن رضيته قلته، وإن كرهته كتمته؟ قلت: هذا أدنى ما لك عندي، فقرأ عليَّ قرآنا ببدء أمره، فقلت: أشهد أنك صادق وأن ما دعوت إليه حق، وأن هذا كلام الله، وسمعتني خديجة فخرجت وعليها خمار أحمر، فقالت: الحمد لله الذي هداك يا بن أبي قحافة، فما رمت مكاني حتى أمسيت».

فخرجت فإذا مجلس من بني أسد بن عبد العزى فيهم الأسود بن عبد المطلب وأبو البختري. فقالو: من أين أقبلت؟ قلت: من عند ختنكم وابن عمكم محمد بن عبد الله، ذكرت لي عنده سلعة يبيعها بنسيئة، فجئت إليه لأسومه بها فإذا سلعة ما رأيت مثلها. قالوا: إنك لتاجر بصير، وما كنا نعلم محمدًا يبيع السلع، ولا أنت ممن يبتاع السلع بنسيئة.

وأتاني حكيم يقود بعيره، فقال: اركب بنا. قلت: قد بدا لي أن أقيم، إني وقعت بعدك على بضاعة بنسيئة ما عالجت قط أبين ربحا منها، قال: وعند من هي؟فما أعلمها اليوم بمكة. قلت: بلى وأنت دللتني عليها، فإن سميتها لك، فالله لي عليك أن تكتمها ولا تذكرها لأحد؟قال: نعم لك الله على ألا أذكرها لأحد. قلت: فإنها عند ختنك محمد بن عبد الله. قال: وما هي؟ قلت: لا إله إلا الله. فوجم ساعة. فقلت: مالك يا أبا خالد،أتتهمني على عقلي وديني؟! قال: لا، وما أحب لك ما فعلت[1].

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري وفي كتاب (الشيخان) برواية البلاذري تحقيق د. إحسان صدقي العمدة /٢٢.

الصديق

يقول رسول الله ﷺ: «**ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر ما تم حين ذكرته له وما تردد فيه**».

وأصبح لقب الصديق علمًا على أبي بكر لم ينازعه فيه أحد..

ولقد لقبه النبي ﷺ بهذا اللقب في أكثر من موضع منها: عندما رجف أُحدٌ وكان عليه أبو بكر وعمر وعثمان مع النبي ﷺ فقال: «**اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان**».

بل وسماه الله صديقًا: عن حكيم بن سعد قال: سمعت عليا يحلف : لله أنزل اسم أبي بكر من السماء: الصديق[1].

ومقام الصديقية هو أعلى المقامات في الوجود بعد مقام الأنبياء ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

وقد حاز هذا اللقب من الأنبياء إدريس عليه السلام عندما قال الله فيه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦].

وإبراهيم عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٤١].

ويوسف عليه السلام: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦].

ومن النساء الطاهرة المطهرة مريم ابنة عمران ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وهكذا التصق اسم الصديق بأبي بكر وأضيف إلى اسمه السابق الصاحب الذي كان قديمًا أقدم من الدعوة والذي أثبته الله له عندما قال: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ

(١) السيرة النبوية لابن إسحق ص ١٣٩.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾[التوبة: ٤٠].

والمسلمون جميعًا يعرفون هذا لأبي بكر ﷺ:

قال حسان بن ثابت:

إذا تذكرت شجوًا من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

القائم الثاني المحمود مشهده ... وأول الناس منهم صدق الرسلا

خير البرية أتقاها وأعدلها ... إلا النبي وأوفاها بما حملا

بـرًا حميدًا لأمر الله متبعًا ... يهدي بصاحبه الماضي وما انتقلا

وأنشد حسان النبي ﷺ:

وثاني اثنين في الغار المنيف وقد

طاف العدو به إذ صعدوا الجبلا

وكان حب رسول الله قد علموا

من البرية لم يعدل به بدلا

فقال رسول الله ﷺ: «صدق»[1].

دعوا لي صاحبي

كان ﷺ لا يرضى أن يغضب أحد أبا بكر ويقول (صاحبي) فعن أبي الدرداء ﷺ قال: كنت جالسًا عند النبي ﷺ إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته فقال النبي ﷺ: **«أما صاحبكم فقد غامر»**. فسلم وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء فأسرعت إليه ثم ندمت فسألته أن يغفر لي فأبى على فأقبلت إليك. فقال: **«يغفر الله لك يا أبا بكر»** ثلاثًا. ثم إن عمر ندم فأتى منزل أبي بكر فسأل: أثم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبي ﷺ، فسلم، فجعل وجه النبي يتمعر حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنت أظلم مرتين، فقال النبي ﷺ: **«إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت**

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري.

وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركون لي صاحبي مرتين. فما أوذي بعدها».

وأسلم بيت الصديق

ولم تمر أيام حتى أسلم بيت الصديق كله، وأصبح أول بيت مسلم بعد بيت النبي ﷺ[(١)].

وفي هذا البيت ولدت عائشة -رضي الله عنها- وفي هذا البيت تربت وفي هذا البيت وأشرب قلبها حب الله وحب الإسلام وحب رسول الله ﷺ فقد ولدت -رضي الله عنها- بعد أربع سنوات من بعثته ﷺ وقبل تسع سنوات من هجرته ﷺ.



(١) أسلم كل أولاد أبي بكر إلا عبد الرحمن أسلم في هدنة الحديبية وهاجر قبل الفتح، البداية ٨/ ٩٨.

زواج وهجرة

وحياة السيدة عائشة هي سجل كامل للتاريخ منذ البعثة وإلى عام وفاتها في خلافة معاوية ﷺ ولكنه سجل من نوع آخر قد لا يذكر ما تعلمه من الأخبار إنما يذكر دقائقها وخفاياها والحكم المستترة منها.

في بيت النبوة

مر قرابة عام على وفاة خديجة في العام العاشر من البعثة وبيت النبي ﷺ عامر بمن يحتاج الرعاية، وكان الأصحاب والأصدقاء حول النبي ﷺ منشغلين بهذا البيت النبوي وكل منهم يود أن يحدثه في أمر الزواج.. ولكن مكانة خديجة وحزنه ﷺ عليها كانت تمنعهم، إلا أن خولة بنت حكيم السلمية زوجة عثمان بن مظعون الجمحي -رضي الله عنها- قررت أن تبادر فسعت إليه وقالت يا رسول الله، ألا تتزوج..؟

قال: ومن؟

قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا..

فقال: من البكر ومن الثيب؟

قالت: أما البكر فابنة أحب الخلق إليك عائشة بنت أبي بكر.

وأما الثيب فسودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك...

قال: فاذكريها علي[1].

زوجة من السماء

لم تجد خولة في نفسها سببًا لتلك الابتسامة التي تسربت إلى شفتي رسول الله ﷺ واختفت بسرعة عندما ذكرت له عائشة إلا أنه استحسن رأيها.. ولكن اتضح الأمر كله بعد ذلك عندما سمعت قصة بشارة النبي ﷺ بزواجها من عائشة نفسها.

---

(١) السمط السمين ص٢٦.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: **أريتك في المنام ثلاث ليال جاءني بك الملك في سرقة[1] من حرير فيقول لي: هذه امرأتك فاكشف عن وجهك فأقول إن يك من عند الله يمضيه. وفي رواية «هذه امرأتك فاكشفها فإذا هي أنت فأقول إن يك من عند الله يمضه»[2].**

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت جاءني جبريل إلى رسول الله ﷺ في خرقة حرير فقال هذه زوجتك في الدنيا والآخرة.

سودة قبل عائشة

انطلقت خولة لتقوم بمهمتها.. فبدأت بعائشة حيث استشعرت ميل رسول الله ﷺ إليها.. ثم انطلقت إلى سودة التي كانت امرأة ابن عمها السكران بن عمرو وكانا من أوائل المسلمين وهاجرا إلى الحبشة ثم مات عنها السكران هناك، وعادت إلى مكة أرملة عجوز مسلمة في قوم يكفرون بدينها حتى أن أخيها نميه بن زمعة عندما علم بتزويج أبيه سودة لمحمد جعل يحثو التراب على رأسه.. ولما أسلم كان يقول: والله إني لسطيه يوم أحثو التراب على رأسي أن تزوج رسول الله ﷺ سودة.

فلم يكن بد إلا أن يمد رسول الله ﷺ يده الرحيمة إلى تلك المؤمنة المهاجرة الأرملة المسنة ليسند شيخوختها، ويهون عليها بعض ما تلاقيه[3].

ولقد بين العلماء أن رسول الله ﷺ عقد على عائشة قبل سودة ولكنه دخل بسودة قبل عائشة.

عائشة مخطوبة!!

وكانت هناك مفاجأة تنتظر خولة بنت حكيم في بيت أبي بكر.

---

(١) سرقة: شقة، والسرق شقق الحرير قال أبو عبيدة إلا أنها البيض منها.

(٢) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة (٤٤٦٨).

(٣) راجع سيدات بيت النبوة ص ٢٤٠.

انطلقت خولة إلى أم رومان زوجة أبي بكر أم عائشة وقالت لها.. يا أم رومان ماذا أدخل الله عليكم من الخير؟

قالت: وما ذاك؟

قالت: رسول الله ﷺ يذكر عائشة.

لم تستطع الفرحة الغامرة التي عمت قلب أم رومان أن تمنع سحابة قلق أن تمر على وجهها وهي تقول لخولة: انتظري أبا بكر حتى يأتي. فما كانت لتتعدى مقام زوجها فتقدم رأيًا قبل أن تستشيره..

ويأتي أبو بكر وتعرض عليه أم رومان ما قالته خولة.. وكذلك لم تمنع الفرحة أبا بكر من أن يضع سببين يعوقا هذه الزيجة:

أولاً- قال أبو بكر: أو تصلح له وهي ابنة أخيه.

وكان رسول الله ﷺ قد آخى بين الداخلين في الإسلام ليربط بينهم ويقوي بعضهم بعضا فآخى بينه وبين أبي بكر

فلما وصل كلام أبي بكر إلى رسول الله ﷺ، بيَّن الأمر لأبي بكر أن أخوتهما في الإسلام لا تمنع من النسب بينهما فقال ﷺ: **أما أنا فأخوه وهو أخي وابنته تصلح لي.**

ثانيًا- ما ذكرته أم رومان به وكان سببًا لهذا القلق الذي مر على نفسها عندما سمعت عرض رسول الله ﷺ حيث قالت لأبي بكر: إن المطعم بن عدي ذكرها على ابنه.

وهذه هي المفاجأة.. أن عائشة ابنة الست سنوات كانت مخطوبة وهنا نقف وقفة سريعة لا أحب أن أقفها غالبًا.. ولكن استدعى المقام تلك الوقفة التي يقفها الكثير من المسلمين علماء وعامة عندما تفرض عليهم الشبهات من أناس كل دينهم بل ودنياهم شبهات.. فإذا بنا نحن المسلمين أصحاب الحق نسارع برص قوالب الرد ونظن أننا نبني حائطًا يصد الهجوم على ديننا، ولكن للأسف نجد أن مجرد أن يبدأ المهاجم هجومه إذا

بالحائط ينهار وقد يصيب الباني نفسه وهكذا دواليك لا الحائط يصد ولا المهاجم ينتهي، ولذلك أنا لا أحب أن أرد على كل شبهة من منطلق أنني مؤمن بديني مدرك لأبعاده عالم بقواعده وأصوله.. وأن المهاجم مشوه النية حيث لا فائدة من الرد عليه.. وأن الله - تعالى- وضع لنا قاعدة ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

ولأن المقام هنا يفرض علينا البيان فنقول :

١- عقد النبي ﷺ على عائشة وهي ابنة الست سنوات في مجتمع كل ما فيه يبغي زلة لهذا الرجل الذي يسفه أحلامهم بل ويعيب أخلاقهم وخاصة تلك المتعلقة بالعلاقة بين الرجل والمرأة والروابط التي تربط بينهما في ذلك المجتمع الذي استغل كل أنواع العلاقات.

وأظن أنه لن تؤثر قذيفة في ذلك الرجل مثل قذيفة تتهمه في شرفه وعلاقاته بالمرأة وقد يروج البعض تلك القذيفة أن محمدًا ذلك الذي يدعو إلى الفضيلة والعفة حيث كان أول ما جاء به: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

هذا الرجل يعقد على طفلة ذات ست سنوات هو أكبر من أبيها وهي أصغر من بناته!!

ولكن لم يذكر التاريخ أن أحدًا ولو مفردًا ولو في قبيلة بعيدة أطلق مثل هذه القذيفة أو صاغ مثل هذا الاتهام.

٢- ذكر التاريخ عشرات الحوادث لزواج بنات في مثل هذا السن من رجال في مثل سن النبي ﷺ دون أي غضاضة من الناس حولهم بل الأمر كان يبدو مألوفًا كعادة من عادات المجتمعات كل المجتمعات في الجزيرة وما حولها..

لقد تزوج عبد المطلب الشيخ الكبير من هالة بنت عم آمنة في اليوم الذي تزوج فيه عبد الله أصغر أبنائه من آمنة.

٣- أن عائشة ذات الست سنوات كانت مخطوبة لابن المطعم بن عدي قبل أن يتحدث عنها النبي ﷺ.

أظن أن هذا يكفي ألا تكون هناك شبهة أصلا من ارتباط النبي ﷺ بعائشة -رضي الله عنها..

أما الحديث عن فوائد هذا الزواج فهو ما سيظهره سيرنا العطر في سيرة عائشة -رضي الله عنها.

فليأت!

والآن ما موقف أبي بكر.. محمد ﷺ خير البشر يخطب ابنة صاحبه وحبيبه ونبيه .. وكان ابن مطعم بن عدي قد تكلم عليها.. ولكن من هو مطعم بن عدي هذا.

لقد كان متحدث الوفد الذي جاء أبا طالب عم النبي ﷺ يعرض عليه أن يسلم محمدًا لهم ليقتلوه مقابل أن يعطوه أحد فتيان قريش.

لقد كان ضمن الرجال من بني هاشم الذين نقضوا صحيفة مقاطعة المسلمين التي علقتها قريش في الكعبة لحصار من أسلموا حصارًا اقتصاديًا(١).

لقد أجار النبي ﷺ بعد عودته من الطائف وخرج هو وأولاده ليحموا رسول الله ﷺ بسيوفهم وهو يطوف وبقي في جواره أيامًا حتى أذن لرسول الله ﷺ في الهجرة ومات مطعم بعد هجرة النبي ﷺ بيسير:

ورثاه حسان بن ثابت بقوله:

فلو كان مجد يخلد اليوم واحدًا

من الناس أنجى مجده اليوم مطعما

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٩٤، ٩٦.

أجـرت رسـول الله مـنهم فأصـبحوا

عبـــادك مـــا لبـــي ملـــبٍ وأحرمـــا[١]

إنه الذي قال فيه ﷺ يوم عرض عليه العفو على أسرى بدر: «**لو كان المطعم بن عدي حيًا. ثم سألني في هؤلاء النتنى لوهبتهم له**»[٢].

فمطعم بن عدي رجل ذو شأن في قومه بل كان من أكابر قريش.. ولكن رغم كل ذلك كان كافرًا وهو مبرر معقول لأبي بكر أن يرد عليه خطبة ابنه لعائشة.

ولكن لم يكن أبو بكر ليفعلها.. فقد رد على أم رومان التي ذكرته بخطبة عدي لعائشة لابنه: (والله ما أخلف وعدًا قط).

وانطلق أبو بكر إلى المطعم بن عدي وقال له: ماذا تقول في أمر هذه الجارية... ويبدو أن الأمر كان محل نقاش بين المطعم وزوجته فأقبل المطعم عليها وكأنه يريد أن يسمع أبا بكر فقال لها: ما تقولين؟

فأقبلت المرأة على أبي بكر فقالت: لعلنا إن أنكحنا هذا الصبي إليك تصبيه[٣] وتدخله في دينك الذي أنت عليه.

فأقبل أبو بكر على المطعم يريد أن يسمع رأيه فقال: ما تقول أنت؟

فقال المطعم وكأنه يخجل أن يصارحه برغبته في فك الرباط: إنها لتقول ما تسمع.

انطلق أبو بكر وقد رضيت نفسه حيث أصبح غير ملزم بوعده مع المطعم..

واتصل بخولة.. وقال لها: قولي لرسول الله ﷺ فليأت..

وهنا تحلو الوقفات حيث عطر العظمة وروعة التكريم...

محمد ﷺ... الصاحب.. والحبيب... والنبي... الشريف العظيم.... يأتي !!!

(١) البداية والنهاية ٣/ ١٣٥.

(٢) البداية والنهاية ٣/ ١٣٦.

(٣) أي تخرجه من دينه إلى دينك.

نعم يأتي ! لمن؟ .. ليخطب فتاة السادسة.. لم تحمل له... وهي الطفلة التي كانت تلعب في طريقه، ولم يأته أبوها.. وهو الصديق والصاحب؛ الذي كان يأتيه ولا تكلف بينهما، ولم يرسل بالموافقة.

وهو النبي الذي ما تردد أبو بكر في أن يصدقه في أمر النبوة فكيف بتزويجه ابنته ولكن إذا أراد رجل - أي رجل- أن يخطب امرأة فليأت..

نعم فليأت

أي مكانة عادت إليك أيتها المرأة في هذا الدين.

وجاء النبي ﷺ وعقد على عائشة وأصدقها أربعمائه درهم[1].

وتم العقد

وبقيت عائشة في بيت أبيها، زوجة للنبي ﷺ لم يدخل بها.. فإن هذه المرحلة من الدعوة كانت تحتاج تفرغًا، وقد شغلت سودة بنت زمعه جزءًا من الفراغ الذي تركته خديجة في بيت النبي ﷺ... وانطلق ﷺ ينشر دعوته في تلك السنوات العصيبة من سنوات الدعوة... قبل الهجرة بثلاث سنوات... لقد مات أبو طالب الذي كان يقدم بعض الحماية لرسول الله ﷺ وماتت خديجة التي كانت خير معين له ﷺ.. وأغلقت جميع الأبواب أمام الدعوة في مكة بعد رحلة الطائف وجاء الأمر بالهجرة..

رقة الحبيب

كان رسول الله ﷺ يزور بيت أبي بكر ﷺ ويقول: **«يا أم رومان، استوصي بعائشة واحفظيني فيها»** فكان لعائشة بذلك منزلة عند أهلها.. وتقول عائشة -رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ لا يخطئ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة وإما عشية».

ويومًا جاء ﷺ إلى بيت أبي بكر فوجد عائشة خلف أحد الأبواب تبكي.. فسألها ما

---

(١) السمط السمين ص ٢٧.

يبكيها.. فشكت له أمها.. فدخل على أم رومان فقال: «**يا أم رومان ألم أوصك بعائشة**»[(١)].

الهجرة

قال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية حتى إذا كان اليوم الذي أذن الله فيه لرسوله ﷺ في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث!

قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره.

فجلس رسول الله ﷺ وليس عند رسول الله ﷺ أحد إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «**أخرج عني من عندك**».

قال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي؟

قال: «**إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة**».

قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله ﷺ؟

قال: «**الصحبة**».

قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يومئذ يبكي.

ثم قال: يا نبي الله إن هاتين راحلتين كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط، وكان مشركًا يدلهما على الطريق ودفعا إليه راحلتيهما، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما.

قال ابن إسحاق: ولم يعلم- فيما بلغني- بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر. أما على، فإن رسول الله ﷺ أمره أن

---

(١) ذكره الواقدي في الطبقات الكبرى ٨/ ٧٨، نقلاً عن تراجم سيدات بيت النبوة ص ٢٥٦.

يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس[1].

وكان أبو بكر يلح على النبي ﷺ في الهجرة.

فقال له رسول الله ﷺ: «**على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي**».

فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت وأمي؟ (يقصد هل ترجو ما أرجوه من صحبتك؟)

قال: نعم.

فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ ليصحبه، وعلف راحلتين كانتا عنده ورق السمر- وهو الخبط- أربعة أشهر، وذكر بعضهم: أنه علفهما ستة أشهر.

قال ابن شهاب، قال عروة، قالت عائشة: فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في حر الظهيرة، فقال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مقبلاً متقنعًا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له، فدخل فقال النبي ﷺ: «**أخرج من عندك**».

فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول الله ﷺ.

قال: **فإنه قد أذن لي في الخروج**.

قال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت وأمي.

قال النبي ﷺ: «**نعم**».

قال أبو بكر: فخذ أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين.

فقال رسول الله ﷺ: «**بالثمن**».

---

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢١٩).

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز فصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فلذلك سميت ذات النطاقين.

قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فمكثا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب ثقف لقن فيدلج من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائت، لا يسمع أمرًا يكادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام[١].

ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليهما حين يذهب ساعة من العشاء، فيبيتان في رِسل- وهو لبن منحتهما ورضيفهما- حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر عبد الله بن أريقط ، وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث ليال.

وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهما طريق السواحل[٢].

هجرة العروس

قال الواقدي وابن جرير وغيرهما: ولما رجع عبد الله بن أريقط الديلي إلى مكة بعث معه رسول الله ﷺ وأبو بكر زيد بن حارثة، وأبا رافع موليا رسول الله ﷺ ليأتوا بأهاليهم من مكة وبعثا معهم بحملين وخمسمائة درهم ليشتروا بها إبلا من قديد، فذهبوا فجاءوا ببنتي النبي ﷺ، فاطمة وأم كلثوم، وزوجتيه: سودة وعائشة، وأمها أم رومان، وأهل النبي ﷺ، وآل أبي بكر في صحبة عبد الله بن أبي بكر.

وقد شرد بعائشة وأمها أم رومان الجمل في أثناء الطريق فجعلت أم رومان تقول: واعروساه، وابنتاه!

قالت عائشة: فسمعت قائلاً يقول: أرسلي خطامه، فأرسلت خطامه فوقف بإذن الله

(١) البداية والنهاية (٣/ ٢٦٦).

(٢)البداية والنهاية ج ٣ ص ١٨١ - ١٨٢.

وسلمنا الله -عز وجل.

في شوال

كان شهر شوال أحب الشهور إلى عائشة فهو الشهر الذي عقد رسول الله عليها فيه في السنة الثالثة قبل الهجرة.

وهو الشهر الذي دخل عليها رسول الله فيه في السنة الأولى من الهجرة وكانت -رضي الله عنها- تحب أن تدخل نساءها على أزواجهن في شوال لحبها له[(١)].

مرت شهور قلائل بعد وصول بيت أبي بكر إلى المدينة ونظرت أم رومان إلى ابنتها عائشة فوجدتها قد وصلت إلى التاسعة وبلغت مبلغ الإناث مع بعض بقايا طفولة.. فجاءت أبي بكر ﷺ تقول له يا أبا بكر: ألا نذكر رسول الله ﷺ بأمر عائشة.. فانطلق ﷺ إلى رسول الله ﷺ فقال له: ألا تريد أن تبني بأهلك يا رسول الله؟

فكان رده ﷺ بالموافقة

تقول عائشة - رضي الله عنها:

لما قدمنا نزلنا بالسنح[(٢)] في دار بني الحارث بن الخزرج قالت فإني لأرجح[(٣)] بين عذقين[(٤)] وأنا ابنة تسع فجاءت أمي فأنزلتني ثم مشت بي حتى انتهت بي إلى الباب وأنا أنهج[(٥)] فمسحت بشيء من ماء وفرقت جيمة شعركانت لي، ثم دخلت بي على رسول الله ﷺ وفي البيت رجال ونساء فقالت: هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك، قالت: فقام الرجال والنساء فخرجوا وبنى[(٦)] بي رسول الله ﷺ ولا والله ما نحرت على

---

(١) وعلى هذا كان دخوله ﷺ عليها بعد الهجرة بسبعة أو ثمانية أشهر.

(٢) والسنح موضع بالعوالي بالمدينة.

(٣) أرجح، وفي بعض الطرق وأنا في أرجوحة، هي أن يعلق حبل بين شجرتين فيترجح فيه الصبيان، والترجح التذبذب، وترجحت الأرجوحة بالغلام أي مالت.

(٤) والعذق بالفتح النخلة وبالكسر العرجون بما فيه الشماريخ.

(٥) انهج من النهج بالتحريك وهو تتابع النفس، يقول منه: نهج بالكسر ينهج.

(٦) بنى بي أي دخل بي والأصل أن الرجل كان إذا تزوج امرأة بنى عليها قبة ليدخل بها فيها، يقال بنى الرجل على أهله، قال الجوهري: ولا يقال بنى بأهله وهذا القول فيه نظر فإنه قد جاء في غير موضع من الحديث وعاد الجوهري فاستعمله في كتابه.

من جذور ولا ذبحت من شاة ولكن جفنة كان يبعث بها سعد بن عبادة إلى رسول الله يجعلها إذ ذاك بين نسائه فقد علمت أنه بعث بها.

وفي رواية أن عائشة كانت مريضة ذلك المرض الذي أصاب المسلمين عند قدومهم المدينة، وتمزق شعرها فأصلحت أمها شأنها، وتقول عائشة -رضي الله عنها- تزوجني رسول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج فوعكت[1].

فتمزق شعري فوقي جميمة فأتتني أم رومان وإني في أرجوحة مع صواحب لي فصرخت بي، فأتيتها ما أدري ما تريد مني، فأخذت بيدي حتى وقفتني على باب الدار وإني لأنهج، حتى سكن بعض نفسي ثم أخذت شيئًا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي ثم أدخلتني الدار، وإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن على الخير والبركة وعلى خير طائر فأسلمتني إليهن فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين.

وما ذكره ابن كثير حول دخوله ﷺ بها:

١ – أن دخوله بها كان نهارًا وهذا خلاف ما اعتاده الناس من الدخول ليلاً.

٢ – أن البعض كان يكره الدخول على النساء بين العيدين ويتشاءم أن ذلك يفرق بين الزوجين، ويبدو أن ذكر ذلك الموقف من عائشة كان ردًا على هذا الوهم.

ذلك الوقت: تزوجني في شوال، وبنى بي -أي دخل بي- في شوال، فأي نسائه كان أحظى عنده مني؟

نعم كانت هناك بيوت أخريات وزوجات أخر وكل منهن كان لها دور وفضل ولكن دور عائشة أفضل النساء كان دورًا مختلفًا..

ومالنا نسبق الأحداث فلنعد إلى السيرة النبوية العطرة نقرأها ولكن قراءة مختلفة قراءة تبحث عن عائشة وأظن أنه لن يعيينا البحث.

---

(١) فوعكت: الوعك بإسكان العين الحمى.



بيت عائشة

في الحائط الخلفي لذلك المسجد الذي بناه النبي ﷺ والمسلمون من الطين وجذوع النخل وفي أقصى يسار القبلة عندما تواجهها كان هناك بيت.

والحقيقة إن إطلاق كلمة بيت عليه تعتبر تجاوزًا، فما كان سوي حجرة صغيرة من الطوب اللبن وسعف النخيل.. وضع فيها فراش من جلد (أدم) حشوه ليف، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير، وعلى فتحة الباب أسدل ستار من الشعر[1].

كانت هذه إحدى الحجرات التي ذكرها الله في القرآن وسمي سورة من سوره بها ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤].

وفي هذه الحجرة كان بيت أم المؤمنين عائشة في هذا البيت المتواضع بدأت «السيدة عائشة» حياة زوجية حافلة، ستظل حديث التاريخ حتى قيام الساعة.. بدأت حياة مرموقة مع سيد الرسل ﷺ.. فقد كانت محط الأنظار من جميع أهل المدينة الكل يسأل ماذا سيكون موضع هذه الشابة الصغيرة في حياة حبيبهم ﷺ..

بل كان البعض يتربص بها يحتسبها نقطة ضعف يغزي بها نار حقده ونفاقه على النبي ﷺ.. فكانت المكائد وكان الله سميعًا عليمًا... وكان الوحي ظهيرًا ونصيرًا.. وكانت عائشة محور الأحداث.

لقد اكتمل نمو السيدة عائشة في هذا البيت ونضجت شخصيتها وتدرجت على عين المصطفى من حبيبة يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها، أو يحملها على عاتقه لتطل على نفر من الحبشة يلعبون الحراب، إلى شابة نضجت وارتقت تجربتها.. شأنها شأن النساء فأصبحت تسأل في المسائل الدقيقة فتجيب حتى تصبح العالمة الفقيهة والمجاهدة المصلحة

---

(١) صحيح مسلم ح ٢٠٨٢، ٢٤٣٨.

بل والطبيبة الماهرة!!..

مالك يا قلم تجري بالأحداث تريد أن تختصرها في كلمات جامعة.. أهو الحب أم الانبهار أم التقدير؟

أظن أنه كل ذلك!

حديثة السن

كان التحدي الأول الذي واجه عائشة في البيت الجديد هو سنها الصغير وبقايا الطفولة التي لازالت لم تتخلص منها إلى أن الحبيب الرقيق كان يتعامل مع هذه الطفولة بحكمة الرجل وفروسية المحب

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كنت ألعب بالبنات[(١)] عند النبي ﷺ وكان لي صواحب يلعبن معي فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمعن[(٢)] فيسربهن إليَّ فيلعبن معي»[(٣)].

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: دخل النبي ﷺ وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث[(٤)] فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل سيدنا أبو بكر ﷺ فانتهرني وقال: مزمار الشيطان عند رسول الله ﷺ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ وقال: **دعهما** فلما غمزتهما خرجتا[(٥)].

وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب فلما سألت رسول الله ﷺ ما قال لي لتشتهين تنظرين فقلت: نعم. فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول دونكم بني أرفدة[(٦)] حتى إذا مللت قال: **حسبك؟** قلت: نعم. قال: **اذهبي**[(٧)].

---

(١) تقصد العرائس المصنوعة من القماش.

(٢) انقمع: تغيب ودخل وراء ستر.

(٣) أخرجه البخاري، في كتاب الأدب، رقم (٥٦٦٥).

(٤) بعاث بضم الباء وعين مهملة وتاء مثلثة يوم مشهور وكان فيه حرب بين الأوس والخزرج وبعاث اسم حصن أوس.

(٥) متفق عليه.

(٦) أرفدة هو لقب لهم وقيل اسم أبيهم وفاؤه مكسورة وقد تفتح.

(٧) متفق عليه.

وعنها -رضي الله عنها- قالت: رأيت النبي ﷺ يقوم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بحرابهم بمسجد رسول الله ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد، حتى أكون أنا التي أسأم فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو[(١)].

وعنها -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ فسمع لفظا وإذا صوت صبيان وإذا الحبشة تزفن والصبيان حولها فقال: يا عائشة تعالى فانظري فجئت فوضعت لحيي على منكب رسول الله ﷺ فجعلت أنظر إليها ما بين المنكب إلى رأسه فقال لي: **أما شبعت** قالت: فجعلت أقول لا لأنظر منزلتي عنده، إذ طلع عمر ﷺ قالت فارفض الناس عنها قالت فقال رسول الله ﷺ: إني لأنظر إلى شياطين الإنس والجن قد فروا من عمر[(٢)].

واستمر ﷺ يراعي تلك الطفولة في سلوك عائشة ويجاريها ويعتبرها جزءًا من شخصيتها الأنثوية التي تسر كل رجل وذلك حتى اقتراب نهاية حياته وقد اقتربت من الخامسة عشر أو الثامنة عشر.

فعن عائشة قالت: قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر[(٣)]، وفي سهوتها ستر، فهبت الريح فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة تلعب بها، فقال: **«ما هذا يا عائشة!؟»**.

فقالت: بناتي، ورأي بينهن فرسًا له جناحان من رقاع.

فقال: **«ما هذا الذي أري وسطهن؟»**.

قالت: فرس.

قال: **«وما الذي عليه هذا؟»**.

قالت: جناحان.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب النكاح ج رقم ٤٨٣٥.

(٢) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح.

(٣) كانت خيبر في محرم من السنة السابعة للهجرة وكانت تبوك في رجب سنة تسع من الهجرة.

قال: «فرس له جناحان؟».

قالت: أما سمعت أن لسليمان خيلاً لها أجنحة.

قالت: فضحك حتى رأيت نواجذه ﷺ[(١)].

وباء المدينة

كانت المدينة قد أصابها وباء قبل هجرة رسول الله ﷺ إليها.. وبجانب ما لاقاه المهاجرون من تعب الهجرة وقلة الغذاء - رغم ما أثرهم الأنصار به على أنفسهم- فقد أصاب المهاجرين الوباء.

وتحكي لنا السيدة عائشة هذا الموقف تقول:

وقدمنا المدينة وهي أوبأ أرض الله وكان بطحان يجري نجلاً -يعني ماء آجنًا. وفي رواية: ووادبها بطحان نجل يجري على الأثل[(٢)].

قالت عائشة: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ أرض الله من الحمى، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ.

قالت: فكان أبو بكر وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فدخلت عليهم أعودهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك فدنوت من أبي بكر فقلت له: كيف تجدك يا أبه؟

فقال:

كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

قالت: فقلت: والله ما يدري أبي ما يقول. قالت: ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الأدب ج (٤٢٨٤).

(٢) قال هشام: وكان وباؤها معروفًا في الجاهلية، وكان إذا كان الوادي وبيًّا فأشرف عليها الإنسان قيل له: أن ينهق نهيق الحمار، فإذا فعل ذلك لم يضره وباء الوادي.

قال:

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمي جلده بروقه

قالت: فقلت: والله ما يدري ما يقول.

قالت: وكان بلال إذا أدركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي إذخر وجليل[١]

وهل أردنْ يومًا مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

قالت عائشة: فذكرت لرسول الله ﷺ بما سمعت منهم وقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى.

فقال: **«اللهم حبب إلينا المدينة، كما حببت إلينا مكة أو أشد، وبارك لنا في مدها وصاعها، وانقل وباءها إلى مهيعة»**[٢].

أم عبد الله:

كانت عائشة من أشد المسلمين فرحًا بميلاد عبد الله بن الزبير ابن أختها أسماء بنت أبي بكر وابن الزبير بن العوام ابن عمة رسول الله ﷺ.

نعم فرحت المدينة كلها بمولد عبد الله.. ولكن كانت عائشة أشدهم فرحًا..

ولنترك أسماء تحكي لنا قصة ميلاده:

عن أسماء بنت أبي بكر -رضي الله عنها- أنها حملت بعبد الله بن الزبير في مكة، قالت: فخرجت وأنا متم فأتيت المدينة، فنزلت قباء، فولدت بقباء، ثم أتيت به رسول الله ﷺ، فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة، فمضغها ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له، فبرك عليه، وكان أول مولود ولد في

---

(١) وفي رواية أن بلال دعا بعد هذا الشعر فقال: «اللهم العن عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء».

(٢) أخرجه البخاري من كتاب الدعوات رقم ٦٣٧٢. ومهيعة: هي الجحفة.

الإسلام، ففرحوا به فرحًا شديدًا، لأنهم قيل لهم: إن اليهود قد سحرتكم، فلا يولد لكم[(١)].

وسماه رسول الله ﷺ عبد الله، ثم جاء بعد، وهو ابن سبع، أو ابن ثماني سنوات، يبايع النبي ﷺ، حيث أمره الزبير ﷺ بذلك، فتبسم النبي ﷺ حين رآه مقبلاً، وبايعه. وكان أول من ولد في الإسلام في المدينة بعد مقدم رسول الله ﷺ، وكانت اليهود تقول: قد أخذناهم، فلا يولد لهم بالمدينة ولد ذكر، فكبر أصحاب رسول الله ﷺ حين ولد عبد الله، وقد طاف به الصديق ﷺ بالمدينة بعد ولادته ليشتهر أمر ميلاده على خلاف ما زعمت اليهود[(٢)].

فهذ إذا هو السبب في شدة فرح المسلمين بميلاد عبد الله بن الزبير.

وكان ابن الزبير ملازمًا للدخول على رسول الله ﷺ لكونه من آله، فكان يتردد إلى بيت خالته عائشة زوج الرسول ﷺ، وكناها الرسول ﷺ (أم عبد الله) على اسم ابن أختها عبد الله بن الزبير. وقيل إنها أسقطت من رسول الله سقطا سماه عبد الله.

وقد أعطت عائشة -رضي الله عنها- لمن بشرها أن ابن الزبير لم يقتل في إحدى المعارك عشرة آلاف درهم، وسجدت لله شكرًا، وكانت تحبه حبًا شديدًا، لأنه ابن أختها، وكان عزيزًا عليها.

وقد روي عن عروة: أن عائشة لم تكن تحب أحدًا بعد رسول الله ﷺ وأبي بكر مثل حبها ابن الزبير[(٣)].

وقال: وما رأيت أبي وعائشة يدعوان لأحد من الخلق مثل دعائهما لابن الزبير[(٤)].



(١) البخاري رقم ٥٤٦٩، اليهود في السنة المطهرة (١/ ٢٦٥).

(٢) البداية والنهاية ١١/ ١٨٨.

(٣) البداية والنهاية: ٨/ ٣٧١.

(٤) البداية والنهاية ج ٨ ص ٣٤١.

كتيبة المجاهدات

بدأ تشكيل كتيبة المجاهدات منذ أول معركة كبرى للمؤمنين يوم بدر... واستمرت تلك الكتيبة وعلى رأسها عائشة زوج النبي ﷺ تقوم بعملها من سقاية المجاهدين ورعايتهم حتى يصل الأمر أحيانًا إلى القتال..

ولذلك لا تجد غزوة من غزوات النبي ﷺ إلا ولعائشة فيها موقف ما بين موقف عملي أو موقف تحكيه حيث كانت حاضرة تسجل الأحداث وترتبها.

يوم بدر

عام مر على البيت السعيد وخرج رسول الله ﷺ إلى بدر لملاقاة عير قريش... ولأنه ﷺ لم يكن خارجًا لمعركة فلم يصحب معه نساء، إلا أن عائشة كانت تتابع الموقف وتسجل بعض تفاصيله وقد بينت مدى حرص رسول الله ﷺ على سرية المسير حيث قالت: «**إن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر**»(١).

يوم أحد

أما يوم أحد فقد كانت هناك تقوم بمهمتها الجهادية الموكولة لها..

يقول أنس ﷺ: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم، وإنهما لمشمرتان، أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما، تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم(٢).

وقالت عائشة: خرجنا من السحر مخرج رسول الله ﷺ إلى أحد، نستطلع الخبر، حتى إذا طلع الفجر إذا رجل محتجر يشتد

(١) رواه أحمد، قال ابن كثير على شرط الصحيحين البداية ٣/ ٢٦٠.
(٢) البخاري- ج ٤ ص٢٨- ٢٩.

فنظرنا فإذا أسيد بن حضير، ثم مكثنا بعد ذلك، فإذا بعير قد أقبل عليه امرأة بين وسقين قالت: فدنونا منها فإذا هي امرأة عمرو بن الجموح، فقلنا لها: ما الخبر؟

قالت: دفع الله عن رسول الله ﷺ، واتخذ من المؤمنين شهداء: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥][١].

يوم الخندق

قال ابن إسحاق: كانت عائشة أم المؤمنين في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة.

قال: وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن.

قالت عائشة: وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب، قالت: فمر سعد وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربته يرفل بها ويقول:

لبث قليلاً يشهد الهيجا جمل ... لا بأس بالموت إذا حان الأجل[٢]

فقالت له أمه: الحق بني فقد والله أخرت.

قالت عائشة: فقلت لها يا أم سعد، والله لو ددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي.

قالت: وخفت عليه، حيث أصاب السهم منه، فرمى سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل[٣].

وفي رواية تقص علينا عائشة موقفها يوم الخندق قالت: خرجت يوم الخندق أقفو الناس، فسمعت وئيد الأرض ورائي، فإذا أنا بسعد بن معاذ ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنة.

قالت: فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد قد خرجت منه أطرافه،

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٤٢.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ٤٢.

(٣) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٠٩- ١١٠.

فأنا أتخوف على أطراف سعد، قالت: وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم، فمر وهو يرتجز ويقول:

لبث قليلاً يدرك الهيجا جمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

قالت: فقمت فاقتحمت حديقة فإذا نفر من المسلمين، فإذا فيها عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه سبغة له- تعني المغفرة- فقال عمر: ما جاء بك والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء أو يكون تحوزًا، فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض فتحت ساعتئذ فدخلت فيها.

فرفع الرجل السبغة عن وجهه، فإذا هو طلحة بن عبيد الله فقال: يا عمر ويحك إنك قد كثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله -عز وجل.

قالت: ويرمي سعدًا رجل من قريش يقال له: ابن العرقة وقال: خذها، وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله فقطعه، فدعا سعد الله فقال: اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

قالت: وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، قالت: فرقأ كلمه، وبعث الله الريح على المشركين، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويًا عزيزًا.

فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة، ولحق عيينة بن بدر ومن معه بنجد، ورجعت بنو قريظة فتحصنوا في صياصيهم، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد في المسجد.

قالت: فجاء جبريل وإن على ثناياه لنقع الغبار، فقال: أقد وضعت السلاح يا محمد لا والله ما وضعت الملائكة السلاح بعد، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم.

قالت: فلبس رسول الله ﷺ لأمته، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا، فمر على بني غنم وهم جيران المسجد حوله فقال: «من مر بكم؟».

قالوا: مر بنا دحية الكلبي- وكان دحية الكلبي تشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل عليه السلام- فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة.

فلما اشتد حصارهم، واشتد البلاء قيل لهم: انزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر، فأشار إليهم أنه الذبح قالوا: ننزل على حكم سعد بن

معاذ، فقال رسول الله ﷺ: «**انزلوا على حكم سعد بن معاذ**»[١].

فأتي به على حمار عليه أكاف من ليف قد حمل عليه، وحف به قومه فقالوا: يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل النكاية ومن قد علمت، قالت: ولا يرجع إليهم شيئًا، ولا يلتفت إليهم، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال: قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم.

قالت: قال أبو سعيد: فلما طلع قال رسول الله ﷺ: «**قوموا إلى سيدكم فأنزلوه**» قال عمر: سيدنا الله، قال: «**أنزلوه**» فأنزلوه.

قال رسول الله ﷺ: «**احكم فيهم**» فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم.

فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله**».

ثم دعا سعد فقال: اللهم إن كنت أبقيت على نبيك من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك.

قالت: فانفجر كلمه، وكان قد برئ حتى لا يرى منه إلا مثل الخرص، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ.

قالت عائشة: فحضره رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر. قالت: فو الذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء عمر، من بكاء أبي بكر، وأنا في حجرتي، وكانوا كما قال الله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال علقمة: يا أمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع؟

قالت: كانت عينه لا تدمع على أحد، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته[٢].



(١) البداية والنهاية ج / ص ٤- ١٤٢.

(٢) البداية والنهاية ج ٤ ص ١٢٥- ١٢٦.



أفضل الناس

لم تدعى السيدة عائشة يومًا أنها ملاك أو أنها فوق البشر أو أنها تتصف بصفات تخالف غيرها من النساء.. بل ولم ينزل الوحي سواء القرآن أو ما ورد عن النبي ﷺ- زوجها- بشيء من ذلك سوى ما تنزل من براءتها مما اتهمها به المنافقون.

ولذلك فهي امرأة ككل النساء تحب وتكره وتغار، وتحب أن تكون مفضلة لدى زوجها وغيرها من الصفات التي تتصف بها كل النساء.

ولكن الفرق بين عائشة في كل هذه الأحوال وغيرها من النساء هو الانضباط بالخلق القرآني والأدب النبوي، فعندما نرى كيف تتلقى أخبار زواج النبي ﷺ من غيرها من النساء تجد رد فعلها يجمع بين الأمرين :بين أنها امرأة من البشر وبين أنها زوجة محمد ﷺ التي تربت على مائدة القرآن والأدب النبوي.

وإذا نظرنا إلى الأمر من الوجهة الإنسانية البشرية فإن المرأة تتأذي بشكل ما إذا عرفت أن زوجها تزوج عليها وقد يخفف عنها الأمر أن يكون الزواج من عجوز مثلاً أو من غير ذات جمال أو غير ذلك.. ولذلك نجد السيدة عائشة كانت تفخر دائمًا بأن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها.

إلا أنني أقف بجانب أمي أعذرها حيث إنها تلقت جميع زيجات النبي ﷺ فهي الأولى بعد خديجة وبعد سودة بنت زمعة التي دخل بها قبلها رغم أنه عقد عليها أولا ثم إذا بزوجات النبي ﷺ يأتين واحدة بعد الأخرى ويضاف إلى الحجرات بجوار حجرتها حجرة بعد حجرة..

ألستم معي في أن مصاب عائشة كامرأة كان عظيمًا..!!

إلا أننا نجد تعليقاتها الطريفة وسلوكياتها المؤدبة التي تتسم ببقايا طفولة تهون الأمر

وتبين أن خلف كل ذلك عقل كبير تربي في مدرسة النبوة وقلب لا يملأه إلا حب الله ورسوله ﷺ.

ثم كان يساندها ويعضدها تصريح الرسول الله ﷺ المستمر أنها أحب الناس إليه بعد أبيها أبي بكر.

خديجة الحية

والعجيب أن من بين نساء النبي ﷺ لم تكن عائشة تغار أكثر من غيرتها من خديجة ذلك لأن عائشة لم تكن تغار من سلوك عارض بل كان كل ما يهمها هو موقعها في قلب النبي ﷺ الذي للأسف كانت خديجة تحتل أكبر مساحة من هذا الموقع حتى بعد غيابها عن الحياة وكان النبي دائما ما يذكرها بذلك

فمن مثل خديجة؟؟!!

عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة، وهلكت قبل أن يتزوجني- لما كنت أسمعه يذكرها- وأمره الله أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب، وإن كان ليذبح الشاة فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن.[(١)]

في لفظ له قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة- وما رأيتها- ولكن كان يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة فيقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة فيقول: «إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»[(٢)].

وعن عائشة قالت: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع، فقال: «**اللهم هالة**»[(٣)].

وعن عائشة قالت: ذكر رسول الله ﷺ يومًا خديجة فأطنب في الثناء عليها، فأدركني

---

(١) البخاري.

(٢) البداية والنهاية (: ٣/ ١٥٨).

(٣) البخاري.

ما يدرك النساء من الغيرة، فقلت: لقد أعقبك الله يا رسول الله ﷺ من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين.

فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرًا لم أره تغير عند شيء قط إلا عند نزول الوحي أو عند المخيلة حتى يعلم رحمة أو عذابًا. (١)

وفي رواية أنها قالت أبدلك الله خيرا منها فقال ﷺ: **«ما أبدلني الله خيرًا منها، وقد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني، ووآستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ولدها إذ حرمني أولاد النساء»**(٢).

وليس مرادها بقولها أبدلك الله خيرًا منها أنها تزكي نفسها وتفضلها على خديجة؛ وإنما هي غيرة تعترف هي بها ولا تنكرها.

حفصة القريبة

كان زواج النبي ﷺ من حفصة بنت عمر بن الخطاب هو أول تغيير يحدث في حياة عائشة بعد دخولها بيت النبوة فقد تزوجها في العام الثاني من الهجرة بعد دخوله بعائشة بشهور..

وكانت حفصة متزوجة خنيس بن حذافة صاحب الهجرتين (إلى الحبشة ثم إلى المدينة) وأحد شهداء بدر وهي ابنة الوزير الثاني لرسول الله ﷺ الفاروق عمر بن الخطاب.

وكانت حفصة امرأة مجربة ذكية استطاعت أن تعقد صداقة مع عائشة وتوددت إليها عائشة حتى أصبحا موضع سر كل منهن للأخرى كما سنري في كثير من الأحداث.

أم سلمة

وإن كانت عائشة لتغار أشد الغيرة من زوجتين لرسول الله ﷺ.. أم سلمة وزينب بنت جحش.

فالأولى العاقلة الحكيمة المستشارة التي كان رسول الله ﷺ يلجأ إليها في الملمات..

---

(١) وهكذا رواه مسلم و أحمد، وهذا إسناد جيد.

(٢) أخرجه أحمد ح (٢٣٧١٩).

هي هند بنت أمية الذي كان يلقب (زاد الركب) لشدة كرمه، صاحبة الهجرتين إلى الحبشة مع زوجها ثم إلى المدينة وحدها والتي تزوجها النبي ﷺ استجابة من الله لدعائها بعد وفاة زوجها حين قالت كما علمها زوجها ما سمعه من رسول الله ﷺ: «إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها».

واستجابة لدعاء زوجها الشهيد أبي سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي الذي كان يدعو لها قبل موته بقوله: «اللهم ارزق أم سلمة بعدي رجلاً خيرًا مني، لا يحزنها ولا يؤذيها. فلما مات أبو سلمة قالت: من هذا الذي هو خير من أبي سلمة»[1].

وهل هناك خير من رسول الله ﷺ؟

وتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة...

وتعالوا إلى صاحبة القلب السليم والفطرة النقية (عائشة) عندما تتحدث عن هذا الزواج.

تقول -رضي الله عنها- «لما تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة حزنت حزنًا شديدًا لما ذكر من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها فرأيت والله أضعاف ما وصفت به، فذكرت ذلك لحفصة فقالت: لا والله إن هي إلا الغيرة، ما هي كما يقولون» وذكرت كبر سنها. فرأيتها بعد ذلك فكانت لعمري كما قالت حفصة ولكني كنت غيرى[2].

وكان من أسباب غيرة عائشة من أم سلمة الحكيمة العاقلة أنه تسرب إلى قلبها أن أم سلمة ليست مجرد زوجة لهدف دعوى أو إنساني كما كان غيرها؛ ولكنها تلك المرأة التي لابد أن تجد لها في قلب زوجها مكانًا فعن هند بنت الحارث الفارسية قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن لعائشة فيّ شعبة ما نزلها مني أحد». فلما تزوج أم سلمة سئل: يا رسول الله ﷺ، ما فعلت الشعبة؟ فسكت. فعرف أن أم سلمة نزلت عنده[3].

---

(١) الطبقات الكبرى ٨/ ٨٨.

(٢) طبقات ابن سعد: ٨/ ٩٤.

(٣) المصدر السابق.

وقد تخرج بعض الألفاظ من فم أمنا الكريمة تعبر عن هذه الغيرة..

فعنها -رضي الله عنها- تحكي بنفسها تقول: دخل على رسول الله ﷺ فقلت: أين كنت منذ اليوم؟ قال: «يا حميراء كنت عند أم سلمة» فقالت: أما تشبع من أم سلمة؟ فتبسم(١).

ولما لا تغار عائشة من أم سلمة تلك الغيرة التي تصل إلى الغبطة أي تمني أن يكون عندها ما عندها وقد كان الوحي ينزل في بيت عائشة فتباهي بذلك زوجات النبي ﷺ غيرها حتى تزوج النبي ﷺ أم سلمه بنت زاد الركب.. فنزل الوحي في بيتها..

هل رأيتم تلك الأسباب التي تجعل المرأة تغار من أختها إنه الوحي... الوحي لا غير..

ومما نزل في بيت أم سلمة توبة أبي لبابة الذي استشاره بنو قريظة أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فأشار إليهم أنه الذبح.. فظن أنه خان الله ورسوله فربط نفسه في جذع في المسجد ست ليال وأقسم أن لا يفك نفسه حتى يفكه رسول الله ﷺ فلما علم النبي ﷺ قال: «ما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه». فنزلت توبته من السحر وهو في بيت أم سلمه فقالت للنبي ﷺ وقد سمعته يضحك.

مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك؟

قال «تيب على أبي لبابة» ثم تلا عليها ما نزل فيه من قول الله -تعالى: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٢].

قالت: أفلا أبشره يا رسول الله ..؟

قال: بلى، إن شئت.

فقامت على باب حجرتها وقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك.

---

(١) الطبقات الكبرى ٨/ ٨٠.

ولما مر رسول الله ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه[(١)].

ونفس المشهد تقريبًا حدث مع الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة العسرة (تبوك).

يقول أحدهم وهو كعب بن مالك ﷺ: فأنزل الله من توبتنا على نبيه ﷺ حين بقي الثلث الأخير من الليل، ورسول الله ﷺ عند أم سلمة فقال رسول الله ﷺ: يا أم سلمة تيب على كعب: قالت أفلا أرسل إليه فأبشره؟.. فقال لها رسول الله ﷺ: إذا يحطمنكم الناس. أي يتوافد إليكم الناس في هذا الوقت من الليل[(٢)].

زينب بنت جحش

وهي الثانية من زوجات النبي ﷺ بعد أم سلمة التي كانت تغار منها أشد الغيرة.

حين نصحت حفصة عائشة عندما اشتكت لها غيرتها من أم سلمة وذكرتها بكبر سنها أوصتها أن تستبقي غيرتها لمن هي أولى.

وكأن حفصة كانت تقرأ صفحات الغيب فما مضى على زواج النبي ﷺ من أم سلمة عام أو بعضه حتى أمره الله -تعالى- أن يتزوج ابنة عمته الشريفة القرشية زينب بنت جحش الأسدية ابنة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ.. وذلك تأكيدًا لإبطال عادة التبني التي كانت منتشرة بين العرب حيث كانت زينب متزوجة متبنى رسول الله ﷺ زيد والذي كان يسمي زيد بن محمد فأمر الله أن ينادى باسم أبيه ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٥].. فأصبح اسمه زيد بن الحارث.

وكانت العرب تحرم زواج الرجل من مطلقة ابنه بالتبني فتأكيدًا لإبطال هذه العادة أمر الله نبيه أن يتزوج زينب مطلقة زيد.. ليكون هو القدوة العملية فلا يتحرج أحد من ذلك.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب: ٣٧].

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/ ٣٤٦.

(٢) البخاري ك التفسير، سورة التوبة.

وكانت أسباب إشعال الغيرة في قلب الزوجة الصغيرة متوفرة فمنها الجمال والشباب والقرابة للنبي ﷺ.. وإلى جانب ذلك كله أن زواجها كان بأمر الله -تعالى- ووحيًا قرآنيًا يتلى إلى يوم القيامة.

حتى أن عائشة تصف حالها يوم زواج النبي ﷺ أنه قد أخذها ما قرُب وما بعد، لما تعرف من جمال زينب وبما هي حَرِيَّة أن تفخر به من صنع الله لها.

وكانت زينب تزيد الغيرة شدة عندما تفخر على نساء النبي ﷺ بقولها: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات»(١).

وكانت تقول: «أنا أكرمكن وليًا، وأكرمكن سفيرًا»(٢).

تقصد أن وليها الله حيث قال -تعالى: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾. وكان سفير الزواج هو جبريل.

وكانت عائشة لا تنكر أو تكتم غيرتها من زينب فكانت تقول: «لم تكن واحدة من نساء النبي ﷺ تناصبني (أي في حب رسول الله) غير زينب»(٣).

ويبدو أن هذه الغيرة من زينب كانت من الشدة التي تجعل أمنا عائشة تتصرف كما يتصرف النساء..

وقد لا يرضي تصرفها رسول الله ﷺ.

فقد تلقي هدية وهو في بيت عائشة فأرسل إلى كل زوجة نصيبها منها ولكن زينب ردت ما جاءها.. فما كان من عائشة أن قالت كلمة لم يرضها النبي ﷺ فقام عنها ﷺ مغضبًا(٤).

بل وكان الحوار يشتد بينهما أمام النبي ﷺ فيدعهما كنوع من التنفيس عما في صدورهن.. واستطاعت (عائشة) أن تغلب (زينب) يومًا فما زاد ﷺ أن تبسم وقال: «إنها ابنة أبي بكر».

(١) البخاري كتاب التوحيد ح (٦٨٧٠).
(٢) طبقات ابن سعد ٨/ ٧٣.
(٣) السيرة ٣/ ٣١١.
(٤) السمط الثمين ص ٤٠ فتح الباري ٩/ ٢٣٢.

بل وكما سنقص بعد قليل كانت غيرة عائشة هذه من زينب سببًا في حدوث مشكلة كبيرة انشغلت بها المدينة شهرًا.

نساء من نور

وعند هذه الحكايات يقف البعض ويوسع الحديث ويجعله مستندًا له أن يتطاول على تلك المقامات الرفيعة ولكن النبي ﷺ يحسم الأمر ليبين أن الغيرة صفة إنسانية لا يستطيع أحد أن يبرأ منها.

فقد كان ﷺ عندما يرى غيرتها يقول لمن حوله «**ويحها، لو استطاعت ما فعلت!**».

بل وكان يعتبر الغيرة عذرًا مقبولاً عن سلوكيات قد لا تكون مقبولة فكان يعتذر عنها للجميع قائلاً: «**غارت أمكم**».

بل وهي نفسها تعلل شدة غيرتها عندما يقول لها الرسول ﷺ.. «**ما لك يا عائشة؟ أغرت؟**» فتقول ومالي لا يغار مثلي على مثلك؟[1] .

«إن الغيرة لم تكن لتتغلغل إلى أعماقها، بل كانت تقف عند الحدود التي تقضي بها قواعد الدين والعدل وإن الأمر لم يكن ليدخل في باب الخصومات الحزبية كما يحلو لبعض كتب التاريخ أن يصفوها.. ولعل ما يرد على هؤلاء ما رأيناه من صور الوفاق الرائع بينهن وتفانيهن في إرضاء زوجهن رسول الله ﷺ»[2] .

وتقول بنت الشاطئ: «إنما كانت.. عائشة أنثى سليمة الفطرة، ينزع بها ميراثها العاطفي إلى حواء فتستجيب له دون أن تتكلف نفاقًا أو مداراة.

وما غيرتها الشديدة، بعد هذا كله؛ إلا مظهر حب عميق لرجلها الفريد، ودليل تعلق بالرسول ﷺ ورغبة لا تقاوم في الاستئثار به والتفرد بقلبه»[3] .

---

(١) مسلم.

(٢) عائشة أم المؤمنين، زاهية قدورة عن تراجم سيدات بيت النبوة، عائشة عبد الرحمن ص ٢٩٠.

(٣) تراجم سيدات بيت النبوة ص ٢٩٠، ٢٩١.

وفي الجانب الآخر تعالوا إلى موقف هذه الكوكبة من النساء الذي يظهر معدنهن النوراني.

عندما حدثت حادثة الإفك واتهمت عائشة -رضي الله عنها- تقول -رضي الله عنها- «فأما زينب فقد عصمها الله -تعالى- بدينها فلم تقل إلا خيرًا»[١].

وفي رواية عن عائشة قالت: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمري قالت يا رسول الله: «أحمي سمعي وبصري والله ما علمت إلا خيرًا قالت عائشة وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله بالورع»[٢].

وكانت في جلساتها الخاصة لا تخفي إعجابها بها تقول -رضي الله عنها- «ولم أر امرأة قط خيرًا في الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثًا وأوصل للرحم، وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها في العمل الذي يتصدق به ويتقرب به إلى الله -عز وجل».

ولما بلغها نعي زينب قالت:

«لقد ذهبت حميدة متعبدة، مفزع اليتامى والأرامل».

أطولكن يداً

وهي التي روت حديث «أطولكن يدًا».

حيث قالت عائشة -رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: «**أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا**».

فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة النبي ﷺ نمد أيدينا في الجدر نتطاول.. فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ولم تكن بأطولنا فعرفنا حينئذ أن النبي ﷺ إنما أراد طول اليد بالصدقة. وكانت زينب امرأة صناع اليدين تدبغ وتخرز، وتتصدق في سبيل الله[٣].

---

(١) سيرة ابن هسام٣/ ٣١٢.
(٢) متفق عليه.
(٣) السمط الثمين ص ١١٠.

براءة من السماء

هذه هي المرة الثانية التي ينزل الله فيها براءة من السماء تتلى إلى يوم القيامة..
فالأولى تحدثنا عنها عندما تحدثنا عن أكمل النساء مريم بنة عمران أم عيسى عليه السلام.
والثانية نزلت في أفضل النساء الصديقة بنت الصديق -رضي الله عنهم أجمعين.

وهذه البراءة نزلت في سياق البناء الاجتماعي للجماعة المسلمة.. وخاصة الجانب الأخلاقي منه فهذا المجتمع الذي كان حديث عهد بجاهلية عمياء في العلاقة بين النساء والرجال كان يحتاج إلى هزة عميقة شديدة تسوي أساساته وتقوي قواعده وتهدم الأبنية الأخلاقية الضعيفة فيه...

ونزلت آيات براءة السيدة عائشة العشرة ضمن سورة كاملة من سور القرآن هي (سورة النور) ونزلت السورة بعد التمهيد المحكم القوي الذي وصل إلى الألم الشديد الذي أصاب المدينة بالكامل وعلى رأسها حبيبهم وقدوتهم محمد ﷺ لمدة شهر...

قصة الإفك

نعم كان الأمر يحتاج ذلك كله.. فإذا عرفنا الخبر أدركنا ما نريد.. والحديث مشهور في مراجعنا بعنوان (قصة الإفك)...

وأشهر رواياته عن السيدة عائشة -رضي الله عنها- «وليست النائحة كالثكلى» فتعالوا نستمع إليها هي بنفسها عندما تحدث عن هذا الخبر..

قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، فلما كان غزوة المصطلق[1] أقرع بين نسائه، كما يصنع، فخرج سهمي عليهن معه،

---

(١) كانت في السنة الخامسة للهجرة بعد غزوة الأحزاب وبني قريظة وزواج الرسول الله ﷺ من زينب بنت جحش ونزول آيات الحجاب على أمهات المؤمنين والأمر بستر النساء ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

فخرج بي رسول الله ﷺ.

قالت: وكان النساء إذ ذاك يأكلن العلق، لم يهجهن اللحم فيثقلن[١]، وكنت إذا رحل لي بعيري جلست في هودجي، ثم يأتي القوم الذين كانوا يرحلون لي فيحملونني ويأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير، فيشدونه بحباله ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به.

قالت: فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجه قافلاً حتى إذا كان قريبًا من المدينة نزل منزلاً فبات به بعض الليل، ثم أذن مؤذن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس وخرجت لبعض حاجتي، وفي عنقي عقد لي فيه جزع ظفار[٢]، فلما فرغت انسل من عنقي ولا أدري، فلما رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عنقي فلم أجده، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعت إلى مكاني الذي ذهبت إليه فالتمسته حتى وجدته.

وجاء القوم خلافي الذين كانوا يرحلون لي البعير، وقد كانوا فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج وهم يظنون أني فيه، كما كنت أصنع فشدوه على البعير، ولم يشكوا أني فيه ثم أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به فرجعت إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب، قد انطلق الناس.

قالت: فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو افتقدت لرجع الناس إلي.. فبينما أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت

قالت: فوالله إني لمضطجعة إذ مر بي صفوان بن المعطل السلمي، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجاته، فلم يبت مع الناس فرأى سوادي فأقبل حتى وقف عليَّ، وقد كان يراني قبل أن يضرب علينا الحجاب، فلما رآني قال: إنا لله وإنا إليه راجعون !ظعينة رسول الله ﷺ!؟ وأنا متلففة في ثيابي فاستيقظت باسترجاعه[٣] حين عرفني..

---

(١) بمعنى أنهن لم يكن يأكلن كثيرًا فكانت خفيفة الوزن بحيث لا يشعر من يحمل الهودج أهي فيه أم هو فارغ وذلك لخفة وزنها بالنسبة لوزن الهودج وأن حوالي أربعة رجال يحملونه.. وكان عمرها حينئذ حوالي ستة عشر عامًا.

(٢) خرز يمني.

(٣) إنا لله وإنا إليه راجعون !ظعينة رسول الله ﷺ!؟.

قال: ما خلفك يرحمك الله؟

قالت: فما كلمته.

ثم قرب إلى البعير فقال: اركبي، واستأخر عني.

قالت: فركبت وأخذ برأس البعير فانطلق سريعًا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس، فلما اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، وارتج العسكر، والله ما أعلم بشيء من ذلك.

ثم قدمنا المدينة فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة لا يبلغني من ذلك شيء، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوي لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيرًا، إلا أني قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بي، كنت إذا اشتكيت رحمني ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي ذلك، فأنكرت ذلك منه.

كان إذا دخل علي وعندي أمي تمرضني قال: «كيف تيكم؟» لا يزيد على ذلك.

قالت: حتى وجدت في نفسي[1]، فقلت: يا رسول الله ﷺ حين رأيت ما رأيت من جفائه لي لو أذنت لي، فانتقلت إلى أمي فمرضتني؟

قال: «لا عليك».

قالت: فانقلبت إلى أمي، ولا علم لي بشيء مما كان حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنا قومًا عربًا لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف[2] التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنما كنا نخرج في فسح المدينة، وإنما كانت النساء يخرجن في كل ليلة في حوائجهن، فخرجت ليلة لبعض حاجتي ومعي أم مسطح ابنة أبي رهم بن المطلب وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق ﷺ.

قالت: فوالله إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها[3] فقالت: تعس مسطح- ومسطح

(١) بدأت أغضب.

(٢) جمع كنيف وهو دورة المياه ومكان قضاء الحاجة.

(٣) ثوبها.

لقب واسمه عوف بن أثاثة بن عباد بن المطلب- قالت: فقلت: بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين وقد شهد بدرًا.

قالت: ياهنتاه[(١)] أو ما بلغك الخبر؟

قالت: قلت: وما الخبر؟

فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك.

قلت: أو قد كان هذا؟

قالت: نعم والله لقد كان.

قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعت فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي؛ قالت: وقلت لأمي: يغفر الله لك تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا؟

قالت: أي بنية خففي عليك الشأن، فوالله لقل ما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن وكثر الناس عليها.

فقلت: سبحان الله! ولقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. ثم أصبحت أبكي. فدعا رسول الله ﷺ على بن أبي طالب وأسامة بن زيد- رضي الله عنهما- حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله.

قالت: فأما أسامة فأشار عليه بما يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: هم أهلك يا رسول الله، ولا نعلم والله إلا خيرًا، وأما على بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تخبرك[(٢)].

---

(١) أي يا غافلة ومعناها يا هذه.

(٢) المعروف عن على –رضي الله عنه- الحكمة والعدل فهو القاضي الذي لا يحكم بعقله في شيء.. ثم إنه المحب لنبيه ﷺ.. فإجابته نوع من الذكاء الوجداني فهو يحرره من العاطفة.. فالقضية ليست قضية زوجة يحبها وما يسأل عنه النبي ﷺ إجابته عند القريبات من زوجته وأقربهن جاريتها اللصيقة.. وموقف على قريب من موقف أبي بكر –رضي الله عنهم أجمعين- فكلاهما لم يقدم على نبيه بل ترك له الفرصة لإدارة الأمر فعلي لم يتحدث عما يعرفه من طهارة عائشة كما فعل أبوها بالضبط ليدع للنبي ﷺ وللوحي الفرصة الكاملة لإدارة المشكلة ونجد أن النبي ﷺ أخذ برأي علي واستشار الجارية فلم يكن يرضيه إلا إجابة عملية .

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة[١] فقال لها: أي بريرة. هل رأيت فيها شيئًا يريبك؟ فقالت: لا والذي بعثك بالحق نبيًا إن رأيت منها أمرًا أغمصه[٢] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن[٣] فتأكله.

قالت: وقد قام رسول الله ﷺ في الناس فخطبهم ولا أعلم بذلك، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **«أيها الناس من يعذرني من رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك الرجل والله ما علمت منه إلا خيرًا، ولا يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي»**.

قالت: وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ، ولم تكن امرأة من نسائه تناصبني في المنزلة عنده غيرها، فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرًا، وأما حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضارني لأختها فشقيت بذلك.

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفيكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا أمرك، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم.

قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحًا[٤] فقال: كذبت لعمر الله ما تضرب أعناقهم، أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا.

فقال أسيد بن حضير: كذبت لعمر الله، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.

---

(١) حقق الإمام شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية أن الجارية التي سئلت لم تكن هي بريرة إنما كاتبت وعتقت بعد هذا بمدة طويلة.إنما قال الإمام علي -كرم الله وجهه: فسل الجارية تخبرك فظن بعض الرواة أنها بريرة فسماها.

(٢) أغمصه: أعيبه.

(٣) الداجن: الشاة في البيت.

(٤) وهو صالح ﷺ وإنما كان معروف بحبه لقومه ولم تقل هذا عائشة تقليلاً من شأنه أو حكمًا عليه بعدم الصلاح وإنما هي تعجب.

قالت: وتساور الناس حتى يكاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر، ورسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ونزل رسول الله ﷺ.

وبكيت يومي ذلك لا يرقأ[١] لي دمع، ولا أكتحل بنوم. ثم بكيت ليلتي المقبلة لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم. فأصبح أبواي عندي، وقد بكيت ليلتين ويومًا، حتى أظن أن البكاء فالق كبدي.

فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تبكي معي. فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ، ثم جلس، ولم يجلس عندي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهرًا لا يوحى إليه في شأني بشيء، فتشهد حين جلس، ثم قال: «أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله -تعالى. وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله -تعالى- وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله -تعالى- عليه». فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي[٢] حتى ما أحس منه بقطرة. فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال. قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فيما قال. قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ. قالت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن. فقلت: إني والله أعلم أنكم سمعتم حديثًا تحدث الناس به، واستقر في نفوسكم، وصدقتم به. فلئن قلت لكم: إني بريئة لا تصدقوني بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني منه بريئة، لتصدقنني. فوالله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله -تعالى- مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله -تعالى- في شأني وحيًا يتلى؛ ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله -تعالى- في بأمر يتلى؛ ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله -تعالى- بها. فوالله ما رام مجلسه[٣]، ولا خرج

---

(١) يسكن وينقطع.

(٢) انقطع وذهب.

(٣) ما انصرف من مجلسه.

أحد من أهل البيت، حتى أنزل الله -تعالى- على نبيه ﷺ فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[١]، فسري عنه، وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: يا عائشة احمدي الله -تعالى- فإنه قد برأك. فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله -تعالى- هو الذي أنزل براءتي.

فأنزل الله -تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ۞ لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۞ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ ۞ وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۞ يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾
[النور: ١١، ٢٠].

فلما أنزل الله -تعالى- هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد ما قال لعائشة- رضي الله عنها- فأنزل الله -تعالى: ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٢][النور: ٢٢]. فقال أبو بكر رضي الله عنه بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان يجري عليه. وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة -رضي الله عنها: وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن

---

(١) شدة الكرب من ثقل الوحي.

(٢) وَلاَ يَأْتَلِ تعني لا يقصر ولا يحلف والإيلاء اليمين.

أمري. فقال: «يا زينب، ما علمت وما رأيت؟» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرًا. وهي التي كانت تساميني[١] من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله -تعالى- بالورع. قالت: فطفقت[٢] أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك.

تقول عائشة: ثم خرج إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة فضربوا حدهم[٣].

قال ابن إسحاق: ثم قال حسان بن ثابت يعتذر من الذي كان قال في شأن عائشة:

حصان رزان ما تزن بريبة ... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائل
وإن الذي قد قيل ليس بلائق ... بك الدهر قيل امرئ بي ماحل
فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم ... فلا رفعت سوطي إلى أناملي
فكيف وودي ما حييت ونصرتي ... لآل رسول الله زين المحافل
وإن لهم عزًا نرى الناس دونه ... قصارًا وطال العز كل التطاول

وكانت -رضي الله عنها- تكره أن يسب أحد حسان بن ثابت ﷺ بعد ذلك عندها وكانت تقول أليس هو الذي قال:

فإن أبي ووالده وعرضي
لعرض محمد منكم وقاء

(١) تعاليني وتفاخرني بمعني تنافسني.
(٢) جعلت تفعل.
(٣) هو حد قذف المحصنات بلا شهداء الذي ورد في سورة النور ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقفات مع البراءة

هذا الحادث. حادث الإفك. قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلامًا لا تطاق؛ وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل؛ وعلق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجه عائشة التي يحبها، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه، وقلب صفوان بن المعطل.. شهرًا كاملاً، علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق[1].

ولنقف طويلاً أمام هذا الحادث بجميع تفاصيله وتعالوا نصطحب بعض تعليقات سيد قطب عليه عند تفسيره لآيات سورة النور.

يقول- رحمة الله عليه:

وهكذا عاش رسول الله ﷺ وأهل بيته. وعاش أبو بكر ﷺ وأهل بيته. وعاش صفوان بن المعطل، وعاش المسلمون جميعًا هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق، وفي ظل تلك الآلام الهائلة، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات.

وإن الإنسان ليقف متململاً أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول ﷺ وأمام تلك الآلام العميقة لعائشة زوجه المقربة. وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة. تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة والرفرفة الشفيفة.

فها هي ذي عائشة الطيبة الطاهرة. ها هي ذي في براءتها ووضاءة ضميرها، ونظافة تصوراتها، ها هي ذي ترمى في أعز ما تعتز به، ترمى في شرفها، وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرفيع، وترمى في أمانتها، وهي زوج محمد بن عبد الله من ذروة بني هاشم، وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة، وهي زوج رسول الله ﷺ.

ها هي ذي ترمى، وهي بريئة غافلة، لا تحتاط لشيء، ولا تتوقع شيئًا، فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو في جناب الله، وتترقب أن يرى رسول الله رؤيا، تبرئها مما رميت به،

---

(١) الظلال ٤/ ٢٤٩٥.

ولكن الوحي يتلبث -لحكمة يريدها الله- شهرًا كاملاً، وهي في مثل هذا العذاب.

ويا لله لها وهي تفاجأ بالنبأ من أم مسطح، وهي مهدودة من المرض، فتعاودها الحمى؛ وهي تقول لأمها في أسى: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟ وفي رواية أخرى تسأل: وقد علم به أبي؟ فتجيب أمها: نعم! فتقول: ورسول الله ﷺ؟ فتجيبها أمها كذلك نعم!.

ويا لله لها ورسول الله ﷺ نبيها الذي تؤمن به ورجلها الذي تحبه، يقول لها: **«أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا؛ فإن كنت بريئة فسيبرئك الله -تعالى- وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله -تعالى- وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»**.. فتعلم أنه شاك فيها، لا يستيقن من طهارتها، ولا يقضي في تهمتها. وربه لم يخبره بعد، ولم يكشف له عن براءتها التي تعلمها ولكن لا تملك إثباتها؛ فتمسي وتصبح وهي متهمة في ذلك القلب الكبير الذي أحبها، وأحلها في سويدائه!

وها هو ذا أبو بكر الصديق في وقاره وحساسيته وطيب نفسه يلذعه الألم، وهو يرمى في عرضه. في ابنته زوج محمد صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل، لا يطلب دليلاً من خارجه.. وإذا الألم يفيض على لسانه، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم، فيقول: والله ما رمينا بهذا في جاهلية. افنرضى به في الإسلام؟ وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل. حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة: أجب عني رسول الله ﷺ قال في مرارة هامدة: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ!.

وأم رومان زوج الصديق -رضي الله عنهما- وهي تتماسك أمام ابنتها الموجوعة في كل شيء. المريضة التي تبكي تظن أن البكاء فالق كبدها. فتقول لها: يا بنية هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند الرجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.. ولكن هذا التماسك يتزايل وعائشة تقول لها: أجيبي عني رسول الله ﷺ فتقول كما قال زوجها من قبل: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل، وهو يرمى

بخيانة نبيه في زوجه، فيرمى بذلك في إسلامه، وفي أمانته، وفي شرفه، وفي حميته. وفي كل ما يعتز به صحابي، وهو من ذلك كله بريء، وهو يفاجأ بالاتهام الظالم وقلبه برئ من تصوره، فيقول: سبحان الله! والله ما كشف كتف أنثى قط. ويعلم أن حسان بن ثابت يروج لهذا الإفك عنه، فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودي به. ودافعه إلى رفع سيفه على امرئ مسلم، وهو منهي عنه، أن الألم قد تجاوز طاقته، فلم يملك زمام نفسه الجريح!

آلام القلب الطاهر ﷺ

ثم ها هو ذا رسول الله ﷺ وهو رسول الله، وهو في الذروة من بني هاشم.. ها هو ذا يرمى في بيته. وفي من؟ في عائشة التي حلت من قلبه في مكان الابنة والزوجة والحبيبة، وها هو ذا يرمى في طهارة فراشه، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة، وها هو ذا يرمى في صيانة حرمته، وهو القائم على الحرمات في أمته، وها هو ذا يرمى في حياطة ربه له، وهو الرسول المعصوم من كل سوء.

ها هو ذا ﷺ يرمى في كل شيء حين يرمى في عائشة -رضي الله عنها- يرمي في فراشه وعرضه، وقلبه ورسالته، يرمى في كل ما يعتز به عربي، وكل ما يعتز به نبي.

ها هو ذا يرمى في هذا كله؛ ويتحدث الناس به في المدينة شهرًا كاملاً، فلا يملك أن يضع لهذا كله حدًا، والله يريد -لحكمة يراها- أن يدع هذا الأمر شهرًا كاملاً لا يبين فيه بيانًا. ومحمد الإنسان يعاني ما يعانيه الإنسان في هذا الموقف الأليم، يعاني من العار، ويعاني فجيعة القلب؛ ويعاني فوق ذلك الوحشة المؤرقة، الوحشة من نور الله الذي اعتاد أن ينير له الطريق.. والشك يعمل في قلبه -مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله، ولكنه لا يطمئن نهائيًا إلى هذه القرائن- والفرية تفوح في المدينة، وقلبه الإنساني المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك، فلا يملك أن يطرد الشك، لأنه في النهاية بشر، ينفعل في هذا انفعالات البشر.. وزوج لا يطيق أن يمس فراشه.ورجل تتضخم بذرة الشك في قلبه متى استقرت، ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم.

وها هو ذا يثقل عليه العبء وحده، فيبعث إلى أسامة بن زيد، حبه القريب إلى قلبه، ويبعث إلى علي بن أبي طالب، ابن عمه وسنده، يستشيرهما في خاصة أمره، فأما علي فهو من محمد، وهو شديد الحساسية بالموقف لهذا السبب. ثم هو شديد الحساسية بالألم والقلق اللذين يعتصران قلب محمد. ابن عمه وكافله، فهو يشير بأن الله لم يضيق عليه، ويشير مع هذا بالتثبت من الجارية ليطمئن قلب رسول الله ﷺ ويستقر على قرار. وأما أسامة فيدرك ما بقلب رسول الله ﷺ من الود لأهله، والتعب لخاطر الفراق، فيشير بما يعلمه من طهارة أم ا لمؤمنين، وكذب المفترين الأفاكين.

ورسول الله ﷺ في لهفة الإنسان، وفي قلق الإنسان، يستمد من حديث أسامة. ومن شهادة الجارية مددًا وقوة يواجه بهما القوم في المسجد، فيستعذر ممن نالوا عرضه، ورموا أهله، ورموا رجلاً من فضلاء المسلمين لا يعلم أحد عليه من سوء.. فيقع بين الأوس والخزرج ما يقع من تناور وهم في مسجد رسول الله ﷺ وفي حضرة رسول الله ﷺ ويدل هذا على الجو الذي كان يظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة الغريبة، وقد خدشت قداسة القيادة، ويحز هذا في نفس الرسول ﷺ والنور الذي اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق! فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها يصارحها بما يقول الناس، ويطلب منها هي البيان الشافي المريح!

بطلة معركة الأخلاق

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو يتعطف عليه ربه[1]، فيتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع؛ ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم.

ولقد قالت عائشة عن هذا القرآن الذي تنزل: «وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة، وأن الله -تعالى- مبرئي ببراءتي، ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله -تعالى- في شأني وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى

(١) من الحكم التي يمكن أن نحصدها من تأخر الوحي حتى يصل الأمر هذا الحد؛ تمهيد المجتمع لتلقي تلك الأحكام الضابطة للأخلاق والعلاقات فيه مثل ما سبق من نزول حد الزنى وحد القذف وكيف يحكم بين الزوجين إذا قذف الزوج زوجته وغيرها.

رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله -تعالى- يومًا».

ولكن الأمر كما يبدو من ذلك الاستعراض لم يكن أمر عائشة -رضي الله عنها- ولا قاصرًا على شخصها، فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته في الجماعة يومها. بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها. وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها.. من أجل ذلك أنزل الله القرآن ليفصل في القضية المبتدعة، ويرد المكيدة المدبرة، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله؛ وما يعلمها إلا الله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

فهم ليسوا فردًا ولا أفرادًا؛ إنما هم «عُصْبَةٌ» متجمعة ذات هدف واحد، ولم يكن عبد الله بن أبي بن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك. إنما هو الذي تولى معظمه، وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين، الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة؛ فتواروا وراء ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة، ثم خدع فيها المسلمون فخاض منهم من خاض في حديث الإفك كحمنة بنت جحش؛ وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثه.

أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة، وعلى رأسها ابن سلول، الحذر الماكر، الذي لم يظهر بشخصه في المعركة، ولم يقل علانية ما يؤخذ به، فيقاد إلى الحد، إنما كان يهمس به بين الذين يطمئن إليهم، ولا يشهدون عليه، وكان التدبير من المهارة والخبث بحيث أمكن أن ترتجف به المدينة شهرًا كاملاً، وأن تتداوله الألسنة في أطهر بيئة وأتقاها!

﴿لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾...

خير. فهو يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته. وهو يكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله؛

ويبين مدي الأخطار التي تحيق بالجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، فهي عندئذ لا تقف عند حد. إنما تمضي صعدًا إلى أشرف المقامات، وتتطاول إلى أعلى الهامات، وتعدم الجماعة كل وقاية وكل تحرج وكل حياء.

وهو خير أن يكشف الله للجماعة المسلمة بهذه المناسبة عن المنهج القويم في مواجهة مثل هذا الأمر العظيم.

أما الآلام التي عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته، والجماعة المسلمة كلها، فهي ثمن التجربة، وضريبة الابتلاء، الواجبة الأداء!

أما الذين خاضوا في الإفك، فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ».. ولكل منهم نصيبه من سوء العاقبة عند الله.. وبئس ما اكتسبوه، فهو إثم يعاقبون عليه في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ» يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم.

والذي تولى كبره، وقاد حملته، واضطلع منه بالنصيب الأوفى، كان هو عبد الله بن أبي ابن سلول، رأس النفاق، وحامل لواء الكيد، ولقد عرف كيف يختار مقتلاً، لولا أن الله كان من ورائه محيطًا، وكان لدينه حافظًا، ولرسوله عاصمًا، وللجماعة المسلمة راعيًا.. ولقد روي أنه لما مر صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين وابن سلول في ملأ من قومه قال: من هذه؟ فقالوا: عائشة -رضي الله عنها.. فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت؛ ثم جاء يقودها!

وهي قولة خبيثة راح يذيعها عن طريق عصبة النفاق بوسائل ملتوية، بلغ من خبثها أن تموج المدينة بالفرية التي لا تصدق، والتي تكذبها القرائن كلها، وأن تلوكها ألسنة المسلمين غير متحرجين وأن تصبح موضوع أحاديثهم شهرًا كاملاً، وهي الفرية الجديرة بأن تنفى وتستبعد للوهلة الأولى.

لقد كانت معركة خاضها رسول الله ﷺ وخاضتها الجماعة المسلمة يومذاك، وخاضها الإسلام، معركة ضخمة لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ

وخرج منها منتصرًا كاظمًا لآلامه الكبار، محتفظًا بوقار نفسه وعظمة قلبه وجميل صبره، فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاد صبره وضعف احتماله، والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته. والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه.

ولو استشار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه؛ ولو عاد إلى منطق لهداه، والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج في مواجهة الأمور، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها:

﴿لَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

نعم كان هذا هو الأولى.. أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا.. وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم في مثل هذه الحمأة.. وامرأة نبيهم الطاهرة وأخوهم الصحابي المجاهد هما من أنفسهم، فظن الخير بهما أولى، فإن ما لا يليق بهم لا يليق بزوج رسول الله ﷺ ولا يليق بصاحبه الذي لم يعلم عنه إلا خيرًا..

كذلك فعل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته -رضي الله عنهما- كما روى الإمام محمد بن إسحاق: أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة -رضي الله عنها؟ قال: نعم. وذلك الكذب. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك ونقل الإمام محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره: «الكشاف» أن أبا أيوب الأنصاري قال لأم أيوب: ألا ترين ما يقال؟ فقالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءًا؟ قال: لا. قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة -رضي الله عنها- ما خنت رسول الله ﷺ فعائشة خير مني، وصفوان خير منك..

وكلتا الروايتين تدلان على أن بعض المسلمين رجع إلى نفسه واستفتى قلبه، فاستبعد أن يقع ما نسب إلى عائشة، وما نسب إلى رجل من المسلمين: من معصية لله وخيانة لرسوله، وارتكاس في حمأة الفاحشة، لمجرد شبهة لا تقف للمناقشة!

هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور، خطوة الدليل الباطني الوجداني.

فأما الخطوة الثانية فهي طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي:

﴿لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ الله هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣].. وهذه الفرية الضخمة التي تتناول أعلى المقامات، وأطهر الأعراض، ما كان ينبغي أن تمر هكذا سهلة هينة! وأن تشيع هكذا دون تثبت ولا بينة؛ وأن تتقاذفها الألسنة وتلوكها الأفواه دون شاهد ولا دليل: «لَوْلاَ جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ!» وهم لم يفعلوا فهم كاذبون إذن. كاذبون عند الله الذي لا يبدل القول لديه، والذي لا يتغير حكمه، ولا يتبدل قراره، فهي الوصمة الثابتة الصادقة الدائمة التي لا براءة لهم منها، ولا نجاة لهم من عقباها.

هاتان الخطوتان: خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير، وخطوة التثبت بالبينة والدليل.. غفل عنهما المؤمنون في حادث الإفك، وتركوا الخائضين يخوضون في عرض رسول الله ﷺ وهو أمر عظيم لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم. فالله يحذرهم أن يعودوا لمثله أبدًا بعد هذا الدرس الأليم:

﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

لقد احتسبها الله للجماعة المسلمة الناشئة درسًا قاسيًا، فأدركهم بفضله ورحمته ولم يمسسهم بعقابه وعذابه، فهي فعلة تستحق العذاب العظيم، العذاب الذي يتناسب مع العذاب الذي سببوه للرسول ﷺ وزوجه وصديقه وصاحبه الذي لا يعلم عليه إلا خيرًا.

والعذاب الذي يتناسب مع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة وشاع؛ ومس كل المقدسات التي تقوم عليها حياة الجماعة. والعذاب الذي يناسب خبث الكيد الذي كادته عصبة المنافقين للعقيدة لتقتلعها من جذورها حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم ونبيهم وأنفسهم طوال شهر كامل، حافل بالقلق والقلقلة والحيرة بلا يقين! ولكن فضل الله

تدارك الجماعة الناشئة، ورحمته شملت المخطئين، بعد الدرس الأليم.

والقرآن يرسم صورة لتلك الفترة التي أفلت فيها الزمام؛ واختلت فيها المقاييس، واضطربت فيها القيم، وضاعت فيها الأصول:

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥].

وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام:

«إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ»... لسان يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر. حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرءوس، ولا تتدبره القلوب! ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥].. بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم، إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه، قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول..

«وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا» أن تقذفوا عرض رسول الله، وأن تدعوا الألم يعصر قلبه وقلب زوجه وأهله؛ وأن تلوثوا بيت الصديق الذي لم يرم في الجاهلية؛ وأن تتهموا صحابيًا مجاهدًا في سبيل الله، وأن تمسوا عصمة رسول الله ﷺ وصلته بربه، ورعاية الله له.. «وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا».. «وَهُوَ عِندَ اللهِ عَظِيمٌ».. وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي تزلزل له الرواسي، وتضج منه الأرض والسماء.

ولقد كان ينبغي أن تجفل القلوب من مجرد سماعه، وأن تتحرج من مجرد النطق به، وأن تنكر أن يكون هذا موضوعًا للحديث؛ وأن تتوجه إلى الله تنزهه عن أن يدعه لمثل هذا؛ وأن تقذف بهذا الإفك بعيدًا عن ذلك الجو الطاهر الكريم:

﴿وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

وعندما تصل هذه اللمسة إلى أعماق القلوب فتهزها هزًا؛ وهي تطلعها على ضخامة ما جنت وبشاعة ما عملت.. عندئذ يجيء التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم:

﴿يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].

«يَعِظُكُمُ».. في أسلوب التربية المؤثر.. في أنسب الظروف للسمع والطاعة والاعتبار.. مع تضمين اللفظ معنى التحذير من العودة إلى مثل ما كان: «يَعِظُكُمُ اللهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا».. ومع تعليق إيمانهم على الانتفاع بتلك العظة: «إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ».. فالمؤمنون لا يمكن أن يكشف لهم عن بشاعة عمل كهذا الكشف، وأن يحذروا منه مثل هذا التحذير، ثم يعودوا إليه وهم مؤمنون:

﴿وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ [النور: ١٨].. على مثال ما بين في حديث الإفك.. وكشف عما وراءه من كيد؛ وما وقع فيه من خطايا وأخطاء: «وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف؛ ويعلم مداخل القلوب، ومسارب النفوس، وهو حكيم في علاجها، وتدبير أمرها، ووضع النظم والحدود التي تصلح بها[١]..

إيه يا أمي..

إيه يا عائشة..

تحمل قلبك الصغير آلامًا لا تطاق قدرها الله عليك وقدر أن تكوني أنت بطلتها لحكم متعددة وفوائد جمة انضبط عليها المجتمع المسلم بعد ذلك فأصبح نموذج الطهارة والنقاء..

ولا أجد عزاء بعد ذلك على هذا الألم الذي أصابك وأصاب زوجك الحبيب ﷺ إلا أن لك مثالاً ونموذجًا من الصديقات مريم أم عيسى عليه السلام.. إن كنت أنت اتهمت شهرًا فهي اتهمت قرونًا من كلاب الأرض ولم يقو أتباع ابنها عيسى عليه السلام أن يدافعوا عنها حتى جاء القرآن فبرأها كما برأك.. وأعلن طهارتها كما أعلن طهارتك..

(١) الظلال ج ٤ ص ٢٤٩٨- ٢٥٠٣.

هنيئًا لك ما لم تكوني تتوقعينه أن ينزل القرآن بوثيقة براءتك محفوظة تتلى إلى يوم القيامة وتعلن أنك من الطيبات بل على رأسهن ويخرجك من كتيبة الخبيثات فأنت اختيار من الله لنبيه الطيب.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [النور: ٢٦].

وقد سُئل (القاضي أبو بكر الباقلاني- ت: ٤٠٣ هـ) بعض الأساقفة بحضرة ملكهم فقال: ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رميت به من الإفك؟ فقال الباقلاني مجيبًا له على البديهة: هما امرأتان ذكرتا بسوء مريم وعائشة، فبرأ هما الله -عز وجل- وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج.

يعني: أن عائشة أولى بالبراءة من مريم- وكلاهما بريئة مما قيل فيها، فإن تطرق إلى الذهن الفاسد احتمال ريبة إلى هذه فهو إلى تلك أسرع، وهما بحمد الله منزهتان مبرأتان من السماء بوحي الله -عز وجل- عليهما السلام[1].



---

(١) البداية والنهاية- ج ١١ ص٣٧٤.



اخترت الله ورسوله

ولم يمر كثير من الشهور حتى حدثت حادثة أخرى شغلت المدينة شهرًا آخر.. وكنت أنت بطلتها أيضًا يا أمي.

واسمحي لي يا أمي يبدو أنك هذه المرة قد خانك ذكاؤك وتغلبت عليك فطرة الأنثى وسرت معها شوطًا طويلاً إلا أنني تتسع ابتسامتي عندما أجدك تعودين مرة أخرى إلى ما عهدناه عليك من حب كبير يملأ قلبك بالله ورسوله.. لنضع خطوطًا عريضة لدرس يتناوله النساء على طول الزمان.

ما هي الحكاية؟

أراك تتعجل قارئي العزيز لتعلم ماذا حدث بعد براءة أمنا الطاهرة.. وما حكاية هذا العنوان؟ أقول لك دع الوحي يحكي لنا

يقول -تعالى- في سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ۞ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ۞ إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۞ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ١، ٥].

ماذا حرم رسول الله ﷺ على نفسه.؟

وما دخل أزواجه في التحريم والتحليل؟

وما هو السر الذي أذاعته إحدى زوجاته؟

ومن هي شريكتها؟

ولماذا غضب الحليم ﷺ حتى كاد أن يطلق نساءه دفعة واحدة؟

وما موقف الوحي من البيت النبوي؟

ولماذا ذلك كله؟

وما موقف المؤمن من تلك الحوادث في بيت النبيﷺ؟

قد يكون هناك أكثر من رواية لأسباب نزول هذه الآيات إلا أنها تتلخص في حادثتين؟

الحادثة الأولى: مارية القبطية[1].

وهي مارية بنت شمعون ،ومارية تعني مريم المصرية أهداها ملك مصر والذي يطلق عليه (المقوقس) ردًا على رسالة النبي محمد والذي دعاه فيها إلى الإسلام فتلطف في الرد، وأرسل إليه بعض الهدايا فيها مارية وهي جارية وليست حرة.. وكان قانون الجواري في العالم حين جاء الإسلام أنهن عبيد لا حقوق لهن فإذا عاشرها مالكها فلا حق لها، وله أن يبيع الولد منها ويمسكها مثلاً.. ولا يعترف بولدها ابنًا..

فلما جاء الإسلام وعلى منهجه في التدرج في إلغاء وتعديل النظم الاجتماعية السائدة بدأ بعد الأمر بعتق الرقاب وعدم استرقاق الأحرار بوضع حقوق طويلة لهذه الطائفة التي كانت لا قيمة لها في المجتمع.. وأصبحت الأمة إذا عاشرها مالكها وحملت منه لها وضع آخر فإذا ولدت أعتقها ولدها، ولا يفرق بينهما ويعترف المالك بالولد ابنًا له وسميت أم ولد وأصبحت لها الكثير من حقوق الزوجة الحرة.. أما غير ذلك من الجواري فإن مالكهم لا يقربهن ويظللن خادمات يبعن ويشترين.

(١) القبطية ليست إشارة إلى دينها وإن كانت (نصرانية) وأسلمت وإنما هي إشارة إلى جنسيتها المصرية فإن المصري كان يعرف في هذا الزمان بالقبطي ومنها اسم مصر في اللغات الأوروبية Egypt؟ وتقرأ (إيقبط) أي القبط وإن كانت مارية أسلمت فإنها ظلت (قبطية) أي مصرية.

أما مارية القبطية فإن النبي ﷺ إكرامًا لها أسكنها في بيت خاص لها في العالية[1] بعد أن عرض عليها حاطب بن أبي بلتعة وعلى أختها الإسلام ورغبها فيه فأسلمت.. وضرب عليها ﷺ الحجاب[2] كبقية أمهات المؤمنين..

---

(١) مكان مرتفع في المدينة يبعد قليلاً عن الحرم المدني ويقال له (مشربة أم إبراهيم «مارية») ويتميز بالخضرة والماء والجو المعتدل وهي رحمة من النبي ﷺ أن يسكن مارية في مناخ يشابه مناخ مصر حيث كانت تسكن مارية.

(٢) لا يعني الحجاب ذلك اللبس الساتر التي تلبسه كل نساء المؤمنين فهذا هو لبس المرأة المسلمة أن يكون ساترًا لعورتها والتي هي جميع بدنها إلا الوجه والكفين ورد فيه قول الله -تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

فهذا في إطالة الثوب وإسباغه على البدن وورد فيه ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وهذا في تغطية الرأس والعنق والصدر وورد فيه تحديد محارم المرأة من الرجال التي يمكن أن تظهر أمامهم زينتها مع التفاوت في قدر هذا الإبداء ترتيبهم.

وبعض هذه الآيات وردت في سورة النور التي نزلت تعقيبًا على حادثة الإفك لتنظم المجتمع المسلم على قيمه التي تحفظه وتصونه وترتقي به إلى مستوى الطهارة المطلوب منه والذي لا يعني عدم وجود خطيئة أو معصية بقدر ما يعني تواري وخذيها في المجتمع والتستر بها فيحفظ للمجتمع عفافه.

أما الحجاب فشيء آخر فهو خاصة من خواص أمهات المؤمنين زوجات النبي ﷺ لا يشاركهن فيها أحد من المسلمات المؤمنات ونزل تعقيبًا على زواج النبي من زينب بنت جحش وتنظيمًا لتعامل المسلمين من الرجال مع زوجات النبي ﷺ فقال -تعالى- مخاطبًا الذين آمنوا: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فالحجاب هنا ليس مجرد ملابس سابغة على جسد المرأة ولكنه ساتر من حائط أو حصير أو ستارة تفصل بين الرجال وبين أم المؤمنين عندما يريد أن يكلمها في أي شيء أو يطلب منها متاعًا أو ماعون أو ما شابه ذلك.

وهذا كما قلنا خاصة لأمهات المؤمنين فيكفي لغيرهن في التعامل مع الرجال الغرباء أن تكون سابغة عليها ملابسها.

ورغم أن الحجاب خاصة من خواص أمهات المؤمنين إلا أنه أطلق عرفًا على لبس المرأة المسلمة فيقال للمرأة المسلمة التي تغطي رأسها وجسدها بسابغ الثياب (محجبة) أو ترتدي (الحجاب) تعريفًا بينها وبين من كشفت جزءًا من جسدها.. وهذا كما قلنا. من العرف اللفظي فلا يدل على الحجاب الذي ورد في الآيات السابقة..

وإن كان بعض من يعترض على أن تغطي المرأة عورتها التي هي جميع جسدها يعترض بهذه الآية ويعلن إن الحجاب خاصة من خواص أمهات المؤمنين ليس فرضًا على كل النساء!

وهذا إما جهلاً أو بنية خبيثة.. نرد عليها ببساطة بما بيناه في كلامنا السابق من أن لبس المرأة المسلمة الذي هو فرض أن يكون سابغًا على جسدها ليس هو الحجاب المقصود في هذه الآيات وإنما أطلق عليه ذلك تيمنًا وتشبهًا بأمهات المؤمنين.

وأخذت السيدة مارية القبطية -رضي الله عنها- مكانة في قلب النبي ﷺ فكان يزورها في بيتها حتى حملت.. ووضعت طفلها إبراهيم ابن النبي ﷺ.. الذي فرح به النبي كثيرًا حتى أنه لما جاء رافع زوج سلمي مولاة النبي التي كانت ترعى مارية في حملها يبشر النبي به وهب له عبدًا.. وكان ذلك في ذي الحجة سنة ثماني من الهجرة. قال ﷺ: أعتقها ولدها .

وكبر الطفل الصغير وأبوه النبي ﷺ يزداد حبًا له وتعلقًا به.. إلا أن الله الحليم الكريم يأبى إلا أن يمتحن نبيه كما امتحن أبوه إبراهيم يمتحنه في كل ما يحب.. فيموت إبراهيم بعد عامين ويواريه ﷺ التراب وذلك في العام العاشر للهجرة وقبل وفاة النبي ﷺ بشهور وكان رسول الله ﷺ يقول: «**استوصوا بالقبط خيرًا فإن لهم ذمة ورحما**»(١) وفسرها العلماء أن الذمة أن هاجر أم إسماعيل بن إبراهيم أبو النبي ﷺ والرحم أن مارية (مريم) أم إبراهيم ابن النبي ﷺ منهم.

عائشة ومارية القبطية

والآن نعود إلى أمنا -رضي الله عنها- تحكي بنفسها عن موقفها من مارية الوافدة الجديدة على قلب رسول الله ﷺ التي كانت تغار عليه منها أشد الغيرة تقول -رضي الله عنها: ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية وذلك أنها كانت جميلة من النساء دعجة فأعجب بها رسول الله ﷺ وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت الحارث بن النعمان وكانت جارتنا، وكان رسول الله ﷺ عامة النهار والليل عندها، ففزعنا لها فجزعت فحولها إلى العالية، وكان يختلف إليها هناك وكان ذاك أشد علينا ثم رزقه الله منها الولد وحرمنا منه.

وتبدأ المشكلة من هنا.. الغيرة.

والعجيب أن أمنا عائشة لم يكن لها دخل في بداية القصة إلا أنها دخلت فيها بحكم الغيرة.

---

(١) أخرجه الطبراني ١٩/ ٦١، وقال الهيثمي (١٠/ ٦٣) رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح، وأخرجه الحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين.

وتبدأ الحكاية في يوم حفصة الذي كان النبي ﷺ يزورها فيه.. ولم تكن حفصة في البيت وجاءته مارية أم إبراهيم تزوره فوجدته في بيت حفصة... فمكثت عنده وجاءت حفصة فمنعها حياؤها أن تدخل على الزوجين في خلوتها فقعدت على الباب تقتلها الغيرة.

وخرج رسول الله ﷺ بعد قليل فوجدها على الباب قاعدة وقد ظهر على وجهها الحزن والأسى ثم قالت له تعاتبه: يا رسول الله، لقد جئت إلى بشيء ما جئت به إلى أحد من أزواجك في يومي وفي دوري وعلى فراشي.

وكان هذا أمر لا يحب النبي ﷺ إذاعته فهدأها وهي تأبى إلا أن تظل غاضبة فأقسم لها ليرضيها أن يحرم مارية على نفسه فلا يقربها بعد اليوم فهنا رضيت.

ولكنه ﷺ استودعها الأمر كله وقال لها: هي على حرام فأمسكي عني. أي اكتمي هذا الأمر ولا تخبري به أحدًا.

وشعرت حفصة بالفخر الشديد أن يفعل ذلك النبي ﷺ من أجل إرضائها مع أن الأمر كان لا يستحق كل ذلك.

وأرادت أن تفخر به، وغالبها شيطانها أن تعلنه بعد أن استودعها الرسول ﷺ إياه فأخبرت به أمنا عائشة.

وهنا يأتي دور أمنا في القصة.

الحادثة الثانية: المغافير

وهذه هي الحادثة الثانية التي تذكرها المصادر كسبب لنزول هذه الآيات وأيضًا منطلقها الغيرة بين الزوجات.. وندع أمنا عائشة تحكي القصة تقول -رضي الله عنها: «كانت زينب بنت جحش تسقي النبي ﷺ عسلاً.. ويمكث عندها.. فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها رسول الله ﷺ فلتقل له: أكلت مغافير.. إني أجد منك ريح مغافير فقال ﷺ: لا ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش.

والمغافير شراب طعمه مثل العسل ولكنه يترك رائحة كريهة في الفم.. وكان ﷺ لا يحب أن يكون رائحة فمه كريهة حيث يناجي الملائكة.

فلما قال لهن رسول الله ﷺ: «لا بل شربت عسلاً»

قلن له (إذا لقد رعت نحلة شجرة العرقسط) وهي الشجرة التي يخرج منها صمغ المغافير الذي يعطي الرائحة الكريهة فأقسم ﷺ لهن أن يحرم على نفسه العسل وشرط عليهن ألا يخبرن أحدًا.. ولكنهن أذعن سر النبي ﷺ[1].

سر الزوج

إنه أمر عظيم وإن كان البعض يراه بسيطًا أن تذيع المرأة سر زوجها وخاصة بعد أن أمرها بكتمانة.. ولذلك وجب أن يكون الموقف الذي يأخذه النبي ﷺ شديدًا صارمًا..

وندع الآن الوحي يسجل القصة لتكون درسًا تربويًا للبيوت المسلمة..

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣].

هي حفصة إذا.. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أخبرت عائشة

والآن يا أمي كنا نحب أن تكوني أنت أكثر حكمة عندما جاءك النبي ﷺ وقد أعلمه الله بأمر إفشاء السر.. أن لا تدافعي عن حفصة فقد ورد أنك عندما جاءك النبي ﷺ يخبرك بما يحدث من إفشاء حفصة للسر أن تسألينه أولاً ﴿مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا﴾

قال ﷺ: ﴿نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾

فإذا بك تستغلين الموقف لصالحك ولتثبتي لنفسك مكانة هي فعلا لك.. وتقولين للحبيب ﷺ: (لا أنظر إليك حتى تحرم مارية). فتظاهري حفصة على الزوج المحب ﷺ.

وهنا غضب الحليم ﷺ.. بل اشتد غضبه.. فإذا جمعنا الحادثتين.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ح رقم (٣٧١٤) وصححه الألباني واستبعد ابن كثير وكثير من المفسرين أن يكون موضوع العسل هو سبب نزول الآية وترجح السبب الأول.

الأولى: إفشاء سر رسول الله ﷺ بعد غضبها الشديد لسبب لا حرمة فيه بل هو من حق النبي ﷺ.

الثانية: تظاهر الزوجتان على مكيدة صغيرة لا يصح أن تكون في البيت النبوي.

بيت النبوة

ويضاف إلى ذلك أمر ثالث بل هو الأخطر على ما أظن وهو تظاهر نساء النبي ﷺ وعلى رأسهن أمنا عائشة -رضي الله عنها- وأمنا حفصة -رضي الله عنها- حيث جاءوه يسألونه النفقة ليس بمعنى الإنفاق عليهن فحاشى لله أن يقصر ﷺ في هذا الواجب بقدر ما يرزقه الله إياه.. ولكن كان الطلب هنا أن يوسع عليهن

و(لقد اختار النبي ﷺ: لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف، لا عجزًا عن حياة المتاع فقد عاش ﷺ حتى فتحت له الأرض وكثرت غنائمها وعم فيؤها واغتنى من لم يكن له من قبل مال ولا زاد)[1].

ولكن بيت الرسول ﷺ رغم ذلك كان شكلاً آخر.

عن عائشة قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال، حتى قبض»[2].

وفي رواية: وما رفع من مائدته كسرة قط حتى قبض.

وعنها أنها قالت: «والذي بعث محمدًا بالحق ما رأى منخلا، ولا أكل خبزًا منخولاً منذ بعثه الله- عز وجل- إلى أن قبض».

قلت: كيف كنتم تأكلون الشعير؟

قالت: كنا نقول: أف (أي ننفخه)[3].

وعنها قالت: كان يأتي على آل محمد الشهر ما يوقدون فيه نارًا، ليس إلا التمر والماء،

---

(١) الظلال ٢٨٥٣ ج٥.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأطعمة (٤٩٩٦).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ج (٢٣٢٨٥).

إلا أن يؤتى باللحم.

وفي رواية قالت: إلا أنه كان حولنا أهل دور من الأنصار يبعثون إلى رسول الله بلبن منائحهم فيشرب، ويسقينا من ذلك اللبن.

قالت عائشة: أرسل إلينا آل أبي بكر بقائمة شاة ليلاً فأمسكت، وقطع رسول الله ﷺ أو قالت: أمسك رسول الله ﷺ وقطعت قالت: تقول للذي تحدثه: هذا على غير مصباح.

وفي رواية: لو كان عندنا مصباح لأتدمنا به(١).

وعنها أنها سئلت عن فراش رسول الله ﷺ.فقالت: كان من أدم، حشوه ليف.

عن عائشة قالت: دخلت عليَّ امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله عباءة مثنية، فانطلقت فبعثت إليَّ بفراش حشوه الصوف، فدخل على رسول الله فقال: «ما هذا يا عائشة؟».

قالت: قلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت عليَّ فرأت فراشك فذهبت، فبعثت إليَّ بهذا.

فقال: رديه.

قالت: فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات.

عن أبي أمامة بن سهيل قال: دخلت أنا وعروة ابن الزبير يومًا على عائشة فقالت: لو رأيتما نبي الله ﷺ ذات يوم في مرض مرضه؟

قالت: وكان له عندي ستة دنانير قال موسي: أو سبعة قالت: فأمرني رسول الله ﷺ أن أفرقها.

قالت: فشغلني وجع نبي الله ﷺ حتى عافاه الله -عز وجل.

قالت: ثم سألني عنها فقال: ما فعلت الستة قال: أو السبعة؟

قلت: لا والله لقد شغلني عنها وجعك.

قالت: فدعا بها ثم صفها في كفه.

---

(١) تقصد: أكلنا زيت المصباح.

فقال: «ما ظن نبي الله لو لقى الله وهذه عنده»[(١)].

رغبة في المباح

هذه هي حياة نبي الله ﷺ.. (اختيارًا للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا ورغبة خالصة فيما عند الله. رغبة الذي يملك ولكنه يعف ويستعلي ويختار) [(٢)].

ولكن نساء النبي ﷺ كن نساء من البشر، لهن مشاعر البشر، وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة، فإن الرغبة الطبيعية في متاع الحياة ظلت حية في نفوسهن، فلما أن رأين السعة والرخاء بعدما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين راجعن النبي ﷺ في أمر النفقة.

فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضا؛ إذ كانت نفسه ﷺ ترغب في أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضا؛ متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر والاحتفال به أدنى احتفال؛ وأن تظل حياته وحياة من يلوذون به على ذلك الأفق السامي الوضيء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا و أو شابها. لا بوصفه حلالاً وحرامًا فقد تبين الحلال والحرام ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكاك من هواتف هذه الأرض الرخيصة[(٣)]!

الهجر شهرًا

لقد بلغ الأسى برسول الله ﷺ كل مبلغ بعد هذه الأحداث المتتالية.. وغضب غضبًا شديدًا ولكنه غضب محجم يتحكم فيه صاحب النفس الراقية العالية فلم يطلق نساءه في ثورة غضبه، وإنما احتجب عنهم شهرًا كاملا[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج (٢٣٥٩٠) وانفرد به.

(٢) الظلال ٥/ ٢٨٥٤.

(٣) الظلال ٥/ ٢٨٥٤.

(٤) تورد كتب التفسير حادثة احتجاب رسول الله ﷺ عن نسائه وكأنها حدثت مرتين الأولى عند مطالبتهم بالنفقة عند تفسير آيات سورة الأحزاب والثانية عند تظاهر الزوجتين عليه عند تفسير سورة التحريم.. ولكن رواة السيرة لا يذكرون أن رسول الله ﷺ احتجب عن أزواجه إلا مرة واحدة كما سنرى بعد ذلك فرأيت جمع الحدثين هنا كأسباب متعددة كان نتيجتها احتجاب رسول الله ﷺ واعتزاله نسائه شهرًا.. وهذا اجتهاد مني بعد دراسة أرجو أن يصلني آرائكم حولها سواء وفقت في اجتهادي أم أخفقت ويغفر الله لنا جميعًا.

الكتاب المفتوح

قلنا أن الغضب وصل برسول الله ﷺ مداه حتى آل من نسائه لا يقربهن شهرًا.. وقد أشيع في المدينة أن النبي ﷺ طلق أزواجه.. وهنا عادت الرجة إلى المدينة وانشغلت ببيت النبي ﷺ مرة أخرى.. واقتربوا أكثر من هذا البيت بتدبير من الله -تعالى- ليتدربوا على إدارة الحياة الزوجية في أصعب أحولها .

صلى الله عليك يا حبيبي يا رسول الله.. إذ كنت تستطيع أن تعيش هادئ البال كأي زوج لا يعلم عنك الناس شيئًا، إلا أنك مصدر التشريع والتربية والتوجيه فلابد أن تكون نموذجًا معروضًا على الناس ليتعلموا.

(يجعل الله حياته ﷺ الخاصة والعامة كتابًا مفتوحًا لأمته وللبشرية كلها، تقرأ فيه صورة هذه العقيدة وترى فيه تطبيقاتها الواقعية، ومن ثم لا يجعل فيها سرًا مخبوءًا، ولا سترًا مطويًا، بل يعرض جوانب كثيرة منها في القرآن، ويكشف منها ما يطوى عادة عن الناس في حياة الإنسان العادي. حتى مواضع الضعف البشري الذي لا حيلة فيه لبشر، بل إن الإنسان ليكاد يلمح القصد في كشف هذه المواضع في حياة الرسول ﷺ لكل الناس!

إنه ليس له في نفسه شيء خاص. فهو لهذه الدعوة كله، فعلام يختبئ جانب من حياته ﷺ أو يخبأ؟ إن حياته هي المشهد المنظور القريب الممكن التطبيق من هذه العقيدة؛ وقد جاء ﷺ ليعرضها للناس في شخصه، وفي حياته، كما يعرضها بلسانه وتوجيهه، ولهذا خلق، ولهذا جاء. ولقد حفظ عنه أصحابه ﷺ ونقلوا للناس بعدهم جزاهم الله خيرًا، أدق تفصيلات هذه الحياة. فلم تبق صغيرة ولا كبيرة حتى في حياته اليومية العادية، لم تسجل ولم تنقل.. وكان هذا طرفًا من قدر الله في تسجيل حياة هذا الرسول، أو تسجيل دقائق هذه العقيدة مطبقة في حياة الرسول، فكان هذا إلى جانب ما سجله القرآن الكريم من هذه الحياة السجل الباقي للبشرية إلى نهاية الحياة) [1].

---

(١) الظلال ٥/ ٣٦٠٩-٣٦١٠.

صدى بيت النبوة

أما وقع هذا الحادث على رسول الله ﷺ وعلى أزواجه بل وعلى المدينة كلها -حادث إيلاء النبي ﷺ من أزواجه- فيصوره الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس -رضي الله عنهما- ،وهو يرسم كذلك جانبًا من صورة المجتمع الإسلامي يومذاك..

قال ابن عباس : «لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر عن المرأتين من أزواج رسول الله ﷺ اللتين قال الله -تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]. حتى حج عمر وحججت معه، فلما كان ببعض الطريق عدل عمر وعدلت معه بالإداوة، فتبرز، ثم أتاني فسكبت على يديه فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان من أزواج النبي ﷺ اللتان قال الله -تعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].؟

الخبر من بيت النبوة

فقال عمر: واعجبًا لك يا ابن عباس! (قال الزهري: كره والله ما سأله عنه ولم يكتمه) قال: هي عائشة وحفصة. قال: ثم أخذ يسوق الحديث، قال: كنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، قال: وكان منزلي في دار أمية بن زيد بالعوالي، قال: فغضبت يومًا على امرأتي، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني. فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج رسول الله ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل!

عمر يراجع

قال: فانطلقت فدخلت على حفصة فقلت: أتراجعين رسول الله ﷺ؟ قالت: نعم! قلت: وتهجره إحداكن اليوم إلى الليل؟ قالت: نعم! قلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هي قد هلكت؟ لا تراجعي رسول الله ﷺ ولا تسأليه شيئًا وسليني من مالي ما بدا لك، ولا يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم -أي أجمل- وأحب إلى رسول الله ﷺ منك؛ يريد عائشة.

الخبر الأليم

قال: وكان لي جار من الأنصار وكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ وينزل يومًا وأنزل يومًا، فيأتيني بخبر الوحي وغيره وآتيه بمثل ذلك. قال: وكنا نتحدث أن غسان تنحل الخيل لتغزونا. فنزل صاحبي يومًا ثم أتى عشاء فضرب بابي ثم نادى، فخرجت إليه، فقال: حدث أمر عظيم، فقلت وما ذاك؟ أجاءت غسان؟ قال: لا. بل أعظم من ذلك وأطول! طلق رسول الله ﷺ نساءه! فقلت: قد خابت حفصة وخسرت! قد كنت أظن هذا كائنًا.

الحصير والمشربة

حتى إذا صليت الصبح شددت عليَّ ثيابي ثم نزلت فدخلت على حفصة وهي تبكي. فقلت: أطلقكن رسول الله ﷺ؟ فقالت: لا أدري. هو ذا معتزل في هذه المشربة. فأتيت غلامًا أسود فقلت: استأذن لعمر. فدخل الغلام ثم خرج إلى فقال: ذكرتك له فصمت! فانطلقت حتى أتيت المنبر، فإذا عنده رهط جلوس يبكي بعضهم، فجلست عنده قليلاً، ثم غلبني ما أجد، فأتيت الغلام فقلت: استأذن لعمر. فدخل ثم خرج إلى فقال: ذكرتك له فصمت! فوليت مدبراً فإذا الغلام يدعوني. فقال: ادخل قد أذن لك. فدخلت فسلمت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمل حصير قد أثر في جنبه، فقلت: أطلقت يا رسول الله نساءك؟ فرفع رأسه إلى وقال: «لا».

النبي وطيبات الدنيا

فقلت: الله أكبر! لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قومًا نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة وجدنا قومًا تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم، فغضبت على امرأتي يومًا، فإذا هي تراجعني، فأنكرت أن تراجعني، فقالت: ما تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل. فقلت: قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر! أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله؛ فإذا هي قد هلكت؟ فتبسم رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، قد دخلت على حفصة فقلت: لا

يغرنك إن كانت جارتك هي أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ فتبسم أخرى. فقلت: أستأنس يا رسول الله! قال: «نعم» فجلست، فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت في البيت شيئًا يرد البصر إلا هيبة مقامه فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله، فاستوى جالسًا وقال: «أفي شك أنت يا بن الخطاب؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا» فقلت استغفر لي يا رسول الله وكان أقسم ألا يدخل عليهن شهرًا من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل..(١)

بيت القمة

وتنزل الآيات تضبط الأمر كله وتطرق على الحديد وهو ساخن تبدأ السورة بهذا العتاب من الله -سبحانه- لرسوله ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ١، ٢].

وهو عتاب مؤثر موح، فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله له من متاع، والرسول ﷺ لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعي؛ إنما كان قد قرر حرمان نفسه، فجاء هذا العتاب يوحي بأن ما جعله الله حلالاً فلا يجوز حرمان النفس منه عمدًا وقصدًا إرضاء لأحد.. والتعقيب: «وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».. يوحي بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخذة، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته، وهو إيحاء لطيف.

فأما اليمين التي يوحي النص بأن الرسول ﷺ قد حلفها، فقد فرض الله تحلتها، أي كفارتها التي يحل منها، ما دامت في غير معروف والعدول عنها أولى.. «وَاللهُ مَوْلاَكُمْ».. فهو يعينكم على ضعفكم وعلى ما يشق عليكم، ومن ثم فرض تحلة الأيمان، للخروج من العنت والمشقة.. «وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ».. يشرع لكم عن علم حكمة، ويأمركم بما يناسب طاقتكم وما يصلح لكم. فلا تحرموا إلا ما حرم، ولا تحلوا غير ما أحل، وهو تعقيب يناسب ما قبله من توجيه.

---

(١) وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي من طرق عن الزهري بهذا النص..

ثم يشير إلى الحديث ولا يذكر موضوعه ولا تفصيله، لأن موضوعه ليس هو المهم، وليس هو العنصر الباقي فيه. إنما العنصر الباقي هو دلالته وآثاره:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا.... ﴾

ومن النص نطلع على نموذج من تلك الفترة العجيبة في تاريخ البشرية، الفترة التي يعيش فيها الناس مع السماء. والسماء تتدخل في أمرهم علانية وتفصيلا، ونعلم أن الله قد أطلع نبيه على ما دار بين زوجيه بشأن ذلك الحديث الذي أسره إلى بعض أزواجه وأنه ﷺ حين راجعها فيه اكتفى بالإشارة إلى جانب منه. ترفعًا عن السرد الطويل، وتجملاً عن الإطالة في التفصيل؛ وأنه أنبأها بمصدر علمه وهو المصدر الأصيل:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣].

والإشارة إلى العلم والخبرة هنا إشارة مؤثرة في حالة التآمر والمكايدات المحبوكة وراء الأستار! ترد السائلة إلى هذه الحقيقة التي ربما نسيتها أو غفلت عنها، وترد القلوب بصفة عامة إلى هذه الحقيقة كلما قرأت هذا القرآن.

توبة الطاهرات

ويتغير السياق من الحكاية عن حادث وقع إلى مواجهة وخطاب للمرأتين كأن الأمر حاضر:

﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

وحين نتجاوز صدر الخطاب، ودعوتهما إلى التوبة لتعود قلوبهما فتميل إلى الله، فقد بعدت عنه بما كان منها.. حين نتجاوز هذه الدعوة إلى التوبة نجد حملة ضخمة هائلة وتهديدًا رهيبًا مخيفا..

ومن هذه الحملة الضخمة الهائلة ندرك عمق الحادث وأثره في قلب رسول الله ﷺ

حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالاة الله وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد ذلك ظهير! ليطيب خاطر الرسول ﷺ ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطير!

ولا بد أن الموقف في حس رسول الله ﷺ وفي محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذي يتناسب مع هذه الحملة، ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص ومما جاء في الرواية على لسان الأنصاري صاحب عمر -رضي الله عنهما- وهو يسأله: جاءت غسان؟ فيقول: لا. بل أعظم من ذلك وأطول. وغسان هي الدولة العربية الموالية للروم في الشام على حافة الجزيرة، وهجومها إذ ذاك أمر خطير، ولكن الأمر الآخر في نفوس المسلمين كان أعظم وأطول! فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير، وسلام هذا البيت الكريم أكبر من كل شأن، وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم! وهو تقدير يوحي بشتى الدلالات على نظرة أولئك الناس للأمور. وهو تقدير يلتقي بتقدير السماء للأمر، فهو إذًا صحيح قويم عميق.

النماذج المطلوبة

وكذلك دلالة الآية التالية، وتفصيل صفات النساء اللواتي يمكن أن يبدل الله النبي بهن من أزواجه ولو طلقهن مع توجيه الخطاب للجميع في معرض التهديد:

﴿عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥].

وهي الصفات التي يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح.

الإسلام الذي تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين.. والإيمان الذي يعمر القلب وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل، والقنوت وهو الطاعة القلبية. والتوبة وهي الندم على ما وقع من معصية والاتجاه إلى الطاعة. والعبادة وهي أداء الاتصال بالله والتعبير عن العبودية له. والسياحة وهي التأمل والتدبر والتفكر في إبداع الله والسياحة بالقلب في ملكوته، وهن مع هذه الصفات من الثيبات ومن الأبكار، كما أن نساءه الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر.

وهو تهديد لهن لا بد كان له ما يقتضيه من تأثير مكايداتهن في قلب رسول الله ﷺ وما كان ليغضب من قليل!

وقد رضيت نفس النبي ﷺ بعد نزول هذه الآيات، وخطاب ربه له ولأهل بيته. واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة، وعاد إليه هدوءه بتوجيه الله -سبحانه، وهو تكريم لهذا البيت ورعاية تناسب دوره في إنشاء منهج الله في الأرض وتثبيت أركانه.

النبي الرجل

وبعد فهذه صورة من الحياة البيتية لهذا الرجل الذي كان ينهض بإنشاء أمة، وإقامة دولة على غير مثال معروف، وعلى غير نسق مسبوق. أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية في صورتها الأخيرة، وتنشئ في الأرض مجتمعًا ربانيًا، في صورة واقعية يتأسى بها الناس.

وهي صورة من حياة إنسان كريم رفيع جليل عظيم، يزاول إنسانيته في الوقت الذي يزاول فيه نبوته، فلا تفترق هذه عن تلك؛ لأن القدر جرى بأن يكون بشرًا رسولاً، حينما جرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر أو منهج الحياة الأخير.

إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل، ومن كمالها أن يظل الإنسان بها إنسانًا، فلا تكبت طاقة من طاقاته البانية، ولا تعطل استعدادًا من استعداداته النافعة؛ وفي الوقت ذاته تهذبه وتربيه، وترتفع به إلى غاية مراقبة.

وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به، حتى استحالوا نسخًا حية منه، وكانت سيرة نبيهم وحياته الواقعية، بكل ما فيها من تجارب الإنسان، ومحاولات الإنسان، وضعف الإنسان، وقوة الإنسان، مختلطة بحقيقة الدعوة السماوية، مرتقية بها خطوة خطوة -كما يبدو في سيرة أهله وأقرب الناس إليه- كانت هي النموذج العملي للمحاولة الناجحة، يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية، التي لا تعيش في هالات ولا في خيالات!

وتحققت حكمة القدر في تنزيل الرسالة الأخيرة للبشر بصورتها الكاملة الشاملة المتكاملة، وفي اختيار الرسول الذي يطيق تلقيها وترجمتها في صورة، وفي جعل حياة هذا الرسول كتابًا مفتوحًا يقرؤه الجميع، وتراجعه الأجيال بعد الأجيال..

﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ﴾

وفي ظلال هذا الحادث الذي كان وقعه عميقًا في نفوس المسلمين، يهيب القرآن بالذين آمنوا ليؤدوا واجبهم في بيوتهم من التربية والتوجيه والتذكير، فيقوا أنفسهم وأهليهم من النار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

إن تبعة المؤمن في نفسه وفي أهله تبعة ثقيلة رهيبة. فالنار هناك وهو متعرض لها هو وأهله، وعليه أن يحول دون نفسه وأهله ودون هذه النار التي تنتظر هناك. إنها نار فظيعة مستعرة: «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ».. الناس فيها كالحجارة سواء.. في مهانة الحجارة.. وفي رخص الحجارة، وفي قذف الحجارة، دون اعتبار ولا عناية. وما أفظعها نارًا هذه التي توقد بالحجارة! وما أشده عذابًا هذا الذي يجمع إلى شدة اللذع المهانة والحقارة! وكل ما بها وما يلابسها فظيع رهيب: «عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ».. تتناسب طبيعتهم مع طبيعة العذاب الذي هم به موكلون.. «لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».. فمن خصائصهم طاعة الله فيما يأمرهم، ومن خصائصهم كذلك القدرة على النهوض بما يأمرهم.. وهم بغلظتهم هذه وشدتهم موكلون بهذه النار الشديدة الغليظة، وعلى المؤمن أن يقي نفسه وأن يقي أهله من هذه النار، وعليه أن يحول بينها وبينهم قبل أن تضيع الفرصة ولا ينفع الاعتذار.

عائشة..وآلام الفراق

لقد كان الألم يعتصر أمنا عائشة -رضي الله عنها- على حبيبها ﷺ وقد كانت ضمن من سبب له كل هذا التعب..

ويأتيها الخبر أن رسول الله ﷺ يأوي إلى خزانة له ذات مشربة (شرفة عالية على جذع شجرة) يصعد إليها على جذع خشن من جذوع النخل.. ويجلس غلامه رباح على عتبتها ما أقام عليه الصلاة والسلام فيها فيزيد هذا همها همًا وألمها ألمًا على ما اشتركت فيه ليكون سببًا لكل ذلك.

أرق اعتذار

وطارت البشرى إلى أمهات المؤمنين أن النبي ﷺ عائد إلى بيته بعد إيلائه منهم وهجرهن.. لمدة تسعة وعشرين يومًا.

ودخل أول ما دخل بيت عائشة -رضي الله عنها- واستقبلته -رضي الله عنها- استقبال العروس لحبيبها وقالت معتذرة.

«بأبي أنت وأمي يا نبي الله قلت كلمة لم ألق لها بالاً فغضبت على».

فابتسم رسول الله ﷺ مغاضبًا.. فأخذت تسترضيه حتى رضي.. فعادت إليها طبيعة الأنثى وأرادت أن ترى قدرها عند حبيبها فقالت:

«أقسمت أن تهجرنا شهرًا ولم يمض منه غير تسع وعشرين»؟

لقد كانت تحصى أيام الفراق يومًا يومًا... فاتسعت ابتسامة رسول الله ﷺ وقال لها:

إن الشهر ثلاثون وتسع وعشرون ليلة ياعائشة [١].

اخترت الله ورسوله

لم ينته الأمر عند ذلك فقد بقي أمر مهم وعظيم يحتاجه البيت النبوي وتحتاجه البيوت المسلمة لندرك دورها في الحياة وأيضًا تكون بطلتنا عائشة هي صاحبة الدور الرئيس فيه.

---

(١) تراجم سيدات بيت النبوة ص ٢٧٨- ٢٧٩.

لقد نزل اليوم على رسول الله قرآن بعد هذا الموقف..

نعم هو قرآن مثل كل ما نزل من قبل ولكنه له ميزة أخرى إنه خاص... نعم خاص جدًا.. ثم إنه موجه إلى بيت رسول الله ﷺ

لنستمع إلى أمين الوحي يتلوه...

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ۞ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨- ٢٩].

وإذا قال الله لنبيه قل.. فلابد أن يقول ولأمر ما في نفس الحبيب ﷺ أتركم تتصوروه أو تحذروه.. بدأ بعائشة!!

تقول -رضي الله عنها: «إن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله -تعالى- أن يخير أزواجه. قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال: إني ذاكر لك أمرًا فلا عليك أن لا تستعجلي، حتى تستأمري أبويك.. وقد علم أن أبواي لم يكونا يأمراني بفراقه. قال: إن الله -تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ﴾ثم تلا عليها الآيتين فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟

فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة.

وفي رواية أن النبي ﷺ فرح بردها فقالت له: لا تخبر نساءك بما قلت حتى يجبن.. فقال ﷺ إني بعثت معلمًا وليس معنفًا، ما سألتني إحداهن حتى أجيبها.

وذهب إلى بقية نسائه فكن يسألنه ماذا قالت عائشة؟ فيخبرهن بما قالت فكن يقلن وهل نقول إلا ما قالت عائشة نختار الله ورسوله.. وكان تحته تسعة نساء يومئذ خمس من قريش عائشة وحفصة وأم حبيبة وسودة وأم سلمة -رضي الله عنهن- وصفية بنت حيي النضيرية وميمونة بنت الحارث الهلالية وزينب بنت جحش الأسدية وجويرية بنت الحارث المصطلقية -رضي الله عنهن- وأرضاهن جميعًا[1].

(١) ابن كثير ج ٦ ص ٢٥٧.



ليالى عائشة

والآن وبعد أن وقفنا مع أم المؤمنين - أفضل النساء- عند أهم المحطات المؤثرة في حياتها نعود إلى أيامها ولياليها مع رسول الله ﷺ

قال لي أحد الشباب يوما: أنا غير سعيد بما ورد في كتب السنة حول الحياة الخاصة لرسول الله ﷺ وتلك التفاصيل الدقيقة التي تروى عن حياته ﷺ والتي تروي أكثرها أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قلت له: وما ينغص عليك سعادتك من هذه الأحوال قال: إنني أشعر بقلق عندما تتسرب أي حادثة خاصة بين أمي وأبي خارج حجرة نومهما فما بالك بالحياة الخاصة لرسول الله ﷺ!!

قلت إذا معك الحق وكلنا كذلك، ولكن الفرق أننا بشر عاديون نمر في هذه الحياة فلا يتعدي تأثيرنا في الغالب محيط حياتنا ولا يهتم أحد بما نبديه من آراء وتصرفات وسلوكيات حول أحوال حياتنا.. أما محمد ﷺ فقد كان بشرًا مختلفًا.. ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠].. نعم... الوحي هو ما يفرق بيننا وبينه ،وهذا الوحي متمثل في القرآن الكريم وفي سنته ﷺ حتى عبر القرآن عن ذلك بأن محمدًا هذا في ذاته وحي ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

وحتى نتلقى منه القواعد الأساسية لسير الحياة في كل زمان ومكان.. ولا يكفى لهذا التلقي وتأكيده الكلام والتوجيهات وإنما لابد من حياة كاملة يعيشها النبي ﷺ لتعلم أن ما يأتي به يمكن أن يعاش.. ولذلك نجده ﷺ ما توجد حالة من حالات البشر أو دور من أدوارهم أو شكل من أشكال السلوكيات المحتمل في الحياة إلا ونجد عنده ﷺ ما يدل عليه من طرف ما قريب أو بعيد..

أما عائشة فهي شيء آخر.. هي حياته الكاملة بكل تفاصيلها.. هي العقلية الخام التي

كتبت عليها سطور هذه الحياة، هي الحياة الممتدة منذ أن كان عمرها ست سنوات، وحتى وفاتها عن عمر يقرب من الستين.. هي التي تدربت في مدرسة النبوة تدريبًا كاملاً.

وكان نقل تفاصيل هذه المدرسة مهمة خاصة وكأنها كلفت بها.. فأتمتها بنجاح.

والآن يا صديقي تعال ندعو أنفسنا على موائد النبي ﷺ في بيته في أيامه ولياليه مع عائشة -رضي الله عنها.

وأترك لك حق التعليق في نهاية المطاف.

أحب الناس

لم ينكر ﷺ يومًا أن لعائشة منزلة خاصة في قلبه ليس فقط أعلى من زوجاته ولكن أعلى من الناس جميعًا... وهذا عمرو بن العاص ينقل إلينا تصريحه ﷺ بهذه المنزلة.

عن أبي عثمان النهدي: سمعت عمرو بن العاص يقول: بعثني رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل، وفي القوم أبو بكر وعمر، فحدثت نفسي أنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمنزلة لي عنده. قال فأتيته حتى قعدت بين يديه فقلت: يا رسول الله، من أحب الناس إليك؟

قال: «عائشة»؟

قلت: إني لست أسألك عن أهلك.

قال: «فأبوها».

قلت: ثم من؟

قال: «عمر».

قلت: ثم من؟

حتى عدد رهطًا.

قال: قلت في نفسي: لا أعود أسأل عن هذا.

وفي رواية: قال عمرو: فسكت مخافة أن يجعلني في آخرهم[(١)].

وإننا لنلمح أثار هذا الحب القلبي الشديد لعائشة في كل سلوكه ﷺ فيما يخصها.. وإن كانت ضوابط الشرع وتقاليد البيوت وانضباط السلوكيات مقدم على هذا الحب كما رأينا إلا أن جميع تصرفات النبي ﷺ مع عائشة كانت تنبثق عن هذا الحب.

المسايرة في السفر

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه فطارت القرعة على عائشة -رضي الله عنها- وحفصة فخرجتا معه .

وكان رسول الله ﷺ إذا كان بالليل سار مع عائشة -رضي الله عنها- فيتحدث معها وهي في هودجها تستمع إليه، فقالت حفصة لعائشة: ألا تركبين الليلة بعيري وأركب بعيرك فتنظرين وأنظر. قالت: بلي.

فركبت عائشة -رضي الله عنها- على بعير حفصة -رضي الله عنها- وركبت حفصة -رضي الله عنها- على بعير عائشة -رضي الله عنها- فجاء رسول الله ﷺ إلى بعير عائشة - رضي الله عنها- وعليه حفصة فسلم ثم سار معها حتى نزلوا .وافتقدته عائشة -رضي الله عنها- فغارت فلما نزلوا جعلت تجعل رجليها بين الإذخر وتقول: يا رب سلط عليَّ عقربا أو حية تلدغني. رسولك ولا أقول له شيئًا[(٢)].

فهو يحب مسايرتها في السفر يحدثها أثناء الطريق كأي محب يساير محبوبته وهي لا زالت تقودها فطرتها الأنثوية تريد أن ترى دائمًا منزلتها عنده.. حتى تخدعها هذا الفطرة مرة وتستطيع حفصة بذكاء المجربة أن تأخذ منها هذه الحظوة ليلة فيا لها من ليلة.. فاتها فيها مسايرة رسول الله ﷺ.

وما أشد ندم المحبوب على لحظات يسمع فيها نجوى حبيبه حتى كادت أن تهلك نفسها بطريقة طفولية جميلة على ما فوتته على نفسها في هذه الليلة.

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ٢٧٥.

(٢) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة (٤٤٧٧).

الناقة الهدية:

نعم! أهداها لها رسول الله ﷺ مع توجيه تربوي رائع لما رآها تقسو بعض الشيء عليها..

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «أعطاني رسول الله ﷺ ناقة سوداء كأنها فحمة صعبة قالت: فمسحها ودعا عليها بالبركة. قال: **اركبي وارفقي بها فإنه لم يجعل الرفق في شيء إلا زانه ولم ينزع الرفق من شيء إلا شانه**»(١).

وا عروساه:

هل تصدقون أن النبي ﷺ عندما يفتقد عائشة في بعض أسفاره ينادي عليها فزعاً بهذا النداء الذي فيه ما فيه من الدلالات: وا عروساه.. وا عروساه..

أترككم مع القصة... وأدع خيالكم يتصور الموقف وأدع مشاعركم ترهف مع ذلك الإحساس الذي يصيب المرء عندما يردد مع رسول الله ﷺ في لهفة (وا عروساه).

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت خرجت مع رسول الله ﷺ في سفرفلما كنا بالجرف انصرفنا وأنا على جمل قد شرد بي، فكان آخر العهد منهم وأنا أسمع صوت النبي ﷺ وهو بين ظهري ذلك الحي وهو يقول: وا عروساه.

قالت: والله إني لعلى ذلك إذ نادى مناد أن ألق الخطام فألقيته فأعلقه الله تعالى بيده.

فلتتعلم النساء:

نعم ... يتعلمن من القصة التالية كيف تكون مداعبة المرأة زوجها وأي رقة تلك التي تسيل وأي نعومة ترفرف مع هذه الكلمات.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «قلت يا رسول الله أرأيت لو نزلت وادياً فيه شجرة قد أكل الناس منها ووجدت شجرة لم يؤكل منها أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: في التي لم يرتع منها»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٤١٧).

(٢) الرتع هو الخصب المتسع.

تعني أن النبي ﷺ لم يتزوج بكرًا غيرها

أعظم ليلة:

نعم تلك الليلة التي أخبرها حبيبها محمد ﷺ أنها زوجته في الدنيا والآخرة .. بل وزوجته في الجنة.

عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ ذكر فاطمة -عليها السلام-(أي مكانتها وأنها خير نساء العالمين بعد مريم).

قالت: فتكلمت أنا (كأنها غارت) فقال: **«أما ترضين أن تكوني زوجي في الدنيا والآخرة؟** قالت: بلي. قال: **فأنت زوجي في الدنيا والآخرة»**.

وعنها -رضي الله عنها- قالت: يا رسول الله، من أزواجك في الجنة قال: أما أنك منهن.

وعنها -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: **«يا عائشة إنه ليهون علي الموت أني رأيتك زوجتي في الجنة»** وفي رواية: **«ما أبالى بالموت منذ علمت أنك زوجتي في الجنة»**.

وعنها -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: **«لقد رأيت عائشة في الجنة»**.

وعنها -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ قال: **«لقد رأيت عائشة في الجنة كأني أنظر إلى بياض كفيها ليهون علي بذلك عند موتي»**.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن إسماعيل، عن مصعب بن إسحاق بن طلحة، وعنها أن النبي ﷺ: قال: **«إنه ليهون علي أني رأيت بياض كف عائشة في الجنة»**.

ليلة صبره عليها ﷺ:

وعنها -رضي الله عنها- قالت: خرجت مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع وخرج معه نساؤه قالت: وكان متاعي فيه خف وكان على جمل ناجب وكان متاع صفية بنت حيي فيه ثقل، وكان على جمل ثقال بطيء فقال رسول الله ﷺ: حولوا متاع عائشة على جمل

صفية وحولوا متاع صفية على جمل عائشة حتى يمضي الركب.

قالت عائشة -رضي الله عنها- فلما رأيت ذلك قلت: يالعباد الله غلبتنا هذه اليهودية على رسول الله ﷺ.

قالت: فقال رسول الله ﷺ: **يا أم عبد الله إن متاعك كان فيه خف وكان متاع صفية فيه ثقل فأبطأ بالركب فحولنا متاعها على بعيرك وحولنا متاعك على بعيرها.**

قالت: فقلت: ألیس تزعم أنك رسول الله ....

قالت: فتبسم وقال: **أو في شك أنت يا أم عبد الله؟!**

قالت: فسمعني أبو بكر وكان فيه عرب (أي حدة) فأقبل علي ولطم وجهي.

فقال ﷺ: **مهلاً يا أبا بكر.**

فقال: يا رسول الله أولم تسمع ما قالت.

فقال ﷺ: **إن الغيرة لا تبصر أسفل الوادي من أعلاه.**

رجل رائع:

عليه الصلاة والسلام .. وقد تكون اللغة غير معبرة إلا أنك عزيزي القارئ تستشعر معنى (الروعة) عندما تسمع ما حدث في هذه الليلة.

إنه الحبيب ﷺ يدخل بيته فماذا يفعل؟

كل ما استطاعت أمنا -رضي الله عنها- أن تخبر به أن قالت: (فذكرت شيئاً صنعه بيده) إلا أن رواية أخرى كانت أكثر تفصيلاً لما كان يفعله ﷺ عند دخوله على عائشة...

تقول -رضي الله عنها: «وكان إذ دخل عليَّ وضع ركبته على فخذي ويديه علي عاتقي ثم أكب فأحنى عليّ» وأحني عليّ أي انحنى نحوي ليقبلني.

وليس هنا موقف الروعة إلا أن نتعلم نحن الرجال ماذا نفعل عندما ندخل بيوتنا.

ولكن الأروع هو أن أم سلمة زوج النبي ﷺ كانت في زيارة عائشة هذه الليلة ولم يلحظ وجودها رسول الله ﷺ ..

لقد ملأت عائشة كل عينيه ﷺ فلم ير غيرها.

وهنا دبت الغيرة في قلب أم سلمة .. لأنه وإن كان النبي كريمًا في معاملاته مع زوجاته جميعاً إلا أن لعائشة وضع خاص ... وانطلقت أم سلمة تعلن عن غضبها وتبين أنهن معه مخدوعات .. ثم اشتد غضبها لتسب عائشة وهنا تبدو ملامح الروعة حيث يدع الفرصة لعائشة أن ترد عليها وتفرغ ما في صدرها ... حتى تنصرف أم سلمة مهزومة لأنها تعدت على الحبيبة عائشة بلا ذنب جنته ...

يا الله ...

إن نبينا لم يأتنا بما أتى به من برج عاج، ولم يأمرنا بما أمرنا به من الرفق بالنساء والصبر عليهن من صومعة فوق شجرة .. وإنما فعل ذلك كله من هناك من داخل بيت فيه نساء .. بشر كأي بشر ... رضي الله عنهن جميعاً.

وأيضاً تروي لنا القصة عائشة رضي الله عنها بأسلوبها الخاص الذي أحببناه وألفناه:

قالت كانت عندنا أم سلمة فجاء رسول الله ﷺ عند جنح الليل فذكرت شيئاً صنعه بيده، قالت: وجعل لا يفطن بأم سلمة قالت: وجعلت أومئ إليه حتى فطن.

فقالت أم سلمة: هكذا الآن أما كانت واحدة منا عندك إلا في خلابة[1] كما أرى، وسبت عائشة وجعل النبي ﷺ ينهاها فتأبى. فقال النبي ﷺ: سبيها فسبتها فانطلقت أم سلمة».

وعن أنس ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ في بيت عائشة -رضي الله عنها- فجاءت زينب فمد يده إليها فقالت هذه زينب. فكف رسول الله ﷺ يده.

يا حبيبي يا رسول الله:

نعم قلت هذه الكلمة عندما حضرت هذه الليلة من ليالي عائشة .. وتذكرت زوجتي التي كانت مثل كل النساء يشتد يقينها بالحسد والعين وأنا دائماً مثل كل الرجال

(١) الخلابة: أي الخديعة .. أي أنهن لا ينلن ما تناله عائشة عند دخوله ﷺ.

أهون من هذا الأمر وأثبت لها بالقرائن والحجج أن قدر الله واقع وأن .. وأن .. وهي مسكينة تحاول أن تقنعني أن العين حق .. وكنت أستطيع أن أنهي الحوار بل وأفرح قلبها وأسترضيه كما فعل ﷺ..

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «أمرني ﷺ أن أسترقي من العين»[(١)]

احبي هذه:

التقيت بأحد المسلمين الشباب الأفاضل في دولة عربية وتعرفت عليه فأخبرني أن أسرته من الشيعة الإمامية الاثنى عشرية [(٢)] وأنه وأبوه قبله قد تركا المذهب الشيعي وأصبحوا من عموم المسلمين الذين يتبعون سنة النبي ﷺ ويوقرون صحابة رسول الله جميعاً كما يجلون ويقدرون آل بيته -رضوان الله عليهم أجمعين ..

وقال لي فيما قال من أسباب تلك التوبة والعودة إلى جماعة المسلمين: أن أكثر ما كان يقلقه وهو بعد غلام صغير هو سب أمه لأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها .. حتى قال والعبرات تتدافع في عينيه: لقد كانت تسبها بما برأها الله منه.

قال:وكنت أرى بعقلي الصغير أن إيماننا بالقرآن يمنعنا عن ذلك .. وأن إيماننا بمحمد ﷺ يدعونا أن نحترم زوجاته.

ابتسمت له وهنأته على رجاحة عقله ونعمة الله له بالهداية ثم عدت إلى ليلة أخري من ليالى عائشة .. وهذه الليلة كانت مع حبيبة أخري من حبيبات النبي ﷺ .. وأعتذر لأمنا عائشة التي كانت تظن أن قلب النبي ﷺ لا يشغله غيرها لأخبرها بالحقيقة، لقد

---

(١) وتسترقي أي تطلب الرقيا أي يرقيها أحد.

(٢) الشيعة: أي الأتباع والأولياء قال تعالى بعد أن أخبر عن نوح: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣- ٨٤] وهم الذين كانوا مع علي رضي الله عنه في حروبه أثناء خلافته، والامامية هم من جاءوا بعد ذلك وجعلوا من أركان الإيمان الذي يكفر المسلم إذا لم يؤمن بها مع الأركان الستة للإيمان أن علي هو ولي الله والخليفة الذي أمر الله به بعد محمد ﷺ وأن الصحابة تواطأوا على منعه هذا الحق وسلبوه منه وأعطوه لأبي بكر وعمر من بعده والاثنا عشرية لأنهم يؤمنون أن الخلافة المنصوص عليها لعلي بعد النبي ﷺ هي لأولاده الأئمة المعصومين من بعده وهم اثنا عشر إمامًا آخرهم اختفى في سرداب وينتظرون خروجه ليعيد الحق الى أهله..

كانت تلك المرأةتشغل مكانة في قلب الحبيب ﷺ لا وجه لمقارنتها مع مكانة زوجته عائشة لقد كانت ذات مقام خاص. نعم! خاص جداً.

فاطمة بنت أبيها.

والآن نترك عائشة أيضاً تروي القصة، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت أرسل أزواج رسول الله ﷺ فاطمة -عليها السلام- بنت رسول الله ﷺ فاستأذنت عليه وهو مضطجع معي في مرطي[1] فأذن لها فقالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، وأنا ساكتة.

قالت: فقال لها رسول الله ﷺ: أي بنية ألست تحبين ما أحب.

قالت: بلى. قال: فأحبي هذه. قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فخرجت إلى أزواج النبي ﷺ فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال لها. فقلن: ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن نساءك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة. فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبداً».

وأحب أن أذكر رواية أخرى للحادثة بدل أن أعلق عليها.

فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: اجتمع أزواج رسول الله ﷺ فأرسلن فاطمة إلى النبي ﷺ فقلن لها: قولي له إن نساءك قد اجتمعن إليّ وهن يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة.

قالت عائشة -رضي الله عنها: فدخلت على النبي ﷺ وهو معي في مرط فقالت له: إن نساءك أرسلنني إليك وقد اجتمعن وهن ينشدنك العدل في بنت أبي قحافة فقال النبي ﷺ: أتحبينني؟ قالت: نعم. قال: فأحبيها. فرجعت إليهن وأخبرتهن بما قال لها. فقلن لها: إنك لم تصنعي شيئاً فارجعي إليه فقالت: لا والله لا أرجع إليه فيها أبدًا.

تقول عائشة: وكانت بنت أبيها حقاً.

سلام الله عليكم وبركاته آل البيت.

---

(١) المرط: الكساء يكون من صوف أو حرير.

وليلة دعاء

نعم لك كل الحق أن تفرحي يا أمي حتى تضحكين ويسقط رأسك من الضحك حين دعا لك النبي ﷺ.

ولنا الحق معك أن نفرح حين بشرنا أنه يدعو لأمته كلها في كل صلاة كما يدعو لك.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: لما رأيت من النبي ﷺ طيب النفس قلت: يا رسول الله ادع الله لي، فقال: «**اللهم اغفر لعائشة ما تقدم من ذنبها وما تأخر وما أسررت وما أعلنت**» فضحكت عائشة حتى سقط رأسها في حجرها من الضحك فقال لها رسول الله ﷺ: «**إنها لدعائي لأمتي في كل صلاة**».

وفي رواية أنها قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ادع الله أن يغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر قالت: «فرفع يديه حتى رأيت بياض إبطيه وقال: **اللهم اغفر لعائشة بنت أبي بكر مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنبا ولا تكسب بعدها خطيئة ولا إثماً**».

وقال رسول الله ﷺ: **أفرحت يا عائشة** فقلت: أي والذي بعثك بالحق. فقال: **أما والذي بعثني بالحق ما خصصتك بها من بين أمتي وإنها لصلاتي لأمتي في الليل والنهار فيمن مضى منهم ومن بقي إلى يوم القيامة وأنا أدعو لهم والملائكة يؤمنون على دعائي**».

وليلة تدخُّل أبوها:

نعم كانت ليلة .. ليلة تعارض حق الزوجة في الصبر عليها وتمرير بعض أخطائها مع حق ومقام النبوة في عقل أبي بكر أبي عائشة عندما تدخل ليصلح بينها وبين رسول الله ﷺ...

عن عائشة أنها كان بينها وبين النبي ﷺ كلام فقال لها: **من ترضين بيني وبينك أترضين بعمر** قالت: لا أرضى عمر قط، عمر غليظ. قال: **أترضين بأبيك بيني وبينك** قالت: نعم. قالت: فبعث إليه رسول الله ﷺ فقال: **إن هذه من أمرها كذا ومن أمرها كذا.** قالت فقلت: اتق الله ولا تقل إلا حقا، قالت: فرفع أبو بكر يده فرثم[1] أنفها وقال: لا أم

---

(١) رثم: أي ضربه فأدماه.

لك[1] يا ابنة أم رومان تقولين الحق وأبوك ولا يقوله رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **إنا لم ندعك لهذا.**

قالت: ثم قام أبو بكر إلى جريدة في البيت فجعل يضربها بها فولت هاربة منه فاتقت بظهر النبي ﷺ، قالت: حتى قال له رسول الله ﷺ: **أقسمت عليك لما خرجت فإنا لم ندعك لهذا**، فلما خرج أبو بكر ﷺ قامت فتنحت عن رسول الله ﷺ فقال: **ادني مني**. فأبت أن تفعل وفي رواية: فجعل النبي ﷺ يترضاها ويقول لها: **ألا ترين أني قد حلت بين الرجل وبينك** فلما أبت تبسم رسول الله ﷺ وقال: «**لقد كنت قبل شديدة اللزوق بظهري**».

وفي رواية: أن أبا بكر جاءهم بعدها فاستأذن فوجدهما يتضاحكان .. فقال: يا رسول الله أشركني في سلمكما كما أشركتني في حربكما.

وليلة خاصة جدا:

تعالوا يا معشر الأزواج لتتناولوا من هذا الدواء الذي يعتبر خير وقاية للمشكلات الزوجية، وهو الحوار الهامس الرقيق الذي يعبر كل طرف فيه عن حبه للآخر ..

فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «**إني لأعلم إذا كنت عني راضية، وإذا كنت علي غضبي**» قالت، فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: «**أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد وإذا كنت غضبى، قلت لا ورب إبراهيم**» قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله ! ما أهجر إلا اسمك.

انظروا إلى الذكاء عندما تختار إبراهيم خاصة دون غيره لأنه ﷺ أولى الناس به .. فإذا أرادت استبدال اسمه ﷺ استبدلته بمن هو أقرب إليه حتى لا تخرج عن دائرة التعلق به ﷺ وكأنها تقول له عندما قالت ما أهجر إلا اسمك قول الشاعر:

إني لأمنحك الصدود وإنني ... قسما إليك مع الصدود أميل

---

(١) لا أم لك: نوع من الذم.

وليلة ثقافية:

نعم! كان ﷺ يغذي عائشة بالمعلومات العامة التي تؤهلها لدورها التثقيفي التعليمي في الأمة بعده.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه، فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فأدخلني حجر إسماعيل وقال: **صل في الحجر إذا أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت ولكن قومك استقصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت**»

وفي رواية: أن رسول الله ﷺ قال: «**لولا حدثان قومك بكفر لنقضت الكعبة ولأدخلت فيها الحجر، فإن قومك قصرت بهم النفقة، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، يدخل الناس من أحدهما ويخرجون من الآخر، ولألصقت بابها بالأرض فإن قومك رفعوا بابها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا**».

وليالي الذكريات

عن عروة أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟

قال: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا به عليك، وقد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.**

فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين.

فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً»[1].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

وتسأل عن المطر

و عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال:

«اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أرسلت به».

قالت: وإذا عبيت السماء تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا أمطرت سري عنه. فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال:

«لعله يا عائشة كما قال قوم عاد ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤][(١)]

و عن سليمان بن يسار، عن عائشة أنها قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً قط، حتى أرى منه لهواته، إنما كان يتبسم.

وقالت: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، قالت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية، فقال: **«يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، قد عذب قوم نوح بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا»**[(٢)].

وتسأل عن أخلاق الجاهلية

وعن عائشة قالت: يا رسول الله، إن ابن جدعان كان يطعم الطعام، ويقري الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟

فقال: **«لا إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»**[(٣)].

---

(١) رواه مسلم في كتاب صلاة الاستسقاء (١٤٩٦).

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٤٥٤).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الإيمان (٣١٥).

وعن الطاعون

و عن عائشة قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون أخبرني:

«إنه عذاب يبعثه الله علي من يشاء من عباده، وأن الله جعله رحمة للمؤمنين، ليس من أحد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابراً محتسباً يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر شهيد»[(١)].

ويعلمها ﷺ رغم الغيرة

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «لما كانت ليلتي من رسول الله ﷺ انقلب رسول الله ﷺ فوضع نعليه عن رجليه ووضع رداءه وسط إزاره على فراشه فلم يلبث إلا ريثما ظن أني قد رقدت ثم انتعل رويداً وأخذ رداءه رويدا ثم فتح الباب وخرج وأجافه رويدا

فجعلت درعي في رأسي ثم تقنعت بإزاري فانطلقت في أثره حتى أتى البقيع فرفع يديه ثلاث مرات فأطال القيام ثم انحرف فأسرع فأسرعت فهرول فهرولت فأحفر فأحفرت فسبقته فدخلت

فليس إلا أن اضطجعت دخل فقال مالك يا عائشة قلت لا شيء قال لتخبرني أو يخبرني اللطيف الخبير قلت يا رسول الله، بأبي أنت وأمي فأخبرته الخبر فقال أنت السواد الذي رأيت أمامي قلت نعم قالت فلهزني[(٢)] في صدري لهزة أوجعتني ثم قال أظننت أن يحيف الله عليك ورسوله قالت فقلت مهما يكتم الناس فقد علمه الله

قال فإن جبريل أتاني حين رأيت ولم يكن يدخل عليك وقد رقدت وكرهت أن أوقظك وخشيت أن تستوحشي فأمرني أن آتي أهل البقيع فاستغفر لهم

قلت كيف أقول يا رسول الله؟، قال قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»[(٣)]

---

(١) أخرجه البخاري كتاب أحاديث الأنبياء (٣٢١٥).

(٢) لهزني أي دفعني وضربني واللهز الضرب بجميع الكف في الصدر ولهزه بالرمح إذا طعنه به.

(٣) متفق عليه.

وعن عروة بن الزبير، حدثه أن عائشة زوج النبي ﷺ حدثته أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً قالت: فغرت عليه، قالت: فجاء، فرأى ما أصنع، فقال: «**مالك يا عائشة أغرت**».

قالت: فقلت ومالى أن لا يغار مثلي على مثلك.

فقال رسول الله ﷺ: «**أفأخذك شيطانك**».

قالت يا رسول الله: أو معي شيطان؟

قال: «**نعم**».

قلت: ومع كل إنسان.

قال: «**نعم**».

قلت: ومعك يا رسول الله؟

قال: «**نعم ولكن ربي أعانني عليه حتى أسلم**»[1].

ليالي الغيرة:

عن عائشة قالت: أهدى ملك من بطارقة الروم يقال له: المقوقس جارية قبطية من بنات الملوك يقال لها: مارية، وأهدى معها ابن عم لها شاباً فدخل رسول الله ﷺ منها ذات يوم خلوته فأصابها فحملت بإبراهيم.

قالت عائشة: فلما استبان حملها جزعت من ذلك، فسكت رسول الله ﷺ فلم يكن لها لبن فاشترى لها ضأنة لبوناً تغذي منها الصبي، فصلح إليه جسمه وحسن لونه، وصفا لونه، فجاءته ذات يوم تحمله على عاتقها فقال: يا عائشة كيف ترين الشبه؟»

فقلت: أنا وغيري ما أري شبهاً.

فقال: «ولا اللحم؟».

(١) مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٥٠٣٥).

فقلت: لعمري من تغذى بألبان الضأن ليحسن لحمه[١].

قال ابن إسحاق: وكان فيمن أصيب يؤمئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار.

فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة، عن عائشة قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ لتستعينه في كتابتها قالت: فوالله ما هو إلا أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت[٢].

وعنها لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وهو عروس بصفية جئن نساء الأنصار فأخبرنني عنها قالت فتنكرت وتنقبت فذهبت فنظر رسول الله ﷺ إلى عيني فعرفني فالتفت والتفت فأسرعت المشي فأدركني فاحتضنني وقال كيف أنت قلت أرسلت يهودية وسط يهوديات[٣].

ليلة مزاح:

قال ابن الأثير في (أسد الغابة): روت حديثها عليلة بنت الكميت عن جدتها، عن وتحكي مولاة لحفصة اسمها خليسة أن حفصة وعائشة، مزحا يوما مع سودة بنت زمعة وكانت مخمومة القلب كبيرة السن،فأخبراها بأن الدجال قد خرج فاختبأت في بيت كانوا يوقدون فيه، واستضحكتا، وجاء رسول الله فقال: «ما شأنكما»؟

فأخبرتاه بما كان من أمر سودة، فذهب إليها فقالت: يا رسول الله، أخرج الدجال؟

فقال: «لا، وكأن قد خرج» فخرجت وجعلت تنفض عنها بيض العنكبوت[٤].

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت أتيت رسول الله ﷺ بحريرة طبختها له فقلت

---

(١) البداية والنهاية ٥/ ٢٦٥.

(٢) البداية والنهاية: ٤/ ١٨٢.

(٣) أخرجه ابن ماجه والحافظ الدمشقي في الموافقات.

(٤) البداية والنهاية ج٥ ص٢٨٣-٢٨٤.

لسودة والنبي ﷺ بيني وبينها كلي فأبت فقلت لها كلي وإلا لطخت وجهك فأبت فلطخت وجهها».

ونظرت أم أيمن (حاضنة النبي وأمه بعد أمه) إلى النبي ﷺ وهو يشرب فقالت: اسقني.

فقالت عائشة: أتقولين هذا لرسول الله ﷺ؟!.

فقالت: ما خدمته أطول.

فقال رسول الله ﷺ: «صدقت» فجاء بالماء فسقاها[1].

ليلة مات جعفر:

عن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لما أتى نعي جعفر عرفنا في وجه رسول الله ﷺ الحزن.

قالت: فدخل عليه رجل فقال: يا رسول الله، إن النساء عيينا وفتننا.

قال: «**ارجع إليهن فأسكتهن**».

قالت: فذهب، ثم رجع فقال له مثل ذلك.

قالت: وربما ضر التكلف- يعني أهله.

قالت: قال: «**فاذهب فأسكتهن فإن أبين فاحثوا في أفواههن التراب**».

قالت: وقلت في نفسي: أبعدك الله! فوالله ما تركت نفسك وما أنت بمطيع رسول الله ﷺ.

قالت: وعرفت أنه لا يقدر يحثي في أفواههن التراب.

وفي رواية أنها قالت - رضي الله عنها-: أرغم الله أنفك فوالله ما أنت تفعل ذلك، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء[2].

---

(١) ذكره الواقدي.

(٢) رواه مسلم.

وليالى تعليم وتوجيه:

هذه نصائح نبوية كانت تتلقاها عائشة لتعد مدرستها التي ستفتح بعد النبي ﷺ للمؤمنين يتعلمون منها الخير كله.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: دخل رسول الله ﷺ فرأي كسرة ملقاة فمشي ثم قال: يا عائشة، أحسني جوار نعم الله فإنها قل ما نفرت عن أهل بيت فكادت ترجع إليهم.

وعن أنس ﷺ قال: دخل رسول الله ﷺ على عائشة -رضي الله عنها- وهي موعوكة فقال ﷺ: مالى أراك هكذا قالت: بأبي أنت وأمي الحمى وسبتها فقال: يا عائشة لا تسبيها فإنها مأمورة وإن شئت علمتك كلمات إذا قلتيهن أذهب الله -عز وجل- عنك. قالت: بلي يا رسول الله. قال قولي: **«اللهم ارحم جلدي الدقيق وعظمي الرقيق من شدة الحريق يا أم ملدم إن كنت آمنت بالله العظيم فلا تصدعي علي الرأس ولا تغيري الفم ولا تأكلي اللحم ولا تشربي الدم وتحولي عني إلى من اتخذ مع الله إلهاً آخر وقالت: فقلتها فذهبت عني»**(١).

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله ﷺ عباءة مثنية فانطلقت فبعثت بفراش حشوه الصوف فدخل علي رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا عائشة، قالت: يا رسول الله، فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك فذهبت فبعثت إلى بهذا، قال: رديه يا عائشة، قالت: فلم أرده وأعجبني أن يكون في بيتي حتى قال ذلك ثلاث مرات، قالت: فقال رديه يا عائشة، فوالله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة.

عن عائشة قالت: دخل على رسول الله ﷺ وأنا مستترة بقرام فهتكه، ثم قال: **«إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله»**(٢).

وليالى السعادة:

نعم كانت عائشة مصدر سعادة وسكن لرسول الله ﷺ كانت مصدراً يتمناه كل

---

(١) أخرجه السرخسي. وأم ملدم هي الحمى.

(٢) البداية والنهاية ج٦ ص ١٤١ والقرام أي الثوب عليه صور.

زوج في بيته، تعالوا لنرى بعض الملامح التي نقلتها لنا -رضي الله عنها- تدل على هذه الروح التي كان ﷺ يجده في لياليها.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد بيني وبينه فيبادرني حتى أقول دع لي دع لي»(١).

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ يصلي وأنا على الفراش الذي ينام عليه وأنا بينه وبين القبلة»(٢).

عن عائشة -رضي الله عنها- «أنها كانت تنام مع رسول الله ﷺ في لحاف واحد وهي حائض وعليها ثوب».

وقالت: «سابقني رسول الله ﷺ فسبقته، فلبثنا حتى إذا أرهقني اللحم سابقني رسول الله ﷺ فسبقني، قال: «هذه بتلك»».

وعنها قالت: رضي الله عنها- كنت مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وكنت جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن فقال رسول الله ﷺ للناس تقدموا فتقدموا ثم قال يا عائشة تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقته فسكت حتى إذا حملت اللحم ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس تقدموا فتقدموا ثم قال تعالى أسابقك فسابقته فسبقني فجعل يضحك ويقول هذه بتلك»(٣).

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان رسول الله ﷺ يصلي ركعتي الفجر فإن كنت مستيقظة تحدث معي وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة وفي رواية اضطجع على شقه الأيمن. (٤)

وسعادة في رمضان:

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا اعتكف يدني إلى رأسه

---

(١) أخرجه النسائي كتاب الطهارة (٢٣٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة (٣٧٠).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٠٧٥).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الجمعة (١٠٩١).

فأرجله وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان»[(١)].

وفي لفظه أنها كانت ترجل رأس رسول الله ﷺ وهي حائض وهو معتكف في المسجد وهي في حجرتها يناولها رأسه.

وعنها -رضي الله عنها- قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليظل صائماً فيقبل أين شاء ومن وجهي حتى يفطر[(٢)]

وعنها -رضي الله عنها- وقيل لها: أكان رسول الله ﷺ يقبل وهو صائم؟ فضحكت وقالت: كان رسول الله ﷺ يقبل بعض نسائه وهو صائم. كأنها تعني نفسها[(٣)]

وعنها -رضي الله عنها- «أن النبي ﷺ كان يقبلها وهو صائم وأيكم يملك إربه كما كان رسول الله ﷺ يملك إربه».

وعنها -رضي الله عنها- وقد سئلت أكان رسول الله ﷺ يقبلها وهو صائم فسكتت ساعة ثم قالت: نعم.

وسعادة في العمرة:

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت طيبت رسول الله ﷺ بيدي بذريرة في حجة الوداع المحل والإحرام

وعنها -رضي الله عنها- قالت: طيبت رسول الله ﷺ حين حرمه بأطيب الطيب.. [(٤)]

زوج سهل لطيف:

وكان جار للنبي ﷺ طيب المرق، فصنع للنبي ﷺ طعاماً ثم جاء يدعوه فقال وهذه -لعائشة- قال: لا. قال النبي ﷺ: لا. ثم عاد يدعوه فقال: وهذه، قال: لا. قال النبي ﷺ: لا. ثم عاد يدعوه فقال رسول الله ﷺ: وهذه، قال: نعم في الثالثة فقاما يتدافعان

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الحيض (٤٤٥).

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٧٥).

(٣) الشيخان

(٤) أخرجها مسلم.

حتى أتيا منزله.[1]

التيسير:

عن جابر قال: أقبلنا مهلين بالحج وأقبلت عائشة مهلة بالعمرة حتى إذا كنا بسرف عركت[2] عائشة -رضي الله عنها- فدخل رسول الله ﷺ فوجدها تبكي فقال: **ما يبكيك،** قالت: شأني إني قد حضت، قال: «**إن هذا شيء كتبه الله على بنات آدم فاغتسلي ثم أهلي بالحج**».

ففعلت ووقفت المواقف كلها حتى إذا طهرت طافت بالكعبة وبالصفا والمروة ثم قال: **قد حللت من حجك وعمرتك جميعها**. فقالت: يا رسول الله، إني لأجد في نفسي أني لم أطف بالبيت حتى حججت، وكان رسول الله ﷺ رجلاً سهلاً إذا هويت الشيء تابعها عليه فأرسلها مع عبد الرحمن بن أبي بكر فأهلت بعمرة من التنعيم.

وينتظرها حتى تنهي عمرتها

عن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي ﷺ انتظرها في منزله بالمحصب حتى قضت عمرتها من التنعيم في جوف الليل، ثم أذن في أصحابه بالرحيل، فخرج فمر بالبيت فطاف به قبل صلاة الصبح

وفي رواية: فأتيا، يعني عبد الرحمن وعائشة رضي الله عنهما فقال: **فرغتما**، قلنا: نعم فنادى بالرحيل في أصحابه فارتحل الناس ثم خرج إلى المدينة[3].

وليلة أم زرع:

وهي ليلة طويلة ورد فيها روايتان الأولى أن رسول الله ﷺ هو الذي حدث عائشة والثانية أنها هي التي حدثت رسول الله ﷺ .

---

(١) مسلم

(٢) عركت: أي حاضت، تقول: عركت المرأة تعرك عروكا حاضت فهي عارك. قاله الجوهري.

(٣) البخاري ومسلم

وفي كلتا الحالتين هي ليلة جميلة بين زوجين طال بينهما الحوار والكلام وانتهت بسعادة وتناغم.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن شيئاً من أخبار أزواجهن

قالت الأولي: زوجي لحم جمل غث[١] على رأس جبل وعر لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل[٢].

وقالت الثانية: زوجي لا أبث[٣] خبره إني أخاف أن لا أذره إن أذكره أذكر عجره[٤] وبجره.

وقالت الثالثة: زوجي العشنق[٥] إن أنطق أطلق وإن أسكت أعلق[٦].

وقالت الرابعة: زوجي كليل تهامة لا حر ولا قر[٧] ولا مخافة ولا سآمة[٨].

وقالت الخامسة: زوجي إن دخل فهِد[٩] وأن خرج أسِد[١٠] ولا يسأل عما عهد.

وقالت السادسة: زوجي إن أكل لف[١١] وإن شرب اشتف[١٢] وإن نام التف ولا

---

(١) غث أي مهزول.

(٢) فينتقل أي فينقله الناس إلى بيوتهم فيأكلونه وهذه ذمته بسوء الخلق وعدم البر.

(٣) لا أبث خبره: لا أنشره لقبح انتشاره.

(٤) عجره وبجره العجر العروق المتعقدة في الظهر والبجر العروق المتعقدة في البطن وأرادت عيوبه الظاهرة والباطنة.

(٥) العشنق الطويل الممتد القامة أرادت أن له منظراً ولا مخبر له. وقيل هو السيئ الخلق.

(٦) أعلق أي يتركني كالمعلقة لا ممسكة ولا مطلقة. تذمه بسوء عشرته.

(٧) القر بالضم البرد.

(٨) السآمة: الضجر أرادت وصفه بالاعتدال في خلقه مع عدم الخوف من أنواع الأذى والمكروه.

(٩) إن دخل فهد أي نام وغفل عن معايب البيت وما يلزمني من إصلاحه منه والفهد يوصف بكثرة النوم أي تصفه بالكرم وحسن الخلق فهو كالنائم عما يسوءها به وإنما هو متناوم.

(١٠) أسد صار كالأسد في الشجاعة.

(١١) لف: خلط كل شيء كناية عن كثرة الأكل.

(١٢) اشتف أي شرب جميع ما في الإناء.

يولج الكف ليعلم البث[(١)].

وقالت السابعة: زوجي غياياء[(٢)] أو عياياء طباقاء[(٣)] كل داء له داء شجك[(٤)] أو فلك[(٥)] أو جمع كلا لك.

قالت الثامنة: زوجي المس مس[(٦)] أرنب والريح ريح زرنب[(٧)].

وقالت التاسعة: زوجي مالك وما مالك مالك خير من ذلك. له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح[(٨)]

إذا سمعن صوت المزهر[(٩)] أيقن أنهن هوالك.

وقالت العاشرة: زوجي رفيع العماد طويل النجاد[(١٠)] عظيم الرماد[(١١)] قريب البيت من الناد[(١٢)].

---

(١) البث في الأصل أشد الحزن والمرض الشديد وقيل هو ذم له أي لا يتفقد أمورها ومصالحها كقولك ما أدخل يدي في هذا الأمر أي لا أتفقد.

(٢) عياياء: العنين الذي تعييه مباضعة النساء غياياء بالمعجمة أي كأنه في أغيايه أبدا وظلمه لا يهتدي إلى مسلك ينفذ فيه والغياية كالغيابة ويجوز أن تكون وصفته بثقل الروح وأنه كالظل المتكاثف المظلم الذي لا إشراق فيه.

(٣) طباقاء هو الذي أموره مطبقة أي مغشاه عليه وقيل هو الذي يعجز عن الكلام فتنطبق شفتاه.

(٤) شجك: الشج في الرأس خاصة في الأصل وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه ثم استعمل في غيره من الأعضاء.

(٥) فلك: الفل الكسر والضرب تقول أنا معه بين شج رأس أو كسر عضو أو جمع بينهما.

(٦) مس أرنب فإن الأرنب لين المس.

(٧) زرنب نوع من أنواع الطيب وقيل نبت طيب الرائحة وقيل هو الزعفران تصفه بلين الجانب.

(٨) المسارح جمع مسرح وهو الموضع التي تسرح إليه الماشية بالغداة للرعي أي أن إبله مع كثرتها لا تغيب عن الحي ولا تسرح إلى المراعي البعيدة ولكنها تترك بفنائه ليقري الضيفان من لبنها خوفاً من أن ينزل به ضيف وهي بعيدة عازبة وقيل معناه أن إبله كثيرة في حال بروكها فإذا سرحت كانت قليلة لكثرة ما نحر فيها في مباركها للأضياف.

(٩) المزهر العود وهو المعزف وجمعه معازف أرادت أن زوجها عود إبله إذا نزل به الضيفان يأتيهم بالمعازف ويسقيهم الشراب وينحر لهم فإذا سمعت الإبل ذلك الصوت أيقنت أنها تنحر.

(١٠) طويل النجاد: النجاد حمائل السيف تريد طول قامته فإنها إذا طالت طال نجاده وهو من أحسن الكنايات.

(١١) عظيم الرماد: أي كثير الأضياف والإطعام لأن الرماد يكثر بالطبخ.

(١٢) الناد: مجلس القوم ومتحدثهم تقول: إن بيته وسط الحي أو قريباً منه يتغشاه الأضياف.

وقالت الحادية عشر زوجي أبو زرع وما أبو زرع أناس[١] من حلي أذني وملأ من شحم عضدي ويجحنى[٢] فبجحت إلى نفسي، وجدني في أهل غنيمة[٣] بشق فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومنق،

فعنده أقول فلا أقبح وأرقد فأتصبح وأشرب فأتقمح.

أم أبي زرع فما أم أبي زرع عكومها رداح وبيتها فساح.

ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع مضجعه كمسل[٤] شطبة وتشبعه ذراع الجفرة[٥].

بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع طوع أبيها وطوع أمها وملء كسائها وغيظ جارتها.

جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع لا تبث حديثنا تبثيثا[٦] ولا تنقث ميرتنا تنقيثًا[٧] ولا تملأ بيتنا تعشيشا[٨].

قالت: خرج أبو زرع والأوطاب[٩] تمخض فوجد امرأة معها ولدان لها كالفهدين

---

(١) أناس: كل شيء يتحرك متدليًا تريد أنه حلاها قرطة.

(٢) بجحني فبجحت أي فرحني ففرحت وقيل عظمني فعظمت نفسي عندي.

(٣) في أهل غنيمة بشق.. إلى آخره تعني: أن أهلها كانوا أصحاب غنم ليسوا بأصحاب خيل ولا إبل. الصهيل: أصوات الخيل، والأطيط أصوات الإبل ودائس ومنق تريد أنهم أصحاب زرع يدرسونه إذا حصد وينقونه فلا أقبح أي لا يرد علي قولي لميله إلي وكرامتي عليه فاتقمح أي أروي حتى أدع الشراب وأرفع رأسي من شدة الري ويروى فاتقنح. بالنون أي أقطع الشرب واتمهل فيه، وقيل هو الشرب بعد الري. عكومها رداح: العكوم الأحمال والغراير التي تكون فيها الأمتعة. رداح: أي عظام كثيرة الحشو.

(٤) كمسل شطبة: أصلها ما شطب من جريد النخل وهو سعفه وذلك أنه يتشقق منه قضبان رقاق ينسج منه الحصر، فأخبرت أنه مهفهف خفيف اللحم تشبهه بتلك الشطبة وهذا مما يمدح به الرجل.

(٥) يشبعه ذراع الجفرة: الأنثي من الأولاد الغنيم والذكر جفرة. والعرب تمدح بقلة الطعام والشراب.

(٦) لا تبث حديثنا تبثيثا: أي لا تشيعه ولا تظهره.

(٧) تنقث ميرتنا: النقث النقل، أرادت أنها أمينة علي حفظ طعامنا لا تنقله ولا تضيعه.

(٨) تعشيشا: التعشيش بالعين المهملة مأخوذ من قولهم عشش الخبز إذا فسد تريد أنها تحسن مراعاة الطعام ولا تخوننا فيه وقيل معناه لا تخبئ طعاما في زاوية خيانة، وقيل: لا تملأ بيتنا بالمزابل كعش الطائر ويروي بالغين المعجمة من الغش وقيل أرادت النميمة.

(٩) الأوطاب أسقية اللبن واحدها وطب.

يلعبان من تحت خصرها برمانتين[١] فطلقني ونكحها

فتزوجت بعده رجلا سريا[٢] ركب شريا وأخذ خطيا وأراح على نعما ثريا وأعطاني من كل رائحة زوجا، وقال كلي أم زرع وميري أهلك، فلو جمعت كل شيء أعطاني ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

قالت عائشة -رضي الله عنها- فقال لي رسول الله ﷺ كنت لك كأبي زرع لأم زرع[٣]

وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «كنت لك كأبي زرع لأم زرع في الألفة والرفا لا في الفرقة والخلا»[٤].

وفي رواية: «أنا لك كأبي زرع لأم زرع ولكني لا أطلق».

وليلة بركة عائشة:

واعتبر المسلمون أن من بركة عائشة أن يوسع على الناس بالتيمم عند فقد الماء.

وما يبعث على الابتسام هو عقد عائشة الذي كان سببًا لمشكلتها التي برأها الله منها واليوم هو سبب لمشكلة أيضاً جاءت ببركة التيمم.

عن هشام عن أبيه عن عائشة -رضي الله عنها وعنها- أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت، فأرسل رسول الله ﷺ أناساً من أصحابه في طلبها، فأدركتهم الصلاة فصلوا

---

(١) يلعبان من تحت خصريها برمانتين: تعني أنها ذات كفل عظيم فاستلقت فنتأ الكفل بها من الأرض حتى يصير تحت خصرها فجوة تجري فيها الرمان.

(٢) سريا أي تقيا شريف، وقيل سخيا ذا مروء شريا أو قويا يستشري في سيره أي يلح ويجد ويمضي بلا فتور ولا انكسار. خطيا الخطي الرمح يقال له ذلك لأنه يأتي من بلد من ناحية البحرين يقال لها الخط ثريا أي كثير ومنه الثروة في المال وهو الوفور والكثرة فيه.

(٣) مسلم.

(٤) الألفة والرفا أي الالتئام والاتفاق والبركة والنماء، والخلا بالكسر المباعدة والمجانبة ومنها الخلية من كنايات الطلاق يعني طلقها، وإني لا أطلقك وهكذا، جاء في بعض الطرق كنت لك كأبي زرع إلا أنه طلقها وأنا لا أطلقك فيه دلالة علي حسن العشرة مع الأهل واستحباب محادثتهن بما لا أثم فيه.

بغير وضوء فلما أتوا رسول الله ﷺ شكوا ذلك إليه، فنزلت آية التيمم فقال أسيد بن حضير: «جزاك الله خيراً فو الله ما نزل بك أمر قط إلا جعل الله لك منه مخرجاً وجعل للمسلمين فيه بركة»، وفي رواية فتغيظ أبو بكر ﷺ وقال: حبست الناس وليس معهم ماء. فنزلت الآية(١)

وفي روايةأن أبا بكر ﷺ قال لعائشة -رضي الله عنها- والله إنك ما علمت لمباركة(٢).

وليلة فتوى الرضاع:

وهي ليلة ظهر فيها شدة ورع عائشة واستفتائها عن دخول الرجال عليها بل ومناقشة رسول الله ﷺ للتثبت.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: جاء عمي من الرضاعة يستأذن علي فأبيت أن آذن له حتى أستأمر رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ قلت: إن عمي من الرضاعة استأذن علي فأبيت أن أذن له، فقال رسول الله ﷺ: **فليلج عليك عمك**. فقلت: إنما أرضعتني المرأة ولم يرضعني الرجل. فقال: إنه عمك فليلج عليك(٣).

وفي رواية استأذن عليها عمها ابن أبي القعيس -بعدما حجبت- أن تأذن له فقال: أنا عمك أرضعتك امرأة أخي، فلم تأذن له حتى جاء ﷺ فذكرت ذلك له فقال رسول الله ﷺ: «**صدق هو عمك فليلج عليك عمك**».

وليلة دعا عليها النبي ﷺ !!

وعن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ دخل عليها بأسير فلهت عنه بنسوة عندها حتى خرج الأسير، فقام رسول الله ﷺ ودعا عليها ثم خرج فأمر الناس بطلبه فلم ينشبوا أن جاءوا به فدخل رسول الله ﷺ وعائشة -رضي الله عنها- تقلب يديها فقال: مالك. قالت: دعوت علي يا رسول الله، فأنا انتظر متى يكون، فقام رسول الله ﷺ فرفع

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم
(٢) أخرجه أبو داود والنسائي
(٣) أخرجه البخاري ومسلم

يديه مدا ثم قال: «اللهم أنا بشر وآسف وأغضب كما تغضب البشر فأيما مؤمن ومؤمنة دعوتك عليه بدعوة فاجعلها عليه زكاة وطهوراً».

وليلة ذكريات الخطبة:

عن ابن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أريتك في المنام فيجيء بك الملك في سرقة من حرير فقال لي: هذه امرأتك، فكشفت عن وجهك الثوب؛ فإذا هي أنت، فقلت: إن يكن هذا من عند الله يمضيه».

وفي رواية: «أريتك في المنام ثلاث ليال».

وليلة السر:

تعالوا لنرى نموذجًا لزوجة تكتم سر زوجها وعن من ؟!!

جاء أبو سفيان يعتذر عن قريش لنقدها صلح الحديبية بقتلها رجال من خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وكان ﷺ قد أضمر في نفسه فتح مكة، فمكث رسول الله ﷺ ما شاء أن يمكث بعدما خرج من عنده أبو سفيان، ثم أخذ في الجهاز، وأمر عائشة أن تجهزه وتخفي ذلك.

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد أو إلى بعض حاجاته، فدخل أبو بكر على عائشة، فوجد عندها حنطة تنسف وتنقى، فقال لها: يا بنية لم تصنعين هذا الطعام؟ فسكتت.

فقال: أيريد رسول الله ﷺ أن يغزو؟ فصمتت.

فقال: يريد بني الأصفر -وهم الروم- فذكر من ذلك أمراً فيه منهم بعض المكروه في ذلك الزمان فصمتت.

قال: فلعله يريد أهل نجد فذكر منهم نحواً من ذلك، فصمتت.

قال: فلعله يريد قريشًا، فصمتت.

قال: فدخل رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله، أتريد أن تخرج مخرجاً؟

قال: «نعم».

قال: فلعلك تريد بني الأصفر؟

قال: «لا».

قال: أتريد أهل نجد؟

قال: «لا».

قال: فلعلك تريد قريشاً؟

قال: «نعم».

قال أبو بكر: يا رسول الله، أليس بينك وبينهم مدة؟

قال: «**ألم يبلغك ما صنعوا ببني كعب؟**»[(١)].

وليلة الهدايا:

عن عروة قال: «كان الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة قالت عائشة: فاجتمع صواحبي إلى أم سلمة فقلن: يا أم سلمة والله إن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنا نريد الخير كما تريده عائشة، فمري رسول الله ﷺ أن يأمر الناس أن يهدوا إليه حيث كان، أو حيثما دار.

قالت: فذكرت ذلك أم سلمة للنبي ﷺ، قالت: فأعرض عنها. فلما عاد إليها ذكرت له ذلك، فأعرض عنها. فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: «**يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنه والله ما نزل عليّ الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها**».



(١) البداية والنهاية ج٤ ص٣٢٣.

ويرحل الحبيب

وسيجزي الله الشاكرين:

وقفتُ طويلاً كما وقف الصحابة ويقف كل مسلم أمام قبر النبي ﷺ بعد وفاته .. وتوقف الكلام الدافق مع القلب والوجدان على عضلة اللسان فلم تتحرك فلا يقوى لسان- أي لسان- على التعبير عن هذا الموقف ولم أجد ما يقوى لساني أن يقوله بعد أن غسلته الدموع الهامرة إلا كلمة واحدة .. جزاك الله خيرًا عنا يا رسول الله.

نعم.. فإن كان -عليه الصلاة والسلام- قال: «**إذا قال الرجل لأخيه جزاك الله خيراً فقد وفاه أجره**» فإنا لا نجد من الكلمات ومن المشاعر ما يوفي له ﷺ أجره.

ولذلك لما قرأت قوله -تعالى: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾** [آل عمران: ١٤٤].

سألت نفسي: «الشاكرين»؟

توقعت أن تكون «الصابرين»!!

فالموقف مع فقد الحبيب ﷺ هو الصبر.. ويبدو أن الأمر مع النبي ﷺ أعلى من الصبر..

إنما هو شكر على ما أنعم الله به علينا به ﷺ **ليس مجرد صبر سلبي واحتساب وإنما هو شكر إيجابي واتباع.**

إيه يا أمي:

ما لي أتخوف الدخول في هذا الفصل وأقدمه بكلمات أرجو أن تكون بردًا وسلامًا.

إيه يا أمي:

وقد رأينا موقف فاطمة في تلك الأيام الثلاثة عشر قبل أن يرحل الحبيب إلى لقاء ربه ولم يخفف عنها إلا أنه أخبرها بأنها أسرع أهله لحوقاً به.

إيه يا أمي

وقد كنتن أمهات المؤمنين تتسابقن في قياس أيديكن على حائط لتعرفن أيكن أطول يداً بعد أن سمعتن الحبيب ﷺ يقول: «**أسرعكن لحاقاً بي أطولكن يدا**».

إيه يا أمي:

وقد قضى ﷺ لياليه الأخيرة في بيتك بعد أن رأى أمهات المؤمنين الجهد الذي يبذله في الدوران اليومي على بيوتهن فأثرنك بأن يمكث عندك في مرضه الأخير.

إيه يا أمي:

وقد كانت آخر همساته لك وآخر لمساته لك.

وآخر أنفاسه في أنفك.

أيه يا أمي:

وقد فاضت روحه الشريفة على صدرك.

إيه يا أمي:

وقد دفن ﷺ في حجرتك.

واسمحي لي أن تقصي لنا قصة الأيام الأخيرة في حياة خير البشر ﷺ.

ويمرض النبي ﷺ !

عن عائشة قالت: رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وا رأساه، فقال: «**بل أنا والله يا عائشة وا رأساه**».

قالت: ثم قال: «وما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك، وكفنتك، وصليت عليك، ودفنتك».

قالت: قلت: والله لكأني بك لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك.

قالت: فتبسم رسول الله ﷺ ونام وبه وجعه.

آخر الأنفاس في بيت عائشة

وكان يدور على نسائه حتى استقر به في بيت ميمونة فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي، فأذن له.

قالت: فخرج رسول الله بين رجلين من أهله أحدهما: الفضل بن العباس، وعلي بن أبي طالب ، عاصباً رأسه، تخط قدماه الأرض حتى دخل بيتي[1].

عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ لما كان في مرضه جعل يدور في نسائه ويقول: «**أين أنا غدًا أين أنا غدًا؟**» حرصًا على بيت عائشة -رضي الله عنها- فلما كان يومي سكن[2].

وعنها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث إلى النساء في مرضه فاجتمعن فقال: «**إني لا أستطيع أن أدور بينكن فإن رأيتن أن تأذن لي فأكون عند عائشة فعلتن.. فأذن**»[3].

و عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: «مات رسول الله ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري فدخل عبد الرحمن بن أبي بكر -رضي الله عنهما- ومعه سواك رطب فنظر ﷺ إليه فظننت أن له به حاجة فأخذته فقضمته ومضغته وطيبته ثم دفعت إليه فاستن كأحسن ما رأيته مستنا ثم ذهب ريقه فسقط من يده، فأخذت أدعو بدعاء كان يدعو به رسول الله ﷺ إذا مرض فلم يدع به مرضه ذلك. فرفع بصره إلى السماء فقال:

---

(١) البداية والنهاية ج٥ ص١٩٧.

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) أخرجه أبو داود وخرج البخاري معناه.

الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى. ففاضت نفسه ﷺ».

الحمد لله الذي جمع ريقي وريقه في آخر يوم من الدنيا.

بل الرفيق الأعلى

وعنها أنها سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مسند إلى ظهره يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وألحقني بالرفيق»(١).

وعنها قالت: كنت أسمع أنه لا يموت نبي حتى يخير بين الدنيا والآخرة فسمعت النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه، وأخذته بحة، يقول: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩]. فظننت أنه خُيِّرَ.

وقالت: كان رسول الله ﷺ، وهو صحيح يقول: «إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا أو يخير»(٢). فلما اشتكى وحضره القبض، ورأسه على فخذ عائشة، غشي عليه. فلما أفاق، شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: «اللهم في الرفيق الأعلى» فقلت: إذا لا يجاورنا. فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح.

قال الأسود: كنا عند عائشة فذكرنا المواظبة على الصلاة والمواظبة لها.

فليصل أبو بكر

قالت: لما مرض النبي ﷺ مرضه الذي مات فيه، فحضرت الصلاة، فأذن بلال.

فقال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».

فقيل له: إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، وأعاد، فأعادوا له، فأعاد الثالثة فقال: «إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس».

فخرج أبو بكر فوجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج يهادى بين رجلين كأني أنظر إلى رجليه تخطان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر، فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك، ثم أتي

(١) أخرجه البخاري كتاب المرض (٥٢٤٢).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب المغازي (٤٠٨٣).

به حتى جلس إلى جنبه[١].

قيل للأعمش: فكان النبي ﷺ يصلي، وأبو بكر يصلي بصلاته، والناس يصلون بصلاة أبي بكر.

فقال برأسه: نعم!

وفي روايه عن الأعمش: جلس ﷺ عن يسار أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي قائماً.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن رسول الله ﷺ قال في مرضه: **«مروا أبا بكر فليصل بالناس»**.

قالت: لقد عاودت رسول الله في ذلك، وما حملني على معاودته إلا أني خشيت أن يتشاءم الناس بأبي بكر، وإلا أني علمت أنه لن يقوم مقامه أحد إلا تشاءم الناس به، فأحببت أن يعدل ذلك رسول الله عن أبي بكر إلى غيره.

قالت: قلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه فلو أمرت غير أبي بكر.

قالت: والله ! ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله ﷺ.

قالت: فراجعته مرتين، أو ثلاثاً.

فقال: **«ليصل بالناس أبو بكر، فإنكن صواحب يوسف»**.

أصلى الناس؟

وعن عبيد الله بن عبد الله قال: دخلت علي عائشة فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ.

فقالت: بلي ! ثقل برسول الله ﷺ وجعه.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأذان (٦٢٤).

فقال: «أصلى الناس؟».

قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله.

فقال: «صبوا إلى ماء في المخضب» ففعلنا قالت: فاغتسل، ثم ذهب لينوى فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: «أصلى الناس؟».

قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله.

قال: «ضعوا لي ماء في المخضب» ففعلنا، فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمى عليه، ثم أفاق فقال: «أصلى الناس؟»

قلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله.

قال: «ضعوا لي ماء في المخضب» ففعلنا، فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: «أصلى الناس؟».

قلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قالت: والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس، وكان أبو بكر رجلاً رقيقاً فقال: يا عمر صل بالناس.

فقال: أنت أحق بذلك[1].

فصلى بهم تلك الأيام، ثم إن رسول الله ﷺ وجد خفة، فخرج بين رجلين أحدهما: العباس لصلاة الظهر، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه أن لا يتأخر، وأمرهما فأجلساه إلى جنبه، فجعل أبو بكر يصلي قائماً، ورسول الله ﷺ يصلي قاعداً.

قال عبيد الله: فدخلت على ابن عباس فقلت: ألا أعرض عليك ما حدثتني عائشة عن مرض رسول الله؟

قال: هات، فحدثته فما أنكر منه شيئاً غير أنه قال: سمت لك الرجل الذي كان مع

---

(١) البداية والنهاية (: ٥/ ٢٥٤).

العباس؟ قلت: لا، قال: هو علي(١).

عن عبد الله بن مسعود قال: لما ثقل رسول الله ﷺ اجتمعنا في بيت عائشة، فنظر إلينا رسول الله ﷺ فدمعت عيناه ثم قال لنا: «قد دنا الفراق» ونعى إلينا نفسه.

ثم قال: «مرحبًا بكم، حياكم الله، هداكم الله، نصركم الله، نفعكم الله، وفقكم الله، سددكم الله، وقاكم الله، أعانكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصى الله بكم وأستخلفه عليكم إني لكم منه نذير مبين، أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، فإن الله قال لي ولكم: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣] وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٦٠](٢).

ثم مات ﷺ

عن عائشة -رضي الله عنها: كنت مسندة النبي ﷺ إلى صدري أو قالت إلى حجري فدعا بطست ليبول فبال ثم مات ﷺ.(٣)

عن عائشة قالت: توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين، ودفن ليلة الأربعاء.

عن ابن شهاب: لما اشتد برسول الله ﷺ وجعه، أرسلت عائشة إلى أبي بكر، وأرسلت حفصة إلى عمر، وأرسلت فاطمة إلى علي، فلم يجتمعوا حتى توفى رسول الله ﷺ وهو في صدر عائشة، وفي يومها يوم الاثنين حين زاغت الشمس لهلال ربيع الأول(٤).

من يغسله؟!

عن عبد الله بن الزبير سمعت عائشة تقول: لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: ما ندري أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه، كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه، فلما اختلفوا ألقى

---

(١) البداية والنهاية ج٥ ص ٢٠٤-٢٠٥.

(٢) البداية والنهاية (: ٥/ ٢٧٤).

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل.

(٤) البداية والنهاية ة ج٥ ص٢٢٣.

الله عليهم النوم، حتى ما منهم أحد إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو أن غسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميص، يصبون الماء فوق القميص، فيدلكونه بالقميص دون أيديهم، فكانت عائشة تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت، ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه[(١)].

أسعد قبر:

عن عائشة قالت: اختلفوا في دفن النبي ﷺ حين قبض، فقال أبو بكر: سمعت النبي ﷺ يقول: «**لا يقبض النبي إلا في أحب الأمكنة إليه**».

فقال: ادفنوه حيث قبض[(٢)].

وفي رواية: فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله شيئاً ما نسيته قال: «**ما قبض الله نبياً إلا في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه**» ادفنوه في موضع فراشه.

يقول ابن كثير: وقد علم بالتواتر أنه -عليه الصلاة والسلام- دفن في حجرة عائشة التي كانت تختص بها شرقي مسجده في الزاوية الغربية القبلية من الحجرة، ثم دفن بعده فيها أبو بكر، ثم عمر -رضي الله عنهما.

عن القاسم قال: «دخلت على عائشة وقلت لها: يا أمه اكشفي لي عن قبر رسول الله ﷺ وصاحبيه، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا لاطئة مبطوحة ببطحاء العرصة الحمراء»[(٣)].



(١) رواه أبو داود البداية والنهاية ج٥ ص ٢٢٨.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه أبو داود. البداية والنهاية ج٥ ص ٢٣٨.



مع الذكريات

وتعيش -رضي الله عنها- بعد الحبيب المصطفي ﷺ في ذكريات لا تنتهي.. فهي حياة حافلة امتدت عشرة أعوام زوجة بالإضافة إلى ثلاثة أعوام في الخطبة.

فكانت تتذكر مع من حولها الكثير من أحواله.

ذكريات العبادة:

قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم، وكان لا تشاء تراه من الليل قائماً إلا رأيته، ولا تشاء أن تراه نائماً إلا رأيته.

قالت: وما زاد رسول الله ﷺ في رمضان، وفي غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يوتر بثلاث.

قالت: وكان رسول الله ﷺ يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها.

قالت: ولقد كان يقوم حتى أرثى له من شدة قيامه.

وصف الحبيب:

عن عروة، عن عائشة قالت: دخل علي رسول الله ﷺ مسروراً تبرق أسارير وجهه[1].

وعن عروة، عن عائشة قالت: أنا فرقت لرسول الله رأسه، صدعت فرقه عن يافوخه وأرسلت ناصيته بين عينيه.

وعن عائشة قالت: كان شعر رسول الله ﷺ فوق الوفرة ودون الجمة[2].

(١) البداية والنهاية ج٦ ص١٥.

(٢) البداية والنهاية ج٦ ص٢٢.

خلقه ﷺ

وعن سعد بن هشام قال: سألت عائشة أم المؤمنين فقلت: «أخبريني عن خلق رسول الله ﷺ.

فقالت: أما تقرأ القرآن؟

قلت: بلي.

فقالت: كان خلقه القرآن»[١].

وعنها أنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين، إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها».

وعن عائشة قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده شيئاً قط لا عبداً، ولا امرأة، ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله -عز وجل.

عن أبي عبد الله الجدلى سمعت عائشة وسألتها عن خلق رسول الله ﷺ.

فقالت: «لم يكن فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا سخاباً في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح أو قال: «يعفو ويغفر» [٢].

كلامــــــه

وعن عائشة أنها قالت لرجل من أهلها: ألا أعجبك أبو فلان، جاء فجلس إلى جانب حجرتي يحدث عن رسول الله ﷺ يسمعني ذلك، وكنت أسبح، فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه أن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم.

وعن عروة أن عائشة قالت: كان كلام النبي ﷺ فصلاً يفهمه كل أحد لم يكن يسرد سرداً[٣].

---

(١) البداية والنهاية (٦: ٤٠).

(٢) البداية والنهاية ٦ ص ٣٧-٣٨ ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

(٣) البداية والنهاية ٦ ص٤٣.

في بيته

عن الأسود قال: قلت لعائشة: ما كان رسول الله ﷺ يصنع في أهله؟ قالت: كان في مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة.

وعن عروة، وهشام بن عروة، عن أبيه قال: سأل رجل عائشة: «هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته»؟

قالت: نعم، كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه كما يعمل أحدكم في بيته».

وعن عمرة قالت: قلت لعائشة: ما كان يعمل رسول الله ﷺ في بيته؟

قالت: «كان رسول الله ﷺ بشراً من البشر يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه».

وعنها أيضًا قالت: قلت لعائشة: كيف كان رسول الله ﷺ في أهله؟

قالت: «كان ألين الناس، وأكرم الناس، وكان ضحاكاً بساماً»[١].

ميراث الحبيب ﷺ:

قالت عائشة: تسألوني عن ميراث رسول الله ﷺ ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً، ولا درهماً، ولا عبداً، ولا وليدة.

قال مسعر: أراه قال: ولا شاة ولا بعيرًا.

وعن عائشة أن رسول الله ﷺ اشترى طعاماً من يهودي إلى أجل، ورهنه درعاً من حديد[٢].

وعن عائشة أن أزواج النبي ﷺ حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر ليسألنه ميراثهن فقالت عائشة: أليس قد قال رسول الله ﷺ: «**لا نورث ما تركنا صدقة؟**»[٣].



(١) البداية والنهاية ج٦ ص٤٦.
(٢) الصحيحين. البداية والنهاية ٥ ص٢٤٧.
(٣) البخاري، البداية والنهاية ٥ ص٢٤٩.



حياة حافلة

نعم عاشت -رضي الله عنها- حياة حافلة بالأحداث فقد عاصرت بعد النبي ﷺ الخلفاء الراشدين الأربعة وخامسهم الحسين بن علي رضي الله عنه وشطر من خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

ولم تكن حياتها مجرد شاهدة على الأحداث فضلاً عن أن تكون اعتزلتها أو تجاهلتها وإنما مشاركة بكل مفهوم المشاركة وينبئك الخبر بكل يقين.

القدوة بعد الحبيب:

عاشت -رضي الله عنها- بعد رسول الله ﷺ مثالاً للنموذج الذي يتأسى ويحتذى به بعده ﷺ.. فكانت الزاهدة الكريمة الصادقة.

الزاهدة:

عن ابن المكي قال: دخلت على عائشة -رضي الله عنها- وعليها درع قطري[1] ثمنه خمسة دراهم، فقالت، ارفع بصرك إلى جاريتي فانظر إليها فإنها تزهى[2] أن تلبسه في البيت، وقد كان منهم درع على عهد رسول الله ﷺ فما كانت امرأة تقين[3] في المدينة إلا أرسلت إلى تستعيره[4]

الكريمة:

عن محمد بن المنكدر عن أم درة وكانت تغشى عائشة -رضي الله عنها- قالت: بعث إليها ابن الزبير بمال في غرارتين قالت: أراه ثمانين ومائة ألف، فدعت بطبق وهي صائمة

(١) قطري هو ضرب من البرود فيه حمرة ولها أعلام فيها بعض الخشونة، وقيل هي حلل جياد تحمل من قبل البحرين من قرية يقال لها قطر وأحسب النباتات القطرية تنسب إليها فكسروا القاف للنسبة وخفضوا.

(٢) تزهى أن تلبسه في البيت أي تترفع عنه ولا ترضاه.

(٣) تقين بالمدينة أي تزين لزفافها والتقين التزين.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الهبة (٢٤٣٥).

يومئذ فجلست تقسمه بين الناس، فأمست وما عندها من ذلك درهم فلما أمست قالت: يا جارية هلمي فطوري فجاءتها بخبز وزيت فقالت لها أم درة: أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحما نفطر عليه فقالت لا تغنيني لو كنت ذكرتيني لفعلت

وعن عطاء قال بعث معاوية إلى عائشة -رضي الله عنها- بطبق من ذهب فيه جوهر قوم بمائة ألف فقسمته بين أزواج النبي ﷺ.

وعنه عن عائشة -رضي الله عنها- أنها ساقت بدنتين فَضَلتَّا فأرسل لها ابن الزبير بدنتين مكانهما فوجدت البدنتين الأوليين فنحرتهما أيضاً، ثم قالت هكذا السنة في البدن

المتسامحة:

وعن عوف بن مالك بن الطفيل أن عائشة -رضي الله عنها- حدثت أن ابن الزبير قال في بيع أو عطاء أعطته عائشة -رضي الله عنها- والله لتنهين عائشة أو لأحجرن عليها.

فقالت: أهو قال هذا. قالوا: نعم. قالت فلله علي نذرا أن لا أكلم ابن الزبير أبدا فاستشفع ابن الزبير إليها حين طالت الهجرة فقالت: والله لا أشفع فيه أبدًا

فلما طال ذلك على ابن الزبير كلم المسور بن مخرمة وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث وهما من بني زهرة قال: أنشدكما بالله لما أدخلتماني على عائشة -رضي الله عنها- فإنها لا يحل لها أن تنذر قطيعتي

فأقبل المسور وعبد الرحمن مشتملين بأرديتهما حتى استأذنا على عائشة -رضي الله عنها- فقالا: السلام عليك ورحمة الله وبركاته أندخل؟ قالت عائشة -رضي الله عنها- ادخلوا قالوا: كلنا قالت: نعم. ادخلوا كلكم، ولا تعلم أن معهما ابن الزبير فلما دخلوا دخل ابن الزبير الحجاب فاعتنق عائشة -رضي الله عنها- فطفق يناشدها ويبكي وطفق المسور وعبد الرحمن يناشدانها إلا ما كلمته وقبلت منه، ويقولان: إن النبي ﷺ نهى عما قد عملت من الهجر وأنه لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.

فلما أكثروا على عائشة -رضي الله عنها- من التذكر والتحريج طفقت تذكرهما

وتبكي وتقول إني نذرت والنذر شديد، فلم يزالا بها حتى كلمت ابن الزبير وأعتقت في نذرها ذلك أربعين رقبة وكانت تذكر نذرها بعد ذلك وتبكي حتى تبل دموعها خمارها [(١)]

وعن عوف بن الحارث، قال: سمعت عائشة تقول: دعتني أم حبيبة عند موتها، فقالت: قد يكون بيننا ما يكون بين الضرائر.

فقالت: يغفر الله لي ولك ما كان من ذلك كله، وتجاوزت وحاللتك.

فقالت: سررتيني سرك الله[(٢)].

العابدة:

عن عروة أن عائشة -رضي الله عنها- كانت تسرد الصوم.

وعن القاسم أنها كانت تصوم الدهر لا تفطر إلا يوم أضحى أو يوم فطر.

وعنه قال كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة -رضي الله عنها- فأسلم عليها فغدونا يوماً فإذا هي قائمة تسبح وتقرأ ﴿فَمَنَّ اللهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ [الطور:٢٧]. وتدعو وتبكي وترددها فقمت حتى مللت القيام فذهبت إلى السوق لحاجتي ثم رجعت فإذا هي قائمة كما هي تصلي وتبكي.

حياؤها:

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت كنت أدخل البيت الذي دفن فيه رسول الله ﷺ وأبي ﷺ واضعة ثوبي وأقول إنما هو زوجي وأبي فلما دفن عمر ﷺ والله ما دخلته إلا مشدودة علي ثيابي حياء من عمر ﷺ.

بنت الخليفة الأول:

لقد بدأت -رضي الله عنها- حياتها بعد النبي ﷺ في موضع بارز من المجتمع فهي ابنة الخليفة الأول أبي بكر الصديق ﷺ.. وكان عمرها حينئذ يقرب من التاسعة عشر..

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب (٥٦١١).

(٢) البداية والنهاية ج٨ ص٣٠.

وكانت تتوقع ذلك حيث إن النبي ﷺ لمح لها به أكثر من مرة.

عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك حتى أكتب كتابًا فإني أخاف أن يتمنى متمن أو يقول قائل أنا أولى يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر». [١]

وهكذا وقع فإن الله ولاه، وبايعه المؤمنون قاطبة كما تقدم.

وصح أن امرأة قالت: يا رسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك- كأنها تعرض بالموت؟

فقال: «إن لم تجديني فأت أبا بكر»[٢].

عن عائشة قالت: خرج أبي شاهراً سيفه راكباً على راحلته إلى وادي القصة، فجاء علي بن أبي طالب فأخذ بزمام راحلته فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله يوم أحد: «لم سيفك ولا تفجعنا بنفسك» فوالله لئن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبداً، فرجع وأمضى الجيش[٣].

ومات أبوبكر أبيها ودفن جوار نبيه وصديقه في حجرتها رضي الله عنها

عون أمير المؤمنين عمر

عن عائشة قالت: لما قبض رسول الله ﷺ ارتدت العرب قاطبة واشرأب النفاق، والله لقد نزل بي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها، وصار أصحاب محمد ﷺ كأنهم معزي مطيرة في حش في ليلة مطيرة بأرض مسبعة، فوالله ما اختلفوا في نقطة إلا طار أبي بخطلها وعنانها وفصلها.

ثم ذكرت عمر فقالت: من رأي عمر علم أنه خلق غنى للإسلام، كان والله أحوذيا نسيج وحده قد أعد للأمور أقرانها[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة (٤٣٩٩).

(٢) في صحيح البخاري كتاب المناقب (٣٣٨٦).

(٣)البداية والنهاية: ٦/ ٣٤٧).

(٤) البداية والنهاية ٦ ص ٣٠٩.

قال المدائني: وكان (عمر بن الخطاب) قد خطب أم كلثوم ابنة أبي بكر الصديق وهي صغيرة وراسل فيها عائشة.

فقالت أم كلثوم: لا حاجة لي فيه، فقالت عائشة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟

قالت: نعم، إنه خشن العيش.

فأرسلت عائشة إلى عمرو بن العاص فصده عنها ودله على أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب، ومن فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وقال: تعلق منها بسبب من رسول الله ﷺ فخطبها من علي فزوجه إياها فأصدقها عمر ﷺ أربعين ألفاً، فولدت له زيداً ورقية[1].

ومات عمر بن الخطاب ﷺ بعد ثلاث، ودفن يوم الأحد، مستهل المحرم من سنة أربع وعشرين بالحجرة النبوية إلى جانب الصديق، عن إذن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- في ذلك، وفي ذلك اليوم حكم أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ[2].

وعن أبي عمر قال: قلت لعائشة: من سمى عمر الفاروق أمير المؤمنين؟

قالت: النبي ﷺ قال: «أمير المؤمنين هو».

وأول من حياه بها المغيرة بن شعبة، وقيل غيره والله أعلم[3].

مع ذي النورين عثمان

عن يحيى بن سعد بن العاص: أن سعيد بن العاص أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ وعثمان حدثاه: «أن أبا بكر استأذن على النبي ﷺ وهو مضطجع على فراشه لابس مرط عائشة فأذن لأبي بكر وهو كذلك فقضى إليه حاجته ثم انصرف، فاستأذن عمر فأذن له وهو على تلك الحالة فقضى إليه حاجته ثم انصرف، قال عثمان: ثم استأذنت عليه فجلس، وقال: اجمعي عليك ثيابك فقضيت إليه حاجتي ثم انصرفت، فقالت عائشة: يا رسول

---

(١) البداية والنهاية ٧ ص ١١٤.

(٢) البداية والنهاية ج٧ ص ١٤٢.

(٣) البداية والنهاية ج٧ ص ١٤١.

الله، مإلى لا أراك فزعت لأبي بكر وعمر كما فزعت لعثمان؟ [١].

فقال رسول الله ﷺ: «**إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت إن أذنت له على تلك الحالة لا يبلغ إلى حاجته**».

قال الليث: وقال جماعة الناس: إن رسول الله ﷺ قال لعائشة: «**ألا أستحي ممن تستحي منه الملائكة**»[٢].

وعنها -رضي الله عنها- قالت: «أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن عفان فجاء، فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فلما رأينا إقبال رسول الله ﷺ على عثمان أقبلت إحدانا على الأخرى، فكان من آخر كلمة أن ضرب منكبه وقال: «**يا عثمان، إن الله عسى أن يلبسك قميصًا، فإن أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقاني. ثلاثًا**»[٣].

فقلت لها يا أم المؤمنين: فأين كان هذا عنك؟

قالت: نسيته والله ما ذكرته.

قال النعمان: فأخبرته معاوية بن أبي سفيان، فلم يرض بالذي أخبرته، حتى كتب إلى أم المؤمنين أن اكتبي إلي به، فكتبت إليه به كتابًا؟

عن عائشة قالت: «ما استمعت رسول الله ﷺ إلا مرة، فإن عثمان جاءه في حر الظهيرة فظننت أنه جاءه في أمر النساء، فحملتني الغيرة على أن أصغيت إليه فسمعته يقول: «**إن الله ملبسك قميصًا تريدك أمتي على خلعه فلا تخلعه**».

فلما رأيت عثمان يبذل لهم ما سألوه إلا أن يخلعه(تقصد للخارجين عليه)، علمت أنه عهد من رسول الله ﷺ الذي عهد إليه.

عن فاطمة بنت عبد الرحمن، قالت: حدثتني أمي أنها سألت عائشة وأرسلها عمها

(١) رواه مسلم كتاب فضائل الصحابة (٤٤١٥).
(٢) البداية والنهاية: ٧/ ٢٢٧
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٤٢٧).

فقال: قولي إن أحد بنيك يقرئك السلام، ويسألك عن عثمان بن عفان، فإن الناس قد شتموه، فقالت: «لعن الله من لعنه، فوالله لقد كان قاعدًا عند رسول الله ﷺ، وإن رسول الله لمسند ظهره إلي، وإن جبريل ليوحي إليه القرآن، وإنه ليقول له: اكتب يا عثيم.

قالت عائشة: فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريمًا على الله ورسوله»(١).

وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «ادع لي بعض أصحابي».

قلت: أبو بكر؟

قال: «لا».

قلت: عمر؟

قال: «لا».

قلت: ابن عمك علي؟

قال: «لا».

قلت: عثمان؟

قال: «نعم».

فلما جاء عثمان قال: تنحى فجعل يساره ولون عثمان يتغير.

قال أبو سهلة: فلما كان يوم الدار وحضر فيها قلنا: يا أمير المؤمنين ألا تقاتل؟

قال: لا إن رسول الله ﷺ عهد إلي عهدًا وإني صابر نفسي عليه.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: دخلت على رسول الله ﷺ وعثمان بين يديه يناجيه، فلم أدرك من مقالته شيئا إلا قول عثمان: ظلمًا وعدوانًا يا رسول الله، فما دريت ما هو حتى قتل عثمان فعلمت أن رسول الله ﷺ إنما عنى قتله.

قالت عائشة: وما أحببت أن يصل إلى عثمان شيء إلا وصل إليّ مثله غيره، إن شاء الله علم أني لم أحب قتله ولو أحببت قتله لقتلت، وذلك لما رمي هودجها من النبل حتى صار

(١)البداية والنهاية ج ٧ ص ٢١٩.

مثل القنفذ[١].

وأثناء اجتماع المتمردين وحصارهم لبيت عثمان ﷺ في المدينة جاء وقت الحج فخرجت عائشة في هذه السنة إلى الحج، فقيل لها: إنك لو أقمت كان أصلح، لعل هؤلاء القوم يهابونك.

فقالت: إني أخشى أن أشير عليهم برأي فينالني منهم من الأذية ما نال أم حبيبة، فعزمت على الخروج وكانت أم حبيبة قد حاولت الدخول على عثمان فآذاها الخارجون على عثمان ولم يرعوا حرمتها.

واستخلف عثمان ﷺ في هذه السنة على الحج عبد الله بن عباس. فقال له عبد الله بن عباس: إن مقامي على بابك أحاج عنك أفضل من الحج، فعزم عليه فخرج بالناس إلى الحج[٢].

وأثناء عودة وفد الحجيج وصل الخبر إليهم أن عثمان بن عفان ﷺ قد قتل فرجع أمهات المؤمنين إلى مكة فأقمن بها نحوًا من أربعة أشهر.

براءة أخرى

كان الخوارج على عليّ يزورون كتبًا على أصحاب رسول الله ﷺ يرسلونها إلى الأنصار ليجتمع المتمردون في المدينة لقتال عثمان[٣].

وكان ممن زوروا عليه عائشة أم المؤمنين.. وها هي تبرئ نفسها بعد أن عادت من الحج إلى المدينة قالت تلوم قتلة عثمان: تركتموه كالثوب النقي من الدنس، ثم قتلتموه.

قال لها مسروق: هذا عملك، أنت كتبت إلى الناس تأمريهم أن يخرجوا إليه!

فقالت: لا، والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون؛ ما كتبت لهم سوداء في بيضاء حتى جلست مجلسي هذا.

(١) البداية والنهاية ٦ ص ٢١١.
(٢) البداية والنهاية ٧/ ١٩٦.
(٣) البداية والنهاية ٧ ص ٢٠٤.

قال الأعمش: فكانوا يرون أنه كتب على لسانها.

وفي هذا وأمثاله دلالة ظاهرة على أن هؤلاء الخوارج -قبحهم الله- زوروا كتبًا على لسان الصحابة إلى الآفاق يحرضونهم على قتال عثمان[1].

علي بن أبي طالب

كان عمر عائشة -رضي الله عنها- يوم تزوجها النبي ﷺ حوالى تسع سنوات وكان عمر علي -رضي الله عنه- يقترب من العشرين.. واقتربت المسافة جدًا بينهما بعد زواج علي ﷺ من فاطمة بنت النبي ﷺ،حيث كانت بيوت فاطمة وعائشة متقاربتين، وكان لكل منهما مكانتها الخاصة عند النبي ﷺ، فاطمة كانت أحب إنسانة عند رسول الله ﷺ كابنة، وعائشة كانت في نفس المنزلة كزوجة، وكانت فاطمة تدرك منزلة عائشة عند أبيها ﷺ وهو قد أخبرها بذلك وأمرها أن تحبها.. فاستجابت.. حتى وصل الأمر بينهما من التفاهم والتقارب أن حدثت فاطمة عائشة بسر رسول الله ﷺ الذي سارها به عند موته أنها أول أهله لحوقًا به.

سل الجارية تصدقك

والحوادث التي جمعت بين عائشة وعلي ﷺ في حياة النبي بل وحتى بعد توليه الخلافة تعد على أصابع اليد الواحدة، أشهرها حادثة الإفك التي روج بعض المؤرخين لما حدث فيها ترويجًا خبيثًا سواء عن جهل أو سوء نية أن عائشة وجدت في قلبها من علي عندما قال لنبيه وابن عمه: «النساء غيرها كثير وسل الجارية تصدقك».

وكنت أحب أن أفرد صفحات لتبرير موقف علي هذا ومعنى كلامه مضيفًا إلى مفهوم الكلام تلك البيئة والمناخ والسياق الذي قيل فيه الكلام مما يجعله حديثًا عاديا جدًا بين رجلين، ولكن عدلت عن ذلك بما رأيته في جولتي في مدينة عائشة العامرة من عدم وجود لأي ملامح للتباغض بين عائشة وعلي -رضي الله عنهما- بل قد رأينا أنها هي التي روت قصته عند خروجه مع أبي بكر أبيها في أول خلافته إلى وادي القصة.. وكيف جاء

(١) البداية والنهاية ٧ ص ٢٠٤ ويقول ابن كثير وهذا إسناد صحيح إليها.

علي بن أبي طالب كما روت عائشة فأخذ بزمام راحلته فقال: إلى أين يا خليفة رسول الله؟ أقول لك ما قال رسول الله يوم أحد: «لم سيفك ولا تفجعنا بنفسك فوالله لأن أصبنا بك لا يكون للإسلام بعدك نظام أبدًا.. فرجع وأمضى الجيش»[١].

ويتنحل البعض من عدم ذكرها -رضي الله عنها- اسمه عندما ذكرت مرضه وأنه خرج يتهادى بين رجلين للصلاة أحدهما العباس.. ثم ذكر أن الآخر كان علي بن أبي طالب[٢]، أنها أنكرت ذكر علي؟! أقول والعجب يكاد يعجب، امرأة صغيرة ترى حبيبها أثقله المرض هل تريدونها أن تتذكر كل التفاصيل حتى ترضيكم.

فليقف الجميع عند حدود الأدب ولينصتوا لصوت الطاهرة المبرأة من السماء، العالمة الزاهدة.. وكيف كانت تدير الحياة حولها بميزان العلم النبوي التي أشربته في بيت رسول الله ﷺ.

لما وصلها -رضي الله عنها- قتال علي ﷺ للخوارج باركت خطواته وقالت: قتل علي ابن أبي طالب شيطان الردهة تعني: المخدج[٣].

عن مسروق عن عائشة قالت: ذكر رسول الله ﷺ الخوارج فقال: «شرار أمتي يقتلهم خيار أمتي».

قال: فرأيت عليا قتلهم وهم أصحاب النهروان.

وكان علي يهتم جدًا برأي عائشة في موقفه من الخوارج حيث عندها علم النبوة وكان يستشهد بنقلها عن رسول الله :

عن حبيب بن مسلمة قال: قال علي: لقد علمت عائشة أن جيش المروة، وأهل النهروان، ملعونون على لسان محمد ﷺ.

قال ابن عياش: جيش المروة قتلة عثمان ﷺ.

---

(١) البداية والنهاية ج ٦ – ص ٣٤٧.

(٢) البداية والنهاية ٥ ص ٢٠٥.

(٣) البداية والنهاية ٧ ص ٣٣٧.

دموع عائشة

ثم هذه الدموع البريئة ألا تكفي لتغسل ما عندكم من شك على طهارة هذه القلوب.. حيث تيقنت عائشة في خلاف بينها وبين علي حول الخوارج أن عليًا على الحق فإذا بها أرخت عينيها فبكت، فلما سكنت عبرتها، قالت: رحم الله عليًا لقد كان على الحق، وما كان بيني وبينه إلا كما يكون بين المرأة وأحمائها[١].

وأي امرأة وأي أحماء.. فليبتعد أصحاب القلوب الملبدة بالأضغان والأحقاد عن حمى هؤلاء الأطهار ولا يلوثوه بتعليلاتهم المتهمة الشاردة.

عن جميع بن عمير قال: دخلت مع أبي على عائشة فسألتها عن علي فقالت: ما رأيت رجلاً كان أحب لرسول الله ﷺ منه، ولا امرأة كانت أحب إلى رسول الله ﷺ من امرأته.

والعجيب أن هذا الحديث رواه غير واحد من الشيعة كما ذكر ابن كثير[٢].



(١) البداية والنهاية ٧ ص ٣١٥- ٣١٦.

(٢) البداية والنهاية ج٧ ص ٣٦٧.

جمل الخير

إذا لم يكن خروج عائشة على جملها بسبب ضغائن قديمة مع علي!..أو أنها زعيمة سياسية معارضة! أوقائدة ثورة على النظام ! كما تحلوا أوهام البعض أن تصور لهم

نعم كان لها دور ورسالة وهدف من خروجها بالجمل فلما وجدت أن الهدف لن يتحقق بل وستأتي مضار أخرى أكثر عادت من رحلتها لتقيمها وتدلي برأيها للأمة من بعدها.

استمعوا إلى هذه الرواية كبداية لحقائق عجيبة:

لم تكن عائشة عند خروجها تقصد عليًا بأي وجه من الوجوه لقد خرجت –رضي الله عنها– ومعها طلحة والزبير وجمع من الصحابة من مكة تقصد البصرة في الشمال الشرقي.. وكان علي في المدينة في الشمال الغربي يعني في طريقها إلى البصرة فلو كانت قاصدة حرب علي لكانت قصدته في المدينة.

قال لي صاحبي: أرجوك انتظر أنت دائمًا تفاجئنا بغير ما درسنا ! نعلم من التاريخ أن واقعة الجمل كانت بين علي وعائشة.. فماذا تقول الآن؟

ورغم مرارة ما سأسرده الآن وبغضي لتكرار هذا التاريخ الذي شوهت من صورته الكثير من الأهواء التي صاغت حكايات وقصص وأحداث احتاجت جهدًا عظيمًا من العلماء لتنقيته.

قلت له مبتسمًا: إن موقفي اليوم ليس دفاعًا عن عائشة أو علي فكلاهما في الفضل سواء وكلاهما بُشر بالجنة.. وكلاهما قدما للإسلام الخير كل الخير

ولأنه أولا وآخرًا –بل والأفضل فيما شجر بين الصحابة– أن لا نخوض فيه وأن

نكلهم إلى نياتهم والله حسيبهم يوم القيامة فلن يؤدي إثبات أن أحدهما كان على الحق إلى عمل أو تأثير فيما نحن فيه اليوم.

البداية والنهاية

ولكن تعال نعتمد أحد كتب التاريخ التي كتبت في القرن السابع الهجري معتمدة على كل ما كتب في القرون السابقة محللاً وضابطًا.. فصاحبه تشهد له الأمة بالإمامة في التفسير والتاريخ هو كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير.

تعالوا نقرأ ماكتب.. وننتقي منه ما يخص أمنا بطلة هذا البحث عائشة -رضي الله عنها- وقد يختلط تعليقي بكلامه[1].

علي ﷺ الخليفة

يقول ابن كثير:

لما وقع قتل عثمان بعد أيام التشريق وبعد انتهاء أعمال الحج، كان أزواج النبي ﷺ أمهات المؤمنين قد خرجن إلى الحج في هذا العام فرارا من الفتنة، فلما بلغ الناس أن عثمان قد قتل، أقمن بمكة بعدما خرجوا منها، ورجعوا إليها وأقاموا بها، وجعلوا ينتظرون ما يصنع الناس ويتحسسون الأخبار.

فلما بويع لعلي وصار الخليفة باختيار أهل الحل والعقد من الصحابة لا عن اختيار منه لذلك وكان ضمن من اختاره رؤوس أولئك الخوارج الذين قتلوا عثمان، مع أن عليًا في نفس الأمر يكرههم،ويتربص بهم الدوائر، ويود لو تمكن منهم ليأخذ حق الله منهم.

وأصبح هؤلاء الخوارج يملأون المدينة ومعهم جيش كبيروكانت وجهة نظر أمير المؤمنين على ألا يواجههم في هذه المرحلة وينتظر حتى يتم له الأمر حيث يجاريهم لتفادى قوتهم... ولكنهم استحوذوا عليه وأبعدوا كبار الصحابة عن مجلسه فبدأوا يشعرون بالضيق في المدينة فاستأذنوا أن يلحقوا بأمهات المؤمنين وبقية الصحابة في مكة، حيث لم

---

(١) في البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٤١ وما بعدها فصل تحت عنوان (ابتداء موقعه الجمل).

يعودوا بعد من الحج الأخير، وبدأ الصحابة يتوافدون إلى مكة واستأذنه طلحة والزبير في الاعتمار، فأذن لهما فخرجا إلى مكة، وتبعهم خلق كثير وجمع غفير.

معاوية يعترض

وكان معاوية بن أبي سفيان والي الشام قد أعلن عدم مبايعته لعلي حتى يحاكم قتلة عثمان الذين عنده في المدينة.

وبعد مشاورات طويلة مع معاوية وطلب علي منه الدخول في الطاعة حيث هو الخليفة التي اختارته جماعة الحل والعقد من الصحابة وكان معاوية يشترط لدخوله في اختيار الجماعة أن يقدم قتلة عثمان للمحكمة أولا ويقتص منهم

عزم عليٌّ على قتال أهل الشام وندب أهل المدينة إلى الخروج معه فأبوا عليه، فطلب عبد الله بن عمر بن الخطاب وحرضه على الخروج معه. فقال: إنما أنا رجل من أهل المدينة، إن خرجوا خرجت على السمع والطاعة، ولكن لا أخرج للقتال في هذا العام، ثم تجهز ابن عمر وخرج إلى مكة، وقدم إلى مكة أيضًا في هذا العام يعلي بن أمية من اليمن وكان عاملاً عليها لعثمان ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم، وقدم إليها عبد الله بن عامر من البصرة، وكان نائبها لعثمان، فاجتمع فيها خلق من سادات الصحابة وأمهات المؤمنين[(١)].

الصحابة يقررون القصاص

وكان الحزن على عثمان قد وصل إلى مداه في مكة فاجتمع الناس على أن يأخذوا بثأر عثمان من قتلته.. وقام كبار الصحابة بالخطابة في المسلمين ليستعدوا للأخذ بثأر عثمان الذي قتل غيلة.. وكان الناس يتوجهون نحو الأصوات المؤثرة من الصحابة ومن أكبر من عائشة أم المؤمنين وأكثر منها تأثيرًا؟!

فقامت عائشة –رضي الله عنها– في الناس تخطبهم وتحثهم على القيام بطلب دم

(١) البداية والنهاية / ص: ٧/ ٢٥٨.

عثمان، وذكرت ما افتات به أولئك من قتله في بلد حرام وشهر حرام، ولم يراقبوا جوار رسول الله ﷺ وقد سفكوا الدماء وأخذوا الأموال، فاستجاب الناس لها، وطاوعوها على ما تراه من الأمر بالمصلحة، وقالوا لها: حيثما سرت سرنا معك.

فقال قائل: نذهب إلى الشام.

فقال بعضهم: إن معاوية قد كفاكم أمرها، ولو قدموها لغلبوا.

وقال آخرون: نذهب إلى المدينة فنطلب من على أن يسلم إلينا قتلة عثمان فيقتلوا.

وقال آخرون: بل نذهب إلى البصرة فنتقوى من هنالك بالخيل والرجال، ونبدأ بمن هناك من قتلة عثمان.

فاتفق الرأي على ذلك، ولكن بقية أمهات المؤمنين كانوا قد وافقن عائشة على المسير إلى المدينة،فلما اتفق الناس على المسير إلى البصرة رجعن عن ذلك، وقلن لا نسير إلى غير المدينة.

وكانت حفصة بنت عمر أم المؤمنين قد وافقت عائشة على المسير إلى البصرة، فمنعها أخوها عبد الله من ذلك، وأبى هو أن يسير معهم إلى غير المدينة

خروج جيش مكة

وجهز الناس يعلى بن أمية فأنفق فيهم ستمائة بعير وستمائة ألف درهم وجهزهم ابن عامر أيضًا بمال كثير، وسار الناس في صحبة عائشة في ألف فارس ،وقيل: تسعمائة فارس أكثرهم من أهل المدينة، وتلاحق بهم آخرون، فصاروا في ثلاثة آلاف.

وأم المؤمنين عائشة تحمل في هودج على جمل اسمه عسكر اشتراه يعلى بن أمية من رجل من غرينة بمائتي دينار،وسار معها أمهات المؤمنين إلى ذات عرق ففارقنها هنالك وبكين الوداع، وتباكى الناس، وكان ذلك اليوم يوم النحيب.

فلم تكن عائشة قائدة الجيش ولا هي التي أنفقت عليه ولم تكن خارجة لقتال علي بن أبي طالب بأي حال من الأحوال، بل خرجت ضمن ألف فارس من أهل المدينة لتقوم

بدورها في الأخذ بثأر عثمان والقبض على قتلته الذين تفرقوا في الأمصار

حكمة عائشة

و إنا لنرى حكمة عظيمة من خروجها حيَث إنه وقد وصل إليها بدء احتدام الموقف بين قطبين عظيمين من أقطاب الأمر هما أمير المؤمنين على بن أبي طالب بجيش يحوي صحابة رسول الله ﷺ.. وأمير عثمان على الشام معاوية بن أبي سفيان بجيش وقوة الشام المواجهة للروم ولو تلاقت القوتان لوهنت أمة الإسلام..

فكان لابد من الخروج لحسم الموقف وإنهاء السبب الذي أذن بالمواجهة بينهما وهو القبض على قتلة عثمان.. وسنعلم أنها كانت تفكر في ذلك كسبب لخروجها.

(أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

«وكان عثمان بن حنيف والي عليّ على البصرة قد علم بأمر الجيش القادم من مكة فبعث عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي إليهم ليعلم ما جاءوا له، فلما قدموا على الجيش توجهوا الى خيمة أم المؤمنين وسلموا عليها واستعلموا منها ما جاءت له، فذكرت لهم ما الذي جاءت له من القيام بطلب دم عثمان، لأنه قتل مظلومًا في شهر حرام وبلد حرام[1]».

وتلت قوله تعالى: ﴿لاَّ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ولاحظ الآية التي استشهدت بها والتي تبين هدفها الأساس وهو (الإصلاح بين الناس)

وعاد الرسولان إلى البصرة وأخبرا واليها عثمان بن حنيف بالأمر فاستشار عمران بن حصين صاحب رسول الله ﷺ ماذا يفعل ؟ هل يقعد عن مهمته التي تحتمها عليه مهمته كأمير للبصرة ويترك هذا الجيش الذي لم يعلم أنه خرج بإذن من الخليفة علي رضي الله عنه

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٢٥٩.

يدخلها؟ أم يواجه جيشا فيه أم المؤمنين عائشة وجمع من كبار الصحابة على رأسهم حواري رسول الله طلحة والزبير؟

فقال: عمران بن حصين أما أنا فأعتزل وأقعد في منزلي، فقال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين، فنادى في الناس يأمرهم بلبس السلاح، والاجتماع في المسجد فاجتمعوا، فأمرهم بالتجهز.

إشعال الحرب

واستشعر عثمان بن حنيف ﷺ أن لقتلة عثمان في جيشه الكثير من الأنصار فكره ذلك.. وحدث ما كان يخاف فقد أشعل قتلة عثمان المواجهة مع جيش مكة وكان عثمان بن حنيف يكف أصحابه عن المواجهة وأصحاب أم المؤمنين يكفون أيديهم ويمتنعون من القتال، وجعل حكيم بن جبلة وهو من رءوس قتلة عثمان يقتحم على جيش مكة ويحرض بين الصفوف حتى اقتتلوا قتالاً شديدًا واستطاع جيش مكة اخراج جيش عثمان بن حنيف من البصرة وأخلاها منهم.. وقبض الناس عليه فأمرت أم المؤمنين عائشة أن يخلى سبيله ويطلق.. وقتل حكيم بن جبلة ومعه نحو سبعين من قتلة عثمان وأنصارهم.

معارضون لعائشة

وكان بعض كبار أهل البصرة من المؤمنين والصحابة يعترضون على خروج عائشة في هذا الجيش، وقد كتبت عائشة إلى زيد بن صوحان تدعوه إلى نصرتها والقيام معها، فإن لم يجيء فليكف يده، وليلزم منزله، أي: لا يكون عليها ولا لها، فقال: أنا في نصرتك ما دمت في منزلك، وأبى أن يطيعها في ذلك.

وقال: رحم الله أم المؤمنين، أمرها الله أن تلزم بيتها، وأمرنا أن نقاتل، فخرجت من منزلها، وأمرتنا بلزوم بيوتنا التي كانت هي أحق بذلك منا[1].

وهو اتجاه الكثيرين من الذين يرفضون موقف عائشة قديمًا وحديثًا حيث لا يعترفون

---

(١) البداية والنهاية ج ٧ ص ٢٤١- ٢٤٤.

للمرأة بهذا الدور، ولكن الموضوع يحتاج مراجعة إذا كان هذا هو السبب، ولا أخفي أمرا إذا أطلقنا مشاعرنا وتقديرنا لحرمة المرأة وخاصة إذا كانت أمنا وفوق ذلك إذا كانت زوجة رسول الله ﷺ أن لا نرضى بخروج أو إخراج النساء لمثل هذه الأمور ولكن الأمور لا تدرس فقط من جانب المشاعر وإنما تحكمها ظروفها وزمانها

وقد كانت هذه الواقعة قبل انتهاء ربيع الآخر بخمسة أيام سنة ست وثلاثين من الهجرة وإذا كانت الأمور قد مضت في مسارها الطبيعي فإن بنتائج هذه المعركة يكون هذا الجيش قد حقق أهدافه وأهمها القصاص من قتلة عثمان .

وجاء علي

وإلى الآن لم يكن الأمر متعلق بعلي من وجهة نظر جيش عائشة ولكن في الحقيقة كان هو أمير المؤمنين والخليفة المنتخب من أهل الحل والعقد من صحابة رسول الله ﷺ في المدينة وقد بايعته الأمصار إلا ما كان من أهل الشام .. إذا فالأمر يتعلق به كل التعلق.

هناك جيش اقتحم أحد البلدان التابعة له فأيا كان هذا الجيش وأيا كان من فيه فهو اعتداء على دولته وعلى سلطته التي وثق به المسلمون وأعطوها إياه..

فوق كل ذلك فإن في هذا الجيش أم المؤمنين زوجة نبيه التي تعتبر من مسئولياته كأمير المؤمنين حمايتها والدفاع عنها..

من أجل ذلك غير علي مقصده الذي جهز جيشه لأجله إلى الشام وانطلق إلى البصرة.. ولكن تثاقل أهل المدينة عنه لعلمهم أنهم سيواجهون جيش أكثره من الصحابة وعلى رأسهم زوجة نبيهم..

قال الشعبي: ما نهض معه في هذا الأمر غير ستة من البدريين وقال غيره أربعة وذكر منهم أبو الهيثم بن التيهان وأبو قتاده الأنصاري وزياد بن حنظلة وخزيمة بن ثابت[1] .

ولقد جاءت علي ﷺ نصائح كثيرة من الصحابة بألا يخرج من المدينة وينتظر حتى

(١) وهو ليس بذي الشهادتين الذي مات زمن عثمان.

يهدأ الأمر ويتبين الموقف، مثل عبد الله بن سلام والحسن بن علي -رضي الله عنهم-

فقد لقي عبد الله بن سلام ﷺ عليًا وهو بالربذة فأخذ بعنان فرسه وقال: يا أمير المؤمنين، لا تخرج منها فوالله لئن خرجت منها لا يعود إليها سلطان المسلمين أبدًا، فسبه بعض الناس فقال علي: دعوه فنعم الرجل من أصحاب النبي ﷺ.

وجاء الحسن بن علي إلى أبيه في الطريق فقال: لقد نهيتك ياأبي فعصيتني تقتل غدًا بمضيعة لا ناصر لك.

فقال له علي: إنك لا تزال تحن على حنين الجارية، وما الذي نهيتني عنه فعصيتك؟.

فقال: ألم آمرك قبل مقتل عثمان أن تخرج منها لئلا يقتل وأنت بها، فيقول قائل أو يتحدث متحدث، ألم آمرك أن لا تبايع الناس بعد قتل عثمان حتى يبعث إليك أهل كل مصر ببيعتهم؟ وأمرتك حين خرجت هذه المرأة وهذان الرجلان أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فعصيتني في ذلك[1]؟.

فقال له علي: أما قولك أن أخرج قبل مقتل عثمان، فلقد أحيط بنا كما أحيط به، وأما مبايعتي قبل مجيء بيعة الأمصار، فكرهت أن يضيع هذا الأمر، وأما أن أجلس وقد ذهب هؤلاء إلى ما ذهبوا إليه، فتريد مني أن أكون كالضبع التي يحاط بها، ويقال: ليست هاهنا حتى يشق عرقوبها فتخرج، فإذا لم أنظر فيما يلزمني في هذا الأمر ويعنيني، فمن ينظر فيه؟ فكف عني يا بني.

وكان يمر على البلاد فيسألوه عن هدفه فيقول:

- والله ما أريد إلا الصلح ممن تمرد علينا. فينضمون إليه.

ولما وصل إلى البصرة وعلم بما حدث من جيش عائشة وطلحة والزبير قال: اللهم عافني مما ابتليتني به من طلحة والزبير.

وسمع عمار بن ياسر -وكان في جيش علي- رجلاً سب عائشة فقال: اسكت مقبوحًا

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٢٦٢.

منبوحًا، والله إنها لزوجة رسول الله ﷺ في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتطيعوه أو إياها[١].

رحماء بينهم

ويعث علي القعقاع رسولاً إلى طلحة والزبير بالبصرة يدعوهما إلى الألفة والجماعة، ويعظم عليهما الفرقة والاختلاف[٢].

فذهب القعقاع إلى البصرة فبدأ بعائشة أم المؤمنين فقال: أي أماه! ما أقدمك هذا البلد؟

فقالت: أي بني! الإصلاح بين الناس.

فسألها أن تبعث إلى طلحة والزبير ليحضرا عندها فحضرا، فقال القعقاع: إني سألت أم المؤمنين ما أقدمها؟ فقالت: إنما جئت للإصلاح بين الناس.

فقالا: ونحن كذلك.

قال: فأخبراني وما وجه هذا الإصلاح؟ وعلى أي شيء يكون؟ فوالله لئن عرفناه لنصطلحن، ولئن أنكرناه لا نصطلحن.

قالا: قتلة عثمان، فإن هذا إن ترك كان تركًا للقرآن.

فقال: قتلتما قتلته من أهل البصرة، وأنتما قبل قتلهم أقرب منكم إلى الاستقامة منكم اليوم، قتلتم ستمائة رجل فغضب لهم ستة آلاف فاعتزلوكم، وخرجوا من بين أظهركم.

وفرقتم من هذا الأمر أعظم مما أراكم تدفعون وتجمعون منه

يعني: أن الذي تريدونه من قتل قتلة عثمان مصلحة، ولكنه يترتب عليه مفسدة هي أربى منها

---

(١) رواه البخاري.

(٢)البداية والنهاية: ٧/ ٢٥٦.

وكما أنكم عجزتم عن الأخذ بثأر عثمان من حرقوص بن زهير، لقيام ستة آلاف في منعه ممن يريد قتله، فعلي أعذر في تركه الآن قتل قتلة عثمان، وإنما أخر قتل قتلة عثمان إلى أن يتمكن منهم فإن الكلمة في جميع الأمصار مختلفة.

هذا هو موقف علي بوضوح شديد لم يعد هناك إصبع اتهام تشير إلى واحد معين قتل عثمان بل هي مؤامرة انتشرت في كثير من الأمصار ولو لم تؤخذ بالحكمة والمداراة لانتفخ الباطل دفاعًا عن نفسه حتى يصبح من القوة حيث لا يستطيع أحد أن يغلبه.

فقالت له عائشة أم المؤمنين: فماذا تقول أنت؟

قال: أقول: إن هذا الأمر الذي وقع دواؤه التسكين، فإذا سكن اختلجوا[١] فإن أنتم بايعتمونا فعلامة خير، وتباشير رحمة، وإدراك الثأر، وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر وائتنافة كانت علامة شر، وذهاب هذا الملك، فآثروا العافية ترزقوها، وكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولا، ولا تعرضونا للبلاء، فتتعرضوا له، فيصرعنا الله وإياكم.

وايم الله: إني لأقول قولي هذا وأدعوكم إليه وإني لخائف أن لا يتم، حتى يأخذ الله حاجته من هذه الأمة التي قل متاعها، ونزل بها ما نزل، فإن هذا الأمر الذي قد حدث أمر عظيم، وليس كقتل الرجل الرجل، ولا النفر الرجل، ولا القبيلة القبيلة.

فقالوا: قد أصبت وأحسنت، فارجع فإن قدم علي وهو على مثل رأيك صلح الأمر.

قال: فرجع إلى عليّ فأخبره فأعجبه ذلك، وأشرف القوم على الصلح، كره ذلك من كره، ورضيه من رضيه.

وأرسلت عائشة إلى علي تعلمه أنها إنما جاءت للصلح، ففرح هؤلاء وهؤلاء، وقام عليٌّ في الناس خطيبًا: فذكر الجاهلية وشقاءها وأعمالها، وذكر الإسلام وسعادة أهله بالألفة والجماعة، وأن الله جمعهم بعد نبيه ﷺ على الخليفة أبي بكر الصديق، ثم بعده على عمر بن الخطاب، ثم على عثمان، ثم حدث هذا الحدث الذي جرى على الأمة، أقوام طلبوا

---

(١) أي افترقوا.

الدنيا وحسدوا من أنعم الله عليه بها، وعلى الفضيلة التي من الله بها، وأرادوا رد الإسلام والأشياء على أدبارها، والله بالغ أمره.

ثم قال: ألا إني مرتحل غدًا فارتحلوا، ولا يرتحل معي أحد أعان على قتل عثمان بشيء من أمور الناس[1].

ليقضي الله أمرا

نظرت إلى صاحبي فوجدته فاغرًا فاه يملأ العجب كل خلية من وجهه ثم قال بعد سكوت طويل.

إن الأمر غير ما حكي لنا ألاحظ أنه لم تقم معركة اسمها الجمل ولم تقد عائشة جيشًا ليحارب عليًا ولم يواجه عليٌّ عائشة....فما هذا الذي نتعلمه ويتلوه التاريخ؟!.

وقبل أن يتم فرحته قلت له بهدوء: إن ما قيل لك هو ما حدث

وأكملت حديثي أسأله: الناس الآن على كم فرقة؟

قال متسرعًا: اثنتان فرقه عليّ وفرقة عائشة وقد اصطلحا.

قلت وفرقة قتلة عثمان التي هي جيش كبير داخل جيش عليّ وفي البصرة ومن حولها، تخيل معي الآن إذا اتفق الفريقان على وعائشة فعلى من ستدور الدائرة.

قال ساهمًا.

- على قتلة عثمان.

يقول ابن كثير:

فلما قال هذا اجتمع من رءوسهم جماعة كالأشتر النخعي، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وسالم بن ثعلبة، وغلاب بن الهيثم، وغيرهم في ألفين وخمسمائة، وليس فيهم صحابي ولله الحمد.

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٢٦٦.

فقالوا: ما هذا الرأي وعليٌّ والله أعلم بكتاب الله ممن يطلب قتلة عثمان، وأقرب إلى العمل بذلك، وقد قال ما سمعتم، غدًا يجمع عليكم الناس، وإنما يريد القوم كلهم أنتم، فكيف بكم وعددكم قليل في كثرتهم؟

فقال الأشتر: قد عرفنا رأي طلحة والزبير فينا، وأما رأي عليّ فلم نعرفه إلى اليوم، فإن كان قد اصطلح معهم فإنما اصطلحوا على دمائنا، فإن كان الأمر هكذا ألحقنا عليًا بعثمان.

فقال ابن السوداء: بئس ما رأيت، لو قتلناه قتلنا، فإنا في ألفين وخمسمائة وطلحة والزبير وأصحابهما في خمسة آلاف، لا طاقة لكم بهم، وهم إنما يريدونكم.

فقال غلاب بن الهيثم: دعوهم وارجعوا بنا حتى نتعلق ببعض البلاد فنمتنع بها.

فقال ابن السوداء: بئس ما قلت، إذا والله كان يتخطفكم الناس.

ثم قال ابن السوداء: يا قوم، إن عيركم في خلطة الناس، فإذا التقى الناس فانشبوا الحرب والقتال بين الناس ولا تدعوهم يجتمعون، فمن أنتم معه من جيش علي لا يجد بدًا من أن يمتنع، ويشغل الله طلحة والزبير ومن معهما عما يحبون، ويأتيهم ما يكرهون، فأبصروا الرأي وتفرقوا عليه.

وكان على وطلحة والزبير يعدون العدة لانتهاء الأمر.. وأشار بعض الناس على طلحة والزبير بانتهاز الفرصة من قتلة عثمان، فقالا: إن عليا أشار بتسكين هذا الأمر وقد بعثنا إليه بالمصالحة على ذلك.

وأرسل على إلى طلحة والزبير يقول: إن كنتم على ما فارقتم عليه القعقاع بن عمرو فكفوا حتى ننزل ننظر في هذا الأمر

فأرسلا إليه في جواب رسالته: إنا على ما فارقنا عليهاالقعقاع بن عمرو من الصلح بين الناس، فاطمأنت النفوس وسكنت وبات الناس بخير ليلة.

وبات قتلة عثمان بشر ليلة

باتوا يتشاورون كما نقل لنا ابن كثير وأجمعوا على أن يثيروا الحرب من الغلس،

فنهضوا من قبل طلوع الفجر وهم قريب من ألفي رجل فانصرف كل فريق إلى القريبين منهم من جيش علي وجيش مكة، فهجموا عليهم بالسيوف، فثارت كل طائفة إلى قومهم ليمنعوهم.

وقام جيش مكة من منامهم إلى السلاح فقالوا: طرقتنا أهل الكوفة ليلاً (يقصدون جيش علي)، وبيتونا وغدروا بنا وظنوا أن هذا الهجوم من أصحاب على، فبلغ الأمر عليًا فقال: ما للناس؟

فقالوا: بيتنا أهل البصرة «يقصدون جيش طلحة والزبير» فثار كل فريق إلى سلاحه، ولبسوا اللآمة، وركبوا الخيول، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا

وقامت الحرب على ساق وقدم، وتبارز الفرسان، وجالت الشجعان فنشبت الحرب، وتوافق الفريقان، وقد اجتمع مع على عشرون ألفًا، والتف على عائشة ومن معها نحوًا من ثلاثين ألفا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقتلة عثمان لا يفترون عن القتل، ومنادي على ينادي: ألا كفوا ألا كفوا، فلا يسمع أحد.

وخرجت عائشة

وجاء كعب بن سوار قاضي البصرة، فقال: يا أم المؤمنين أدركي الناس لعل الله أن يصلح بك بين الناس، فجلست في هودجها فوق بعيرها وستروا الهودج بالدروع، وجاءت فوقفت بحيث تنظر إلى الناس .

فلم تكن رضي الله عنها حاضرة ذلك كلة وقد أنهت مهمتها وجلست معززة مكرمة في أحد بيوت المسلمين انتظارا للعودة إلى المدينة .

ولم يكن جملها المظلوم مثلها ضمن عداد المعركة التي اشتهرت باسمه في كتب التاريخ وكأنه مقصود أن ترتبط هذه المعركة بجمل عائشة الغائب

وما حضرت هذه المعركة إلا لتؤدي المهمة التي لا تجيد غيرها أن تصلح بين المسلمين

وأن تكون راية خفاقة ظاهرة تذكرهم بنبيهم وحرمة نبيهم ﷺ

الزبير... وعمار!!

وكان في جملة من تبارز الزبير وعمار أصحاب رسول الله ﷺ، فجعل عمار ينخره بالرمح والزبير كاف عنه، ويقول له: أتقتلني يا أبا اليقظان[١]؟

فيقول: لا يا أبا عبد الله.

ورغم أن عمار كان كبير السن لا يقوى على فارس مثل الزبير إلا أن الزبير كان يهرب منه لأنه يحفظ قول رسول الله ﷺ لعمار يوم بناء مسجد النبي: «**تقتلك الفئة الباغية**»، فلهذا كف عنه[٢].

وقد كان من سنة الجيشين في هذا اليوم أنه لا يذفف على جريح، ولا يتبع مدبر، وقد قتل مع هذا خلق كثير جدًا، حتى جعل علي يقول لابنه الحسن: يا بني ليت أباك مات قبل هذا اليوم بعشرين عامًا.

فقال له: يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا.

قال: يا بني إني لم أر أن الأمر يبلغ هذا.

علي... و طلحة!

يقول ابن كثير: فلما ركب الجيشان وترآى الجمعان طلب عليّ طلحة والزبير ليكلمهما فاجتمعوا حتى التقت أعناق خيولهم

فقال علي: يا زبير! نشدتك الله أتذكر يوم مر بك رسول الله ﷺ ونحن في مكان كذا وكذا فقال: «يا زبير ألا تحب عليًا؟ فقلت: ألا أحب ابن خالي وابن عمي وعلى ديني؟

فقال: «**يا زبير أما والله لتقاتلنه وأنت ظالم له؟**».

فقال الزبير: بلى والله لقد نسيته منذ سمعته من رسول الله ﷺ ذكرته الآن، والله لا أقاتلك.

---

(١) وهي كنية عمار ﷺ.

(٢) البداية والنهاية: ٧/ ٢٦٨.

فرجع الزبير على دابته يشق الصفوف، فعرض له ابنه عبد الله بن الزبير فقال: مالك؟ فقال: ذكرني علي حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، سمعته يقول: «لتقاتلنه وأنت ظالم له»، فقال: أو للقتال جئت؟ إنما جئت لتصلح بين الناس ويصلح الله بك هذا الأمر، قال: قد حلفت أن لا أقاتله، قال: اعتق غلامك سرجس وقف حتى تصلح بين الناس، فأعتق غلامه ووقف، فلما اختلف أمر الناس ذهب على فرسه.

قالوا: فرجع الزبير إلى عائشة فذكر أنه قد آلى أن لا يقاتل عليًا.

وقد قيل: إنه إنما رجع عن القتال لما رأى عمارًا مع علي، وقد سمع رسول الله ﷺ يقول لعمار: «تقتلك الفئة الباغية» فخشي أن يقتل عمار في هذا اليوم.

والمقصود: أن الزبير لما رجع يوم الجمل سار فنزل واديًا يقال له: وادي السباع، فأتبعه رجل يقال له: عمرو بن جرموز فجاءه وهو نائم فقتله غيلة[1].

وأما طلحة: فجاءه في المعركة سهم غرب (لا يعرف راميه) فمات فيه ﷺ.

وتعانق الدعاء

وتقدمت عائشة -رضي الله عنها- في هودجها، وناولت كعب بن سوار قاضي البصرة مصحفًا وقالت: ادعهم إليه -ذلك أنه حين اشتد الحرب وحمي القتال، ورجع الزبير، وقتل طلحة رضي الله عنها- فلما تقدم كعب بن سوار بالمصحف يدعو إليه استقبله مقدمة جيش الكوفيين، وكان عبد الله بن سبأ وهو ابن السوداء وأتباعه بين يدى الجيش، يقتلون من قدروا عليه من أهل البصرة، لا يتوقفون في أحد، فلما رأوا كعب بن سوار رافعًا المصحف رشقوه بنبالهم رشقة رجل واحد فقتلوه.

ووصلت النبال إلى هودج أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- فجعلت تنادي: الله الله ! يا بني اذكروا يوم الحساب، ورفعت يديها تدعو على أولئك النفر من قتلة عثمان، فضج الناس معها بالدعاء حتى بلغت الضجة إلى علي فقال: ما هذا؟

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٢٧٠.

فقالوا: أم المؤمنين تدعو على قتلة عثمان وأشياعهم.

فقال: اللهم العن قتلة عثمان.

بوركت راكبة الجمل

وجعل أولئك النفر لا يقلعون عن رشق هودجها بالنبال حتى بقي مثل القنفذ، وجعلت تحرض الناس على منعهم وكفهم، فحملت عليهم حملة من الصحابة يحمون أم المؤمنين فطردوهم حتى وصلت الحملة إلى الموضع الذي فيه علي بن أبي طالب، فقال لابنه محمد بن الحنفية: ويحك! تقدم بالراية فلم يستطع، فأخذها علي من يده فتقدم بها، وجعلت الحرب تأخذ وتعطي، فتارة لأهل البصرة، وتارة لأهل الكوفة، وقتل خلق كثير، وجمع غفير، ولم تر وقعة أكثر من قطع الأيدي والأرجل فيها من هذه الوقعة.

وجعلت عائشة تحرض الناس على أولئك النفر من قتلة عثمان، ونظرت عن يمينها فقالت: من هؤلاء القوم؟

فقالوا: نحن بكر بن وائل.

فقالت: لكم يقول القائل:

وجاءوا إلينا بالحديد كأنهم مـن الغرة القسعاء بكر بن وائل

ثم لجأ إليها بنو ناجية، ثم بنو ضبة، فقتل عنده (أي عند الجمل) منهم خلق كثير، ويقال: إنه قطعت يد سبعين رجلاً وهي آخذة بخطام الجمل، فلما أثخنوا تقدم بنو عدي بن عبد مناف فقاتلوا قتالا شديدًا، ورفعوا رأس الجمل، وجعل أولئك يقصدون الجمل، وقالوا: لا يزال الحرب قائمًا ما دام هذا الجمل واقفًا، ورأس الجمل في يد عمرة بن يثربي.

فكلما قتل واحد ممن يمسك الجمل يقوم غيره حتى قتل منهم أربعون رجلاً.

قالت: عائشة: ما زال جملي معتدلا حتى فقدت أصوات بني ضبة، ثم أخذ الخطام سبعون رجلاً من قريش، وكل واحد يقتل بعد صاحبه، فكان منهم محمد بن طلحة المعروف بالسجاد.

قال لعائشة: مريني بأمرك يا أمه؟

فقالت: آمرك أن تكون كخير ابني آدم[1]، فامتنع أن ينصرف وثبت في مكانه، وجعل يقول: حم لا ينصرون، فتقدم إليه نفر فحملوا عليه فقتلوه.

وأحدق أهل النجدات والشجاعة بعائشة، فكان لا يأخذ الراية ولا بخطام الجمل إلا شجاع معروف، فيقتل من قصده، ثم يقتل بعد ذلك، وقد فقأ بعضهم عين عدي بن حاتم ذلك اليوم.

ثم تقدم عبد الله بن الزبير فأخذ بخطام الجمل وهو لا يتكلم، فقيل لعائشة: إنه ابنك ابن أختك، فقالت: واثكل أسماء!.

وقد جرح عبد الله بن الزبير يوم الجمل سبعًا وثلاثين جراحة، ثم جاء رجل فضرب الجمل على قوائمه فعقره، وسقط إلى الأرض فسمع له عجيج ما سمع أشد ولا أنفذ منه، وآخر من كان الزمام بيده زفر بن الحارث.

ويقال: إن الذي أشار بعقر الجمل علي.

وقيل: القعقاع بن عمرو لئلا تصاب أم المؤمنين، فإنها بقيت غرضًا للرماة، ومن يمسك بالزمام برجاسًا للرماح.

الهودج المبارك

ولما سقط البعير إلى الأرض انهزم من حوله من الناس، وحمل هودج عائشة وإنه لكالقنفذ من السهام، ونادى مناد عليّ في الناس: إنه لا يتبع مدبر، ولا يذفف على جريح، ولا يدخلوا الدور.

وأمر علي نفرًا أن يحملوا الهودج من بين القتلي، وأمر محمدًا بن أبي بكر وعمارًا أن يضربا عليها قبة، وجاء إليها أخوها محمد، فسألها: هل وصل إليك شيء من الجراح؟.

(١) تقصد ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. فخيرهما من كف عن أخيه فقتل.

فقالت: لا! وما أنت ذاك يا ابن الخثعمية[١].

وسلم عليها عمار فقال: كيف أنت يا أم؟

فقالت: لست لك بأم.

قال: بلى! وإن كرهت[٢].

كيف أنت يا أمه؟

وجاء إليها علي بن أبي طالب أمير المؤمنين مسلمًا فقال: كيف أنت يا أمه؟

قالت: بخير.

فقال: يغفر الله لك.

وجاء وجوه الناس من الأمراء والأعيان يسلمون على أم المؤمنين -رضي الله عنها.

ويقال: إن أعين بن ضبيعة المجاشعي اطلع في الهودج، فقالت: إليك لعنك الله.

فقال: والله ما أرى إلا حميراء.

فقالت: هتك الله سترك، وقطع يدك، وأبدى عورتك، فقتل بالبصرة وسلب وقطعت يده ورمي عريانًا في خربة من خرابات الأزد[٣].

فلما كان الليل دخلت أم المؤمنين البصرة ومعها أخوها محمد بن أبي بكر فنزلت في دار عبد الله بن خلف الخزاعي، وهي أعظم دور البصرة، على صفية بنت الحارث بن أبي طلحة بن عبد العزي بن عثمان بن عبد الدار، وهي أم طلحة الطلحات عبد الله بن خلف.

---

(١) لقد بلغ الغضب من عائشة كل مبلغ فردت على أخيها محمد الذي كان في جيش علي بهذا الرد والخثعمية هي أمه أسماء بنت عميس -رضي الله عنها- التي تزوجها علي ﷺ بعد موت أبي بكر وربى محمدًا ابنها في حجره وحتى تعلم أن ردها هذا كان غضبًا بعد هذه الموقعة الرهيبة أنه لما قتل معاوية محمدًا بن أبي بكر ظنًا أنه اشترك في قتل عثمان بلغ ذلك عائشة جزعت عليه جزعًا شديدًا وضمت عياله إليها، وكان فيهم ابنه القاسم وجعلت تدعو على معاوية وعمرو بن العاص دبر الصلوات.

(٢) كان عمر عمار بن ياسر يومها يقترب من التسعين فرده هذا متوقع من مثل سنه ويقصد أن أمومتها له ليست هبة منها وإنما بأمر الله تعالى ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب:٦].

(٣) البداية والنهاية / ص: ٧/ ٢٧٣.

حرب طاهرة

وتسلل الجرحى من بين القتلى فدخلوا البصرة، وقد طاف على بين القتلى فجعل كلما مر برجل يعرفه ترحم عليه ويقول: يعز على أن أرى قريشًا صرعى.

وقد على طلحة بن عبيد الله وهو مقتول، فقال: لهفي عليك يا أبا محمد، إنا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنت كما قال الشاعر:

فتي كان يدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

وأقام على بظاهر البصرة ثلاثًا، ثم صلى على القتلى من الفريقين، وخص قريشًا بصلاة من بينهم، ثم جمع ما وجد لأصحاب عائشة في المعسكر، وأمر به أن يحمل إلى مسجد البصرة، فمن عرف شيئًا هو لأهلهم فليأخذه، إلا سلاحًا كان في الخزائن عليه سمة السلطان.

وقد سأل بعض أصحاب على عليًا أن يقسم فيهم أموال أصحاب طلحة والزبير فأبى عليه فطعن فيه السبئية وقالوا: كيف يحل لنا دماؤهم ولا تحل لنا أموالهم؟

فبلغ ذلك عليا، فقال: أيكم يحب أن تصير أم المؤمنين في سهمه؟

ثم جاء عليّ إلى الدار التي فيها أم المؤمنين عائشة فاستأذن ودخل، فسلم عليها ورحبت به، وإذا النساء في دار بني خلف يبكين على من قتل، منهم عبد الله وعثمان ابنا خلف، فعبد الله قتل مع عائشة، وعثمان قتل مع على، فلما دخل على قالت له صفية امرأة عبد الله، أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي، فلم يرد عليها على شيئًا، فلما خرج أعادت عليه المقالة أيضًا فسكت.

فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع؟

فقال: ويحك! إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟

فقال له رجل: يا أمير المؤمنين إن على الباب رجلين ينالان من عائشة، فأمر عليٌّ

القعقاع بن عمرو أن يجلد كل واحد منهما مائة، وأن يخرجهما من ثيابهما.

وقد سألت عائشة عمن قتل معها من المسلمين، ومن قتل من عسكر علي، فجعلت كلما ذكر لها واحد منهم ترحمت عليه ودعت له.

العودة الحزينة

ولما أرادت أم المؤمنين عائشة الخروج من البصرة، بعث إليها علي ﷺ بكل ما ينبغي من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وأذن لمن نجا ممن جاء في الجيش معها أن يرجع إلا أن يحب المقام، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وسير معها أخاها محمد بن أبي بكر.

فلما كان اليوم الذي ارتحلت فيه جاء علي فوقف على الباب وحضر الناس، وخرجت من الدار في الهودج فودعت الناس، ودعت لهم، وقالت: يا بني لا يعتب بعضنا على بعض، إنه والله ما كان بيني وبين علي في القدم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه على معتبتي لمن الأخيار.

فقال: علي صدقت، والله ما كان بيني وبينها إلا ذلك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة.

وسار علي معها مودعًا ومشيعاً أميالاً، وسرح بنيه معها بقية ذلك اليوم وكان يوم السبت مستهل رجب سنة ست وثلاثين- وقصدت في مسيرها ذلك إلى مكة فأقامت بها إلى أن حجت عامها ذلك، ثم رجعت إلى المدينة -رضي الله عنها[1].

يقول ابن كثير هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر بن جرير[2] -رحمه الله- عن أئمة هذا الشأن، وليس فيما ذكره أهل الأهواء من الشيعة وغيرهم من الأحاديث المختلقة على الصحابة، والأخبار الموضوعة التي ينقلونها بما فيها. وإذا دعوا إلى الحق الواضح أعرضوا عنه وقالوا: لنا أخبارنا ولكم أخباركم، فنحن حينئذ نقول لهم: سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين[3].

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٢٧٥.

(٢) الطبري في كتابه تاريخ الأمم والملوك.

(٣) البداية والنهاية ج٧ ص ٢٤٥-٢٥٧.

عائشة يوم مقتل علي:

انتهت وقعة الجمل عام ٣٦هـ ومكثت أم المؤمنين في المدينة تأتيها أخبار الصراع بين علي ومعاوية حتى جاءها مقتل علي

جاء عبد الله بن شداد ودخل على عائشة عائداً من العراق فقالت له: يا عبد الله بن شداد هل أنت صادقي عما أسألك عنه؟

فسألته عما حدث بين علي والخوارج ومعاوية فأصدقها الخبر وروى لها القصص بالتفصيل واطمأنت أنهم الخوارج الذين سمعت النبي ﷺ يحدث عنهم كثيراً.

وسألته عن «ذو الثدية» الذي حدث عنه رسول الله ﷺ أنه وقومه يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية.. وهل رآه في العراق .

قال: نعم قالت: عائشة فما قول علي حيث قام عليه؟

قال شداد: سمعته يقول: صدق الله ورسوله.

قالت: هل سمعت منه أنه قال غير ذلك.

قال: اللهم لا.

قالت: أجل! صدق الله ورسوله، يرحم الله علياً إنه كان لا يرى شيئاً يعجبه إلا قال: صدق الله ورسوله[1].



(١) البداية والنهاية (: ٧/ ٣١٢).

بعد عام الجماعة

بلغت أم المؤمنين حوالى سبعة وثلاثين عاماً يوم أن اتفقت الأمة في عام الجماعة على معاوية بن أبي سفيان أميراً لها وتنازل الحسن بن علي له عن الإمارة. وكان ذلك سنة ٤٠هـ.

وخلافة معاوية أقل ما يقال فيها أنها كانت خلافة الأقوى وذي الشوكة وهي مقبولة عند فقهاء السياسة الشرعية في الإسلام وإن كانت لا تعد النموذج الراشد للحكم القائم على اختيار الأمة في الاسلام ويحكم على بقائها وطاعتها أن تقوم ما استطاعت برعاية منهج الإسلام في سياسة الأمة.

ولم تجد أم المؤمنين -رضي الله عنها- أي غضاضة في مبايعة معاوية حيث تنازل له مختارًا غير مجبور الخليفة الذي اختارته أكثر الأمة وأهل الحل والعقد فيها يومئذ الحسن بن علي ﷺ.

وكان هذا التنازل حقناً لدماء الأمة وعودة إلى وحدتها وإنهاء الكثير من المشكلات.

بجانب ذلك فإن عند عائشة أثارة من علم عن النبي ﷺ بأن معاوية سيكون إماماً للمسلمين ورئيساً لدولتهم.

عن عائشة قالت: لما كان يوم أم حبيبة من النبي ﷺ، دق الباب داق، فقال النبي ﷺ: «انظروا من هذا؟».

قالوا: معاوية.

قال: «ائذنوا له»، فدخل وعلى أذنه قلم يخط به، فقال: «ما هذا القلم على أذنك يا معاوية؟».

قال: قلم أعددته لله ولرسوله.

فقال له: «**جزاك الله عن نبيك خيراً، والله ما استكتبتك إلا بوحي من الله، وما أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحي من الله، كيف بك لو قمصك الله قميصًا**». يعني: الخلافة؟

فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه وقالت: يا رسول الله، وإن الله مقمصه قميصاً؟

قال: «**نعم! ولكن فيه هنات وهنات**».

فقالت: يا رسول الله فادع الله له.

فقال: «**اللهم اهده بالهدى، وجنبه الردى، واغفر له في الآخرة والأولى**»(١).

وإن كان هذا لا يعني رضاها بالوسيلة التي وصل بها معاوية ﷺ للخلافة والدليل هذا الحوار بينها وبين الأسود بن يزيد قال: قلت لعائشة: ألا تعجبين لرجل من الطلقاء ينازع أصحاب رسول الله ﷺ في الخلافة؟

فقالت: وما تعجب من ذلك؟ هو سلطان الله يؤتيه البر والفاجر، وقد ملك فرعون أهل مصر أربعمائة سنة، وكذلك غيره من الكفار.

عائشة ووظيفة النبوة:

كانت عائشة لا تفتر أن تقوم بوظيفة النبوة من ضبط الحياة على منهج الله والاعتراض على أي موقف تخرج فيه الخلافة عن مقصدها من إعمار الأرض.. ولذلك كانت شديدة الاعتراض عندما قتل معاوية أحد خصومه واسمه حجر بن عدي بسبب ما وصله أنه يجمع الناس في الكوفة حتى كادت الصورة التي رسمها له ناقلوا الأخبار أن الكوفة تستعد للخروج عن سلطان الخلافة في الشام.. حيث كانت الكوفة مصدر قلق كبير لمعاوية..

فكانت قضية حجر بن عدي من الأمور التي أفسدت العلاقة بعض الشيء بين

(١) رواه الطبراني. البداية والنهاية ٨ ص ١٢٣.

الخليفة معاوية وأم المؤمنين عائشة..

وكان معاوية نفسه يعلم أنه أخطأ بشدة عندما تسرع بالأمر بقتل حجر وأصحابه ولم يكن هذا طبعه..

فكان يمكن أن يسجنهم أو يفرقهم في الأمصار فتسكن الفتنة..

ولما قتل حجر كان معاوية يقول نادماً: إن يومي بك يا حجر بن عدي لطويل.

زيارة معاوية لعائشة:

وأضيف قتل حجر إلى قتل محمد بن أبي بكر فكان معاوية يخشى لقاء عائشة أم المؤمنين ولكنه كان يصلها ويرسل إليها الهدايا فتقبلها.

ويروى أن معاوية قضى عن عائشة أم المؤمنين ثمانية عشر ألف دينار، وما كان عليها من الدين الذي كانت تعطيه الناس.

وقال هشام بن عروة عن أبيه قال: بعث معاوية إلى أم المؤمنين عائشة بمائة ألف ففرقتها من يومها، فلم يبق منها درهم[١].

وقال عطاء: بعث معاوية إلى عائشة وهي بمكة بطوق قيمته مائة ألف فقبلته[٢].

و كان أصعب المواقف يوم أن قرر معاوية زيارة المدينة فكان أهم ما يخشاه لقاء عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها، فهو يعرف موقفها العنيف من مقتل أخيها محمد بن أبي بكر مع ما وصله عن رأيها في مقتل حجر بن عدي، فقد كانت تتوعده وتقول: لولا أن يغلبنا فقهاؤنا لكان لي ولمعاوية في قتله حجرا شأن.

ولقد رأت كيف استطاع السفهاء أن يقلبوا رحلتها للصلح إلى معركة دامية.. فعادت عن منهجها في الإصلاح إلى استخدام اللسان بدلاً من السنان[٣].

(١) البداية والنهاية (: ٨/ ١٤٦).
(٢) البداية والنهاية ج٨ ص ١٣٩.
(٣) البداية ٨/ ٥٥-٥٧.

ومعاوية يود أن تكون له سندًا وعونًا في حكمه[(١)].

واستأذن ﷺ أن يدخل عليها وحدث ما كان يتوقعه فقد حجبته وقالت: لا يدخل عليَّ أبداً...

فلم يزل يتلطف بها حتى دخل...

كان قلبها يغلي بالحنق عليه فقالت له: أمنت أن أخبأ لك رجلاً يقتلك بقتلك أخي محمدًا..؟

فقال: صدقت ولكني في بيت الأمان، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الإيمان قيد القتل، لا يفتك المؤمن».

ورغم حزنها الشديد على محمد بن أبي بكر إلا أنها انتقلتْ إلى القضية الأخرى والأهم فقتل محمد قد يكون خطأ في القضاء حيث كان من المتهمين بقتل عثمان ﷺ [(٢)] ولكن قتل حجر هو سلوك ملك متهور يأباه موقف خلافة رسول الله ﷺ والاعتراض عليه هو اعتراض على مبدأ مرفوض في منهج الإسلام وهو سرعة قتل المعارضين.

فقالت عائشة: يا معاوية: قتلت حجراً وأصحابه؟!.

فقال معاوية: إنما قتله الذين شهدوا عليه.

ثم قال: يا أم المؤمنين إني وجدت قتل رجل في صلاح الناس خير من استحيائه في فسادهم فلما اشتدت عليه باللوم قال: قتله أحب إلى من أن أقتل معه مائة ألف -إشارة إلى كثرة أتباع حجر الذين كانوا يثيرون القلاقل في الكوفة وكانوا مستعدين للمواجهة المسلحة مع جيش الخلافة مما سيؤدي إلى مفسدة عظيمة فرأى معاوية أن يقتل حجرًا

---

(١) راجع معاوية بن أبي سفيان -صحابي كبير وملك مجاهد منير محمد الغضبان دار القلم- دمشق ١٩٨٩ ص٣٧٠.

(٢) برأت البحوث العلمية المدققة محمد بن أبي بكر من هذه التهمة بل وأثبتت الروايات عدم وجوده بين المتسللين إلى بيت عثمان يومها ولكن يأبى أصحاب القلوب المريضة إلا اتباع سقام القصص التي ما وضعت إلا لدس أسماء أطهار من المؤمنين في تلك الجريمة السوداء.

فيغمد الفتنة وإن كان هذا مبرر غير مقبول لقتل المسلمين بلا سبب إلا معارضتهم الحاكم[1].

وقالت عائشة مصربة على لومة: أين ذهب عنك حلمك يا معاوية حين قتلت حجراً؟!.

فقال لها: فقدته حين غاب عني من قومي مثلك يا أماه[2].

وأخذ يعتذر لها عن قتل حجر حتى عذرته.

ثم قال: يا أم المؤمنين كيف أنا فيما سوى ذلك من حاجتك؟.

فقالت: صالح.

فقال لها: يكفيني هذا عند الله فدعيني وحجراً حتى نلتقي عند ربنا -عز وجل[3].

قالها صادقًا نادمًا..

فقد ورد أنه كان يردد عند غرغرة روحه ما كان يقوله دائماً: إن يومي بك يا حجر بن عدي لطويل.

فلما قضى معاوية كلامه معها تشهدت عائشة ثم ذكرت ما بعث الله به نبيه ﷺ من الهدى ودين الحق، الذي سار عليه الخلفاء الراشدون بعده، وحضت معاوية على العدل واتباع أثرهم.

وأطالت في ذلك فلم تترك له عذراً، فلما قضت مقالتها قال لها معاوية: أنت والله العالمة بأمر رسول الله ﷺ، الناصحة المشفقة، البلوغة الموعظة، حضضت على الخير، وأمرت به، ولم تأمرينا إلا بالذي هو لنا مصلحة، وأنت أهل أن تطاعي.

وتكلمت هي ومعاوية كلاماً كثيراً.

---

(١) راجع معاوية لمنير الغضبان صـ٣٧١.

(٢) البداية والنهاية٨/ ٥٨.

(٣) البداية والنهاية ٦/ ٢٣١.

فلما قام معاوية اتكأ على ذكوان وقال: والله ما سمعت خطيباً ليس رسول الله ﷺ أبلغ من عائشة.

وتحسنت العلاقات بينهما بعد ذلك فلما قدم معاوية بن أبي سفيان المدينة أرسل إلى عائشة أن أرسلي بأنبجانية رسول الله ﷺ وشعره[1].

فأرسلت بهما إليه، فأخذ الانبجانية فلبسها، وأخذ شعره فدعا بماء فغسله وشربه وأفاض على جلده[2].



(١) البداية والنهاية :٨/ ١٤١.

(٢) البداية والنهاية ج٨ ص١٣٤.

حياة عامرة ووداع كريم

العالمة المجتهدة:

أجمع العلماء أن عائشة أعلم نساء النبي ﷺ بل أعلم نساء الأمة.

قال الزهري: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواجه وعلم جميع النساء، لكان علم عائشة أفضل.

وقال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا في العامة.

وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بفقه، ولا طب، ولا شعر من عائشة.

ولم ترو امرأة ولا رجل غير أبي هريرة عن رسول الله ﷺ من الأحاديث بقدر روايتها رضي الله عنها.

وقال أبو موسي الأشعري: ما أشكل علينا أصحاب محمد حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه علمًا[١]. رواه الترمذي، وقال أبو الضحى: عن مسروق رأيت مشيخة أصحاب محمد الأكابر يسألونها عن الفرائض (أي علم المواريث) [٢].

تلميذاتها وتلاميذها

ثم لم يكن في النساء أعلم من تلميذاتها عمرة بنت عبد الرحمن، وحفصة بنت سيرين، وعائشة بنت طلحة. وعروة بن الزبيرومسروق ، قال الشعبي: كان مسروق إذا حدث عن عائشة قال: حدثتني الصديقة بنت الصديق، حبيبة رسول الله المبرأة من فوق سبع سماوات.

وقد تفردت أم المؤمنين عائشة بمسائل عن الصحابة لم توجد إلا عندها، وانفردت بإختيارات أيضاً، وردت أخبارًا بخلافها بنوع من التأويل.

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) البداية والنهاية : ٨/ ١٠٠.

وقد جمع ذلك غير واحد من الأئمة، وقد أفرد الإمام الشوكاني سفراً جيداً حول ما خالفت فيه عائشة الصحابة وأيدها في الكثير منه..

وأشهر ما اختلفت فيه مع الصحابة رؤية محمد ﷺ ربه في الإسراء والمعراج وأيدها في أنه ﷺ لم ير ربه ابن مسعود وأبو هريرة وأبو ذر.. رضي الله عنهم. وأن المرئي في المرتين المذكورتين في أول سورة النجم إنما هو جبريل عليه السلام.

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟

فقال: «**نور أنى أراه**»، وفي رواية: «**رأيت نوراً**»[1].

هذا أيضاً كما ثبت في الصحيحين من حديث عطاء بن أبي رباح، عن عروة، عن عائشة أنها أنكرت على ابن عمر قوله: إن رسول الله ﷺ اعتمر في رجب، وقالت: يغفر الله لأبي عبد الرحمن ما اعتمر رسول الله ﷺ إلا وهو شاهد، وما اعتمر في رجب قط.

وفي رواية قالت: وما اعتمر إلا في ذي القعدة.[2]

كذلك عدد عمراته ﷺ:

عن مجاهد: سئل ابن عمر كم اعتمر رسول الله ﷺ؟

فقال: مرتين، فقالت عائشة: لقد علم ابن عمر أن رسول الله ﷺ اعتمر ثلاثاً سوي التي قرنها بحجة الوداع.

بل ردت على من كره التطيب عند الإحرام ومنهم ابن عمر بقولها:

طيبت رسول الله ﷺ بالغالية الجيدة عند إحرامه[3].

وعن عروة قال سألت عائشة- رضي الله عنها- عن قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ [البقرة: ١٥٨]، فو الله ما علي أحد جناح أن لا يطوف بين الصفا والمروة؟

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان (٢٦١).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأدب (١٦٥٢).

(٣) البداية والنهاية: ٥/ ١٣٤.

قالت: بئسما قلت يابن أخي أن هذه لو كانت كما أولتها كانت لاجناح ألا يطوف بهما ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل وكان من أهل بها يتحرج أن يطوف بين الصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك فقالوا يا رسول الله، إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة فأنزل الله -عز وجل- ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] الآية. قالت عائشة -رضي الله عنها- وقد سن ﷺ الطواف بينهما فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما.

فأخبرت أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: إن هذا لعلم ما كنت سمعته ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أن الناس -إلا من ذكرت عائشة -رضي الله عنها- ممن كان يهل لمناة -كانوا يطوفون كلهم بين الصفا والمروة فلما ذكر الله -تعالى- الطواف بالبيت ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن قالوا يا رسول الله، كنا نطوف بالصفا والمروة فأنزل الله -عز وجل- ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] قال أبو بكر فأحسب هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما، في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا في الجاهلية في الصفا والمروة والذين كانوا يطوفون ثم تحرجوا بها في الإسلام.

وعن عروة وقد قيل له ما أرواك يا أبا عبد الله وكان أروى الناس للشعر فقال وما روايتي من رواية عائشة -رضي الله عنها- ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً.

وعنه أيضًا قال ما رأيت أعلم بفقه ولا طب ولا شعر من عائشة -رضي الله عنها-.

وعنه أنه كان يقول لعائشة -رضي الله عنها-: يا أمتاه لا أعجب من فقهك أقول زوجة رسول الله ﷺ وابنة أبي بكر ﷺ ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس أقول ابنة أبي بكر ﷺ- وكان أعلم أو من أعلم الناس بالشعر- ولكن أعجب من علمك بالطب كيف هو من أين هو.

قال: فضربت على منكبه وقالت أبا عرية إن رسول الله ﷺ كان يسقم عند آخر عمره فكانت تقدم وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات وكنت أعالجها فمن ثم [1].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٢٤٤).

وكان لديها الكثير من العلم الذي كانت تبثه لمن حولها، سمعت رجلاً يقول لأناس وهم سائرون طريق الحج: أي أخ أمن على أخيه؟

فسكت القوم، فقالت عائشة لمن حول هودجها: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون، فأوحي إليه قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣] (١).

عن عمرة أنها قالت: سمعت عائشة تقول: ما زلنا نسمع إن أسافا ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جرهم، أحدثا في الكعبة فمسخهما الله -عز وجل- حجرين، والله أعلم (٢).

عن سمرة، عن عائشة قالت: لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان (٣).

وماتت عائشة:

وفي العام الثامن والخمسين من الهجرة وفي خلافة معاوية ﷺ ماتت -رضي الله عنها- في اليوم السابع عشر من رمضان «عن عمر يقترب من السابعة والستين عامًا».

وقالوا لها في مرض موتها ندفنك مع رسول الله ﷺ؟فقالت: ادفنوني مع أخواتي.. وأوصت أن تدفن في البقيع ليلاً فدفنت بالبقيع -رضي الله عنها.

ودفن في قبرها خمسة، وهم عبد الله، وعروة ابنا الزبير بن العوام، من أختها أسماء بنت أبي بكر، والقاسم، وعبد الله ابنا أخيها محمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر (٤).

عن ذكوان حاجب عائشة أنه جاء عبد الله بن عباس يسأذن على عائشة فجئت وعند رأسها عبد الله بن أخيها عبد الرحمن فقلت: هذا ابن عباس يستأذن فأكب عليها ابن

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص ٢٣٣.
(٢) البداية والنهاية ج٢ ص ١٧٨.
(٣) البداية والنهاية ج٢ ص ١٦٢.
(٤) البداية والنهاية ٨/ ١٠٢.

أخيها عبد الله فقال: هذا عبد الله بن عباس يستأذن، وهي تموت، فقالت: دعني من ابن عباس.

فقال: يا أماه !! إن ابن عباس من صالح بنيك يسلم عليك ويودعك.

فقالت: أئذن له إن شئت.

قال: فأدخلته، فلما جلس قال: أبشري.

فقالت: بماذا؟

فقال: ما بينك وبين أن تلقي محمداً والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، وكنت أحب نساء رسول الله ﷺ إليه، ولم يكن رسول الله ﷺ يحب إلا طيباً، وسقطت قلادتك ليلة الأبواء فأصبح رسول الله ﷺ وأصبح الناس وليس معهم ماء، فأنزل الله آية التيمم، فكان ذلك في سببك، وما أنزل الله من الرخصة لهذه الأمة، وأنزل الله براءتك من فوق سبع سموات، جاء بها الروح الأمين، فأصبح ليس مسجد من مساجد الله إلا يتلى فيه آناء الليل وآناء النهار.

فقالت: دعني منك يا ابن عباس، والذي نفسي بيده لوددت أني كنت نسياً منسياً.

وهكذا انتهت الحياة العامرة لأفضل النساء عائشة بنت أبي بكر الصديقة الحبيبة العالمة المجاهدة.

وداعا أمنا الطاهرة المبرأة القوية التي أضيفت إلى عظمة شخصيتك وما يقربك من القلوب أننا مأمورون بحبك كدليل على حبنا لنبينا ﷺ فلازلنا نذكر ذلك الحوار الذي دار بينه وبين فاطمة الزهراء ابنته ﷺ حيث قال لها:

«يا بنية ألا تحبين من أحب؟».

قالت: قلت: بلى!.

قال: «فأحبي هذه»[1].



(١) أخرجه مسلم (٢٤٤٢).

الفهرس

مريم ابنة عمران

خديجة بنت خويلد
زوجة من السماء

عائشة بنت أبي بكر
الحبيبة وحياة عامرة



قائمة مؤلفات

الدكتور أكرم رضا

١ - الأسرة المسلمة في العالم المعاصر :

(البحث الفائز بجائزة مكتبة الشيخ: على بن عبد الله آل ثاني الوقفية العالمية ، وزارة الأوقاف قطر ، لعام ١٤٢١ هـ الموافق ٢٠٠٠م) مترجم الى اللغتين الانجليزية والفرنسية.

٢ - منهج التجديد في استنباط الأحكام الشرعية عند الدكتور يوسف القرضاوي (رسالة ماجستير).

سلسلة: أولادنا

٣ - بلوغ بلا خجل .

٤ - مراهقة بلا أزمة (ج١) ترويض العاصفة

٥ - مراهقة بلا أزمة (ج٢) فنون تربوية

٦ - شباب بلا مشاكل(ج١) رحلة من الداخل

٧ - شباب بلا مشاكل (ج٢) خصوصيات البنات

سلسلة :ويسألونني

٨ - المجموعة الأولى

٩ - المجموعة الثانية

سلسلة: إدارة الذات

١٠ - إدارة الذات (دليل الشباب إلى النجاح)

١١ -بلا ندم (كيف تحل مشكلاتك وتتخذ القرار الفَعَّال؟)

١٢ - لقاء الجماهير (برنامج الحديث الإقناعي وفن توصيل المعلومات)

١٣ - متعة النجاح (الشخصية الفعالة والطريق إلى السعادة)

١٤ - برنامج تدريب المدربين

سلسلة : المرأة وإدارة الذات

١٥ - جددي السفينة (منطلقات القوة والصحة والجمال)

١٦ - زينة المرأة حسن الخلق (جـ ١) كيف تجاورين الحبيب ﷺ في الجنة؟

١٧ - زينة المرأة حسن الخلق (جـ ٢) حتى تجدي من يشفع لكي

١٨ - درة التاج الثقافة

١٩ - الحلال الطيب «حتى يستجاب الدعاء»

٢٠ - في رحاب العقيدة (حتى تتذوق حلاوة الإيمان)

٢١ - في روضات العبادة

٢٢ - مجاهدة لنفسها

٢٣ - دقات القلب (كيف تستثمرين الدقائق والثواني)

٢٤ – والموعد الجنة (أركان ومعالم)

سلسلة : بيوتنا وإدارة الذات

٢٥ – أوراق الورد وأشواكه في بيوتنا (جـ ١) (حوارات مع الزوجين)

٢٦ – أوراق الورد وأشواكه في بيوتنا (جـ ٢) (عبير الأوراق)

٢٧ – بالمعروف (حتى يعود الدفء العاطفي إلى بيوتنا)

٢٨ – عقد تحكم البيوت

٢٩ – بيوتنا في رمضان

٣٠ – كيف تبنون بيتا سعيدا؟ (الأدوار المتبادلة)

٣١ – بيوت بلا ديون

٣٢ – بالعقل والحب نلتقي

٣٣ – رفقاً بالقوارير

٣٤ – ولا تنسوا الفضل بينكم

٣٥ – موسوعة قواعد تكوين البيت المسلم (أسس البناء وسبل التحصين)

برنامج تأهيل المقبلين على الزواج

٣٦ – على أعتاب الزواج (جـ ١) (الاختيار)

٣٧ – على أعتاب الزواج (جـ ٢) (الخطبة)

٣٨ – على أعتاب الزواج (جـ ٣) (العقد)

٣٩ – على أعتاب الزواج (جـ ٤) (البناء)

موسوعة نساء أضأن التاريخ

٤٠ – المجموعة الأولى: الكاملات الأربعة وأفضل النساء

٤١ المجموعة الثاني:أمهات الأنبياء وزوجاتهم

كتب أخرى:

٤٢ – وذكرهم بأيام الله: «ستة أيام من أيام الله».

٤٣ – وبالقرآن نجدد الحياة (قراءة تدبريه في سورة مريم)

٤٤ – الطب النبوي: «دراسة صيدلانية حول العقاقير النبوية».

٤٥ – الردة والحرية الدينية (مراجعات نصية تطبيقية)

٤٦ – اعمل بنفسك جدولا للمذاكرة

٤٧ – إبراهيم عزت شاعر الملحمة (قراءات في ديوانه الله أكبر)

٤٨ – أبو مازن صوت الصحوة:«حياته وحوارات معه مع مجموعة الأناشيد الكاملة».

دار العدنان للطباعة
ت : ٢٧١٩٠١٥٣

في هذا الكتاب

الكاملات الأربعة

آسية امرأة فرعون

مؤمنة في مواجهة الطاغوت

مريم ابنة عمران

خديجة بنت خويلد

زوجة من السماء

فاطمة بنت محمد

أم أبيها

وأفضل النساء

عائشة بنت أبي بكر

الحبيبة وحياة عامرة



designed by Usama Taha

